تاريخ

الدول والامارات الكردية

في العهد الاسلامي

« وهو تعريب المجلد الثاني من « خلاصة تاريخ الكرد وكردستان »

ألفه باللغة الكردية

معالي محمد أمين زكي

الوزير العراقي السابق سنة ١٩٣٧

عربه وراجعه الأستاذ

محمد علي عوني

المترجم بديوان جلالة ملك مصر المعظم

سنة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م

تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي

« وهو تعريب المجلد الثانى من « خلاصة تاريخ الكرد وكردستان »

ألفه باللغة الكردية

معالى محمد أمين زكى

الوزير العراقى السابق سنة ١٩٣٧

عربه وراجعه الأستاذ

محمد علي عوني

المترجم بديوان جلالة ملك مصر المعظم

سنة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م

طبع سنة ١٣٦٧ — ١٩٤٨

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر



السلطان صلاح الدين بطل الاسلام والكرد

هذه الصورة وصورة « كريم خان » مأخوذتان من (روژ كرد) المجلة الكردية الشهرية الصادرة فى استانبول سنة ١١٣١ (١٩١٣ م) . وقد دل البحث على أن الأصل فى صور صلاح الدين المنشورة فى أرجاء العالم حتى الان هو ما نقل من كتاب روسى مأخوذ من دير قديم بمصر . ويدل البيتان الاتيان لحكيم الزمان عبد المنعم الأندلسى الذى هبط مصر فى عهد صلاح الدين فنظم القصائد فى مدحه ، على أن المسيحيين فى ذلك العهد رسموه ووضعوا رسمه فى الكنائس ؟

فحطوا بأرجاء الكنائس صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم
يدين لها قس ويرق بوصفها ويكتبه يشفى به فى التمائم

(راجع ص ٢٣٣ من هذا الكتاب ص ٢٠ من كتاب حياة صلاح الدين)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الناس أحرارا وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا، فيتآزروا فى سبيل تحقيق المثل الأعلى من الحرية والاستقلال للجميع، حتى يتسنى لهم الوصول الى السعادة التى ينشدونها فى معاشهم ومعادهم. والصلاة والسلام على سيدنا (محمد) المرسل الى الناس كافة بشيرا ونذيرا، والقائل «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه» رافعا بذلك ألوية الاخاء بينهم ومذكراً أنهم سواسية فى جميع الحقوق والواجبات، وأن لا تفاضل بين شعوبهم المختلفة وأقوامهم العديدة الا بالتسابق الى الغايات الحميدة والأغراض النبيلة.

«أما بعد» فانى حينما انتهيت من ترجمة المجلد الاول من كتاب (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) لمؤلفه المفضال معالى محمد أمين زكى الوزير العراقى السابق، وأصدرته بعد مراجعة علمية دقيقة فى حلة عربية قشيبة فى أواخر سنة ١٩٣٩، اشتعل أوار الحرب العالمية الثانية. فحالت ظروفها بينى وبين مواصلة الجهود لتعريب المجلد الثانى من هذا الكتاب القيم، لكى تتم بذلك ترجمة سلسلة التاريخ القومى للامة الكردية فى مختلف العصور كما أراده المؤلف. ولما رأيت أن أيام هذه الحرب الضروس قد طالت لا يعرف لها مدى ولا آخر، عاودتنى الرغبة وجذبنى الشوق الى استئناف العمل الشاق الذى أخذت نفسى به. فواصلته حتى أتممت الترجمة واتخذتها أساسا للبحث والتنقيب، لاصدار المجلد الآخر الذى يتضمن تفاصيل وقائع وحوادث (الدول والحكومات الكردية) التى قامت بأنحاء كردستان فى مختلف الأدوار فى العهد الاسلامى.

ولقد شرعت فى ذلك مستعينا بالله من سنة ١٩٤٢ حتى سنة ١٩٤٥ . حيث عكفت على العمل فى تلك الايام والليالى الرهيبة التى كانت تشن فيها الغارات الجوية على مصرنا المحبوبة — وقاها الله شر ذلك اليوم — فتمطرها بوابل من القنابل والطرابيد . فكان لى فى ذلك العمل المضنى أعظم سلوى وأكبر لذة تصرفنى عن الاحساس بوطأة تلك الأيام العصيبة وأثرها الفعال فى النفوس والأعصاب . إذ لم أدر كيف مضت وانقضت تلك الأعوام الأربعة من عمرى البالغ الآن واحدا وخمسين ربيعا . وماذلك إلا لأنى كنت غارقا فى لجة البحث وخضم التنقيب عن النصوص والنقول . للتأكد من الوقائع والحوادث واستخراجها من بطون مصادر التاريخ الاسلامى من عربية وفارسية وتركية وكردية ، سالكا فى ذلك ، المنهج الذى اتبعته فى ترجمة المجلد الأول ومراجعته ، كما هو مفصل فى كلمتى المصدر بها ذلك الكتاب ، فلا أعيد شرح ذلك هنا مرة اخرى . بل أكتفى بأن أعرض على النابهين من القراء المشغوفين بالبحث والتمحيص ، أنى قد تصرفت كثيرا فى اسلوب الاصل وطريقة سرده للحوادث حذفا واضافة ، وفى ترتيبه للحكومات والامارات ، حيث لم يكن مرتبا ترتيبا تاريخيا . وانى ما أقدمت على ذلك إلا ليظهر تسلسل الحوادث والوقائع واضحا ، ويعرف مدى نشاط هذه الامة التى عاشت القرون والدهور محتفظة بقواها الذاتية وسجاياها القومية ، تتمتع بسيادتها الداخلية بين تلك الامبراطوريات الجبارة ، والاغارات المدمرة التى كانت توزع يمينا وشمالا . وان كان تمتعها ذلك على شكل حكومات ودول عديدة ، وامارات وادارات متنوعة ، من غير أن تتاح لها الفرصة لانشاء وحدة وطنية سياسية تشمل جميع أجزاء كردستان المقسم والممزق بين الامبراطوريات فى مختلف العصور .

هذا وقد قسمت الكتاب مثل الأصل إلى قسمين ، ومقدمة فى الحكومات القديمة الوثيقة الصلة بشعوب وأقوام الأمة الكردية الحالية . فسميت القسم الأول (الباب الأول فى الحكومات الكردية فى العهد الاسلامى) . وهو

فى أربعة عشر فصلا ، حيث عقدت لـكل حكومة فصلا . وسميت القسم الثانى (الباب الثانى فى الامارات الـكردية فى العهد الاسلامى) وهو فى سبع مجموعات . يحتوى كلها على خمس وثلاثين إمارة وشبه إمارة . قام معظم هذه الحـكومات والامارات فى أنحاء كردستان نفسه ، وقليل منها قد ظهر فى خارجه من البلاد المجاورة التى نقل إليها الـكرد أو انتقلوا بأنفسهم، فى مناسبات أليمة مختلفة . كشرقى إيران وجبال لبنان وبلوجستان وفارس . . .

وكل من ألقى نظرة امعان وتدبر بعيداً عن التعصب والهوى ، إلى نشوء هذه الحـكومات الوطنية والامارات القومية المحلية وتطورها ، يرى أن الأمة الـكردية المنبثة ، بشعوبها الأصلية والأساسية من اللر والكلهر والـكرمانج والـكوران، فى البلاد الممتدة من جبال القوقاس إلى الخليج الفارى . ومن جبال زاغروس وألوند إلى جبال توروس وخليج اسكندرونة ، لم تحافظ فقط من فجر التاريخ على كيانها الطبيعى وأ كثريتها الساحقة ومميزاتها القومية من لغة وعادات وتقاليد وطباع وسجايا ووحدة شعور وأزياء ـ بل أبدت نشاطاسياسيا كبيراً بمساهمتها فى أغلب الحوادث التاريخية الـكبرى التى اجتاحت بلاد الشرقين الأدنى والأوسط فى مختلف العصور والأدوار . حيث وفقت إلى إقامة دول وحكومات وإنشاء إمارات محلية، وإدارات وطنية، آلت أخيرا بغدر الزمان إلى منظمات محلية ومؤسسات قومية متواضعة ، كالعشيرة والقبيلة والمشيخة ـ ولو أن هذه التقسيمات الاجتماعية تخالف مثيلتها فى الامم الاخرى ـ فى جميع أنحاء تلك البلاد التى أطلق عليها لفظ « كردستان » منذ العصور الوسطى ، للاسلام للدلالة على أنها مسكن ومأوى الشعوب الـكردية من القديم بأ كثريتها القاهرة . وبالرغم من أن استيلاء الامبراطوريات على هذه البلاد التعسة كان للعهد القريب أسميا ، فقد أنتج ذلك وغيره من الاسباب عدم سنوح الفرصة لها ، لكى تتمكن من إيجاد وحدة سياسيه تشمل جميع الاقسام من كردستان. أو أن تنشىء لها إدارة محلية موحدة تنتظم جميع الشعوب

والشيع التى إنقسمت إليها الأمة الكردية ، لعوامل وأسباب عديدة خارجة عن طوقها من طبيعية وجغرافية وسياسية ودينية ثقافية ، وغيرها من الاسباب التى ولدت على مدى الأيام ، فقدان الشعور بالوحدة اللغوية والثقافية والعمل على توطيدها وتعميمها فى جميع الجهات والأقسام من كردستان .

ومن أشد الأسف أن هذه الحال قد حفزت بعض المغرضين إلى الأنزلاق فى ميدان المين والافتراء، وجعلتهم يتخيلون خيالات باطلة. حتى زعموا ـ لا عن عقيدة وإيمان بل عن تمويه وبهتان ـ أن ليس هنالك أمة كردية وشعب كردى ينطق بلغة واحدة، له ميول واحدة وهوذو شعور قومى واحد ، وأن هذه الكتل البشرية ماهى إلا مجموعات متنافرة من القبائل والجماعات. فأباحوا بذلك لأنفسهم القول بان الأجدر بالكردى والأحرى به، أن يتنازل عن قوميته ويهمل مشخصاته فيندمج فى بقايا الأمم ممن تساكنها اليوم وتحكمها فى بلادها .

وهكذا خلقوا بادعائهم الجرىء وزعمهم الغادر ، المتاعب والصعاب لانفسهم وللشعب الكردى الآمن فى بلاده منذ أيام (نوح) عليه وعلى نبينا السلام . فنشأ من ذلك سوء تفاهم وحزازات لايزول أثرها مدى الدهر ، بسبب ماأريق من الدماء وانتهب من الأموال والثروات، وما دمر من القرى والبلاد . وما مبعث ذلك ـ على ما أظن ـ إلا الجهل بأحوال البلاد وتاريخها وجغرافيتها وخصائص الشعب الكردى من النخوة والشهامة والتمسك بلغته وبلاد آبائه وأجداده من فجر التاريخ . بل والتجاهل والاستهتار بحقيقة مطلب الامة الكردية وأمانيها الشعبية التى هى فى الوقت نفسه ضرورة من ضرورات حياة الأمم ،وماهى إلا اطلاق الحرية للثقافة العامة باللغة القومية ،حتى يقبل الشعب على التعليم المدنى بكل شغف واخلاص . فبذلك فقط يحل الوئام والسلام محل النزاع والخصام ، وكفى الله المؤمنين القتال.

القاهرة ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٣٦٧

٧ مارس سنة ١٩٤٨

محمد على عونى

مقـــدمة

فى

(حكومات الشعوب القديمة الوثيقة الصلة بأصل الامة الكردية)

ذكرنا فى « المجلد الأول » من تاريخنا (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) أن المؤرخين وعلماء الآثار قد استدلوا بعد دراستهم للآثار والوثائق المكتشفة حتى الآن ، على أن هنا لك صلة وثيقة متصلة الحلقات بين بعض شعوب منطقة جبال « زاغروس » وأصل الأمة الكردية ، وأن هذه الصلة لو أمعن النظر فى دراستها دراسة علمية منزهة عن الهوى والتعصب ، لاتضح أنها ليست بأقل من صلة كل من شعبى الأكاد والعمورى بالعرب ، ولا من الصلة بين شعب الهون والأمة التركية .

ولاأظن أن هنا لك معترضا علينا، إذا ما اقتفينا أثر رجال هاتين الأمتين واتجهنا قبلتهم ، فسرنا على نهجهم فى بعث تاريخنا القديم . لا سيما أننا فى هذا المجال لا نهدف إلى إحياء تاريخ عريق فى القدم بشتى الوسائل ، وإنما الغرض هو مجرد عرض بعض آراء المؤرخين وعلماء الآثار على أنظار القراء .

ومع ذلك يجب أن نعترف بأن منابع التاريخ القديم للشعوب الكردية لا يزال يخيم عليها حجب كثيفة من ظلام دامس ؛ كما هو الحال بالنسبة للأمم الأخرى . ولذلك فهى تتطلب منا جهداً متواصلا ، وسعيا حثيثا ، وعملا دائبا حتى تبزغ بزوغ الشمس للعيان .

وكما أن هذه الحالة لم تصرف الآخرين عن البحث فى أصول تاريخهم القديم لتعرف الاحوال وتبيان المناسبات ، وجلاء حقيقة الصلات والروابط بين الأقوام القديمة وأصول أممهم الحالية — فكذلك يجب ألا تمنعنا نحن الآخرين

أو تقف حجر عثرة فى سبيل اقتدائنا بهؤلاء الرجال فى التنقيب والبحث فى أصول التاريخ القديم ؛ بل ينبغى أن نجعل من هذه البحوث الخاصة بتاريخ تلك الأقوام القديمة — وقد أثبتت الوثائق إثباتا قاطعا بأنها وثيقة الصلة بالأمة الكردية — مقدمة لهذا الكتاب .

ولقد أتينا فى « المجلد الأول » بمجمل عن الشعوب القديمة الوثيقة الصلة بالأمة الكردية ، والآن نتحدث هنا فى « المجلد الثانى » على ضوء ما لدينا وتحت أيدينا من الوثائق والآثار المكتشفة ، عن التشكيلات السياسية وأعنى بها الحكومات التى أقامتها هذه الشعوب ، وعمرت طويلا فى مختلف عصور التاريخ القديم ...

١ — « حكومة لوللو = لولبى »

مما يؤسف له أن التاريخ لا يحمل بين طياته حتى الآن شيئا شافيا ، يستحق الذكر عن هذه الحكومة ومدى نفوذها وحدودها الجغرافية ، وإن كانت دراسة الوثائق التى يرجع تاريخها إلى عهدى « سرجون » و « نرام سن » الأكاديين تلقى شعاعا على هذا الغموض ، إذ تدل على أن حدود هذه الحكومة كانت متاخمة لبلاد « آزرافا = كركوك الحالية » وبلاد « الكاسيين » . وعلى هذا الأساس تكون منطقة لواء السليمانية الحالية ونواحى « هورين — شيخان » و « خوراتو » ومنطقة « زهاو = هالمان » من بلاد الـ « لوللو » القديمة .

هذا وكان الشعب اللوللوى يؤلف مع قسم من الشعب الجوتى حكومة مستقلة، يرى بعض المؤرخين أن مركزها كان (زيمرى) ، ولكن الأستاذ « سبايزر » يقول إن مركزها كان (آرا كدى) وأن الملك اللوللوى المسمى « آنوبانينى » قد استولى على بلاد (هالمان = آرمان) فى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ، وذكر المستر « هول » فى كتابه (تاريخ الشرق

الأدنى القديم) أن ملكا يدعى (لاسيراب) قد خلف « آنو بانيني » على عرش بلاد « للولو » فيظهر أن الملك (سرجون)[1] الأكادى قد اجتاح بلاد « للولو » فى عهد هذا الملك ، وقد ظلت حكومة اللولو قائمة مستقرة حتى عهد (شلمنصر) الثالث الآشورى حيث اجتاحها أخيراً الجيش الآشورى عام (٨٢٨ ق . م) تقريبا .

٢ - حكومة الجوتى (الكوتى = الجودي)

إن تاريخ هذه الحكومة تفصيلا مجهول لنا تماما ، والظاهر أن هذا الشعب كان يستوطن أطراف نهر (زبى كويه = الزاب الصغير) ثم أخذ يزحف رويداً رويداً نحو الجنوب إلى أسفل حتى غزا بلاد « آكاد » و « سومر » بعد وفاة (شاركالى شاررى) خلف (نرام سن) فى أواسط القرن السادس والعشرين تقريبا قبل الميلاد . وذلك بعد قتال عنيف ونضال مرير ، مع الأكاديين والسومريين ، حتى أخضعهم لحكمه تمام الاخضاع .

وقد دون فى جدول ملكى كشف فى مدينة (نيبور) القديمة أن واحداً وعشرين ملكا جوتيا حكموا ١٢٥ سنة وأربعين يوما فى (بابل) ، وأن أحدهم المدعو (آنرى دا بيرز- Enridapirzi) كان بنوع خاص ، عظيم الشأن ، عريض النفوذ ، حيث استطاع أن يبسط سلطانه على بلدان ليست بأقل اتساعا من المناطق والبقاع التى كانت خاضعة لنفوذ « نارام سن » . . . ولكن ضعف آخر ملوكهم أطمع الأعداء فيهم ، وحرك الغزاة على ديارهم . إذ انتهز ملك « ئه ريخ = أرك = الوركاء » الشهير المدعو « أتوخيجال = Utukhegal »

---

(١) أول ملك من ملوك السلالة الأكدية (٢٥٥٠ — ٢٣٣٢ ق . م) دام حكمه ٥٥ سنة . (دليل المتحف العراقى ص ٤٨) بغداد سنة ١٩٤٣ . المترجم

السمرى هذه الفرصة الذهبية ودحر آخر ملك جوتى فى بابل وقضى عليه ، وأخرج الجوتيين من آكاد . وأسس حكومة بابلية جديدة (١) على أنقاض حكومة الجوتيين عام (٢٢٨٢ ق . م) .

بعد ذلك عاد الشعب الجوتى إلى موطنه الأصلى فى منطقة الزاب الصغير و (كركوك = آرابخا) حيث لم تقم لهم بعد ذلك قائمة ولم تشرق لهم نهضة سياسية ظاهرة (٢) .

٣ – حكومة الكاسيين (كسو = كشو) (٣) .

لما أخــذ الضعف والانحلال ينخران فى عظام حكومة الساميين

---

(١) ولعلها سلالة الوركاء الخامسة التى أسسها اتوخيجال سنة ٢٢٨٢ ق . م .

(٢) ورد فى دليل المتحف العراقى ص ٤٨ ما يأتى : (سلالة الكوتيين)

(حوالى سنة ٢٣٧٠ – سنة ٢٢٨٢ ق.م)

(١)– أمبيا	٣ سنوات	(٢) أنكيشو	٦ سنوات .	(٣) نكل لجاب	٦ سنوات
٤ – شلمى	٦ «	٥– ألولومش	٦ «	٦ – أنى مابكش	٥ «
٧ – أجيشوشى	٦ «	٨– إيارلجب	١٥ «	٩ – أمباته	٣ «
١٠ – أيارلجش	٣ «	١١ – كورم	١ «	١٢– ..	٣ «
١٣ – ...	٢ «	١٤ – إرارم	٢ «	١٥– ابرانم	١ «
١٦ – خابلم	٢ «	١٧–بوزرسن (ابن)	٧ «	١٨– ايارلجندا	٧ «
١٩ – لاسراب	٧ «	٢٠– تريكان	٤٠ يوما		

المترجم

(٣) تطلق المؤلفات التاريخيــة القديمة اسم الأسرة الثالثــة فى بابل على حكومة الكاسيين ، واسم الأسرة الأولى التى حكمت بابل من عام ٢٢٢٥ حتى عام ١٩٢٦ ق . م على حكومة العموريين ، وأن الملك « حمورابى » الشهير هو سادس ملوك هذه الأسرة الأولى ، وأن عدة حكومات مستقلة كانت تقوم بمدن « سومر » فى هذا العهد ، وقد اعتبرت فى مجموعها أسرة ثانية من الأسر الملكية .

المؤلف

(العموريين) فى بابل ودب دبيبه فى عهد الملك الحادى عشر السامى المدعو « سمسوديتانا) آخر ملوك هذه الأسرة ، تحرك الشعب الخاتى (Khatty) أى الحيثى ، وشن هجوما عنيفا على مملكة بابل ، أسفر عن قضاء مبرم على الأسرة الأولى التى حكمت بابل ، ألا وهى الحكومة العمورية (عام ١٩٢٦ق.م.) وفى رواية لبعض المؤرخين أن الحيثيين لم يحطوا رحالهم فى بابل ، بل

وورد عن الكاسيين فى نفس المصدر ص ٥١ : (سلالة بابل)
(الكاشيون ١٧٤٦ - ١٦٦٩ أو ١٧٥٠؟ - ١١٧٠)
(١) - جنداش (٢) - أجم الأول (٣) - كاشتلياش الأول
أوشى .. أبى رتاش .. كاشتلياش الثانى .. تازيجرماش .. خربا - شبباك
أجم الثانى (١٥٩٨ - ١٥٧٩) كوريجا لزوالاول (١٥٧٨ - ١٥٦٠)
مليشبباك الأول (١٥٥٩ - ١٥٤١) نازيمرتاش (١٥٤٠ - ١٥٢٢)
برنابرياش الأول (١٥٢١ - ١٥٠٣) كاشتلياش الثالث (١٥٠٢ - ١٤٨٤)
أجم الثالث (١٤٨٣ - ١٤٦٥) كره أنداش الأول (١٤٤٥ - ١٤٢٧)
كدشمان حربى الأول (١٤٢٦ - ١٤٠٨) كوريجالزو الثانى (١٤٠٧ - ١٣٨٩)
كدشمان - انليل الأول (١٣٨٨ - ١٣٧٠) برنابرياش الثانى (١٣٦٩ - ١٣٦٨)
كره انداش الثانى (١٣٦٧ - ١٣٥٥) كدشمان حربى (١٣٥٥ - ١٣٤٥)
كوريجا لزوالثالث (١٣٤٤ - ١٣٢٠) نازيمرتاش الثانى (١٣١٩ - ١٢٩٤)
كدشمان ترجو (١٢٩٣ - ١٢٧٧) كدشمان انليل الثانى (١٢٧٦ - ١٢٧١)
كودر - انليل (١٢٧٠ - ١٢٦٣) شجركتى شرياش (١٢٦٢ - ١٢٥٠)
كاشتلياش الرابع (١٢٤٩ - ١٢٤٢) إنليل - نادن - شومى (١٢٤١ - ١٢٤٠)
كدشمان حربى الثانى (١٢٤٠ - ١٢٣٩) أداد - شم - إدن (١٢٣٨ - ١٢٣٣)
إداد - شم - ناصر (١٢٣٣ - ١٢٠٣) مليشبباك الثانى (١٢٠٢ - ٨٨ ١)
مردخ أبال أدن الأول (١١٨٧ - ١١٧٥) زبابا - شم - إدن (١١٧٤)
انليل نادن - أخى (١١٧٣ - ١١٧١) . اهـ المترجم

جلوا عنها ، وغادروها بعد تدميرها ، وقفلوا راجعين أدراجهم إلى بلادهم بغربى الفرات ، فأعقب ذلك قيام حكومة وطنية فى بابل عمرت قرنا ونصف قرن من الزمن ، حيث أغار الكاسيون على بابل ، وما لبثوا أن اجتاحوها واستولوا عليها فى عام (١٧٦٠ ق . م) ، وليتهم وقفوا عند هذا الحد بل شنوا غارة أخرى على البلاد الساحلية (القطر البحرى) من مملكة « سومر » فى(عام ١٧١٠ ق. م). وانتزعوها من بين براثن آخر ملوكها المدعو « ئى غاميل =Ea - Gamil » ، ثم وحدوا بين (سومر) و(آ كاد) فأصبحا مملكة واحدة تحمل اسم (كار ـ دونياش Kar - Dunyiash)[1] وهو الاسم الذى أطلق على الحكومة الجديدة .

ونحن لسوء الحظ نفتقر إلى معلومات شافية عن عهد مؤسس هذه الحكومة وهو الملك (غانديش ـ Gandish) أو « غادداش » اللهم إلا كونه حكم ستة عشر عاما . ويقول المستر « هول » فى كتابه « تاريخ الشرق الأدنى القديم ص١٩٩» إن (أولام بوريش ـ Ulam Buriash) الكاسى الذى انتزع البلاد الساحلية من « ئى غاميل » السومرى فى عام (١٧١٠ ق. م) ، هو ابن ملك بابل المدعو (بورنابوراريارش ـ Burnaburariash) وأن (آ كوم الثالث

---

(١) يقول المستشرق سر كينج فى كتابه « تاريخ بابل ، ص ٢٤٤ » أن لفظ « كاردونياش » يشمل القطرين المتحدين سومر وآكاد ، على الرغم من أنهما احتفظا بتقسيمهما الادارى والجغرافى ... أما « سر سدنى سمث » فيقول إن هذا اللفظ مشتق من : «دونياش» وهو اسم معبود من معبودات الكاسيين ، و « كار » أى الارض أو البلاد ، فيكون المعنى كاملا « مملكة الاله دونياش» ويكون الغرض من هذا الاطلاق التبرك والتقديس. بينما يذكر كتاب « شعوب ميسوبوتامى ، ص ٩٨ » أن كلمة « كردونيا » إن هى إلا لفظة كاسية تطلق على مدينة « بابل » . المؤلف

ـ Agum) الذى استولى على مدينة « دور ـ ئى = Dur-ea » التى كانت آخر مدينة محصنة فى سومر ، هو حفيد « أولام بورياش » .

ويقول أيضاً فى ص ٢٠٠ : انه على الرغم من قلة ما لدينا من معلومات وحقائق عن الكاسيين فمن المسلم به أن الملوك الذين خلفوا الملك «غانديش» هم كما يلى على التعاقب :ـ

(« أوششى-Ushshi » و « أبى راناش ـ Aby Ratash » و « تاششى ـ كورماش-Tashshigurmash »ـ و« آكوم الثانى ـ Agum II »ـأو « آكوم كاكريم » .

وجاء فى الجز الأول من كتاب « التاريخ العام للمؤرخين » ص ٣٢٨ ، أن الملك « آكوم كاكريم » قد اعتلى العرش عام (١٧٠٠ ق . م) ، فيدل هذا على أن ملوكا آخرين قد سبقوه على عرش بابل من بعد الملك غانديش حتى هذا العام (١٧٠٠ق. م) ، كما يؤيد مستر هول هذا الرأى. هذا وفى عهد هذا الملك (آكوم كاكريم) اشتبك الكاسيون مع الحيثيين فى حرب ضروس ، حامية الوطيس ، إنعقد فيها لواء النصر للكاسيين ومنى فيها الحيثيون بهزيمة شنيعة ، استرد خلالها الكاسيون منهم التماثيل وأصنام آلهة بلاد « مردوك ـ Marduk » و « سار پانيتوم ـ Sarpanitum » التى كان الحيثيون قد أخذوها ضمن الغنائم عندما استولوا على بابل فى أواخر عهد الأسرة الأولى وبمعنى آخر فى عهد آخر خلف للملك « حمورابى ».

وقد اتسعت رقعة أملاك الحكومة الكاسية فى هذا العهد، حيث استطاع (آكوم كاكريم ـ Agumkakrim)أن يبسط سلطانه على جميع بلاد سومر ، وضمها إلى بلاد آكاد ، فصارتا مملكة واحدة أطلق عليها اسم مملكة « كاردونياش » .

ولم تقف آمال هذا الملك عند هذا الحد ، بل توالت فتوحاته ، واستأنف

غزواته الموفقة فشن حربا عوانا على الحيثيين فدحرهم ، واستولى على شمالى « سوريه » وظل محتفظاً بالسيطرة على الشعب العمورى حتى عهد الفتوحات المصرية لهذه الديار فى القرن السادس عشر قبل الميلاد (١) .

وتروى لنا الوقائع التاريخيه أنه بعد أن أسدل الستار على حكم هذا الملك الذى دام ٢٢ سنه ، مضت فترة طويلة تقدر بقرنين وثمانية وعشرين عاما يكتنف تاريخها الغموض والابهام وليس لدينا عنها معلومات البته ، اللهم إلا أسماء لبعض ملوك يقال إنهم قد خلفوا (آكوم كاكريم) .

وهم حسبما يقال(بورنا بوراياش) (الظاهر أنه الثانى) : و (كاشتيلياش الثانى- Kashtiliash II) - و (آكوم الثالث) ثم تعقبها فترة أخرى تذكر فيها أسماء (كاداشمن حربى الأول - Kadashmen Kharabe) - و (كوريكالزو الأول -Knriqalzn 1) و (مهلى شيبك الأول- Moly Shipak) وظل هذا الغموض سائدا وعجلة التاريخ معطلة حتى بدأ عهد الملك (كارا ايندداش- Kara indash) (٢) فى عام ١٤٥٠ ق . م كماذكر فى التاريخ العام للمؤرخين .

ونستطيع أن نقول انه منذ هذا العهد ، أضحى تاريخ الكاسيين معلوما ومعروفا إلى حد ما ، وهاك خلاصة وجيزة عنه (٣) :

١ - « كارا ايندداش الأول عام ١٤٥٠ ق. م »

وفق هذا الملك لعقد معاهدة خاصة بالحدود مع ملك آشور المدعو (آشور - بل - نيش - أشو) وبذلك بدأت العلاقات السياسيه بين حكومتيهما ، وقد أنشأ معبداً للاله « ئى - انا E anua »

---

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٢٠١.

(٢) كان هذا الملك معاصرا لفرعون مصر « تحتمس الرابع »

(٣) التاريخ العام للمؤرخين The historian history of The World

(جزء ١ ص ٣٢٨ - ٣٢٩)

المؤلف

٢ -(كدشمان - أنليل الأول)أو (كاداشمن - بل Kadashmou Bel عام ١٤٣٠ ق. م)وكان معاصراً لفرعون مصر (أمنحتب) الثالث .

٣- (بورنا بورياش الأول Burnaburiash 1 عام ١٤٢٠ ق. م)

أنشأ هذا الملك معبداً باسم (رب الشمس)ببلدةلارسا ، وحارب الملك الآشورى(پوزورآشورالرابع) بسبب نزاع قام بينهما بخصوص مسألةالحدود

٤ - (كوريكالزو الثانى Kuripalzu fl عام ١٤١٠ ق. م)

أطلق اسم هذا الملك خلال حكمه على إحدى المدن ، ويغلب على الظن أنه غير اسمها السابق بعد أن جددها . (وهى مدينة عقر قوف الاثرية) .

٥ - (بورنا بورياش الثانى ١٤٠٠ ق. م)

خلف الملك « كورى كالزو » على العرش ،وعاش سعيداً طيلة مدة حكمه

٦ - (خارا خارداش- Kharakharqash ١٣٧٠ ق. م) .(١)

تزوج من ابنة الملك الآشورى المدعو (آشور او بالبط).

وقد شن ابنه (كدشمان حربى) الأول حربا على (السوتيين Sotu) فانتصر عليهم وفرض عليهم إسكان بعض رعاياه بينهم .

٧ - وحدث فى عام (١٣٦٠ ق . م) أن انفجر الكاسيون ثائرين فى وجه حكومتهم لما رأوا من ازدياد وتغلغل نفوذ الأشوريين فى بلادهم ، وامتد لهيب الثورة فى أنحاء البلاد ، وتمكن الثائرون من قتل الملك ونصبوا على العرش مكانه الملك ، (نازى بورغاش Nazi pnrgash) ولكن هذا الملك بدوره لم يعمر طويلا حيث أخطأه التوفيق إبان الحرب التى نشبت بينه وبين الملك الآشورى « آشور أوبالت » ولقى فيها حتفه .

---

(١)يظهر أنه الثانى كما فى الدليل . المترجم

٨ ـ نصب (كورى كالزوالثالث) فى عام (١٣٥٠ ق. م) ملكا على البلاد من قبل الآشوريين وبموافقتهم ، وقد استولى هذا الملك على بلاد « عيلام » ، ودخل مدينة السوس (سوسا = شوشان) ثم اشتبك فى حرب مع الملك الآشورى (بل نرارى ـ Bel Nirari).

٩ـ١٣(نازى مروتاش Nazy Maruttash ١٣٤٠ق.م) و(كدشمان ترجو Kadashmen - Turgu ١٣٣٠ ق.م،(وكدشمان انليل الثانى أو، بورياش ١٣٢٠ ق . م)و(كودر ـ انليل - Kudur enlil ١٣٠٤ ق . م)،و(شجرا كتى بورياـ Shagarakti Buriash ١٢٩٨ ق. م).

واندلعت فى عهد هؤلاء الملوك الخمسة نيران حروب طاحنة،فاشتد أوارها وطال أمدها بين بابل وآشور. وهذا هو كل مالدينا من معلومات عن حكمهم.

١٤ـ ثم أعقب ذلك فترة (١٢٨٥ ـ ١٢٧٠) اشتد فيها الهجوم على « بابل» وأخذ العدو اللدود ألا وهو الملك الآشورى الأول(توكولتى ـ نينيب = Tukulty - Ninib) يجرد عليها الحملة تلو الحملة ، ويشن عليها غارة إثر أخرى منذ فجر عام (١٢٨٥ ق.م) حتى أحرز انتصارا باهرا ، وطرق أبواب المدينة ، ودخلها فاتحا غازيا ، واستولى على خزائن معابدها ، ونقلها مع المعبود (مردوك) إلى آشور . . . ويلوح أن هذه الحوادث قد وقعت ودار رحاها فى عهد الملك الكاسى (بيبى ياشو ـ Bibe iasho) الذى خلفه على العرش كل من (بيل شوم ئيدن) و (كاداشمن حاربى) الثانى (١٢٧٧ - ١٢٧٥ ق . م) و (أدادشوم ـ ئيدن) (١٢٧٤ ـ ١٢٦٩) ، أولئك الذين كانوا خاضعين للملك الآشورى (١) الذى حكم (بابل) سبع سنوات حكما حقيقيا .

---

(١) وهو كما فى الدليل(نكلتى ننورتا) الاول . المترجم

١٥ـ لكن أهل (بابل) لم يطل خنوعهم للاستعمار الأشورى بل كانوا على أحر من الجمر يتربصون ساعة لتحرير بلادهم ، فثارت ثائرتهم وتحركت فيهم حمية الجاهلية الأولى بعد أن نظموا صفوفهم ، وما أن أهل عام (١٢٧٠ق٠م) حتى قاموا قومة رجل واحد فى وجه العدو الغاصب ، ونجحوا فى طرد الأشوريين من بلادهم ، ونصبوا على عرش بلادهم ملكا يدعى (دادشوم — اوسور) الذى كان عهده فى بابل عهد رخاء وطمأنينة، وتمكن من قتل (بل — كودور ـ اوسور) ملك آشور . وضم بعض بلاده إلى مملكته .

١٦ ـ (ملشيباك الثانى Meli- Shipak ١٢٣٨ - ١٢٢٤ ق. م)

أدار هذا الملك دفة رحى الحرب ضد الملك الآشورى المدعو (ننيب ـ آپال ـ ايشاررا) فانتصر عليه واستطاع أن يظفر به مما أدى إلى تحفز ملك آشور الجديد (آشوردان) الأول إلى تهديد بابل وشن الهجوم عليها فى عهد الملك الكاسى (ماردوك ـ آپال ـ ئيددين) أو (مردخ ـ ابال ـ ادن الأول) الذى امتد حكمه (١٢٢٣ - ١٢١١ ق. م) ثم أخذت عوامل الفساد والانحلال تنخر فى عظام دولة الكاسيين وما أن أتى عام (١٢٠٧ ق م) إلاوكانت دولتهم قد دالت بسبب ثورة الساميين فيها ، وأسدل الستار على مدة حكمها البالغة ٥٧٦ عاما وتسعة أشهر (١) .

---

(١) يقول مستر « كينمج »: إن اسم آخر ملك كاسى على ما يظهر هو (ئى نادين ـ Ea Nadin) بينما يقول سر سدنى سميث فى كتابه « تاريخ آشور القديم » ص ٩٤ أن اسمه « انليل ـ نادن ـ أخى Enlil nadin akhe »، وأن الملك العيلامى « شتروك ـ ناخونتى » قد هاجم الكاسيين وأسر آخر ملوكهم واستولى على بلادهم حيث قامت فيها حكومة محلية جديدة بعد ذهاب العلاميين وبذلك ، انقرضت حكومة الكاسيين التى بلغ عدد ملوكها (٢٦) ملكا . على ماورد فى جدول هذا المصدر . أما صاحب كتاب التاريخ القديم للشرق الادنى =

٤ — حكومة الميتانى [١] :

قامت هذه الحكومة فى شمالى الجزيرة ، واتخذت مدينة « واششوغانى » مركزا لها ، ويلوح أنها تفرعت من حكومة الكاسيين ومن منظومة السوبارتيين

= فيقول فى (ص ٣٦٨) : إن آخر مالك كاسى كان يدعى (بل نادين آخى — Bel Nadi akhi) ابن « زامـا ـ شم ـ أدينا » وأنه مات أو قتل فى عام ١٨١٠ ق.م (لعله ١١٨٠) بعد أن دام حكمه ثلاث سنوات تقريبا ، وبعد ذلك أقيمت فى بابل حكومة (السلالة الرابعة Pashe) وحسب هـذه الرواية يرجع السبب فى انقراض الحكومة الكاسية لا إلى الهجوم الذى شنه عليها العيلاميون بل إلى ثورة « بابل » على أثر انتصار « آشوردان » الآشورى على « زامماما » الكاسى اه المؤلف

(١) « ورد فى دليل المتحف العراقى ما ملخصه : تقع مملكة « ميتانى » بين بلاد الحثيين من الغرب وبلاد آشور من الشرق وتمتد من حدود الفرات جنوبا حتى الجبال شمالا . وقد ازدهرت هذه المملكة حوالى سنة (١٤٥٠ ق م) وكان أشهر ملوكها (سوشتار) وهو رأس الأسرة و (أرتاتاما) ـ ابن ـ سنة (١٤٣٠) و (شتارنا) . ابن ـ سنة ١٤١٠ و (ارتاشومارا) . و (تشراتا) أخ . سنة ١٣٩٩ و (أرتاتاما) الثانى . و (ما تيوازا) ١٣٥٩ وغيرهم . . .

والميتانيون فرع من الأمم الآرية (الهندية الأوربية) وكان من بين آلهتهم (أندرا) و (ورونا) من الآلهة الآرية الأولى اه .

وقال المسعودى المتوفى سنة ٣٤٥ هـ فى (التنبيه والاشراف) ص٧٨ عند ذكر مواطن الشعوب والقبائل الكردية وأسمائها (منهم البازنجان ، الشوهجان الشاذنجان ، النشاورة ، البوذيكان ، اللرية ، الجوزقان ، الجاوانية ، البارسيان = البارث ، الجلالية ، المستكان (أعنى المتيكان ـ المتينان الموجودين بحوالى (ماردين) حتى الآن فلا أشك أن لفظه المستكان تصحيف المتيكان . المترجم) والجابارقه ، الجروغان ، الكيكان ، الماجردان ، الهذبانيه وغيرهم ممن بزمام فارس وكرمان وسجستان وخراسان واصبهان وأرض الجبال من الماهات : ماه الكوفة وماه =

وقد أخذت تنمو وتترعرع حتى علا شأنها وأضحت إحدى الدول الأربع العظمى وقتذاك وهى (مصر ، حيث ، كاساى ، ميتانى)

ولكن (تحتمس الأول) Tebutines فرعون مصر مالبث أن حطم عظمتها، فى حرب من حروبه فى آسيا عام(١٥٨٠ ق . م)فى معركة على الحدود منى فيها الميتانيون لأول مرة بالانكسار أمام جيوش فرعون مصر ، ومنذذاك بدأت سلسلة العلاقات بين الحكومتين المصرية والميتانية ، وما أن جاء عام (١٥٢٢ ق . م) حتى كانت حكومة الميتانى خاضعة لمصر .

ولكن الميتانيين لم يطل بهم الصبر على الأذعان والتبعية لمصر، بل أخذوا فى وضع الخطط التى تكفل لهم التخلص من براثن هذه التبعية ، فعقدوا فى فى خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد اتفاقا مع الحثيين قوى شوكتهم ، وجعل لهم شأنا كبيراً ونصيبا لا بأس به فى فتوحات الحيثيين فيما بعد .

وفى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان أمرهم قد اشتد ، فشمروا عن ساعد الجد ، وشنوها حربا عوانا على المصريين حتى تمكنوا من طردهم من بلاد (العموريين) ، واستولى ملكهم المدعو « كوشان ريش آثايم » على القسم الشمالى من « سورية » ، كما أخضع لحكمه الاسرائيليين مدة ثمانى سنوات هذا إلى أن الشطر الأكبر من كردستان ، وبلاد آشور وآررافا ، كانت هى الأخرى فى قبضة الميتانيين .

= البصرة وماه سبذان والايغارين وهما البرج وكرج أبى دلف، وهمذان وشهر زور ودرآباذ والصامغان واذربيجان وأرمينية وأران والبيلقان والباب والأبواب — ومن بالجزيرة والشام والثغور .)

وليس أوضح من هذا فى باب تحديد الوطن الكردى التاريخى وبيان العناصر والشعوب الهندية الأوربية التى تتألف منها الأمة الكردية وهى لاتزال تحتفظ بتقاليدها وأساطيرها القديمة حتى الآن . المترجم

ولـكن هذا السلطان العريض مالبث آن تضاءل وانكمش إذ أخذ الضعف يسرى ويدب فى جسم الحـكومة الميتانية رويدا رويدا وانتهز الحيثيون هذه الفرصة التى لاتعوض فاستولوا على غربى الفرات الأعلى ... من بلاد الميتانيين واستعاد المصريون منها شمـــالى « سورية » ، كما استولى الملك الآشورى « تيجلات بلسر » الأول على البلاد الشرقية منها . . . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل فقـدوا ما تبقى فى حوزتهم من بلدان فى عهـد « آشـور نصر بال » الثالث ، وهكذا اسدل الستار على هذه الحـكومة فى القرن الثامن قبل الميلاد .

٥ — الحـكومة الخلدية (أورارتو) [١]

نكتفى عن هذه الحـكومة بما ذكر فى المجلد الأول .

٦ — الحـكومات السوبرية

أسس السوبريون بضع حكومات صـغيرة ، ويلوح أنهم لم يتمكنوا من تأليف حكومة قوية متحدة .

٧ — الحـكومات النايرية = النهرية

لم يستطع النايريون (النهريون) وهم أحفاد السوباريين تأسيس حكومة مركزية قوية ، بل كانت حكوماتهم على شكل اتحاد أو تحالف Confedration بين عدة حكومات صغيرة . والثابت تاريخيا أن الملك الآشورى « تيجلات بلسر » الأول قد اشتبك فى حرب مع ثلاث وعشرين ملكا من ملوك النايرى ، وكان مسرح تلك الحروب سهل « ملاذجرد » بكردستان الشمالى . (سر سدنى سمت تاريخ آشور)

---

(١) ولا تزال احدى العشائر الـكردية العريقة فى القدم تحمل اسم هذا الشعب القديم وهى عشيرة (الخلدى = الخلطى) اليزيدية المنتشرة فى أطراف سعرد والجزيرة والموصل كما فى (شرفنامه) . المترجم .

٨ – « الحكومة الميدية »[1]

يقول أبو التاريخ (هرودوت[2]) المؤرخ اليونانى فى صدد تشكيل الحكومة الميدية ما ملخصه: (بعد أن عمرت حكومة الآشوريين (٥٢٠) عاما فى آسيا الشمالية (لعلها الغربية) ، ثار الميديون – وكانوا خاضعين للاشوريين – فى وجه حكومتهم فكان لهم السبق على كل من عداهم من الشعوب الخاضعة الأخرى فى الاستقلال النهائى التام ، إثر معركة حامية الوطيس دارت رحاها بينهم و بين الآشوريين . وقد حفزت هذه الحركة الناجحة جميع الشعوب الخاضعة للاشوريين فقاموا عن بكرة أبيهم وغلى دم الحماس فى عروقهم واقتفوا أثر الميديين حتى تخلصوا من ربقة الخضوع عن آشور فاستقلوا استقلالا تاما لا تشوبه شائبة .

ويروى أنه فى أحد العهود ، ظهر بين ظهرانى الشعب الميدى رجل يدعى (ديوسس–ديوكس[3] Deioces) وهو ابن(فرائورث — فرا آرتس) ، يقال إنه قد تولى منصب العمدة فى قرية ميدية ، وأنه كان يتصف برجاحة العقل والرزانة مما حدا بزرافات من الشعب وزعمائه أن يهرعوا إليه فى الملمات يلتمسون النصيحة ، ويستنيرون برأيه إذا حزبهم أمر من جلائل الأمور ، فطبقت شهرته الديار ، وعرف بين قومه بأصالة الرأى ، وحسن التصرف ، وذات يوم قال لقومه : (إذا لم تنشئوا لى مقرآ للحكم وحاشية تقوم على

---

(١) هـذا البحث عن الميديين ملخص من كتاب(تاريخ آشور) لمؤلفه a. T. Otmstead ٩٢٣ (ق . م) المؤلف

(٢) ولد فى هاليكارناس إحـدى المستعمرات اليونانية بغربى الانضول وعاش (٤٨٤ – ٤٢٥ ق . م) المترجم

(٣) دام حكمه من (٧٠٨ أو ٧٠١ – ٦٥٥) ويظن أنه كيقباد الذى تذكره الروايات الشرقية من عربية وفارسية . المترجم

تصريف شئونه فانى سأتخلى عن أعباء الرياسة وإبداء المشورة وتصريف الأمور)
فصدع القوم ولبوا النداء ، وأخـذوا فى بناء مدينة أطلق عليها فيما بعد (آقباتان = همذان(١)) حيث اتخذت عاصمة للحكم ، وبعد أن عمر فى الحكم (٥٣) عاما خلفه فى الحـــكم ابنه المدعو (فرائورت) الذى بعد أن وضع أساس الحـكومة الميدية) .

والواقع أن هذه الرواية لا يطمئن إليها الباحث لا قليلا ولا كثيرا . لأن الموطن الأصلى للشعب الميدى هو هضبة إيران ، ويلوح أنه كان يمت بصلة النسب إلى الشعوب الآرية الوافدة أخيرا فضلا عن أن لغتهم من المحتمل جدا أن تـكون إحدى اللهجات الآرية الإيرانية , وكانوا أصلا قبائل رحل ، ثم حطوا رحالهم حيث استقروا فى الوديان والجبال، وأنشأوا القرى والدساكر متخذين عادات المدن وأحوالها ، وبانين مدنهم على سفوح الجبال فى أمكنة مشرفة على الوهاد . ومطلة على الوديان ، وكانت حياتهم ساذجة تكاد تـكون بدوية ، ولا تخضع منهم جماعة لأخرى .

ويستدل من الجدول الذى سجل أسماء عظماء هذا الشعب أن رؤساء القبائل المشهورة كانوا متساوين فى الحقوق والواجبات لا سلطان لواحد منهم على الآخر ، وكانت أسماؤهم لغويا تشبه الأسماء الإيرانية وأما لغتهم من حيث الأداء والأسلوب فكانت كلغة العشائر الكاسية . . . ، ولم ترد إشارة عن (آهورا مزدا) بين أسمائهم مما يحملنا على الاعتقاد بأن الديانة (الزرادشتية) لم يكن لها وجود بين هذا الشعب حينذاك بل ظهرت أخيرا .

---

(١) فى الروايات الاشورية (امدانا) وفى الروايات الهيخـامنشيه (هنك متان) بمعنى محل الاجتماع وهو (همذان) الحالية فى الـكردستان الايرانى . المترجم

هذا ، وأن أول ملك جمع شمل الأمة الميدية هو (ديوسيس = كيقباد) ابن (دايوكو = ديا كو)[1] الذى كان والياعلى (ماناى = ماندا) وكان (ديا كو) هذا قدوضع ابنه رهينة لدى (روساش ـ Rusash) حاكم « أورارتو » فوقع هذا الابن أسيرا فى يد الآشوريين أثناء حروبهم مع الأورارتيين ، فنفوه إلى (حماه) فى سورية عام (٧١٥ ق . م)، ويستدل من قرينة الاسم والمكان أن هذا الأمير الصغير هو نفس « ديوسيس = كيقباد » مؤسس الدولة الميدية[2] وقد ظلت أسرته باقية طويلا ، وكان أحفاده ملوكا للدولة الميدية التى اتخذت مكانها على صفحات التاريخ كدولة من أقوى دول العالم فى عصرها .

وقصارى القول ان (ديوسس ـ deioces) بعد أن اتخذ مدينة (آقباتان = همذان) عاصمة لحكومته انصرف الى تجميلها وتحصينها حتى أضحت آية فى الجمال منيعة الحصون ، هذا فضلا عن أن عهده الزاهر قد خلا من نار الحروب والتطاحن والقتال، وقد بذل جهودا جبارة فى توحيد القبائل الميدية المتناحرة المتنابذة إلى أن كالمت مجهوداته هذه بعلائم التوفيق وساعده على ذلك انشغال (سناخريب) ملك اشور فى حروب وقتال مع البابليين والعيلاميين فلم تتح له الفرصة لعرقلة هذه الجهود ، والوقوف فى سبيل اتحاد هذه القبائل .

ويقول « هرودوت » أن (ديوسس) قد توفى بعد أن حكم ٥٣ عاما ، بينما تذكر رواية أخرى أنه لحق بالرفيق الأعلى بعد حكم دام ٤٦ عاما (٧٠١ —

---

(١) رواية مشير الدولة فى (تاريخ ايران) نقلا عن هرودوت تخالف هذا إذ تقول ان (ديوسس) هو ابن (فرائورت) وأنه و (ديا كو) شخص واحد فعلى هذا يكون هو نفسه وقع اسيرا فى يد الاشوريين لا ابنه . المترجم .

(٢) يظهر ان هذا الامير قد نجا من الأسر على أيدى ميدى سورية وعاد الى (ميديا) وفى الواقع ان (تيجلات بلاسر الثالث) ذكر بعض العشائر الميدية الضاربة فى سوريا اه . تاريخ آشور لاولمستيد ص ٥١٦ . المؤلف

٦٥٥ ق . م) ، وقد خلفه على العرش ابنه (فراورتيش Fravartish) أو(فرائوريتس) الذى إتبع فى بدء حكمه سياسة المجاراة والمهادنة مع الحكومة الآشورية حتى ألفى نفوذه قد امتد وعظم بين الشعوب الآرية ، إذ كانت بعض شعوب آرية قد قدمت من الشرق وانضمت إلى أقربائهم الميديين ، هذا الى جانب خضوع الشعب الفارسى الذى كان ينظر إليه حينذاك نظرة استخفاف، الى السلطان الميدى ، كل هذه الوسائل مجتمعة جعلت الميديين يتحرشون بالآشوريين ، فامتنعوا عن دفع الجزية (الأتاوة) التى كانوا يدفعونها منذ القدم مضطرين للاشوريين ، ولكن الآشوريين قد تملكتهم ثورة الغضب على الميديين فركبوا رؤوسهم ، ومالبث أن اندلعت نيران الحرب بين « فرائوريتس » والاشوريين فأسفرت عن انكسار جيشه ومصرعه هو وجل من كان يصحبه من الأمراء عام (٦٣٣ ق . م) بعد أن حكم ٢٢ عاما.

وقد خلفه على العرش أخوه الصغير(١) (هووخشترا - hovakhshatara = كى اكسارا = كيكاوس) وكان قائدا محنكا وملكا حازما ، إذ وجه أول همه إلى الجيش فأعاد تنظيمه حتى أضحى من أحسن جيوش العالم ، لأنه رأى بثاقب فكره أن الانتصار على الجيش الاشورى المنظم لا يكون على يد جيش من أفراد القبائل والعشائر المتباينة العادات والمختلفة الطباع ، ولهذا أدخل إصلاحات هامة على أنظمته وفصل بين الخيالة والمشاة ، وسلح الأخيرين بالقوس والنشاب والسيف ، وأحدث خيالة سريعة العدو استطاعت أن تقهر فيما بعد الفرسان الاشوريين الذى انعقد عليهم لواء الشهرة فى التاريخ :

---

(١) التاريخ العام للمورخين جزء (٢) . المؤلف . لكن هذا يخالف ماورد فى (هرودت) من أن (كيا آزارس = كى اخسار) هو ابن (فراورتس) لا أخوه (المترجم)

أعمال كى أخسار الحربية:

بمجرد أن فرغ «كى أخسار» من إعداد جيشه وتسليحه على أحدث النظم، وبعد أن نجح فى عقد محالفة مع ملك بابل (نبوبولسر-uebopolassr) ليقفا جبهة متراصة متحدة ضد العدو المشترك وهو ملك آشور، بدأت جحافل جيشه تبدأ زحفها فى أوائل ديسمبر عام (٦١٥ ق. م) متجهة صوب آشور ومرت ببلاد (نامرى) و (مازاموآ) حيث استولت فى هجوم خاطف على بلاد «آررافا = arrapha» ومدينتها ذات الأهمية البالغة بالنسبة لمملكة آشور، والتى كان انتزاعها من جسم مملكة أشور خسارة جسيمة لا تعوض. ويلوح أن كى أخسار قد اتخذ هذه المدينة قاعدة لأعماله الحربية.

ثم استأنف الجيش الميدى زحفه فى العام التالى (٦١٤ ق. م) متجها صوب «نينوى» (١) العاصمة الاشورية، وفى طريقه اليها استولى على مدينة

---

(١) يقول مستر (هول) فى كتابه (تاريخ الشرق الأدنى القديم) (ص ٥١١) انه حدث فى أواخر عهد الملك (آشور بانيبال) أن احتشدت جيوش (كى أخسار) مع العشائر المتحدة المسماة (أومان-ماندا) المؤلفة من الجنود السيتيين والماناى وكيممرى أرمينية والعشائر الكردية بجبال الجودى وزحفوا على (نينوى) عام ٦٢٦ ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها. ويقول (هرودوت) أن (فرائورت) الميدى زحف على بلاد آشور عام (٦٣٤ ق. م) ولكنه عاد منها منهزما. وفى عام (٦٣٠ ق. م) حاصر مدينة (نينوى) ولكنها امتنعت عليه فعاد إلى بلاده بسبب هجوم السيت عليها بقيادة (مادايس). فهاتان الروايتان ليستا بعيدتين عن العقل فالظاهر أن الميديين والستيين لم يكونوا دائما على وفاق بدليل مقتل مادايس الذى وقع صريعا فى ميدان القتال على يدى كى أخسار وجيشه.

(المؤلف)

(تاربيزى) ثم يمم شطر الجنوب حسب خطة موضوعة ليتصل بالجيش البابلى وفى طريقه استولى أيضا على مدينة (آشور = الشرقات الحالية) عاصمة اشور القديمة، وقد دمرها تدميرا . وما أن تم الاستيلاء عليها ، وفرغ الجيش الميدى من تدميرها حتى كان ملك بابل قد وصل، حيث عقد مع «كى أخسار» معاهدة جديدة عينت فيها الحدود المستقبلة بين دولتيهما ، وتوثيقا للروابط السياسية بين الدولتين ، رؤى تعزيزها وتوكيدها بمصاهرة كريمة تمت بين الأسرتين المالكتين فتزوجت حفيدة (كى أخسار) وهى (أميتيس) بنت أستياغ من (نبوخذ نصر = Nebuchadnezzar) نجل ملك بابل .

وتلت ذلك فترة امتدت إلى نهاية عام (٦١٣ق م) نفتقر إلى معلومات قاطعة عن تحركات ونشاط الجيش الميدى خلالها ، وان كان «هرودوت» المؤرخ اليونانى يقول: ان (كى أكسار) لما نمى اليه ، أثناء هجومه الأول على «نينوى» نبأ اجتياح «السيت = سك - Scythian» لبلاد (ميديه) قفل راجعا إلى بلاده على جناح السرعة ليتولى بنفسه الدفاع عنها ضد المغيرين عليها ، ولكنه غلب على أمره أمام عدو قوى الشكيمة ، بارع الحيلة . فخضعت (ميدية) ثمانية وعشرين عاما للقبائل السيثية. وكان (كى أخسار) يعمل طيلة هذه المدة على تخليص بلاده من بين براثن هذه القبائل، حتى هداه تفكيره أخيرا وبعد طول انتظار وفارغ صبر ، إلى حيلة رائعة بل وبارعة أنقذ بها عرشه ومجد بلاده ، فقد نجح فى القبض على زعماء هذه القبائل ، فأفناهم عن آخرهم ، فخلا له الجو ، وأخذ يطارد المحتلين حتى طهر البلاد من شرهم واستعمارهم . وبعد أن أعاد (كى اخسار) إلى ميدية استقلالها المسلوب ، استأنف زحفه شطر (نينوى) و حاصرها من جديد .

---

(١) (تاريخ آشور : لأولمستيد ص ٦٣٦) المؤلف

ولكن رواية (هرودوت) هذه لاتؤيدها الآثار المكتشفة ، فضلا عن أنها لا تطابق الواقع المحسوس ، إذ الثابت الذى لا يتطرق إليه أدنى شك أن المدة بين أول زحف على (نينوى) وبين سقوطها كانت ثلاث سنوات على الأكثر ، فاذا كانت رواية خضوع (ميديه) للسيت صحيحة ، فكيف يمكن التصور أن زحف ملك (ميديه) على (نينوى) حدث خلال هذه المدة؟ والمنطق يقول ان هذا الزحف لا بد أن يكون قد حدث بعد(٢٨) عاما أى فى سنة(٥٨٦ ق . م) . إن كان لهذه الرواية نصيب من الصحة ؟ ؟

وقصارى القول ان (كى اخسار) لم يعتوره وهن، ولم يتطرق اليه اليأس فى الاستيلاء على (نينوى) مهما كلفه الأمر ، ورغم أنها امتنعت عليه فى هجومه الأول عليها ، فأعاد الكرة ، وشن عليها هجوما عاتيا ، ثم ألقى عليها حصارا منيعا ، ولما رأى ببعد نظره وثاقب فكره أن المدينة مازال الاستيلاء عليها صعب المنال ، أخذ فى تكوين جبهة قوية تستطيع بها قهرها ، فبدأ يساوم بعض القبائل السيثية [١] التى كانت تشد أزر الآشوريين وتقف إلى جانبهم ، وقد نجح فى إغرائهم بنهب وسلب بلاد آشور الغنية وما سيعود عليهم من هذه الأسلاب والغنائم فتألبوا على الآشوريين وهرعوا اليه معلنين انضمامهم إلى جانبه .

---

(١) هذا الشعب قوقازى [لعله يقصد أنه من الشعوب التى لم تعرف جنسيتها بعد ، كما هو المصطلح بين متأخرى العلماء. المترجم] وكان يستوطن شمال (أورارتو) جنوبى البحر الأسود خلال القرن السابع قبل الميلاد، ويظهر أنهم هجروا موطنهم الأول فى جنوبى روسيا تحت ضغط العشائر الكيممرية(غومر)، وفى عهد الملك الآشورى (آسرحدون ٦٨١ – ٦٦٩ ق.م) أغاروا على الحدود الشمالية لآشور ، وأخيرا لجأ أحد زعمائهم المدعو (بارتاتوا) إلى (الماناى) خوفا من الكيممريين حيث اتفق ضد(سباكا = أشباكا)وضد(كاستاريت)أعنى ملكى السيت وكاسكاشى ... ويقول (هرودوت)أن بارتاتوا هذا إن هو إلا =

كما انضم اليه جيش بابل تنفيـذا للاتفاقية التى أبرمت بينها ، وبهذا وفق (كى أخسار) فى تكوين جبهة متحدة يدحر بها المدينة العاتية ، وكانت الخطوة التالية لتكوين هذه الجبهة أن أعلن (كى اخسار) نفسه ملكا على (أومان - ماندا) [١] الذى صار لقبا له .

وماأن أهل شهر (سيوان=مايو) حتى بدأت (نينوى) تتعرض لأعنف هجوم شنه عليهـا الحلفاء ، ورغم أنها امتنعت على هذا الجيش العرمرم فى هجومين متتالين إلا أنها لم تستطيع أن تحافظ على صمودها وتظل على امتناعها أمام الضربات المتكررة والهجمات المتعاقبة واضطرت مرغمة إلى التسليم ، وبهذا سقطت فى أيدى الحلفاء فى شهر (آب =يوليو) من نفس العام وقد هزتهم نشوة الفرح لاستيلائهم على هذه المدينة العظمى ذات الشهرة الخالدة والمجد التليد .

ولم يطق (سن— شار — ايشكوم [٢] = Sin-Char-ishkum) الملك الآشورى صبرا على فقدان قلب مملكته النابض ، فأحرق نفسه ومن معه من خدم وحشم بالنار .

(پروتوتيوس) والد (مادايس) ، وهو الذى استولى بعد فتره من الزمن على جميع بلاد سورية حتى حدود مصر وخربها فعينه الملك الآشورى بدلا عن (سبكا = سباكاى) المغلوب على أمره. ملكا وقائدا على جيوش السيت بأرمينيه والماناى . اه (مستر هول . ص ٤٩٧)

(١) هذا لقب عام أطلق على اتحاد العشائر الشمالية التى كانت تضم الميديين والسيت والماناى وبعض الكيممريين . . . ويقول مستر هول فى كتابه (ص ٥٥١) : أن لفظ ماندا كان لقبا مشتركا بين الميديين والسيث وأن البابليين كانوا يطلقونه على مجموعة العشائر الشمالية المتوحشة . المؤلف

(٢) ضبطه تاريخ إيران هكذا (ساراكس) . المترجم

وبعد أن فرغ جيش الحلفاء من نهب المدينة ومن تدميرها ، أخذ الجيش البابلى يطارد قسما من الآشوريين الهاربين من المدينة ، ويتعقب آثارهم ، حتى لجأ جماعة منهم بقيادة (آشور أوباليت) إلى (حران) حيث وضعوا هنالك أساس حكومة جديدة . . .

ولكن (كى اخسار) أبى عليهم الاستقرار فى أى مكان وآلى على نفسه إلا أن يشتت شملهم ، ويقض مضاجعهم ، وقد واتته الفرصة فعلا لتحقيق هذا الهدف ، إذ بعد أن استجم فى (ميديه) التى عاد اليها مع السيت فى شهر سبتمبر بعد استيلائه على (نينوى) عاما وبعض عام ، استنجده (نبوبولاسار) ليلحق به ويمد اليه النجدة فى (حران) نخف إليه على عجل ، وانضم إليه الجيش البابلى فاستطاع بمهارته الفائقة وخططه الحربية السديدة الاستيلاء على (حران) آخر حصون الأشوريين ، وبذلك تحققت آماله ، ثم قفل راجعا إلى بلاده مكللا بأكاليل النصر والغار .

ثم أخذ الحلفاء بعد ذلك فى تقسيم الغنائم والأسلاب وتوزيع الميراث بينهم ، وقد جاء فى كتاب تاريخ إيران القديم (١) أن المستعمرة الآشورية فى آسيا الصغرى أضحت من نصيب الحكومة الميدية ، وكان خط الحدود بين (ميديه) و (بابل) ممتدا على طول نهر دجلة من الجنوب حتى مدينة (ديار بكر) كما أن خطا آخر كان يفصل بينهما ممتدا من (ديار بكر) حتى نهر

---

(١) كتاب فارسى لمشير الدولة (بيرنيا) . طبع بطهران سنة ١٣٠٨ف، ورد فيه ايضا ما ياتى : ولم تنفصم عرى الاتحاد بين ميديه وبابل بالقضاء على اشور بل زاد توثقا بعد ان زوج ملك (ماد = ميد) اخته لولى عهد بابل (بخت النصر) الذى لما صار ملك بابل ، بنى الحدائق المعلقه التى تعد من عجائب الدنيا السبع تكريما لزوجته هذه اخت ملك ماد. وعلى هذا تكون نسبة بناء هذه الحدائق إلى (سميراسيس) ملكة اشور خطأ مشهورا . المترجم

الفرات ، أما حدود (كليكيا) فكانت تبدأ عند الضفة اليمنى لنهر الفرات وتنتهى عند (ملطيه) . ويلوح أن الحد الفاصل بين حكومتى (ميديه) و(ليديه) كان يخترق سهل (اوزن يايلا = الهضبة الطويلة)حتى نهر هالياس (قزيل ايرمق) ثم يأخذ فى الامتداد حتى ساحل البحر الأسود .

ولم يدم السلم طويلا بعد رسم الحدود ، إذ يظهر أن القدر قد شاء أن يمضى (كى اخسار) كل عهده فى ميادين القتال ، وبين صليل السيوف . إذ ما كان يخرج من حرب إلا ليخوض غمار حرب أخرى ، وكانت الحرب التالية بينه وبين الليديين التى تباينت الروايات فى استقصاء أسبابها وعوامل اشتعال لهيبها ، فتقول رواية مصدرها كتاب(إيران قديم) ان بعض المجرمين السيت قد لجأوا الى الحكومة الليدية واعتصموا بحماها ، ولما طالبت الحكومة الميديةبردهم اليها لم تجب إلى طلبتها. إذ رفضت الحكومة الليدية تسليمهم لها ، فكانت هذه هى الشرارة التى أوقدت نيران الحرب بين الحكومتين .

بينما نجد رواية أخرى تعزو أسباب الحرب إلى أن الحكومة الليدية وقد تملكها الطمع فى المستعمرات الآشورية التى كانت من نصيب الحكومة الميدية بعد الاستيلاء على (نينوى) مما أدى إلى اندلاع نيران الحرب بين الدولتين ،والتحم الجيشان على شاطىء نهر (هالياس) ودارت رحى معركة حامية الوطيس وطويلة المدى فى مطلع عام(٥٩١ ق . م)ولم تقف رحاها إلا يوم(٢٨مايو من عام٥٨٥ ق. م) . بمعجزة ، فقد حدث خسوف كلى للشمس طيلةهذا اليوم ، فأيقن كلا الطرفين أن هذه الظاهرة العجيبه إن هى إلاعلامةمن علائم الغضب الألهى عليهما، فرغب كل منهما بينه وبين نفسه فى وضع حد لسفك الدماء دون طائل. وما أن عرض (نبوخدنسر = بختنصر) ملك بابل و(سينسيس) ملك كليكيا وساطتهما لأنهاء القتال وعقد الصلح حتى قبله الطرفان بارتياح ، وتوقفت العمليات الحربية ، واتفقا على أن يكون نهر (هاليس = هالياس)حدا

فاصلا بينهما، ثم عزز هذا الصلح و توج بمصاهرة ملكية بين الأسرتين المالكتين، فتزوج (آستياغ(١)) نجل (كى أخسار) من (آرينيس - Aryenis) كريمة ملك (ليديه) فى سنة (٥٨٥ ق . م) .

ولم يعمر (كى اخسار) طويلا بعد ابرام هذا الصلح ، بل عاجلته المنية بعده بعام واحد ، فخلفه على العرش ابنه (آستياغ) الذى عزف وأحجم طوال عهده عن الاشتباك فى حروب ، مما أدى إلى ظهور دولة الفرس وعلو شأنهم ، وتحفزهم للاستقلال .

وأحس رجالات ميدية بقوة فارس، وهى ولاية ميدية تزداد شأنا يوما بعد يوم وأن سياسة ملكهم السلمية ، وعزوفه عن شن الحروب سيفضى حتما إلى إنكماش دولتهم وربما إلى تقويض دعائمها وهى التى أقاموها بدماء أبنائهم ، فأعلنوا سخطهم على سياسته وكراهيتهم لحكومته .

ولكن ماذا ينفعهم سخطهم ، وقد اشتد ساعد الفرس ، وعلا سلطانهم على حساب ميدية ، وحكومتها السادرة اللاهية ؟؟

وكان يحكم فارس وقتذاك أمراء اسرة (أخمينى - Achaimenes) (٢)

---

(١) أو (آستياج — آستاك) باللغة اليونانيه واما باللغة البابلية فاسمه (ايختوويكو) وفى المصادر الشرقية من فارسية وعربية (كيكاوس) الذى يظن انه (نمروذ) ابراهيم الخليل عليه السلام . (المترجم)

(٢) هذه الأسرة الملكية الأخمينيه من اقليم (انشان = أنزان) ويظهر أن هذا الاقليم يقع فى الجنوب الشرقى من ولاية (لورستان) الحالية على مقربة من اقليم (عيلام) القديم ، وكانت هذه الأسرة تحكم (فارس=بارس) فقط منذ القدم ، ومن المحتمل أنها اكتسبت لقب (الملك) أثناء انقراض الدولة الآشورية ، وربما كان ذلك بعد وفاة الملك (آشوربانيبال) وأثناء الاستيلاء على عيلام ، ثم أخذ سلطانها يمتد إلى بلاد (پارث = فرث) و (هرقان= خراسان) حيث تم لهم الاستيلاء عليها. ويؤخذ من نقوش (بهستون) =

الذين انتهزوا فرصة إخلاد الملك إلى الراحة ، وبذلوا جهودا جبارة لينفضوا عن جباههم ذل الخضوع للغير ، فشمروا عن ساعد الجد ، وشرعوا فى تكوين جبهة قوية متحدة للوقوف بها فى وجه (ميديه) وقد نجحوا فعلا فى ضم أقوام آخرين إلى جانبهم (كالبارث والهيركان) من الشعوب الخاضعة لـ(ميديه) والتى شقت عليها عصا الطاعة وأعلنت العصيان ، وكان بطل هذه المؤامرة التى أثارت هذه الشعوب على (ميديه) حاكم (پارس = فارس) المدعو (سيروس = كيروس Cyrus) الثانى أو (كوروش - Kurush) الكبير أى (كيخسرو الكبير) . وكان هذا الحاكم نفسه هو الذى حمل لواء الحرب ضد (ميديه) ، فزحف على رأس جيش جرار هاجم به ميديه حيث التقى بجيش (آستياغ) واشتبكا فى معركة حامية الوطيس ، دافع فيها استياغ دفاع المستميت وأبلى فيها بلاءاً حسنا يحدوه الأمل فى المحافظة على عرشه وعلى شرف أسرته ، واستمرت المعركة سجالا بين الفريقين ، وكان النصر يتأرجح بين الكفتين إلى أن لعبت الخيانة دورها على يد زعيم أحد البيوتات الميدية

= ودراسات مستر (هول) أن هذه الأسرة المالكة قد تأسست فى اواسط القرن السابع قبل الميلاد وكان على رأسها (هيخامنيش = أخيمين) ولكنها انقسمت إلى فرعين بعد انتهاء عهد ثانى ملوكها المدعو (جيش = بيش) ويقول تاريخ إيران القديم ، أن أحد هذين الفرعين كان (پارسيا) والآخر (انزانيا) .

ويقول مستر هول ، ان الفرع الأنزانى نشأ منه أربعة ملوك بينما نبت من الفرع الثانى ثلاثة ، وأن (سيروس الثانى) الذى يطلق عليه أيضا اسم (كورش) ويلقب بالكبير هو الملك السابع من ملوك هذه الاسرة وأنه حارب (آستياغ) واستولى على (بابل) ونال شهرة عالمية فى الغزو والفتح أما (داريوش) الأول فهو تاسع ملك فى هذه الأسرة . المؤلف

الـكبيرة وكان يدعى (هارپاغوس ـ Harpagos) الذى قرر مصير الحرب بعد أن باع شرفه ، وأجرم فى حق وطنه ، فتقدم إلى العدو طائعا مختارا ، وانضم ومن معه من الجنود إلى (كيخسرو) عدو وطنه اللدود ، وبانضمامه إلى جانب العدو وجه طعنة نجلاء إلى صدر آستياغ وجيشه ، حيث ضعفت روح الجيش المعنوية وأخذت تنتابه الهزائم متلاحقـة لم يستطع أمامها صمودا ، مما أدى إلى اندلاع نيران ثورة جامحة فى ميديه ، تمخضت عن خلع (آسـتياغ) عن العرش عام (٥٥٠ ق . م) .

وهكذا كسب (كيخسرو) المعركة ، وبطبيعة الحـال أحسن معـاملة (هرپاغوس) بل وسائر رجال البيوتات الميدية ، ولم يكن هنالك كبير فرق فى الحقوق والامتيازات بين هذه البيوتات والبيوتات الفارسيه بل كان الحال كمثل ما هو عليه الآن بين الانجليز والأسكتلنديين وكما كان عليه بين البروسيين والبافاريين فى عهد الأمبراطورية الألمانية الأخيرة . (١)

ولم تقم بعد ذلك قائمة للحكومه الميدية بل أخذت تسير بخطى سريعة واسعة نحو الانحلال والاضمحلال ، وما لبثت أن أسدل عليها الستار ، وانقرضت إثر انقلاب خطير هز أركانها المتداعية وقضى عليها بالزوال بعد أن حكمت خمسين عاما بعد المائه . وقامت على أنقاضها حكومة الآخمينيين الأيرانية .

وجاء فى (تاريخ ايران قديم — مشير الدولة) أن الشعب الميـدى كان قد توطن أصلا فى آذربيجان وكردستان والعراق العجمى (٢) ، ثم أخذ يسعى

---

(١) (التاريخ القديم للشرق الادنى ص ٥٥٥) للمستر هول

(٢) يقول (تاريخ ايران القديم ص ٥٦) أن العراق العجمى كان يضم المقاطعات الحالية (كروس وهمذان وكرمنشاه وقزوين وعراق وأصفهان ونهاوند والرى) حتى دربند بحر قزوين الذى كان حدا فاصلا بين الميديين والبارث . (المؤلف)

جاهدا لنشر نفوذه حتى اتسع سلطانه ابتداء من نهر (هاليس) حتى (باختر) أى (أفغانستان) ، ومن بحر قزوين حتى فارس وخوزستان ، بينما يذهب العلماء الجغرافيون القدامى إلى أن ميدية كانت منقسمة إلى قسمين :

(١) ميدية الكبرى أى العراق العجمى (٢) و ميدية الصغرى أى آذربيجان .

الباب الأول

فى الحكومات الكردية في العهد الاسلامى

وهى فى أربعة عشر فصلا (١) الحكومة الروادية (٢٣٠ - ٦١٨ ﻫ) (٢) الحكومة السالارية بآذربيجان ، (٣٠٠ - ٤٢٠ﻫ) (٣) الحكومة الحسنوية البرزكانية (٣٣٠ - ٤٠٥ ﻫ) بهمذان (٤) الحكومة الشدادية بأران (٣٤٠ - ٤٦٥ﻫ) (٥) الحكومة الدوستكية المروانية بديار بكر (٣٥٠ - ٣٨٠ - ٤٧٦ ﻫ) (٦) الحكومة العنازية بحلوان (٣٨٠ - ٤٤٦ ﻫ) (٧) الحكومة الشبانكارية بفارس (٤١٢ - ٦٥٨) (٨) الحكومة اللرية الكبرى (٥٥٠ - ٨٢٧) (٩) الحكومة اللرية الصغرى (٥٧٠ - ١٢٥٠) بلرستان (١٠) الحكومات الأيوبية بمصر والشام (٥٦٧ - ٦٨٥ - ٩٥٠) (١١) الحكومة الأردلانية بايران (٦١٧ - ١٢٨٤) (١٢) الحكومة الملكية الكردية بخراسان (٦٤٣ - ٧٨٥) (١٢) الحكومة الزندية بايران (١١٦٧ - ١٢٠٢) (١٤) الحكومة البراخوئية ببلوجستان (١١٧٢ - ١٣٠٠) .

الفصل الاول

١ – الحكومة الروادية[1] : (٢٣٠ـ ٦١٨ﻫ)

تقول دائرة المعارف الإسلامية (ان هذه الحكومة هى أقدم الحكومات الكردية ، بدليل أن (ابن خرداذبه) الرحالة الذائع الصيت ، قد رأى بعينى رأسه حكومة (محمد الروادى) قائمة فى (تبريز) ،حين زارها وجاس خلالها عام (٢٣٢) من الهجرة. وان إقليم (آذر بيجان) قد انضوى تحت لواء أبى الساج محمد أفشين بن ديوداد عام ٢٨٠ للهجرة ، وظل يتوارثه الخلف عن السلف من أحفاده حتى عام (٣١٧) من الهجرة حيث قضى على حكم بنى الساج بالزوال وأسدل على هذه الحكومة الستار . فخضعت منطقة (المراغة) بعدهم لسلطان الأمير (المظفر) وهو من أكراد الديلم أعنى أحفاد الروادين القدماء) ثم ذكر المصدر نفسه أن (مرزبان) وأخاه (وهسوذان) هما من هذه الأسرة الروادية نفسها).

والواقع أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن هذه الأسرة الكردية حتى عهد (المرزبان) الذى بدأت المصادر العربية والاسلامية منذ عهده تعج بالمعلومات الوافية ، والحقائق المفصلة عن هذه الأسرة .

وسنرى عند حديثنا عن (ديسم) فى مبحث الحكومة السالارية أن (مرزبان) ابن (مامه لان = محمد) كيف تمكن من الاستيلاء على (آذر بيجان) بفضل الدسائس التى حاكها (على بن جعفر) وزير (ديسم) ضد سيده ، وأنه كان لمرزبان كاتب خاص يدعى (عيسكويه) ما فتىء يدس لدى سيده ، ويوغر صدره ضد هذا الوزير الجديد طمعا فى المال حتى شارفت الدسائس أن تأتى

---

(١) هذه الحكومة فى الحقيقة أصل الحكومة السالاريه فضلا عن ان حوادثهما متداخلة بل واحدة . وغاية ما هنالك ان فترة فصلت بينهما فنشأ خلالها تغلب بنى الساج فى اذربيجان، فلهذا كان الاجدر اعتبارهما حكومة واحدة . المترجم

بثمارها المرجوة ، لولا أن نبأها قد طير إلى (على بن جعفر) فنبتت عنده فكرة الغدر بسيده الثانى والتنكر له ، وبيت فى نفسه أمرا ، ثم أخذ ينفذ مكيدته فى السر ، وبدأ يغرى سيده محاولا إقناعه بالاستيلاء على مدينة (تبريز) للحصول على مالها الوفير وثروتها الطائلة ، فوقع (مرزبان) فى حبائله ، وأعد له جيشا وأمره بالزحف على (تبريز) لتنفيذ الخطة الموضوعة .

وسنفصل القول فى مجرى حديثنا عن (ديسم) أيضا الدور الذى لعبه (على بن جعفر) واتصاله بأهالى تبريز واتفاقه معهم على أن يستنجدوا بـ(ديسم) ويفتكوا بديالمة المدينة ... كما سنشير أيضا إلى مجىء (مرزبان) على رأس جيشه إلى تبريز وإلحاقه الهزيمة بالعدو وتضييقه الخناق عليه حتى استسلم (ديسم) عقب سقوط أردبيل بخيانة ابن النعيمى وزير (ديسم) الثانى له وانحيازه إلى (مرزبان) ، وأقام فى قلعة (طارم) هو وأسرته .

والآن نقول ، بعد أن تحقق لمرزبان ما تمنى ونجح فيما أراد من الاستيلاء على جميع آذربيجان ، وجه همه نحو الاصلاحات الداخلية فى بلاده .

وبينما كان (مرزبان) متوفرا على تنفيذ برامجه الاصلاحية ورعاية شئون بلاده ، فوجىء بغارة شنهـــا الروس على بلاده عام (٣٣٢) من الهجرة بعد أن عبروا بحر الخزر على ظهور السفن وغادروها إلى الشاطىء عند مصب (نهر الكر) ميممين شطر (آذربيجان) .

وما أن قاربت طلائع الجيش الروسى قلعة (برذعة) على الحدود الشمالية لآذربيجان حتى انبرى لهم حاكمها وتصدى لهم هو ورجاله ، وبذل محاولة يائسة لردهم على أعقابهم ، ولكن أنى له ذلك أمام قوتهم العاتية ، فدارت عليه الدائرة وانسحب من الميدان مخذولا ، فتعقبه الروس وحاصروا القلعة نفسها وسرعان ما سقطت فى أيديهم ، فانطلقوا منتشرين فى أحيائها يحصرون أهليها حصرا ويسفكون دماءهم ، ويرتكبون فيها من الفظائع ما تقشعر له الأبدان وتشيب من هوله الولدان .

ولما طيرت هذه الأنبا. إلى مسامع (مرزبان) ثارت ثائرته ، وغلى الدم فى عروقه ، فأعد جيشا قوامه ثلاثون ألفا من المحاربين ، وقاده بنفسه ، وسار للقاء الروس الذين لم يستطيعوا الصمود أمام ضرباته وبسالة رجاله واستماتتهم فى القتال ، فلاذوا بالفرار ولكن فريقا منهم تسرب حتى بلدة (المراغة) وهناك تفشى واستشرى بينهم داء عضال قضى على الكثيرين منهم ، نتيجة إسرافهم فى تناول الفواكه الفجة .

ولكن مناوشات الروس لم تنته عند هذا الحد ، بل أخذت قوات أخرى تتقاطر وتثير القلاقل من جديد ، فصمم مرزبان على قطع دابرهم بحيلة بارعة ، حيث بعث بقوة من جيشه لتعد كمينا فى طريق القوات الروسية ، واشتبك هو ومن تبقى معه من قوات مع الجيش الروسى فى معركة حامية الوطيس واضطرهم إلى التقهقر والجلاء عن المواقع التى احتلوها ، وانقلبوا على أعقابهم لا يلوون على شىء ظانين أنهم قد تخلصوا من نيران الحرب ومادروا أن كمينا قد أعد فى طريق عودتهم لاصطيادهم وإيقاعهم فى الشرك ، وقد تولتهم الدهشة وتملكهم الرعب حين فوجئوا بأنهم أضحوا بين نارين ، فالكمين أمامهم والعدو وراءهم ، ووقع الكثيرون منهم صرعى وعلى رأسهم قائدهم فى حين اعتصمت الفئة القليلة التى نجت من المذبحة بقلعة (شهرستان) التى كان الروس اتخذوها مستودعا للاسرى المسلمين والغنائم التى سلبوها منهم ، فاسرع إليهم مرزبان وحاصرهم فى القلعة ، وبينما هو قائم على حصارهم ، وتضييق الخناق عليهم، جاءته الأنباء تترى بأن (أبا عبدالله الحمدانى) قد زحف ليشن هجوما عنيفا على آذربيجان ، فاضطر إلى العودة فورا للدفاع عنها بعد أن ترك قوة من جنده لتقوم على حصار القلعة . وحين وصوله كان (الحمدانى) قد طرق أبواب مدينة (سلماس)، وعقد اتفاقا مع (جعفر بن شكويه) رئيس العشيرة الهذبانيه الكردية الحاكمة فى تلك الانحاء .

وما أن التقى الجمعان ، وحمى وطيس القتال ، حتى بدأت روح التمرد تدب وتستشرى بين صفوف الحمدانيين ، كما أبت الطبيعة إلا أن تلعب دورها فيكثر تساقط الثلوج ، ويشتد الزمهرير فيزداد الحمدانيون - وجلهم من العرب - نفورا من الحرب ، وقفلوا راجعين إلى الموصل يجرون أذيال الهزيمة والفشل .

أما عن الروس الذين كانوا محاصرين فى قلعة (شهرستان) فقد قاموا بمحاولات يائسة للدفاع ولكن ذهبت كلها أدراج الرياح وأخيرا انتهزوا فرصة سنحت فاغتنموها وتسللوا من القلعة خفية وتحت جنح الظلام إلى ساحل البحر حيث حملتهم السفن إلى بلادهم بخفى حنين .

ثم استأنف مرزبان تنفيذ برامجه الاصلاحية . وتنظيم شئون مملكته ، ولكن سرعان ماجدت عوامل وظهرت فى الأفق مطامع دفعته إلى التفكير فى الاستيلاء على أملاك جيرانه ، وكان أهم هذه العوامل عاملين :

أولهما : هجوم حكومة خراسان على (ركن الدولة) حاكم الرى .

وثانيهما : إهانة (معز الدولة) لسفير (مرزبان) .

يضاف إلى هذا أن بعض قواد (ركن الدولة) كانوا لايخفون استعدادهم لشد أزره ، ومده بكل مساعدة ممكنة ، وجاءه أحدهم المدعو (على بن جوانقوله) وأنبأه بأنه سيجد الأمور مذللة ، والطريق ممهدا أمامه لفتح (الرى) وأن هنالك قوادا آخرين غيره على أتم استعداد لمساعدته والانضمام إلى جانبه فى الوقت المناسب .

وبدأت المخابرات بين (مرزبان) و(ناصر الدولة) حاكم الموصل لاقناع الأخير وتشجيعه على الزحف إلى (بغداد) ، ولكن (ناصر الدولة) رفض هذا العرض ، ولم يحبذ هذا الرأى ، بل أشار بوجوب الاستيلاء أولا وقبل كل شىء على (الرى) وبعدها يصبح الاستيلاء على (بغداد) من السهولة بمكان

وعلى أثر ذلك عقد (مرزبان) مجلسا استشاريا مؤلفا من والده وإخوته. وعرض عليهم خطته، فنهاه والده عن إثارة الحرب، ولكن مرزبان ركب رأسه، ولم تجد هذه النصيحة منه آذانا صاغية ولا قلبا واعيا، فانفجر والده باكيا ينعى حظ ابنه قائلا. يا ترى أين سأشاهد ابنى بعد هذا العمر الطويل؟ فأجابه مرزبان بعزم وطيد وجنان ثابت.

(سترانى إما متربعا فى قصر الرى أو صريعا بين قتلى هذه الحرب)

وأخذ بعد ذلك يستعد للقتال على قدم وساق، ولما ترامت أنباء استعداده إلى مسامع (ركن الدولة) بعث يطلب النجدة من أخويه (عماد الدولة) (ومعز الدولة)، وفى الوقت نفسه دخل فى مفاوضات مع (مرزبان) وعرض عليه أن يسلمه (زنجان وأبهر وقزوين) إذا أعرض عن إثارة الحرب بينهما، وكان يقصد من وراء ذلك كسب الوقت حتى يصل إليه المدد من أخويه.

وأرسل (عماد الدين) قوة لمساعدة أخيه مؤلفة من ألفى فارس بقيادة (باش حاجب). كما أرسل (معز الدولة) بقوة مماثلة تحت قيادة (سبكتكين) وتدفقت المساعدات على (ركن الدولة) ووافاه المدد من كل صوب وفج، فجاءه (محمد بن الرزاق) على رأس قوة عاتية، كما أتته نجدة أخرى من قبل (حسن فيروزان) تحت قيادة (محمد بن ماكان)

وهكذا أضحى تحت امرته قوات هائلة، وجيش عرمرم، فجمع الشمل ووحد القيادة، وأجرى حركة تطهير واسعة النطاق بين صفوف جيشه فتخلص من العناصر الشريرة وألقى القبض على من شك فى إخلاصهم من قواد وألقى بهم فى غياهب السجون، وبعد أن قبض الزمام، وفرغ من الاستعدادات، تحرك زاحفا على رأس الجيش جاعلا قبلته وهدفه (قزوين) وما أن ألقى (مرزبان) نظرة على جحافل هذا الجيش الضخمة حتى

أسقط فى يده ، وأيقن ألا قبل له بمثل هذه الجموع الزاخرة والقوات المتدفقة ، ولكنه سرعان ما رجع إلى نفسه ، ورأى عليه عارا وشنارا أن يتراجع أو يتقهقر ، فجمع شتات جيشه المنظم المؤلف من الكرد والديلم وكان لا يعدو الخمسة آلاف رجل ، وخاض به غمار الحرب ، وتعرض جناحاه الأيمن والأيسر لهجوم عنيف من قوات ركن الدولة ؛ ورغم ما أبداه هو فى الجناح الأيمن من ضروب الشجاعة والبسالة واستماتة جيشه عامة فى الدفاع ، تمزقت أوصال جيشه شر ممزق ، ولبس الهزيمة صاغرا ، ووقع هو نفسه والكثيرون من رجاله أسرى ، فسلمه (ركن الدولة) إلى وزيره المدعو (أبو الفضل) الذى اصطحبه مخفورا بقوة إلى قلعة (سميرم) (١) .

---

(١) روى الوزير (أبو الفضل ابن العميد) تفاصيل خدعة حدثت خلال هذا السفر فقال : إن القواد الديالمة الذين كانوا فى رفقتى قد اتفقوا فيما بينهم على إطلاق سراح (مرزبان) قوة واقتدارا وتآمروا على قتلى ، فلما علمت سرا بنبأ هذه المؤامرة توجهت إلى (مرزبان) وأظهرت له اننى أنا الآخر على استعداد لخدمته ، فأطرق هنيهة ثم قال : إذا كنت صادقا فيما تقول فاقسم لى بالله العظيم ، وأنا مستعد للقيام بكل ما تريد وترغب ، فقلت له : إننى لا أضمن صداقة رفاقى من القواد الذين معنا . فقال : إذن أنت لا تعرف أصدقاءك من أعدائك ، فأولئك القواد الذين يرغبون فى إطلاق سراحى هم أنفسهم الذين يريدون قتلك . فقلت له : لقد علمت الخبر اليقين ، وثق أنى على استعداد لتقديم الخدمات أكثر من غيرى .

وعلى أثر هذه المحادثة اتصلت بهؤلاء القواد جميعا كل منهم على انفراد وتظاهرت أمام كل منهم بأننى متضامن معهم وعلى استعداد لتنفيذ ما يريدون ، فأبدوا سرورهم ، واستقر الرأى بينى وبينهم على التنفيذ فى أول منزل ننزل إليه ، فلما وصلنا أول منزل دعانى مرزبان إليه وطالبنى بالتنفيذ =

أسر السالار (مرزبان) ونجاته

ولما بلغ « مرزبان » القلعة ، وألقى به فى غياهبها أسيراً ، أضرب عن تناول الطعام، اللهم إلا حفنةمن البر يتبلغ بها سحابة يومه ، فلما طير هذا النبأ إلى مسامع (ركن الدولة) بعث إليه بطاهيه الخاص ليقوم على إعداد طعامه ويظل تحت إمرته . فخيل إلى (مرزبان) أن هذا الطاهى قد يشد أزرهويعينه على التخلص من ذل الإسار فاتفق معه على أن يهيء له طريق الخلاص ، ويمهد له سبيل الفرار ، ولكن الطاهى كان متسرعا وطائشا فقد أذاع الخبر وأفشى السر فى الوقت المناسب ، وعلم به « شيراسفار » محافظ القلعة الذى قام على عجل وسارع إلى القلعة وألقى القبض على الطاهى وقذف به من فوق الأسوار فلقى حتفه لساعته » ثم أخذ على أثر ذلك يضيق الخناق على السالار

وكانت والدة « مرزبان » المدعوة(خراسويه) ـ ابنةجستان بن واهسوذان الملك ـ تتحرق شوقا لابنها وتترقب ساعة خلاصه بفارغ الصبر ، فأخذت

= فقلت له: بما أن بيت (ركن الدولة) فى (أصفهان) وبها خزائن ملكه ، وجميع مقتنياته فالأفضل أن نواصل السير إليها حيث نستولى على ما فيها من الأموال والمتاع ، ثم ننفذ ما اتفقنا عليه . أما إذا أخذتنا العجلة وشرعنا فى العمل منذ الآن فلن نأمن قيام المخالفين من القواد والجند علينا ثائرين وقد يفسدون علينا مادبرنا . وقد خدع (مرزبان) بهذا الكلام المنطقى وأعجب بالفكرة وأبدى رضاءه عنها .

وقصارى القول اننا ماكدنا نحط الرحال على أرض (أصفهان)حتى قمت لفورى بالقاء القبض على هؤلاء القواد الخونة وأفسدت عليهم مؤامرتهم .

أما (مرزبان) فقد أرسلته مخفورا تحت حراسة أحد القواد المخلصين الذين لم يشتركوا فى هذه المؤامرة ، إلى قلعة (سميرم) . (المؤلف)

تسعى سعياً حثيثا متواصلا علها تجد له مخرجا ، وبسطت يدها كل البسط لكى تتنسم أخباره وتفك إساره . فنقدت (ابن الضابانى) ـ الذى كان أسيراً مع (مرزبان) ثم نجا من الأسر ـ مبلغا كبيراً من المال على أمل تخليص إبنها من الأسر ، كما فعلت مثل ذلك مع بطل مغامر بل مقامر من أبطال المراغة يدعى (ثوبان) اغتراراً منها بقوته وذكائه . بعد أن أعطاها على نفسه العهود والمواثيق بأنه لا بد منقذه ومخلصه لها من ذل الإسار . ثم أخذ (ثوبان) « وابن الضابانى » يعدان العدة لتنفيذما وكل إليهما أمر تنفيذه ، فتنكرا فى زى تجار ، وحملوا من الأمتعة والبضائع ما يحمله التجار ، وسارا حتى بلغ بهما المسير قلعة (سميرم) حيث ضآلتهما المنشودة ، فبعثا إلى محافظها (شيراسفار) بكتاب قالا فيه : « نحن تجار نحترف التجارة من قديم ، وإن على (مرزبان) دينا لنا ، حيث أخذ منا بضائع منذ حين ، ولم يسدد حتى الآن ثمنها ، فنرجو أن تسمحوا لنا بمقابلته لتذكيره بديننا الذى فى عنقه » . وما أن قرأ المحافظ كتابهما حتى أرسل فى طلبهما ، فلما مثلا بين يديه ، بسطا له شكواهما المزعومة ، ثم تطرق الحديث إلى التعريض بسمعة (مرزبان) وعما ارتكبه من مظالم وآثام ، وعن غدره بمن كانوا به على صلة من الجمهور والتجار ، ثم اختتما حديثهما معه قائلين « الحمد لله الذى أنقذ العالم من شروره » وقد وقع المحافظ فى حبائلهما ، وخدع بقولهما ، وغلب عليه التأثير ، فرق لهما وأبدى عطفا عليهما . وسهل لكل منهما مقابلة (مرزبان) على انفراد

ولم يفطن (مرزبان) بادىء الأمر لما دبراه من حيلة وما بيتاه من خديعة للعمل على تخليصه وفك إساره فأنكر أنه مدين لهما أو لغيرهما ، فبادر إلى شتمهما وتوبيخهما . وإن هى إلا إشارة حازمة خفية من عينى أحدهما ، حتى فطن للأمر وتنبه إلى أن ساعة الخلاص قد حانت أو أوشكت ، فغير أقواله وقال إنه

بعد أن فكر قد تذكر أن فى عنقه لهما حسابا قديما غير أنه لا يعرف القيمة على التحديد ولا بد من إحضار دفاترهما للاطلاع عليهما ، وهكذا بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الاتصالات بينهما وبينه واستمرت فترة من الزمن دون أن يتسرب نبأ مكيدتهما البارعة .

وكان لـ (خراسويه) غلام ديلمى قد تربى فى كنفها وشرب من منهل نعيمها منذ نعومة أظفاره ، وكان بارعا فى الضرب على الموسيقى والأنغام ، فدخل فى زمرة هؤلاء التجار الذين يترددون على القلعة بين حين وآخر .

ولا شك أن هؤلاء التجار قد أمطروا محافظ القلعة وموظفيها بوابل من الهدايا حتى تسنى لهم سهولة الاتصال بمرزبان كلما أرادوا ذلك .

وكان لـ « شيرأسفار » محافظ القلعة غلام شاب يتزيى بزى الديالمة من حملة العمود والترس ، فعمد إليه (مرزبان) وقربه إليه وغمره بفيض من عطفه وأسبغ عليه كريم عنايته وأمطره بوابل من الهدايا ورائع التحف حتى توثقت بينهما عرى الصداقة والمحبة وأضحى (مرزبان) يوليه كامل ثقته ويطمئن اليه ، فعهد اليه باحضار آلات لفك القيود وتحطيم السلاسل والأغلال ، فأحضرها وهكذا أخذ « مرزبان » فى فك القيود وتحطيم الأغلال التى كانت تحيط بيديه إحاطة السوار بالمعصم ، وذلك بفضل هذا الغلام الديلمى الزى.

وكان (شيراسفار) قد تعود أن يحضر الى القلعة يوم الجمعة من كل أسبوع ليشاهد القيود والسلاسل عن كثب ثم يعود أدراجه ، وقد حدث فى يوم جمعة أن جلس (ثوبان) فى القلعة الى جانب (مرزبان) بينما وقف التجار الآخرون فى انتظاره على باب القلعة ، وكان الغلام الديلمى الزى يجالس « مرزبان » أيضا ، فدخل عليهم « شيراسفار » وجلس الى جانب «مرزبان» ، وشرعا يتناقشان فى مواضيع عامة . وفى أثناء الحديث بادره «مرزبان» قائلا :

« إذا أطلقت سراحى وأخليت سبيلى فلك منى ماتريد وأكثر »

فأجابه « شيراسفار » على الفور قائلا : انني لن أخون « ركن الدولة » ما حييت » وهنا نهض (مرزبان) متحللا من القيود والاغلال متجها شطر الباب وفى الوقت نفسه قفز « ثوبان » لفوره وهجم على (شيراسفار) وألقاه على الأرض وطعنه بالخنجر طعنة نجلاء أردته قتيلا يتخبط فى دمائه ، كما انقض من بالباب من التجار على الحراس وأوسعوهم طعنا وتقتيلا حتى فنوا عن آخرهم .

ولما أنهى هذا الخبر المشئوم إلى حفاظ الأمن وحماته الذين كانوا موزعين عند اجتماع مرزبان برجاله هرعوا الى داخل القلعة يستقصون حقيقة الخبر ، فلما وقعت أنظارهم على رئيسهم ملقى على الأرض جثة هامدة لا حراك فيها، لم يروا مندوحة من التسليم صاغرين الى رجال « مرزبان » وأنصاره الذين هرعوا اليه من كل حدب ، وتدفقوا عليه من كل صوب ، فالتفوا حول رايته وقدموا له فروض الطاعة والولاء [عام ٣٤٢ هـ]

وعلى أثر ذلك كتب الى أمه وأخيه ومريديه يطلعهم على آخر أخباره ثم مالبث أن نهض وتوجه الى أذربيجان . [تجارب الأمم ج (٢) ـ الكامل ـ ٩]

ونعود الآن لنعرف ماذا حدث بعد أسر « مرزبان » ؟

بعد اندحار قوات (مرزبان) ووقوعه فى الأسر ، عاد من تبقى ونجا من رجاله بقيادة كل من « جستان بن شرمزن » و « على بن فضل » و « شهرفيروز بن كردويه » وبعض قواد آخرين مع جيش قوامه ألف رجل من المقاتلة الى « أذربيجان » والتفوا جميعا حول (محمد بن مسافر) والد (مرزبان) ثم توجهوا شطر « أردبيل » وتمكنوا من دخولها ، ونصبوه حاكما عليها ، ولكن هذا الحاكم أساء معاملة الأهالى واستبد بهم ، فهجر ابنه (واهسوذان) المدينة خشية ماتوقع حدوثه من انفجار الأهلين ضد أبيه ولجأ إلى قلعة (طارم) ، وقد حدث فعلا ما توقعه إذ لم يمض زمن طويل حتى

ضج الناس وانفجروا ثائرين ينادون بسقوط حاكمهم الجائر ، وعزم الديالمة على سفك دمه ، فخشى (محمد بن مسافر) سوء العاقبة ومغبة الأمر فغادر « أردبيل » وتوجه إلى ابنه (واهسوذان) فى قلعة طارم ملتمسا الأمان فى كنفه والحماية فى حوزته . ولكن لأشد ما كانت دهشته حين ألقى ابنه القبض عليه وزج به حبيسا فى قلعة (السيسجان) وظل يعانى فيها آلام السجن جزاء ما قدمت يداه ، حتى لحق بالرفيق الأعلى .

ومن الحوادث البارزة أيضا بعد أسر « مرزبان » أن « ركن الدولة، كان قد أقطع « آذربيجان » لمحمد بن عبد الرزاق وأرسله على رأس جيش اليها ، فوقع (واهسوذان) فى حيص بيص وأسقط فى يده ، واضطر لاطلاق سراح (ديسم) وأسبغ عليه جميل عطفه وأنعم عليه بخلع سنية ، ثم بعث به لمحاربة محمد عبد الرزاق . [تجارب الأمم] ويرجع فى حوادث ونتائج هذه الحرب ومآل ديسم إلى البحث الخاص به الذى سيأتى الكلام عنه فى الحكومة السلارية ،

ولم يعمر السالار « مرزبان » طويلا بعد عودته من (سميرم) وقضائه على حركة (ديسم)التى سيأتى الحديث عنها ، بل أصابه مرض مميت عام(٣٤٥) هجرية وأوصى وهو طريح الفراش بحكمدارية الروادية من بعده لأخيه (واهسوذان) وبولاية العهد لابنه (جستان) ، ثم ألح عليه المرض ، وما لبث أن لقى ربه .

وبعد وفاته بعث أخوه (واهسوذان) بخاتم الملك وبعض شارات حكم (مرزبان) إلى حكام المدن والقلاع طالبا اليهم تقديم فروض الطاعة والولاء لذاته الملكية ولكن أحدا منهم لم ينفذ له أمرا ، لأنهم سمعوا مرزبان يقول قبل وصيته الأخيرة بوجوب الخضوع بعد مماته لابنه (جستان) أولا ، ثم يرجع ملك (الروادية)إلى ابنه(ابراهيم) ، ثم لابنه(الناصر) من بعدهما ، وإذا

لم يوجد كل هؤلاء ، وجبت الطاعة ، وحق الولاء لأخيه (واهسوذان) .

وقد أصر جميع القواد والزعماء على تنفيذ هذه الوصية التى سمعوها بآذانهم مما أثار الحنق وحرك مكامن الغضب بين جوانح (واهسوذان) ، وحمل هذا على غفلة السالار .

وفى هذه الأثناء قام ابن أخيه الأمير ابراهيم الذى كان صهرا لـ (ولـكين ابن خورشيد) زعيم الديالمة ، دون اذن من عمه ، باطلاق سراح ولـكين هذا وكان معتقلا بأمر من مرزبان فى (أردبيل) وذلك تحت تأثير من امرأته ، فاستشاط (واهسوذان) غضبا على ابن أخيه ، وسرى الرعب فى قلبه من جراء هذه الحركة وما تلاها من حركات أخرى ، فما كان منه إلا أن اختصر الطريق وغادر (أردبيل) سرا قاصدا قلعة (طارم) .

وبهذا خلا الجو لـ « جستان » فاستقل بأمور الحكم وقبض على زمام الحالة وبسط نفوذه على شئون الادارة فى البلاد وحده دون منافس ، وخضع له جميع أخواته ، وقدم له القواد والزعماء فروض الطاعة والولاء ما عدا والى أرمينية المدعو (جستان بن شرمزن) الذى أخذ يناوئه ويعمـل جاهدا على الاستقلال بالحـكم .

ولما استقر (واهسوذان) فى طارم لم يخلد إلى السكينة بل شرع يثير الفتن والبغضاء بين أبناء أخيه على قاعدة (فرق تسد) ويؤلبهم ضد بعضهم البعض فما لبثت هذه الأعمال أن أحدثت أثرها المرجو ، لدرجة أن أبناء أخيه أضحى كل منهم يضمر العداء والـكراهية للاخر ، ولما تيقن واهسوذان من أن العداء قد استحكمت حلقاته بين الأخوة ، وجه الدعوة إلى ابن أخيه الأمير ابراهيم واستقبله بحفاوة بالغة ، وفى نفس الوقت دارت المخابرات بينه وبين الناصر وتمكن بدهائه ومكره من تأليبه على « جستان » ، فشق عصا الطاعة عليـه ،

وتوجه نحو « موقان = مكريان » (١) ، فانسل فريق من جيش « جستان » وانضموا إلى صفوف الناصر جريا وراء المال ، ثم سار النـاصر بعد ذلك لمحاربة أخيه (جستان) (٢) فتقدم نحو (أردبيل) وبسهولة تم له الاستيلاء

---

(١) هكذا فى الأصل وظاهر أنه خطأ إذ (الموقان ، أو الموكان) غير (مكريان) فالاول يقع فيما بين أردبيل ونهرى الـكر والرس بعد اتصالهما ، أما الثـانى فهو اسم لولاية كردية أخرى تقـع بشمال ولاية أردلان وجنوب بحيرة أرمية (المترجم)

(٢) كان أول عمل قام به (جستان بن مرزبان) بعد أن استقرت فى يده الامور أن قتل (ديسم) عام ٣٤٦ هـ . وكان هذا الحاكم الذى خلف أباه فى الحـكم مستهترا ومنغمسا فى اللذات ومنهمكا فأهمل شئون الدولة والجيش ، وبعـد حين ألقى القبض على الوزير (ابن النعيمى) وسجنه ، فخامر الريب وزير (جستان بن شرمزن) الذى كان يكنى بأبى الحسن والذى كان يمت بصلة القربى إلى (أبى عبـد الله النعيمى) فحمل أبو الحسن سيده (جستان) هذا على الاتصال بابراهيم وتشجيعه على المطالبة بالملك لنفسه ، ولم يمض طويل حتى قام ابراهيم وابن شرمزن بالهجوم على (المراغة) واستوليا عليها ، ولما أنبىء (جستان بن مرزبان) بذلك تفاوض مع ابن شرمزن ووزيره ، وأطلق سراح (ابن النعيمى) إرضاء له وحـل بينه وبينهما الوئام وكف ابن شرمزن عن مساعدة ابراهيم ، ولـكن الأخوين قد كشفا حقيقة ابن شرمزن وخيانته لـكليهما فدخلا فى مفاوضات أعادت المياه إلى مجاريها بينهما .

وأما (ابن النعيمى) الذى أطلق سراحه فقد توجه إلى (موقان) ومن هناك اتصل « باسحاق بن عيسى بن المـكتفى بالله » العباسى فى شأن التماس الخلافة له ، وشجعه على ذلك وأعطاه عهدا على نفسـه بأن يمده بالجيش اللازم ، وأن يستولى على « آذربيجان » باسمه وفعلا قدم لأسحق ثلاثمائة فارس ووضع نفسه تحت امرته ، وحضر « ابن شرمزن » كذلك وبايعه =

عليها فاضطر اخوه (جستان) إلى اللجوء والاعتصام بقلعة (نيز) .

حدث بعد ذلك أن ثار جند (الناصر) عليه وأوغلوا فى مضايقته مطالبين بأعطياتهم المتأخرة ، وكان الناصر على يقين بأن عمه هو المحرك لهم لأنه يكيد له كيدا ويريد به السوء ، فأخذ يعض بنان الندم على ما فرط منه ضد أخيه (جستان) ، فرجع إلى نفسه ، وبعث إلى أخيه طالبا عقد الصلح بينهما ،فلبى (جستان) النداء وعادت بينهما الأمور إلى مجاريها فاتصل بينهما حبل المودة والوئام بعد الحرب والخصام ، واعترف الناصر بملكية أخيه (جستان) . ولكن الحالة فى البلاد ظلت متوترة وكانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ ، فقد اشتدت حاجة الجند إلى المال فألحوا فى طلبها من أولى الأمر الذين أصموا آذانهم حتى بلغ السيل الزبى لدرجة أن الأخوين يئسا من إعادة الأمور فى البلاد إلى وضعها الطبيعى فما كان منها إلا ان كتبا إلى عمهما (واهسوذان) يعرضان الذهاب إليه فأعطاهما الأمان ورحب بعرضهما ، فاصطحبا والدتهما وهرعا إليه ، ولكنه أبى إلا أن تظل الخيانة شيمته فألقى القبض عليهما بمجرد وصولهما دون مبالاة لما أعطاه على نفسه من عهود ومواثيق ، وألقى بهما فى السجن . وبذلك خلاله الجو فبسط سلطانه ونفوذه على جميع البلاد وأخضعها لأدارته ، ثم نصب ابنه (اسماعيل) وليا للعهد وأقطعه أكثر البلاد، كما إنه أعطى مبالغ كبيرة من الأموال لرجال الجيش وقواده وبذلك ضمن ولاءهم له .

وفى خلال هذه الفترة كان (ابراهيم السالار) قد ذهب إلى أرمينية حيث اتخذها له مستقرا ومقاما ، فلما جاءه نبأ إلقاء القبض على أخويه الناصر

= بالخلافه . واتفق الملك (جستان) مع الأمير ابراهيم وحاربا مدعى الخلافه هذا، الذى سمى نفسه (المستجير) فقبضا عليه ، وأرغما (ابن شرمزن) على الفرار والالتجاء إلى قلعة (أرميه)اه[الكامل ج ـ ٨] المؤلف

وجستان ، عمد إلى شن الحرب على ابن عمه (اسماعيل) أملا فى إنقاذ أخويه

ولما علم (وهسوذان) بهذا النبأ المروع ، تملكه الفزع واشتد به القلق ، ولا سيما أن جماعة من الجمهور وبعض رجال الجيش من الديالمة كانت روح التمرد والثورة قد بدأت تجد إلى أنفسهم سبيلا فى نفس الوقت الذى أعلن فيه ابراهيم الحرب على ابن عمه اسماعيل ، فبادر (وهسوذان) الى قتل كل من (جستان) وأخيه (الناصر) وأمهما . وجهز حملة عسكرية بعث بها مع مبلغ من المال إلى (جستان بن شرمزن) وطلب إليه أن يقاتل بها (ابراهيم السالار) وكان ذلك (عام ٣٤٩ من الهجرة)

ولما فوجىء (ابراهيم) بهذه الحملة لم يستطع الصمود أمامها فاختصر الطريق وقفل راجعا إلى (أرمينيه) ، ولكن (جستان بن شرمزن) قد شن هجوما عنيفا على بقية رجاله وسدد إليهم ضربات قاتلة وألحق بهم هزيمة شنعاء ، وتمكن من الاستيلاء على (المراغة) التى كانت مركز إمارة (ابراهيم) واستولى كذلك على (أرمية) . اه من (الكامل ج ـ ٨ ص ٢٠٩).

ولما عاد الأمير (ابراهيم السالار) إلى (أرمينيه) لم يستسلم للهزيمة ، ولم يخلد الى الراحة والسكينة ؛ بل أخذ يعد العدة لإعادة الكرة ، فقامت الاستعدادات على قدم وساق حتى تمكن فى عام (٢٥٥) من الهجرة إلى حشد جيش كبير ليغزو به (آذربيجان) ، ولكى يضمن لغزوته النجاح والظفر اتصل بجستان بن شرمزن واتفق معه على أن يقف الى جانبه ويشد أزره وتم بينهما التفاهم على خطة العمل ، وساعدت الظروف (ابراهيم) حيث مات ابن عمه (اسماعيل) وقتئذاك ، فانتهز (ابراهيم) الفرصة وزحف الى « أردبيل » وتمكن بسهولة من الاستيلاء عليها » وصمم على الانتقام لأخويه من عمه ، ولكن « وهسوذان » قد اشتم رائحة الخبر وخشى سوء العاقبة ففر هاربا مع « ابن مشكى » الى بلاد الديلم ، وبذلك خلا الجو للامير « ابراهيم » وتمكن من الاستيلاء على جميع بلاد « آذربيجان » وصادر جميع أملاك عمه وأمواله .

أما « وهسوذان » فمنذ أن فر هاربا الى بلاد الديالمة وهو يعمل جاهداً لتعكير صفو الامير ابراهيم ومناوأته وقد حقق له الديلم أمنيته فأمدوه بجيش كبير زحف به على « آذربيجان » وتمكن من اقتحام قلعة « طارم » كما أنه أرسل أبا القاسم ابن ميشكى على رأس جيش آخر لمحاربة « ابراهيم » ودارت بين الجيشين رحى معركة حامية الوطيس أسفرت عن اندحار جيش « ابراهيم » وسفك دم رجاله الذين وقعوا صرعى فى الميدان ولم ينج ابراهيم نفسه الا بأعجوبة وفر إلى الرى ملتجئا الى « ركن الدولة » زوج أخته الذى قابله بالحفاوة والتكريم وأكرم وفادته .

« ابراهيم السالار »

فى نفس السنة وفى عاصمة (ركن الدولة) أدى ابراهيم السالار خدمات جليلة خلال ثورة الديالمة وشقهم عصا الطاعة على ركن الدولة لدرجة أنه أصيب بجراح خطيرة ، وبعد حين بعث ركن الدولة بوزيره (أبي الفضل ابن العميد) على رأس جيش فى صحبة ابراهيم السالار للاستيلاء على آذربيجان وتمكن الجيش البويهى فعلا من الاستيلاء عليها وتوسط فى الصلح بين (جستان بن شرمزن) و (ابراهيم) وتم الصلح بينهما على يديه ، وما أن رأى هذا الوزير العاقل (أبو الفضل) ماعليه إقليم آذربيجان من الغنى والثروة الطائلة والخصب حتى أعجب بها أيما إعجاب وكتب سرا إلى (ركن الدولة) قائلا أنها لخسارة كبرى أن يعهد بإدارة مثل هذا الأقليم إلى مثل (السالار ابراهيم) المنغمس فى الملذات والشهوات ، والمنصرف عن شئون الادارة والحكم ، ثم طلب إليه أن يباشر هو بنفسه شئون هذا الأقليم على أن يسند إلى إبراهيم شئون إقليم آخر فى الدرجة الثانية من الأهمية ، ولكن هذه المشورة كان

مصيرها الرفض البات . وزيادة على ذلك فقد أمر (ركن الدولة) وزيره هذا بالعودة فورا من آذربيجان الى عاصمة ملكه .

هذا ، ومما يؤسف له أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن نهاية عهد إمارة (ابراهيم) وإن كنا نأخذ من رواية (بيشكوتن ـ نشريات ـ ٦) أنه يلوح أن ابراهيم قد استمر يحكم حتى عام ٣٨٠ من الهجرة ، ثم خلفه إبنه (راويدى) ثم خلف هذا الأخير ابنه (كلاس) ثم تلاهما فى الحكم (واهسوذان) بن (كلاس) (١) فى عام ٤١٥ من الهجرة .

« واهسوذان الثانى »

اجتاح (الغز)(٢) بلاد (آذربيجان) عام (٤٢٠) من الهجرة فى عهد هذا الحاكم ، وقد بذل محاولات يائسة فى مبدأ الأمر ليقى البلاد شر هؤلاء الغزاة المتوحشين . فلا ينهم وقدم لهم كل مساعدة ممكنة ولكن ذهبت كل هذه المحاولات أدراج الرياح ، وازدادوا تعنتا وأوغلوا فى التدمير والتخريب واسترسلوا فى السلب والنهب .

وفى عام ٤٢٩ من الهجرة شن الغز غارة شعواء على مدينة (المراغة) وانتشروا فى شرايين المدينة يسفكون الدماء ويذبحون الأبرياء حتى هلك

---

(١) يطلق عليه منجم العمران فى ص ١٨٩ اسم (غلاك)

(٢) كانت (الغز) عشيرة تركمانية من عشائر أطراف بخارى ، جبلوا على الوحشية والقسوة وحب السلب والنهب مما حملهم على الانقضاض على البلاد والتسلط على العباد ، وكان قسم منهم قد تقدم تجاه (أصفهان) وبقى قسم آخر فى (خوارزم) بينما توجه القسم الثالث نحو « آذربيجان » و« كردستان » بقيادة كل من توقا وكوكتاش ومنصور ودانا . المؤلف

الأهلون عن بكرة أبيهم ، كما أشعلوا النار فى المساجد وأحرقوا المعابد ، ونهبوا الأموال واغتصبوا المقتنيات. واستهانوا بأقدس الحقوق الانسانيه ولم يرعوها مما لا يقره دين من الأديان أو يستريح ضمير أحط فرد من بنى الانسان. ولم تقف أعمال السلب والنهب عند حد سكان المدن والقرى فحسب بل أكتوت القبائل الكردية الضاربة فى أطراف المدينة ، بنارهم ، وتعرضت لويلاتهم.

وإزاء هذه النكبة الطامة والاضطهادات المريرة التف كثير من العشائر الكردية حول (أبى الهيجاء بن ربيب الدولة) رئيس عشيرة الهذبانية وتكاتفوا جميعهم مع (وهسودان) ليقفوا جبهة متراصة فى وجه هؤلاء المغيرين المدمرين من الغز ، وقد نجم عن تكوين هذه الجبهة القوية أن خاف الغز سوء العاقبة ومغبة الأمر فزحفوا إلى (الرى) أشتاتاً ، إلا أن الكرد قد طاردوهم وأعملوا السيف فى رقابهم وقتلوا الكثيرين منهم.

وكانت قوة منهم قد دخلت (أرمينيه) وأخذ رجال هذه القوة يجوسون خلالها وتوغلوا فيها ، وما أن جاءهم نبأ هذه المذبحة التى حاقت باخوانهم حتى عادوا على جناح السرعة الى (أرميه) وهى منطقة أبى الهيجاء الهذبانى واشتبكوا فى القتال مع الأكراد ودارت بين الجيشين معركة حاميه الوطيس أسفرت عن خسائر فادحة لكلا الطرفين ، وعجز أبو الهيجاء عن استئصال شأفتهم وقطع دابرهم.

وفى عام ٤٣٢ من الهجرة دبر (وهسوذان ماملان) (١) مكيدة للتخلص

---

(١) حين أغار الغز على (آذربيجان) كان يحكمها (واهسوذان) وهو من الأسرة الروادية وكان مشهورا باسم (واهسوذان بن ماملان) على رأى دائرة (المعارف الاسلامية ج — ٤ ص ٥٨٤) أما رأى « منجم العمران ج — ٩ ص ١٨٩ » فهو أنه كان مشهورا باسم (واهسوذان بن غلان).
المؤلف

من الغز ، فأقام فى (تبريز) حفلة عامة دعا اليها رؤساءهم وزعماءهم المبرزين وما دار بخلدهم أنه قد دبر لهم فى نفسه أمرا ، وفى أثناء الحفلة فوجئوا بإلقاء القبض عليهم جميعا ، ثم أصدر (واهسوذان) أوامره لرجال جيشه بالانقضاض على جند الغز ، فشنوا عليهم هجوما عنيفا ، وقتلوا الكثيرين منهم ، وفر الناجون منهم، من (آذربيجان) كما سيأتى .

وليس لدينا معلومات أخرى عن عهد هذا الحاكم ولا عن أحوال وحوادث هذا الأقليم إلى حين أن قدم إليه (طغرل بك السلجوقى) واستقر فيه سنة (٤٤٦) كما سيأتى قريبا .

وتروى لنا (دائرة المعارف الإسلامية ج ـ ٤) أن عام ٤٣٤ للهجرة قد شهد زلزالا مروعا فى مدينة (تبريز) جعل عاليها سافلها ، ونشر الدمار وأنزل الويلات فى شتى أنحائها مما اضطر ملكها (واهسوذان) إلى تشييد قلعة جديدة ونقل قاعدة ملكه إليها ، خشية إغارة الغز وسطوهم على المدينة خلال محنتها القاسية ، ورزئها الجسيم .

وكان يحكم مدينة (تبريز) عام ٤٣٨ للهجرة حاكم يدعى (ناصر خسرو)[١] متخذا لنفسه (لقب سيف الدولة وشرف الملة أبو منصور واهسوذان بن ماملان) كما يدعى بمولى أمير المؤمنين .

وفى عام ٤٤٦ للهجرة غادر السلطان (طغرل) مدينة (أصفهان) وتوجه صوب (آذربيجان) فخف الأمير أبو منصور واهسوذان بن محمد الروادى

---

(١) هكذا فى الأصل، والصحيح أن الرحالة الفارسى الشهير (ناصر خسرو) يقول انه حينما مر بمدينة (تبريز) كان على رأسها الملك المدعو (ابو منصور واهسوذان بن محمد = ماملان) وكان يلقب بسيف الدولة وشرف الملة . راجع رحلة (ناصر خسرو) ص ١٣ طبع الهند . (المترجم)

لمقابلته ، وبادر إلى لقائه فى طريقه إلى (آذربيجان) قبل أن يصل اليها مقدما لهفروض الطاعة وعلائم الولاء . وهكذا أضحت حكومة آذربيجان الروادية حكومة تابعة تدين بالخضوع للسلطان وأسدل الستار عليها كحكومة روادية مستقلة ، منذ هذا التاريخ .

وإنه ليتعذر علينا ـ لجهلنا بميلاد تأسيس هذه الحكومة ـ تحديد عهد استقلالها على التحقيق، ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن قسما من إقليم الجبال كان يخضع أيضا لحكام آذربيجان الروادييين على أن المعلومات التى فى متناول أيدينا عن الفترة الأخيرة عن عهد هذه الحكومة من القلة بمكان ، حيث ان المصادر لم تتعرض إلا للاعمال والحوادث التى وقعت فى عهد (أحمديل) فقط . وإن كان (السيدحسين المكريانى) يقول إن (واهسوذان) الثانى قد لحق بالرفيق الأعلى عام ٤٥٨ من الهجرة وأن ابنه (ابراهيم) قدحكم بعده واستطال حكمه وعمر حتى عام ٤٩٠ من الهجرة .

والظاهر أن مدينة (تبريز) سقطت فى أيدى الترك فى عهد ابراهيم وبذلك انتزعت من أيدى الروادييين ، وخرجت من حوزتهم ثم ظل حكمهم بعدذلك قائما فى (المراغة) فقط حينا من الدهر . (الكامل ج — ١٠ ص ٢٠٥) .

« الامير أحمديل »

تقول « دائرة المعارف الأسلامية » ان الأمير « أحمديل » هو « ابن ابراهيم بن وهسوذان الروادى الكردى » ويلوح أنه نجح فى إحياء حكومة « المراغه » التى عمرت حتى عام (٦٢٤ هـ) .

وفى عام ٥٠٥ للهجرة حينما اشتعلت نيران حرب ضروس بين جيوش السلطان « محمد بن ملكشاه » وامبراطور الروم ، اشترك فيها الأمير « أحمديل » بجيشه إلى جانب الجيوش السلطانية مع كل من (سقمان القطبى) أمير تبريز

و(مودود)أمير الموصل و(ابى الهيجاء) حاكم أربل وأمراء آخرين فى المعارك التى دارت رحاها فى ارض سورية وأبلى فيها بلاءاً حسنا ، حيث تصدى لقائد جيش ملك القدس الشهير (جوسلين ـ jasclin) اه . من (تاريخ حلب)

ولكن الأمير (أحمديل) ما لبث أن انسحب من الميدان متظاهرا بأنه مضطر إلى مغادرة سورية والعودة على عجل،إلى (آذربيجان) بسبب وفاة « سكمان القطبي » حاكم (ديار بكر) و (تبريز) . ولكنه فى الحقيقة كان يخفى فى نفسه أمرا جللا وهو العمل على استرجاع ملك آبائه وأجداده .

وكان تحت إمرته وطوع بنانه ـ كما يقول ابن الجوزى(١)ـ جيش خاص قوامه خمسة آلاف من الفرسان ، ودخل سنوى يقدر بأربعمائة ألف دينار. وكان طموحا عالى الهمة واسع الآمال . ولكن ما درى أن قدر له غير ما يهوى وخلاف ما يبغى فقد حدث فى عام (٥١٠) من الهجرة أن كان الأتابك (طغتكين) حاكم دمشق فى ضيافة السلطان (محمد) فى بغداد ، وبهذه المناسبة كان قد وفد إلى بغداد الكثيرون من الأمراء والحكام ومن بينهم الأمير (أحمديل) الروادى

وذات يوم بينما كان (أحمديل) جالسا إلى جانب (طغتكين) فى حفل زاخر تقدم رجل يهمر الدمع من عينيه مدرارا وفى يده ورقة يلتمس السماح له برفعها إلى السلطان ، فنهض الأمير (أحمديل) وخف صوب الرجل وقد رق له قلبه ليتناول من يديه الورقة فما كان من هذا الرجل الذى بدا فى ثوب البائس العانى ـ إلا أن شهر خنجرا كان يخفيه وطعن به الأمير طعنة نجلاء ، ولكن الأمير أمسك بتلابيبه وطرحه أرضا ، فتقدم آخر وهجم على الأمير وطعنه طعنة ثانية . وظهر ثالث فطعنه طعنة قاضية أردته قتيلا على مرأى

---

(١) حيث يقول فى (مرآة الزمان) ان الامير احمديل كان قد حضر الى بغداد وبمعيته خمسة آلاف فارس. (ج — ٣ ص ٣٢) المؤلف

ومسمع من هذا الجمع الحاشد وهكذا قضى عليه ودفن ، ودفنت معه آماله فى استعادة ملك آبائه وأجداده .

وقد ظن (طغتكين) لأول وهلة أن هذه الجريمة الشنعاء لا بد من أن دبرها السلطان ورجاله ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الظن حيث ظهر الحق ، وبان أن هؤلاء الجناة من الباطنية (١)

« آق سنقر الاحمديلى »

خلف هذا الأمير والده الأمير (أحمديل) على إمارة(المراغة) بعد وفاته .

وفى عام (٥١٤) للهجرة حينما شق الملك (المسعود) حاكم الموصل وآذربيجان عصا الطاعة على أخيه السلطان (محمود) وقلب له ظهر المجن ، أرسل أتابكه السابق (قاسم الدولة بزرك) ليستولى على إمارة المراغة ويتسلمها منتهزا الفرصة، ولكن ثورته هذه قد باءت بالفشل وعادت الأمور سيرتها الأولى وبذلك تمهد السبيل لعودة (ابن احمديل) من بغداد الى مقر إمارته عام (٥١٥) للهجرة حيث اتخذها مستقرا له ومقاما دون منازع، ولكن الطمع قلما جمع أسباب الهناء والراحة ، إذ لحق بالرفيق الأعلى فى هذا العام، الأمير (كون طوغدى) حاكم (أران) من قبل السلطان (طغرل) ، وهنا بدأ (ابن احمديل) يسعى سعيا حثيثا لدى السلطان طغرل لتعيينه حاكما على (أران) خلفا لحاكمها الراحل فارسل السلطان فى طلبه ،على أن يصطحب معه عشرة آلاف من المقاتلة ، ويقدم المساعدة الممكنة لجيوشه أثناء قيامها بفتح (أردبيل) . ولكن تنفيذ هذا الأمر ، ومغادرة (ابن أحمديل) لامارته (المراغة) صار وبالا ، وجر عليه خسائر فادحة ، إذ انتهز السلطان (محمود) فرصة تغيبه

---

(١) من (دائرة المعارف الاسلامية ومعجم البلدان) . المؤلف

عن إمارته وانشـــغاله فى حروب السلطان طغرل ، واستولى عليها بوساطة (حيوش بك) ولـكن سير الوقائع تدل على أن (ابن أحمديل) لم يقف جامدا ازاء الحالة الجديدة بل أخذ يسعى للتقرب من السلطان (محمود) ، حتى نجح مسعاه أخيرا فتم التفاهم والوئام بينهما ، وعينه السلطان أتابكا (مربيا) لابنه وولى عهده الأمير (داود)

وفى عام (٥٢٣) من الهجرة اشترك الأمير (آق سنقر بن أحمديل) فى الحملة المرسلة على (دبيس بن مزيد) ، وبعد عام من اشتراكه فى هذه الحملة أبدى نشاطا محسوسا ليتولى الأمير (داود) السلطة والملك .

وفى عام (٥٢٦) من الهجرة اشتبك جيشا السلطان (طغرل) والأمير (داود) على مقربة من (همذان) وحاقت الهزيمة بجيش الأمير لتألب الجنود عليه وخيانتهم له ، وهكذا لبست الهزيمة الأميرين (داود) و (آق سنقر) مما أدى إلى استيلاء السلطان (طغرل) على (المراغة) و (تبريز) .

وبعد حين لجأ كل من الأمير داود وعمه الملك المسعود وأتابكه آق سنقر إلى بغداد حيث مد الخليفه اليهم يد المساعدة وزودهم بجيوش وعتاد وأموال طائلة ، مما قوى ساعدهم وحفزهم إلى التوجه صوب (المراغة) وسرعان ماوقعت فى أيديهم وأضحت فى قبضتهم وفيها ازداد نفوذهم وقويت شوكتهم بفضل ما يكنه أهلوها للأمير (آق سنقر) من عميق الولاء، وصادق الحب ، مما أدى إلى تحرير جميع بلدان آذربيجان وتخليصها من بين براثن غاصبيها ، ولـكن أنى لهم الوقوف عند هذا الحد ، بل يمموا شطر (همذان) وهنالك شتتوا شمل قوات السلطان (طغرل) ومزقوا صفوفها شر ممزق ، وسقطت (همذان) فى قبضة جنود الملك المسعود .ولـكن الأمير (آق سنقر)مثل والده قد اغتالته يد أثيمة فى اثناء دخول القوات الظافرة همذان عام (٥٢٧) من الهجرة ، اذ كان هذا القاتل باطنيا موفدا من قبل وزير السلطان (طغرل) لارتكاب هذه الجريمة الوحشية .

« آق سنقر الثانى »

هو ابن آق سنقر الاول ابن احمديل . ولم يتفق جميع المؤرخين على هذه التسمية بل اختلف بعضهم وذكروه بأسماء متباينة .

وكان يتحدى هذا الأمير ويناصبه العداء والبغضاء ، أمير آخر يدعى (أزبك بن بالنيكارى) الذى كان يلح باذلا قصارى جهده أملا فى الاستيلاء على (أران) و (آذربيجان) وكان فى هذا الوقت (تبريز) خاضعة لحكم آق سنقر امير المراغة .

وما ان أهل عام (٥٤١) للهجرة حتى ضرب هذا الأمير (ازبك) حصارا منيعا حول مدينة (المراغة) ولكنها امتنعت عليه واستطال حصارها حتى عام (٥٤٥ هـ) .حيث خف إليه السلطان مسعود بنفسه على رأس جيوش جرارة مالبثت أن اقتحمت المدينة وتم للسلطان الاستيلاء عليها وأمر بهدم قلعتها الحصينة .وبعد ذلك بقليل زالت الجفوة بين (أزبك) والأمير (آق سنقر) وتم بينهما الصلح وحل الوفاق والوئام أمام قلعة (روين دز) (١)

ولكن (أزبك) لم يعمر طويلا بعد هذا الصلح حيث لقى حتفه مقتولا على يد السلطان (محمد) إثر غضبة جامحة ، مما أفضى إلى استياء الأميرين « أيلدكز » و « آق سنقر » من السلطان محمد واقدامهما على تنصيب الملك (سليمان) على عرش « همذان » عوضا عنه .

ولكن السلطان « محمد » استطاع بعد حين استخلاص « همذان » واستعادة سلطانه عليها ، ثم رأى من الحكمة أن يعقد صلحا مع أميرى آذربيجان « ايلدكز وآق سنقر » فأوفد اليهما رسلا من قبله لمفاوضتهما فى عقد الصلح ،

---

(١) اى قلعة (روين) كانت قلعة حصينة جدا على نهر الصوفى على مسافة ١٥ كيلو متراً فى شمال المراغة . المؤلف

فلبيا دعوته وحققا رغبته وعقد الصلح فى عام (٥٤٩) للهجرة ، وهكذا قسم إقليم آذربيجان بين الأميرين الكبيرين .

وقبل أن يلحق السلطان (محمود) بالرفيق الأعلى وتصعد روحه إلى بارئها وضع ابنه الصغير (داود) تحت وصاية الأمير (آق سنقر) لأن السلطان (آرسلان) كان فى حماية الأمير (ايلدكز) وتحت وصايته .

ثم حدث بعد ذلك أن قام (بهلوان بن ايلدكز) على رأس حملة عسكرية وهاجم الأمير (آق سنقر) أملا فى تنصيب هذا الأمير المحمى وهو السلطان (آرسلان) بدل والده غير أن أمير (المراغة) الشجاع قد دحر الجيش المهاجم بقيادة بهلوان على ضفاف نهر (سفيدروذ) واضطره إلى التقهقر وذلك بتعضيد (شاه أرمن = لقب ملوك خلاط من الكرد والتركمان) له فى عام ٥٥٧ من الهجرة.

ولما تم لأمير المراغة استئصال شأفة هذه الحملة وتشتيت شملها ، بعث بخمسة آلاف من الجنـــود لنجدة (إينانج) حاكم الرى الذى كان مشتبكا حينذاك فى القتال مع (ايلدكز) وجنوده . إلا أن (أيلدكز) قد استطاع تشتيت شمل هذه النجدة وألحق بها هزيمة شنعاء . ويلوح أن (آق سنقر) و (ايلدكز) قد زالت بينهما الجفوة بعد ذلك وحل بينهما الوئام والوفاق وتبدد الخصام ، بدليل مساعدة (آق سنقر) للامير (ايلدكز) فى حملته على بلاد الكرج .

وفى عام (٥٦٢) للهجرة قام الأمير (آق سنقر) بزيارة، إلى بغداد حيث استقبل من الأهلين استقبالا منقطع النظير وقدم الملك (داود) لأتابكه وحاميه من ضروب الحفاوة والتكريم ما لم يسبق له مثيل .

وفى نفس هذا العام أعاد (بهلوان بن ايلدكز) الكرة واستأنف إلقاء الحصار على (آق سنقر) فى (المراغة) ، ولكنه سرعان مارفع الحصار وتم عقد الصلح بينهما .

ومما يؤسف له أننا نفتقر إلى معلومات شافية عن الحلقـة الأخيرة من عهدهذا الأمير، اللهم مايرويه لنا ابن الأثيرمن أن أمير الرى (اينانج)قد قتل فىعام (٥٦٤) للهجرة، ثم ثار (قتلغ) أخو (آق سنقر) . إلا أن الأتابك (بهلوان بن ايلدكز) قد عاقبـه وسلم حكومة (المراغة) لأخوى (قتلـغ) وهما (علاء الدين) و (ركن الدين) .

يتضح من هذا جليا أن الأمـير (آق سنقر) الثانى قد توفى عن أربعـة أبناء ، وأن حروبا دامية قد اشتعلت نيرانها بين (آق سنقر الثالث) وأخيه (قتلغ) لسبب واضح وواحد. ألاوهو التكالب على الدنيا والتنافس على الحكم. وظلت نيران الحرب تزداد بينهما اشـتعالا ، مما أدى إلى تدخل (بهلوان ابن ايلدكز) لوضع حـد لهذه المعارك الدموية وتمـكن فعلا من حسم النزاع باعطاء الحـكومة إلى الابنين الصغيرين للأمير (آق سنقر الثانى)الراحل وهما (علاءالدين)و (ركن الدين) وبذلك حرم الأخوان المتنازعان من الحكم .

كما يحدثنا ابن الأثير أيضاعن حاكم كان قائما على المراغة عام(٥٧٠) للهجرة يدعى (فلك الدين) وكان حفيد (آق سنقر الثانى) وأن والده تنازل له عن الحكم ، وأن (بهلوان بن ايلدكز) قد أعاد الـكرة فى أيام حكم هـذا الأمير وهاجم (المراغـة) و قلعة (روين دز) ولـكن سرعان ما توقفت رحى المعركة وعقد بينهما صلح كان ضمن شروطه التخلى عن (تبريز) والتنازل عنها لأسرة (ايلدكز) .

ومعنى ذلك ـ كما يتبادر إلى أذهاننا ـ أن مدينة (تبريز) قد ظلت حتى عام (٥٧٠) للهجرة فى حوزة حكام المراغة وضمن دائرة نفوذهم ، وأن منطقة حوالى جبل(صهند = سهند) بأكملها كانت تدين بالخضوع والتبعية لأسرة (أحمديلى). وتلت ذلك فـترة قاربت الثـــلاثين عاما لا نعرف من أخبارها ولا عن حوادثها سوى خبر عن عقد اتفاقية بين « علاء الدين » أمير المراغة و « مظفر

الدين كوكبرى) أمير (أربيل) عام ٦٠٢ للهجرة ، وكان (علاء الدين) يرمى من وراء ذلك إلى الحصول على مساعدة (مظفر الدين) له ، وشد أزره فى العمل على انتزاع « آذربيجان » من يد حاكمها (أبو بكر ايلدكز) ، وتنفيذا للاتفاقية (١) قام جيشا الحليفين بالزحف تجاه (تبريز) ، فما كان من حاكمها (أبو بكر ايلدكز) إلا أن بادر بطلب النجدة من (آى طوغمش) مملوك أسرة ايلدكز القديم الذى لبى النداء واستجاب لطلبته ، ولكن ما كادت الحرب تنشب أظفارها ، ويشتد أوارها حتى انسحب (مظفر الدين كوكبرى) من الميدان عائدا إلى (أربيل) فى حين تعقب (آى طوغمش) أثر (علاء الدين) وأخذ يطارده حتى قرع أبواب (المراغة) فاضطر (علاء الدين) إزاء ذلك إلى التنازل عن القلعة التى كانت مثار النزاع لخصمه ، مقابل استرداد مدينتى (أرمية) و (أشنة = إشنو) .

ولم يعمر (علاء الدين بك) طويلا بعد ذلك . فقد لقى ربه فى عام(٦٠٤) للهجرة ويطلق عليه ابن الأثير اسم (قره سنقر) (٢) ، وقد خلف بعد وفاته طفلا صغيرا كفله من بعده أحد رجاله المخلصين الأحرار . ولكن شاءت الأقدار أن تصعد روح هذا الأمير الصغير إلى بارئها فى عام (٦٠٥) للهجرة أى بعد والده بعام واحد .

وبعد ذلك أتيحت فرصة ذهبية لأبى بكر أيلدكز فاستولى على شتى أملاك وممتلكات الأسرة الأحمديلية الكردية عدا القلعة (روين دز) التى كان يحكمها

---

(١) تقول (دائرة المعارف الاسلامية) فى مادة (تبريز) ان هذه الاتفاقية عقدت بين الأمير (علاء الدين قره سنقر احمديلى).

(٢) ولا يخفى أن هذا الأمير هو غير (قره سنقر) التركى الذى كان حاكما على المراغة فى عهد (اولجايتوخان) وتوفى عام ٧٢٨ للهجرة . المؤلف

ذلك الرجل الصادق من رجال (علاء الدين بك) والذى كان يكفل الأمير الصغير كما ذكرناه .

والظاهر أن (علاء الدين بك) الذى أثنى عليه الشاعر (نظامى) فى ديوانه (هفت بيكر) - ثناء مستطابا فأطنب فى مديحه - هو بالذات (علاء الدين بك) حاكم (المراغة) ، ثم يكشف لنا هذا الشاعر فى ديوانه أيضا عن اسمى ولدين لعلاء الدين بك يدعى أحدهما (نصرة الدين محمد) والآخر (أحمد) ،، وإذا طبقنا هذا الذى يقوله الشاعر (نظامى) على قول ابن الأثير لوجدنا أن هذين الأميرين قد أدركهما الموت وعاجلتهما المنية قبل (علاء الدين بك) نفسه .

ومما هو جدير بالذكر أنه قد ظهر فى أسرة (أحمديلى) نساء تولين مقاليد الأمور وزمام الحكم . وحينما اجتاحت قوات (المغل) ، (المراغة) فى شهر صفر من عام (٦١٨) للهجرة واستولت عليها وهدمت قلعتها ودمرت المدينة وأشعلت فيها النيران بعد أن سلبت ونهبت ما فيها ، وقتلت أهليها - نجت ملكتها التى كانت وقتذاك قابعة بين جدران قلعة (روين دز) - من هذه الولايات والمصائب . وكانت هذه الملكة تدعى (من هواداد) وهى آخر ملوك الأسرة الروادية ، وحفيدة (علاء الدين بك) ،

وقد تزوجت مرتين أولاهما بابن لأيلدكز يدعى (أزبك) كان أصم وأبكم ثم عادت وعقدت قرانها على (جلال الدين شاه) حين عاد من العراق وقد تم له الاستيلاء على قلعة (روين دز) أيضا . (دائرة المعارف الاسلامية ج - ٣ . ص ٢٧٩ ، ٢٨٠)

وهكذا انقرضت الحكومة الروادية الكردية وأسدل عليها الستار بعد أن عمرت أربعمائة سنة كاملة .

الفصل الثانى

٣ – الحكومة السالارية[1] بآذربيجان (٣٠٠ – ٤٢٠ ﻫ)

كانت آذربيجان – كما أشرنا فى المجلد الأول – يطلق عليها اسم (ميديه) الصغرى. فنى عام (٢٣ ق. م). استولى عليها الملك الأشكانى (فرهاد) الرابع (٢) وهكذا سلبت الحكومة الاشكانية استقلال ميدية الصغرى، وانتزعته اغتصابا، وإن كانت قد فشلت فشلا ذريعا فى قمع حرية أهلها وإضعاف الروح المعنوية بينهم، بل ظلوا يتمتعون باستقلال داخلى. فى ظل حكومات صغيرة، تسوس شئونهم وترعى مصالحهم.

ومما يحز فى النفس ويوجب الأسف. أننا نفتقر إلى معلومات مفصلة وافية عن تاريخ هذا الأقليم الكردى خلال بضعة قرون قبل الإسلام وإبانه، لدرجة أن المؤرخين والرحالة العرب والمسلمين أنفسهم، قد وقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذه الفترة، وما استطاعوا لها تأريخا لإعطائنا فكرة واضحة وامدادنا بمعلومات شافية ضافية عن أحوال هذا الأقليم فى فجر الفتوحات الإسلامية،

---

(١) يطلق (الصدفى) فى (تاريخ الدول) اسم (الدولة السالارية) او (الدولة المسافرية) على هذه الحكومة، وواضح ان التسمية الاولى اصح وانسب لأن مؤسس هذه الدولة كان يدعى (سالار مرزبان)، ويقول ايضا إن هذه الدوله كانت ديلمية، فى حين ان (دائرة المعارف الاسلامية) ليس لديها ادنى شك فى انها كانت كردية، وعلى هذا تكون الديالمة بمقاطعتى (كيلان وطبرستان) فرعا من الامة الكردية كما يقول به (اسكندر منشى) فى تاريخه (عالم آراى عباسى ص ٧٦٢) وكما ورد فى كتاب (حمزة الاصفهانى) ان الايرانيين كانوا يطلقون لفظ الديلم على اكراد طبرستان. (٢) تاريخ ايران القديم ص ١٥٦) المؤلف

الأمر الذى يتعذر علينا معه محاولة الربط بين مجريات الحـوادث والوقائع التاريخية لهذا الأقليم فى العهد الإسلامى وبين تلك الوقائع القديمـة التى كانت أذربيجان مسرحا لها .

ومع هذا نستطيع أن نستدل من مجرى الحوادث والوقائع التاريخية على أن هذا الإقليم قد شاهد حكومة مستقلة كبرى قامت على تصريف شئونه . وأنه على الدوام كان مرتعا لنزاع دائم ، وقتال مستمر بين الحكومات الأيرانية والدولة الرومانية (الشرقية والغربية) .

نعم : هنالك عالمان عربيان على التحديد ، قد اهتما دون غيرهما ، ببحث حالة آذربيجان وهما (ابن خرداذبه)(١) الذى زار (تبريز) عام ٢٣٢هجرية فى عهد إمارة (محمد الروادى) أما ثانيهما فهو (الأصطخرى)(٢) الذى قام بسياحة فى إقليم آذربيجان فى غضون القرن الثالث الهجرى ، حيث رأى بعينى رأسه بلاد (تبريز وجبردان = ديخواركان واشنو) تحت حكم العشائر (الرديذية) المعاصرة لحكومة (بنى الساج) التى كانت قصبتها قديما مدينة (المراغة) ثم أضحت فيما بعد مدينة (أردبيل = أردويل) .

ويقول (ياقوت الحموى) فى معجم البلدان ، ان اقليم آذربيجان قد ظل فترة فى قبضة الترك إلى أن تغلب « كيخسرو » ملك إيران على حاكمهم المدعو « أفراسياب » وقتله ، وبذلك دالت دولتهم عن هذا الأقليم .

ومما يدل على أن رواية « ياقوت » هذه غير صحيحة البته ، وأنها محض

---

(١) هو ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه الفارسى الذى طبع كتابه بليدن سنة ١٣٠٩هـ ، وقد ألفه بين ٢٣٢ هـ و ٢٧٢ هـ ويظن انه توفى حوالى سنة ٣٠٠ هـ . كما حققه فى دائرة المعارف الاسلامية

(٢) المتوفى سنة ٣٤٠ هـ ـ سنة ٩٥١م — المترجم

خرافة أننا نعلم علم اليقين أن « أفراسياب » هذا كان ملكا على تركستان أى ماوراء النهر ، لاحاكما على إقليم آذربيجان ، كما يدعى (ياقوت).

بالرغم عن هذا ، فالمعروف أن بلاد « ميدية الصغرى » كانت بأكملها فى قبضة الأكراد أحفاد الميديين الأوائل منذ عهد الميديين إلى أن تحركت الإغارات التركية نحو الغرب ، وظهر الغز ثم السلجوق عام (٤٢٠) .

ثم دخل هذا الإقليم فى حوزة « يوسف بن ابى الساج » عام (٢٨٨) كما ورد فى ياقوت وظل فى قبضته إلى أن استطاع « مؤنس الخادم » أن يستخلصه ، وينتزعه منه إبان خلافة « المقتدر بالله » . ولكن يوسف بن أبى الساج لم يهدأ له بال ، ولم يطق صبرا على انتزاع هذا الأقليم منه ، فأخذ يعمل جاهدا آناء الليل ، وأطراف النهار ، حتى أعاده ثانية إلى حوزته .

وما أن أهل عام (٣٢٦ هـ) حتى تهيأ حاكم «الرى» المدعو « وشمكير » للاستيلاء على هذا الأقليم ، وتحركت جحافل جيشه بقيادة احد قواده « لشكرى بن مردى » ، حاكم الجبال ، وولت وجهها شطر (أذربيجان) التى كان يحكمها إذذاك قائد من قبل « يوسف بن أبى الساج » يدعى « ديسم بن ابراهيم الكردى » الذى قام على رأس جيش جرار ، قطع به الطريق على جيش « لشكرى » ، واشتبك الجيشان فى القتال ، وانعقد لواء النصر فى نهايته لجيش « لشكرى » وحاقت الهزيمة بجيش « ديسم » فى بادىء الامر ، ولكنه لم يقبع ، ولم يسكت على الهزيمة ، بل أعاد الكرة بعد حين ، واستأنف القتال ، غير أن الهزيمة عادت فلاحقته للمرة الثانية ، فاضطر مرغما إلى التقهقر تاركا وراءه لخصمه جميع بلدان الأقليم ، عدا مدينة « آرده ويل = أردبيل » التى استماتت أهلوها فى الدفاع عنها ، ولم تخدعهم أقوال ووعود « لشكرى » المعسولة ، كما بلغهم عن ظلم الديلم وغدرهم . لهذا وقفوا رجلا واحدا ، وطلبوا النجدة من « ديسم » فاتفق معهم على القيام بهجوم مين فى يوم معين على جيش « لشكرى »

وحسب الخطة الموضوعة ، وفى اليوم الموعود ؛ خرج الأردبليون من قلعتهم وانقضوا كالصاعقة على جيش « لشكرى » ودارت فى نفس الوقت الذى هاجمه فيه جيش « ديسم » رحى معركة حامية الوطيس ؛ كثرت فيها المذابح وسفك الدماء ؛ ولم ينج منها إلا « لشكرى » بأعجوبة ، وبعد نجاته لجأ إلى « موقان » حيث زوده أصفهبدها « ابن دلوله » بقوة عسكرية ، عاد بها لمنازلة خصمه « ديسم » الذى عزف عن الاشتباك فى حرب جديدة ، بل فضل الانسحاب إلى نهر الرس وتمكن من اجتيازه هو ورجاله بالرموث والاطواف(١) وقد احتجزها فى جوار الشاطىء الذى نزل إليه ولم يعدها إلى الشاطىء الثانى ولما وصل « لشكرى » من وراءه مطاردا فلول جيشه تعذر عليه اجتياز النهر فى بادىء الأمر لعدم وجود « الرموث » ، ولكن اليأس لم يجد إلى قلبه وقلوب رجاله سبيلا ، فأخذوا يبذلون المحاولات حتى تمكن بعضهم من عبور النهر من الجهة الشمالية ، وبهذا تكشفت أمام أعينهم بارقة أمل فى اجتيازه وفعلا استطاعوا بأكملهم عبور النهر فى ليلة ليلاء وانقضوا انقضاض الصاعقة على « ديسم » ورجاله بعد أن أيقنوا أنهم أضحوا فى حرز مكين ومكان أمين.

توجه (ديسم) بعد هذه الهزائم المتوالية إلى الرى وقابل حاكمها (وشمكير) وقدم له فروض الطاعة والولاء وأظهر له علائم الخضوع ، وقبل طائعا مختارا الشروط التى أملاها عليه « وشمكير » وأهمها أن يدفع له جزية سنوية مقدارها مائة ألف دينار ، وأن يذكر اسمه فى الخطبة ، على أن يمده نظير ذلك بقوة عسكرية يسترد بها إقليم آذربيجان من بين براثن (لشكرى) .

ولما فوجىء (لشكرى) بهذه القوة تنقض عليه وتسدد إليه الضربات ، لم يقو على الصمود أمام ضرباتها ، وغادر البلاد حقنا للدماء ، قاصدا بلاد

---

(١) هى قرب تنفخ وتوضع فى الانهر ليجتاز الناس المياه عليها (المترجم)

الزوزان(١) ويعتصم بالجبال بعد أن دمر كل ماصادفه فى طريقه من البلاد والقرى ولكن الأرمن اعترضوا سبيله فلقى حتفه هنالك حيث أوقعوه فى الكمين . وقد استطاع ابنه أن يصل إلى الموصل سالما على رأس قوة صغيرة من جيشه ، انضم بها إلى حاكمها المدعو (أبو عبد الله الحسين بن سعيد الحمدانى) . وتم الاتفاق بينهما على إعداد جيش مشترك لاسترداد آذربيجان ، وبعد أن فرغا من إعداد هذا الجيش توجها على رأسه صوب آذربيجان لمنازلة (ديسم) الذى استطاع أن يشتت شمل جيشهما وألحق بهما هزيمة منكرة وهكذا عادت آذربيجان مرة أخرى وأضحت خاضعة لحكم (ديسم) .

ومما لاشك فيه أن الأغلبية الساحقة من قوات (ديسم) كانت كردية ، كما كان بعضها الآخر من جنود (وشمكير) الديلميين ، وقد تنبه (ديسم) إلى هذه الظاهرة ، ولفت نظره أن القوة الكردية تسيطر على أكثر مناصب الجيش ، وتتحكم فى شئونه ، وتحتل الكثير من القلاع والمدن الهامة ،، وأنه أضحى مغلوبا على أمره لايرجع إليه فى أى شأن، فأخذ يفكر ويدبر فى وسيلة يسترد بها نفوذه المسلوب . وسلطانه المنهوب ، حتى هداه تفكيره إلى أن أنجع وسيلة هى تعزيز قوة الديلم حتى توازى قوة الكرد وبذلك يتحقق التوازن بين القوتين ، وتحقيقا لهذه الفكرة أخذ يقرب اليه بعض الزعماء الديلميين مثل « صعلوك » و « على بن فضل » وأخذ يغدق عليهم بعض الانعامات واختارهم ندماء له ، ولم يقف عند هذا الحد، بل أخذ ينتزع المناصب ويخلص المدن والقرى من الكرد ، رويدا رويدا . ويسندها إلى رجالات الديلم المقربين ثم اتبع ذلك بمكيدة دبرها للتخلص نهائيا من بعض زعماء الكرد بأن ألقى القبض عليهم وزج بهم فى غياهب السجون ، وبذلك أمن شرهم .

---

(١)وهو اسم لاقليم جبلى من بلاد الكرد فى شرق شمالى الموصل ذكره ياقوت فى المعجم . ومعناه ، بالكردية مصايف جبلية المترجم

وكان (ديسم) نفسه خارجيا ، وأما وزيره أبو القاسم على بن جعفر فكان باطنيا ومن أهالى آذربيجان ، فأوغر أعداء الوزير وحساده صدر (ديسم) عليه فحقد عليه ، وبدأ الوزير يشعر بنجاح المؤامرة التى حاكها له أعداؤه فأخذ الرعب يسرى بين جنبيه ، وتوجه سرا إلى الطرم ليحتمى « بمحمد بن مسافر »(١) . وقد لازمه سوء الحظ فى حله وترحاله إذ ما كاد يحط رحاله على أبواب « ابن مسافر » حتى ألفاه على اختلاف مع عظماء شعبه ، تسود بينهم الفرقة ، ويشتد بينهم الجفاء ، مما ترتب عليه قيام كل من إبنى « محمد بن مسافر » المدعوين « المرزبان ، وهسوذان » بانتزاع ممتلكات والدهما ، ثم ألقيا به سجينا فى القلعة ، فاضطر (على بن جعفر) أمام هذه الظروف أن يسعى جاهدا للتقرب من (المرزبان) حتى تحقق أمله ونال أمنيته ، فأخذ يزين للمرزبان الاستيلاء على آذربيجان فوجد منه قلبا واعيا ، وآذانا صاغية لما أوحى به إليه ، وما لبث أن اتخذه المرزبان له وزيرا لا يبرم أمرا دونه ولا يقرر شيئا دون أخذ رأيه والحصول على مشورته . فكان واسع النفوذ ، مسيطرا على زمام الأمور ، إذ كان على بن جعفر باطنيا ، أما مرزبان فقد كان شيعيا فقد سمح له أخيرا بنشر مذهب الباطنية جهارا .

وبعد أن فاز (على بن جعفر) بموافقة المرزبان على فتح آذربيجان ، أخذ فى إغراء الديلميين الذين كانوا يحاربون فى صفوف (ديسم) حتى تمكن من أن يستميل إليه زعماءهم ، فأعلنوا انضمامهم إلى جانبه ، والعمل تحت قيادته ، وكانت هذه الخطوة الموفقة حافزاً قوياً وعاملا مشجعا لكل من « على بن جعفر » و « مرزبان » على الإقدام والتحفز للزحف على (آذربيجان) على رأس

---

(١) جاء فى (دائرة المعارف الاسلامية) ان محمدا هذا كان يلقب باسم (ما مه لان) وفى مصادر أخرى أنه مشهور بصعلوك المؤلف

جيش عرمرم ، تقابل بجيش (ديسم) واشتبكا فى القتال ، وهنا لعبت الخيانة دوراً حاسماً فى تقرير مصير المعركة ، فقد تسلل الديلميون وفريق من الأكراد خفية من جيش (ديسم) وتآزروا مع « مرزبان » وحاربوا إلى جانبه ، أصدقاءهم بل وحلفاءهم بالأمس ، فخارت عزيمة (ديسم) ، وأسقط فى يده ، ووقع فى حيص بيص ، فترك ميدان القتال حقنا للدماء ، وانسحب مع بعض رجاله إلى جبال (كردستان = أرمينية) حيث نزل ضيفاً على صديقه (خاجيك بن الديرانى) حاكم تلك البلاد . فأكرم وفادته ، وأنزله منزلا حسنا ، ولكن أبى لديسم أن تفل عزيمته أو يستسلم للهزيمة فأخذ جاهداً فى تجنيد أكراد تلك الجهات ، استعداداً لاعادة الكرة ومحاولة استرداد آذربيجان ، إذ بينما اطمأن « مرزبان » ورجاله إلى تخليص بلاد آذربيجان كلها ، عدا مدينة (تبريز) وضمها إلى حوزتهم ، نرى الخيانة تبرز على المسرح من جديد متمثلة فى شخص (على بن جعفر) وزير (مرزبان) الآن وموضع ثقته ، والذى سبق أن مثل هذا الدور مع (ديسم) ، فقد حدث بعد حين من تخليص آذربيجان أن أوفده (مرزبان) إلى مدينة تبريز للاستيلاء عليها ، فما كان منه إلا أن كاتب أهليها بأن (مرزبان) قد تولاه الجشع ، وتملكه الطمع فى ثروتهم وأموالهم وأنه موفد إليهم من قبله لابتزاز هذه الأموال ، وأشار عليهم بطلب النجدة من (ديسم) ، وأن يقوموا بمجرد أن تصل اليهم النجدة قومة رجل واحد وينقضوا على ديالمة (تبريز) لتشتيت شملهم وقطع دابرهم ، ورحب أعيان (تبريز) بهذه الفكرة ، وأبوا إلا أن يشاطروه الخيانة ، وقاموا فعلا بتنفيذها ، وما أن وصل (ديسم) على رأس قواته إلى (تبريز) ملبيا النجدة . وما أن ترامى إلى أسماع قوات مرزبان هذا الخبر ، حتى تسربت مجموعة كبيرة من الكرد المستائين من مرزبان خفية من بينها وانضمت إلى جيش (ديسم) ، وكانت هذه الحوادث تترى ، وتجرى من وراء ستار دون

علم مرزبان ، فلما نمى اليه خبرها وجاءه نبأ هذه المكيدة ، قام على عجل ، وقاد جيشا كبيرا واتجه به صوب (تبريز) ، والتحم مع جيش (ديسم) فى معركة حامية الوطيس على مقربة من المدينة ، وقد أبلى جيش (مرزبان) بلاءاً حسنا وأظهر مهارة حربية فائقة مما ضمن له النصر على العدو .

تقهقر (ديسم) بعد أن اصطلى بنيران الحرب ، وشرب كأس الهزيمة حتى ثمالتها ، واعتصم بقلاع المدينة ملتمسا حمايتها له ، ولكن (مرزبان) قدتعقبه وضرب حصارامنيعاحول القلاع، فضيق بذلك عليه الخناق ، ورغم ذلك تمكن (ديسم) هو وبعض من تبقى لديه من قوات من الهروب ليلا تحت جنح الظلام والإفلات من الحصار الذى طوقوا به ، قاصدين صوب مدينة (أردبيل) ، فلحق بهم(مرزبان). بعد أن ترك قوة كافية على حصار (تبريز) ، وظل يطاردهم حتى تمكن من محاصرتهم فى (أردبيل) . ولما طال الحصار ، وامتنعت المدينة على (مرزبان) ، أخذ يفكر فى تدبير مكيدة تذلل له الصعاب ، وتكفيه مؤنة القتال ، وأخيراً حصل على ضالته المنشودة ، اذوفق إلى ممثل بارع لتمثيل أهم أدوار تلك المكيدة . وهى تتلخص فى أن « أبا عبد الله محمد بن احمد النعيمى »الذى اتخذه (ديسم)له وزيراً بعد (على ابن جعفر) قدا تصل به سرا (مرزبان) وتبودلت بينهما المخابرات ، وكتب ابن النعيمى إلى مرزبان يقول له : إننى سأبذل قصارى جهدى فأقنع (ديسم) بضرورة طلب الصلح ، وسيصلك بعض زعماء المدينة وكبرائها موفدين من قبله يطلبون عقد هذا الصلح ، فمتى وصلوك فمر بالقبض عليهم ، وزج بهم فى غياهب السجون ، ولا تمكنهم من العودة حتى يستسلم(ديسم) . هذه هى رسالة وزير (ديسم) إلى (مرزبان) وهى رسالة يتمثل فى كل حرف من حروفها الخيانة والغدر .

نفذ (مرزبان) ما جاء فى هذه الرسالة حرفيا ، وبهذا نجحت المكيدة ،

حيث أرغم أهالى المدينة (ديسم) واضطروه إلى قبول الاستسلام حفظا على حياة المعتقلين ، وضمانا لإطلاق سراحهم . ولم يقدم (مرزبان) على أية إساءة إلى (ديسم) بل عامله معاملة كريمة ، ولما طلب إليه (ديسم) تخصيص قلعة (طارم = الطرم) لإقامته هو وأسرته أجاب طلبته .

وهكذا خضعت بلاد (آذربيجان) بمالها الوفير وكنوزها الهائلة، وثروتها الطائلة لمرزبان دون أن ينافسه منافس أو يوجد عليه رقيب فى بلاد آذربيجان كلها . وأقام (ديسم) ردحامن الزمن فى (طارم) فى جو يسوده الهدوء وتخيم عليه السكينة ، ولكنه وهو ربيب حرب إذا أخلد إلى راحة لا تلبث أن تسعى إليه ، إذ حدث أن أغار الجيش البويهى على (آذربيجان) ووقع (مرزبان) أسيرا ، فقام أخوه (واهسوذان) باستدعاء (ديسم) ليضمن وقوف الكرد إلى جانبه، وأكرم وفادته، ووكل إليه أمر الدفاع عن (آذربيجان) ضد المغيرين من (آل بويه).

شمر (ديسم) عن ساعد الجد وتمكن من حشد قوة كبيرة من الكرد وتملك ناصية الأمور فى (آذربيجان) ووقف على تمام الاستعداد وكامل الأهبة للقاء الجيش البويهى الذى كان يقوده (محمد بن عبد الرزاق) أما عن حوادث هذه الحرب ووقائعها فقد تعرض لها (ابن مسكويه) فى المجلد الثانى من كتابه (تجارب الأمم) وذكرها كما رواها (ديسم) نفسه ، حيث قال :

إنه كان (محمد بن عبد الرزاق) القائد على الجيش البويهى كاتب خراسانى يدعى (ابن محمود) وكان موضع ثقته وتقديره فاتخذه وزيرا له ، وحدث أن أوفده إلى (آذربيجان) لتحصيل الأموال الأميرية ، وهنالك لعب الشيطان برأسه ، وأبى الشيطان إلا أن يزين له خيانة سيده ، فأسرع منضما إلى (ديسم)

بمن معه من القوات العسكرية وما يحمله من أموال أميرية ، فلما علم (محمد بن عبد الرزاق) بهذا النبأ المشئوم ، وقع فى حيص وبيص ، وتزعزع مركزه ، فلم يطل الاقامة فى (آذربيجان) بل عاد أدراجه إلى (الرى) عام (٣٤٢) من الهجرة يجر أذيال الفشل .

وألقى (ديسم) تصريف شئون الوزارة وتدبير مهام الحكم على عاتق (أبى عبد الله النعيمى) و (ابن الصقر [١] المسيحى) وتفرغ هو لتجييش عدد كبير من الكرد والديلم استعان بهم على استرداد سلطانه واستعادة نفوذه فى بلاد (آذربيجان) بأكملها . ولكنه ما كان يعلم أن سلطانه فى هذه المرة أيضا سلطان موقوت إلى حين ، إذ بعد فترة قصيرة نجا (مرزبان) من ذل الأسر ، وأطاق سراح (على بن ميشكى) هو الآخر من نير سجن (ركن الدلة) فاتفقا مع (واهسوذان) على إخراج (ديسم) من البلاد . وكان (ديسم) يجهل كل شىء عن نجاة (مرزبان) من الأسر ، وكان وزيره

---

(١) يذكر (ابن مسكويه) هذا البحث فى المجلد الثانى من كتابه (تجارب الأمم) ص ١٣٦ بنوع آخر فيقول : ان (ابن الصقر) كان عاملا على مال جهتى (خوى وسلماس) من قبل (مرزبان) ، ولما بلغه نبأ (ديسم) هرع اليه وسلمه جميع ماتحت عهدته من الأموال ، وأظهر له علائم الطاعة وآيات الولاء ، فسر منه (ديسم) واتخذه له أمينا ، ولما توجه (ديسم) لمحاربة (محمد بن عبد الرزاق) أرسل جميع مقتنياته من النقود والأموال مع (ابن محمود) إلى جبال (موقان) ، فخانه (ابن محمود) وأنبأ (محمد بن عبد الرزاق) ، وما أن وصل هذا النبأ إلى مسامع (ديسم) وهو يخوض غمار المعركة حتى بدا عليه التأثر وتغلب عليه الحزن مما أدى إلى اندحاره فى المعركة وفشله .

المؤلف

(أبو عبد الله النعيمى) يتلمس الفرص بل يتحسسها لخيانة سيده تخلصا من جشعه فأخذ يوغر صدر ابن أخته المدعو (غانم) ضده ويحرضه عليه حتى ثار فى وجهه وكتب إليه ملوحا له بقوته وقوة الديلم ، واغتنم (أبو عبد الله النعيمى) هذه الفرصة التى هيأها لنفسه بايقاع الخلف بين (غانم) الذى جاء من أردبيل إلى خاله (ديسم) وطالبه بأموال أبى عبدالله وكاتبه، ملوحا له بقوته وبقوة الديلم فقتل الكاتب (على بن عيسى) واستولى على جميع أموال (ديسم) وفر هاربا إلى (ابن ميشكى) ، وكان (ديسم) إذ ذاك خارج أردبيل ، فما أن بلغه هذا النبأ ، حتى أسرع عائدا اليها ، وحشد جيشا كبيرا سار على رأسه لمنازلة (على بن ميشكى) .

وما أن دارت رحى المعركة حتى انسحبت الفرقة الديلمية من جيش (ديسم) وتسللت إلى صفوف العدو فقررت هذه الخيانة مصير المعركة ، وحاقت الهزيمة بجيش (ديسم) الذى آثر هو والفريق الكردى من جيشه اللجوء والانسحاب إلى (أرمينية) حيث علم هنالك فقط ولأول مرة، بنجاة (مرزبان) من الأسر، ووصوله إلى (آذربيجان) وإرساله (على بن ميشكى) ليحل محله .

إزاء ذلك اضطر (ديسم) إلى التوجه صوب الموصل ومنها يمم نحو بغداد ولجأ إلى (معز الدولة) الذى أكرم وفادته ، وأجرى عليه راتبا سنويا مقداره خمسون ألف دينار ، فأخذ يرفل فى حلل من الرفاهة والعيش الرغيد ، وأحبه (معز الدولة) حبا جما ، لدرجة أن أصبح يناديه باسم (أخى أبا سالم ديسم)

ولكنه ما لبث أن هجر هذه الحياة الرغيدة غير آسف عليها ، إذ بعث إليه أصدقاؤه وخلصاؤه والأقربون فى أذربيجان بكتب تنم عن علائم الولاء وصادق التشجيع ، ويطلبون إليه العودة للجهاد فى سبيل استرداد اذربيجان ، فلبى النداء ، وترك بغداد على الفور ، بعد أن وثق من أن(معز الدولة) لن يمد

إليه يد المساعدة مرضاة لأخيه (ركن الدولة) الذى كان على وفاق مع (مرزبان) وبينهما مصاهرة ، وبعد أن غادر بغداد، قصدالموصل عام(٣٤٣) من الهجرة مؤملا العون عند(ناصر الدولة الحمدانى) ، وبذل محاولات جبارة للحصول على هذا العون ولكن ذهبت كلها أدراج الرياح . وباءت بالفشل ، ولكن اليأس لم يجد إلى نفسه سبيلا ، فيمم شطر « حلب» ملتمسا العون عند حاكمها(سيفالدولة) ولكن أيضا بدون جدوى .

وأخيرا انتهى به المطاف إلى« أرمينيه »حيث قابل « خاجيكبن الديرانى » لنفس الغرض ، وما أن بلغ « مرزبان » نبأ وجوده لدى « خاجيك » حتى كتب إليه على الفوريطلب منه إلقاء القبض على« ديسم[1] » فتردد(خاجيك) بادىء الأمر فى تنفيذ طلبته ولكن عاد فنفذ الأمر مضطرا وسلمه مقبوضا عليه إلى « مرزبان ، الذى (سمل) فقأ عينيه وزج به فى أعماق السجون . وبعد وفاة « مرزبان » قتلوه فى سجنه عام ٣٤٥ من الهجرة .

---

(١)هو(ابوسالم ديسم بن ابراهيم الكردى). قال ابن مسكويه انّ ديسما كان يرى رأىالشراة وكذلك كان أبوه . إذ كان من اصحاب «هرونالشارى» الذى خرج بالموصل وقتل بها سنة ٢٨٣ هـ فهرب أبوه ابراهيم هذا الى آذر بيجانوتزوج الىرئيسمن اكرادها فولد (ديسم) فاصطنعه ابن ابىالساج وارتقى معه الى ما ارتقى اليه . حيث تغلب على اذربيجان بعد(يوسف بن ابى الساج) سنة ٣١٤ ودام حكمه لها حتى سنة ٣٣٠ هـ . المترجم

الفصل الثالث

٣ – الحكومة الحسنويئية[١] بهمذان (٣٣٠ – ٤٠٥ هـ)

وضع أساس هذه الحكومة عام (٣٣٠) للهجرة فى الدينور وشهرزور الأمير (حسين) زعيم العشيرة البرزيكانية ، وكان أخواه(٢) (ونداد) و(غانم) يتزعمان العشائر العيشانية وهكذا كانت كافة أرجاء الدينور ، وهمذان ، ونهاوند، والصمغان، وبضعة بلدان من أقليم آذربيجان تدين لهم بالخضوع والطاعة .

وقد عاجلت المنية (ونداد) عام ٣٤٩ للهجرة وما أن أهل العام التالى أى عام ٣٥٠ حتى لحق به (غانم) وكأنهما كانا على ميعاد ، وبموتهما انتقل حكم هذه البلاد جميعها إلى (حسنويه) ابن الأمير حسين الكردى .

« حسنويه »

اعتلى أريكة الحكم بعد وفاة والده ، وفى الحق إنه هو المؤسس الحقيقى لهذه الحكومة ، لأن مركز الحكومة على عهد والده لم يكن قد دعم أو استقر كما أنه لم يكن قد اتخذ شكلا نهائيا أو صبغة رسمية . على أن معلوماتنا

---

(١) يطلق الصدفى صاحب دول الاسلام (ج – ١ ص ٤٢٩) على هذه الحكومة اسم (الدولة الحسينية) المؤلف

(٢) فى ابن الأثير ٨ – ١٥٥ أن وندادا وغانما ابنى احمد كانا خالا حسنويه وكانا أميرين على صنف آخر من الكرد يسمون العيشانية المترجم

عن عهد « حسنويه » من القلة بمكان ، والمعروف أنه قد قام بتقديم مساعدة جدية لركن الدولة البويهى فى حرب خراسان .

وقد أسعفنا السيد حسين المكريانى فوافانا بموجز عن أحوال (حسنويه) حيث يقول :

وجه (معز الدولة) جيشا بقيادة (ينال كوش) من الموصل إلى «شهرزور» فقطع « حسنويه » الطريق على هذا الجيش فى غربى (أربل) وألحق به هزيمة منكرة ، فأعاد معز الدولة الكرة وبعث بجيش آخر هاجم (الدينور) وأنزل بها الكثير من أعمال النهب والتدمير ، وفى هذه الأثناء هوجم (ركن الدولة) أخو (معز الدولة) فى ناحية جرجان من قبل خصومه ، فطلب النجدة من أخيه . وهنا اضطر (معز الدولة) إلى عقد صلح مع (حسنويه) اشترط فيه أن يخطب باسم معز الدولة على المنابر . وهكذا تحسنت العلاقات بين الحكومة البرزيكانية الكردية هذه وبين الدولة البويهية وساد بينهما الصفاء والوئام وتبدد الجفاء .

وفى عام ٣٥٦ للهجرة نشب الخلاف بين (عز الدولة بختيار بن معز الدولة) وبين (حسنويه) واشتعلت بينهما نيران حروب طاحنة أسفرت عن اندحار (بختيار) فى حين أن (حسنويه) ازداد قوة ونفوذا . وما أن أهل عام (٣٥٧) للهجرة حتى انقشعت غيوم الجفاء وعادت بينهما المياه إلى مجاريها فتم بينهما الصلح ، واتفقا سويا على أن يقفا جبهة واحدة ضد (أبى تغلب الحمدانى) ووافق (بختيار) على شد أزر (حسنويه) ومساعدته لتتسع حدود مملكته حتى « الزاب الكبير » وبفضل اتفاقهما وتآزرهما ألحقا الهزيمة بأبى تغلب الحمدانى ، ثم عاد (حسنويه) عن طريق أربيل ، وشهرزور إلى الدينور .

وقد استشاط (ركن الدولة) غضبا وأبدى استياءه من اتفاق (حسنويه)

مع ابن أخيه (بختيار) ولهذا جرد جيشا بقيادة وزيره أبى الفضل ابن العميد على (حسنويه) فى سنة ٣٥٩ هـ . حيث يقول الكامل (ج - ٨ ص ٢١٧) إن سبب تجريد هذا الجيش إنما يرجع إلى سوء معاملة (حسنويه) لسهلان ابن مسافر .

ويقول ابن مسكويه (ج - ٢ ص ٢٧٠) : ان (حسنويه) قد وسع حدود مملكته باحرازه عدة انتصارات متوالية بفضل ما اكتسب من قوة نفوذ وسطوة فى البلاد ، وبفضل رضاء (ركن الدولة) عنه وعظيم إعجابه به، على أثر المعونة الكبيرة التى قدمها له (حسنويه) فى حروبه بخراسان . غير أن (حسنويه) كان طموحا رغم ما أحرزه من فتوحات وانتصارات ، فكان لايفتأ يهاجم بلداناوجهات أخرى طمعافى بسط سلطانه عليهاوإخضاعها لحكمه. وكان يجبى الأموال من القوافل المارة فى الطرق والمعابر العامة ، كما كان لا يألو جهداً فى تضييق الخناق على الأغنياء ، ورغم هذا كان (ركن الدولة) يغض الطرف عنه ، ولا يعترض سبيله .

ثم حدث أن نشب الخلاف فجأة وعلى حين غرة، بين (حسنويه) و (سهلان ابن مسافر (١) الديلمى) فأعد (سهلان) جيشا سار على رأسه للاجهاز على (حسنويه) والفتك به ، غير أن هذا الجيش قد حاقت به هزيمة منكرة على يد (حسنويه) الذى أحاط بمعسكر العدو إحاطة السوار بالمعصم وألقى عليه

---

(١) اختلفت المصادر القديمة كابن الأثير وابن مسكويه فى ضبط اسم (ابن مسافر) هل (محمد) أو (احمد) وهل لقبه الكردى (ماملان ، مهلان سهلان) ؟ وعلى كل فهو شخص واحد مشهور باسم (محمد الروادى الكردى) تارة وباسم (محمد بن مسافر الديلمى) تارة أخرى وموصوف دائما بصاحب الطرم وشميران وآذربيجان. وهو جد (بنى مسافر) مؤسسو الدولة الكردية المسماة السالارية والروادية اللتان قامتا بأذربيجان . المترجم

حصارا منيعا وحال دون إيصال الزادوالذخيرة للعدو ، ولم يكتف (حسنويه) بذلك بل أمر بجمع الحطب حول المعسكر المحاصر وأشعل النار فيه فاندلعت النيران واشتد لهيبها حول العدو ، وهكذا أضحى الديالمة بين نارين : النار الموقدة من جهة ، وحرارة الصيف المحرقة من جهة أخرى ، فاضطروا إلى الكف عن القتال والمبادرة إلى التسليم .

وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع (ركن الدولة) حتى بادر على الفور بارسال وزيره (أبى الفضل بن العميد) على رأس جيش عرمرم للتعرف على جلية الأمر ، غير أن المنية قد عاجلت (أبا الفضل) عندما وطئت قدماه مدينة (همذان) ، وقد خلفه على قيادة الجيش ابنه (أبو الفتح) الذى رأى فى صالحه العودة إلى (الرى) لتوطيد مركزه والمحافظة عليه هنالك ، ولهذا بادر إلى عقد الصلح مع(حسنويه) ، وقد صادف ذلك هوى فى نفس(حسنويه)وكان لهذا الموقف النبيل من جانب أبى الفتح أبلغ أثر فى نفسه مما جعله يبادر بارسال خمسين ألف دينار ، وهدايا متنوعة من الخيول وغيرها تقدر بمثل هذا المبلغ إلى (أبى الفتح) ، وهكذا قطع دابر الأعمال العدائية وتبددت الخصومة . أما (ابن الأثير) فقد بالغ فى الثناء على (حسنويه) ثناء عاطرا ، فيمتدح حسن أخلاقه ، وعلو همته ، وحزمه فى الأمور ، كما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية : «إنه قد تمكن من الحكم ، وازداد سلطانه على البلاد ازدياداً كبيراً بعد وفاة أخويه(١)

---

(١) فى هذه العبارة اضطراب شديد فبمقتضى ما سبق فى أول البحث من أن الأمير حسين الكردى كان له أخوان (ونداد) و (غانم)، ينبغى أن تكون العبارة هنا هكذا (بعد وفاة عميه ونداد وغانم). وعلى كل فالنقل السابق من دول الاسلام والنقل هنا من دائرة المعارف لا يتفقان مع ما ذكره ابن الاثير من أن ونداد وغانما كانا خالا (حسنويه) لا عماه. حيث ذكر اسم والدهما فقال هما ابنا أحمد .. الخ اه من (ص ٢٥٥ ــ ٨ ج) المترجم

(ونداد وأبى الغنائم) ، حيث شمل سلطانه معظم بلاد كردستان ، فكانت الدينور ، وهمذان ونهاوند من المدن الشهيرة فى هذه المملكة ، وكانت مدينة (سرماج) عاصمتها .

وقد انحاز (حسنويه) فى الحروب التى نشبت بين عضد الدولة وبختيار إلى جانب الأخير ويلوح أن سبب ذلك يرجع إلى خصومته الأخيرة مع ركن الدولة والد عضد الدولة ، وهذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يمكن القول بأنه سلك هذا المسلك خوفا من طمع (عضد الدولة) فى بلاده ، وقد حدث فى النهاية اتفاق بين (حسنويه) و (فخر الدولة) أخى (عضد الدولة) وانضم (حسنويه) إلى جانبه .

ويحدثنا صاحب كتاب (تجارب الأمم) عن هذا التحول فى خطة (حسنويه) فيقول : « دخل (حسنويه) فى مفاوضات مع (بختيار) عام سنة (٣٦٦) للهجرة واستعد لمساعدته . نعم ! إن (حسنويه) لم يتمكن من تقديم النجدة لبختيار فى موقعة (رامهرمز) إلا أنه أرسل ابنيه (عبد الرزاق وبدر) مع ألف فارس إلى بختيار أثناء عودته إلى (واسط) واعدا إياه بحضوره بنفسه إليه » وقد أشار ابنا حسنويه على بختيار آ بالزحف على بغداد ومقاتلة عضد الدولة بها ، لكى يتمكن من الاستفادة من جيش الحمدانيين المرابط فى الموصل ، ولكن بختياراً لم يكن فى وعيه من جراء شدة تعلقه بغلام تركى كان يلازمه دائما ولهذا لم يعر نصيحتهما آذانا صاغية ولا قلبا واعيا، فلم يخف عبد الرزاق استياءه منه وبادر بالعودة إلى أبيه على الفور تاركا أخاه (بدر) مع بختيار تفاديا للوم ، ولم يمض طويل وقت على ذلك حتى تنازل (بختيار) عن حقوقه خوفا من عضد الدولة ، فاضطر (بدر) إلى تركه هو الآخر والعودة إلى والده . اه

وقد توفى حسنويه إلى رحمة الله فى الثالث من ربيع الأول عام (٣٦٩)

للهجرة فى مدينة (سرماج) (١) .

« أبو النجم ناصر الدولة بدر »

اعتلى أريكة الحكم بعد وفاة والده فى البلاد البرزكانية . وفى نفس العام الذى تولى فيه الحكم استولى على بعض القلاع الواقعة فى غربى (اربيل) وضمها إلى رقعة بلاده .

وكانت وفاة (حسنويه) فرصة ثمينة اغتنمها عضد الدولة البويهى ، إذ أن أخاه (فخر الدولة) وابن عمه (بختيار) كانا يعتزان بصداقتهما لحسنويه ، ويستعينان به عليه ، مما استثار غضبه وأثار حفيظته وسخطه على حسنويه ، فلا عجب إذن أن نرى عضد الدولة راغبا كل الرغبة فى إزالة حكم الحسنويين وقطع دابرهم بعد وفاة عاهلهم الكبير ، وقد بدأ يمهد لتنفيذ هذه الرغبة فبعث خازنه (أبا نصر خورشيد يزديار) برسالة إلى كل من فخر الدولة ، ومؤيد الدولة ، وقابوس بن وشمكير ، أملا فى التفاهم والاتفاق معهم ، فى حين كان أبناء حسنويه وهم (أبو العلاء ، وعبد الرزاق ، وأبو النجم بدر ، وعاصم ، وأبو عدنان ، وبختيار ، وعبد الملك) ـ منذ وفاة أبيهم فى شقاق دائم ونزاع مستمر وكان بعضهم يميل إلى الوقوف فى جانب فخر الدولة ضد عضد الدولة بينما وقف البعض الآخر ضد هذا الاتجاه . وكان (بختيار) وحده يقيم دون إخوته فى قلعة « سرماج » فنافرهم وبدأ فى مخابرة (عضد الدولة) مظهرا استعداده لتسليم القلعة له ، فانتهز عضد الدولة الفرصة الذهبية وعرف كيف

---

(١) أنشأها الأمير (حسنويه بن الحسين الكردى) وهى من أجل آثاره الشهيرة . (ياقوت) المؤلف

يستغل هذه الفرقة بين الاخوة ، فجهز جيشا ضخما وأغار به على إقليم الجبال مملكة آل حسنويه وتحرك هذا الجيش ودخل همذان بسهولة ، ثم انحاز إليه الكثيرون من أمراء وقواد فخر الدولة والبرزكانية ؛ مما أدى أخيرا إلى تسليم (نهاوند) وقلعة (سرماج) إلى عضد الدولة الذى اغتنم من وراء هذه الفتوحات ، الاموال الطائلة والغنائم الكثيرة

وعلى أثر ذلك عرض أبناء (حسنويه) على عضدالدولة عن طريق القائد (أبى النصر خواشاذه) أن يقدموا له فروض الطاعة ، وما لبثوا أن جاءوا إلى معسكر عضد الدولة بكامل هيئتهم وبعد أن قرر عضد الدولة وضعهم جميعا تحت المراقبة عاد فاعتقل كلا من عبد الرزاق، وأبى العلاء ، وأبى عدنان وبختيار ، وعلى (١) ، وكذا بعض زعماء الاكراد .

أما (بدر) فقداستدعاه عضدالدولة وأنعم عليه بخلع سنية ،وهى سيف من ذهب ،وجواد بسرج مذهب ثم عينه أميرا على الاكرادالبرزكانية ومن يجرى مجراهم ثم أنعم على كل من (عاصم) و (عبد الملك) بما يتناسب مقامهما أما الباقون من أبناء حسنويه والزعماء الاكراد المعتقلين فقد عمد إلى قتلهم عن آخرهم ، وصادر أموالهم وممتلكاتهم .

ثم أرسل (أبا الوفاء طاهر بن محمد) على رأس جيش استولى به على قلعة (سرماج) ونهب كل ما للحسنويين فيها من خزائن وأموال . وكان ذلك فى ذى الحجة من عام (٣٦٩) وبعد عودة عضد الدولة إلى بغداد ، شق (عاصم) ومن معه من الزعماء الاكراد عصا الطاعة على أخيه (بدر) ، فاضطر (بدر) إلى الزحف والهجوم على (عاصم) هو ومن معه من إخوته وتمكن من

---

(١) كذا فى الأصل . ويظهر انه مقحم إذ لم يسبق له ذكر ولم يذكره ابن مسكويه. انظر (ج - ٢ ص ٤١٤ والذيل ٣ ص ٩) المترجم

القضاء عليهم وبذلك خلاله الجو ودانت له البلاد واستطاب له حكم الكرد دون رقيب وبلا منازع .

وبعد ذلك بدأ يصلح من شئون البلاد كما أخذ فى توسيع حدوده ، ولبث مخلصا لعضد الدولة وفياً له حتى مماته ، وقد اشترك فى حروب « فخر الدوله » اشتراكا فعليا مرضاة لعضد الدوله . وقد تم الصلح بين الأمير « بدر » وبين (فخر الدوله) بعد وفاة (عضد الدوله) .فأدى هذا الصلح إلى نشوب الخلاف بين (بدر) وبين (شرف الدوله بن عضد الدوله) وبعد أن استقرت الأمور لشرف الدوله فى بغداد أعد جيشا كامل العتاد والعدد وأسند قيادته إلى (قره تكين الجوهشيارى) وأمره فى سنة (٣٧٧هـ) بالزحف للأجهاز على الأمير (بدر بن حسنويه) والتحم الجيشان على مقربة من (قرمسين = كرمنشاه) وبعد قتال يسير تظاهر الأمير (بدر) بالهزيمة وأخذ يتراجع تاركا وراءه أثقاله ، فلم يفطن (قره تكين) لهذه الخدعة البارعة، وظن أنه دحر عدوه وغلب خصمه ، وأوغل هو ورجاله فى نهب معسكر الأمير (بدر) وسلبه ، وانشغلوا فى اقتسام الغنائم والأموال وبيناهم كذلك وإذا بالأمير (بدر) يعود بجيشه وينقض عليهم انقضاض من الصاعقة فقتل الكثيرين منهم ، واسترد جميع الغنائم والأموال المسلوبة ،واستولى على كل مايحتملون من عتاد وأثقال ، ولم ينج من هذه المعركة الطاحنة إلا نفر قليلون ومن بينهم (قره تكين) فقد نجوا بأعجوبة حيث أطلقوا لخيولهم العنان لا يلوون على شيء حتى وصلوا (جسر النهروان) بعد يومين . وظلوا هنالك بضعة أيام حتى تجمعت لديهم فلول جيشهم الممزق المبعثر، ثم عادوا أدراجهم إلى بغداد عام ٣٧٧ للهجرة يجرون أذيال الهزيمة .

وفى الواقع كان هذا النصر المبين بداية موفقة بل ومقدمة لازدياد نفوذ الحكام البرزكانيين وآل حسنويه واستقلالهم ، إذ تمكن الأمير (بدر بن حسنويه) من استغلال هذا الانتصار الباهر استغلالا واسع المدى ، فمد نفوذه وبسط سلطانه على اقليم الجبال كله .

وفى عام (٣٧٩ هـ) سار الأمير (بدر) بأربعة آلاف من الفرسان لمساعدة فخر الدوله حين زحفه من العراق الى الأهواز للقاء عسكر بهاء الدوله الزاحف عليه ، فهزم(١) .

وفى الحق ، أبدى الحكام البرزكانيون وآل حسنويه نشاطا ملحوظا وتعقلا وروية أثناء الحروب التى دارت رحاها بين الأمراء البويهيين حيث استفادوا على حساب هذا التناحر والتنابذ بين البويهيين واستغلوا هذا التدهور السياسى فأخذوا يوسعون فى رقعة مملكتهم حتى أوصلوا حدودها إلى نهر (كرخا) فأصبح فى حوزتهم مدينة (شابور خواست = خرم آباد) ، وكذا إقليم الجبال الذى هو بلاد كرمنشاه الحاليه ، وشهرزور .

كان الضعف قد خيم على الأمراء البويهيين نتيجة التناحر والقتال، وفسدت أمورهم ، واضطربت أحوال بلادهم مما كان يضطرهم إلى طلب مساعدة البرزيكانيين الفنية بعد الفنية لكى يحولوا دون توسعهم ؛ فى حين أن قوة الأمير (بدر) كانت فى نمو وازدياد وأسهمه فى ارتفاع ، مما حمل الخليفة العباسى إلى الأنعام عليه بلقب (ناصر الدين والدولة) فى عام ٣٨٨ للهجرة(٢) .

والذى لاشك فيه هو أن الأمير (بدر) كان نسيج وحده ، فكان رجلا عالى الهمة ، عادلا مطبوعا على حب الخير ، ولم تكن شهرته قاصرة على الأمور العسكرية والحربية فحسب ، بل ترك أثارا تدل عليه فى الناحية العمرانيه، فمن إصلاح فى شئون الإدارة إلى تقدم فى ميدان الزراعة إلى نشر التعليم وازهاره .

---

(١) فى الاصل خلاف هذا والتصحيح من ذيل التجارب (ص١٦٩) . المترجم

(٢) فى الأصل (٣٣٨ هـ) ولاشك أنه خطأ مطبعى والتصحيح من ابن الاثير (ج—٩ ص ٥٤) حيث قال : وفى سنة ٣٨٨ هـ عظم أمر بدر بن حسنويه وعلا شأنه ولقب من ديوان الخليفة (ناصر الدين والدولة) وكان كثير الصدقات بالحرمين ... الخ المترجم

وكانت له أياد بيضاء على العلم وأهله . ويثنى عليه صاحب ذيل كتاب (تجارب الأمم) ثناءاً عاطرا ، ويشيد بفضله وخصاله الحميدة .

ظل (ناصر الدين بدر) معتليا أريكة الحكم دون منازع حتى عام (٤٠٠) للهجرة والبلاد مستقلة استقلالا تاما ، فانقضت معظم أيام حكمه من غير حرب ولا قتال ، مما عاد على البلاد باليمن والخيرات ، وبات الناس فى رغد من العيش والرفاهة ، آمنين على أنفسهم وأموالهم . غير أنه ابتداء من هذا العام (٤٠٠ هـ) اضطرب حبل الأمن واختل زمام الأمور بسبب ثورة دبرها ابنه (هلال) ضد أبيه . وقد تعرض (ابن الاثير) لذكر هذه الحرب التى نشبت بين « هلال » وأبيه « بدر » حيث قال : كانت والدة هلال من قبيله « الشاذنجان » الكردية وكان « بدر » قد جانبها بعد مولد (هلال) مجانبة أفضت إلى عدم التفات « بدر » إلى ولده ، والعطف عليه ، ثم تفضيل ابنه الآخر « أبى عيسى » عليه . ولما كبر « هلال » وترعرع واشتد عوده خرج مع والده فى بعض الأيام إلى الصيد والقنص ... وكان من عادة « ناصر الدين بدر » إذا صادف أسداً يقتله بيده ولا يرغب عن ذلك ، وحدث ذات مرة أن « هلالا » لم يدع الفرصة لأبيه وصال هو على الأسد فقتله ، إلا أن هذه الجراءة النادرة من الشاب لم تعجب الأب ! فقال له : أظنك تعتقد أنك قد أوتيت نصرا مبينا ! ! فما الفرق بين الأسد والكلب ؟ . وهكذا لم يخف استياءه من ولده ! وأخذ يفكر فى ابعاده عنه حتى هداه تفكيره الى أن يقطعه اقليم « الصمغان » فأرسله اليه ، وقد صادف ذلك هوى فى نفس « هلال » وامتلأ سرورا لبعده عن أبيه .

ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى اختلف « هلال » مع « ابن الماضى » حاكم « شهرزور » من قبل والده « بدر » الذى كتب لابنه هلال — بمجرد أن بلغه نبأ اختلافهما — يحذره من قتال « ابن الماضى » ، غير أن « هلالا » لم يصغ لأمر والده ، وأخذ يتحرش بابن الماضى ، فكتب « ناصر الدين بدر » مرتين الى هلال يحذره ثانية من التعرض لابن الماضى قائلا له : « ان كل عمل

سيء يصدر منك فى حق ابن الماضى ثق أنه يعتبر موجها لى » .

فما كان من (هلال) بعد هذا التحذير أيضا الا العمل على عكس ما طلب أبوه منه وعمد الى حشد جيش كبير زحف به على « شهرزور » وبعد حصار لم يدم طويلا تمكن من الاستيلاء عليها ، ولم يكتف بذلك بل قتل ابن الماضى وأبنـــاءه وصادر أموالهم جميعا . وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (ناصر الدين بدر) حتى استشاط غضبا على (هلال) وآلى على نفسه أن يقسو عليه ، فأخذ (هلال) إزاء هذه المعاملة الجافة يدس لوالده لدى رجاله من قواد وزعماء ويستولى على ضمائرهم بالرشوة والهدايا ، وهكذا ازداد نفوذ الشاب وقويت شوكته ، وكان لسخائه وكرمه الحاتمى أكبر الأثر فى علو قدره وسمو شأنه لاسيما وأن والده كان ممسكا فى أغلب المناسبات التى كانت تتطلب البذل والسخاء ، مما أدى إلى انفضاض الناس من حوله .

ثم تطور الخلاف بين الأب وابنه إلى اشتعال نيران الحرب بينهما وتقابل جيشاهما على باب (الدينور) ، وكانت مفاجأة غير سارة لناصر الدين، أن ينضم الفريق الأكبر من جيشه وهم الأكراد إلى صفوف ابنه (هلال) ثم ما لبث أن وقع هو نفسه أسيراً فى قبضة ابنه ، ومما زاد الطين بلة أن بعض القواد قد ألحوا فى إغراء (هلال) بضرورة قتل أبيه ، ولكن (هلال) قد أبى عليهم ذلك ، وأبدى كثيراً من النبل وكريم العاطفة نحو أبيه ، ثم تقدم إلى والده قائلا : « أنت لا زلت أميراً ، وما أنا إلا قائد جيشك ! »

فخادعه والده على الفور فأجابه : (حذار أن يسمع أحد هذا الكلام ، لأنه يؤدى إلى مقتلنا كلينا ! ! وهذه القلعة لك ، وهاك إشارة تسليمها اليك ، وكل ما فيها من الخزائن والأموال ملك لك ، فحافظ عليها ، وما دام الناس يريدونك عليهم أميرا فكن أنت أميرهم ، وأعطنى قلعة آوى اليها وأمضى فيها

بقية عمرى فى العبادة وطاعة الله) وما أن سمع (هـــلال) ذلك من أبيه حتى سـارع إلى تلبية رجائه وتنفيذ طلبته فأعطاه القلعة ، ونقده حفنة من المال (١) .

غير أن (ناصر الدين بدر) قد أثبت فيما بعد أنه كان يضمر ويبطن لابنه (هلال) خلاف ما أظهر . وما كان فى مكنته أن يتناسى أو يزيل ما علق فى نفسه من سيء الأثر نتيجة ما ارتـكبت يدا ابنه ، فما أن استقر به المقام فى القلعة حتى كتب إلى (أبى الفتح بن عناز) وإلى (أبى عيسى شاذى بن محمد) فى (أسد آباد) يستثيرهما ويحفزهما لمنازلة (هلال) . وقد زحف أبو الفتح فعلا واستولى على (قرميسين) كما زحف أبو عيسى ونهب (سابورخواست) إلا أنه ما أن سمع بقدوم (هلال) حتى غادرها وعاد أدراجه صوب (نهاوند) التى كانت فى قبضة (أبى بكر بن رافع) وهنالك أدركه (هلال) ، وانقض عليه كالصاعقة ، وقتل من الديالمة أربعمائة نفس منهم تسعون من الأمراء وألقى (ابن رافع) القبض على ضيفه أبى عيسى وأسلمه إلى هلال ، ولـكن هلالا قد أبى عليه نبله إلا أن يعفو عنه ، ويصطحبه فى ركابه .

وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (ناصر الدين بدر) حتى بادر إلى طلب النجدة من الملك (بهاء الدولة) الديلمى الذى نفذ طلبته على الفور وبعث اليه بجيش يقوده (فخر الملك أبو غالب)

وحينما وصل هذا الجيش إلى (سابورخواست) ، خاطب الأمير هلال

---

(١) ورد فى ذيل ابن مسكويه، أنه كان لأبى سعد ابن الفضل وزير مملكة الرى ، يد فعالة فى التفرقة بين بدر وابنه . (المؤلف) ولا ندرى أى ذيل يقصده المؤلف ؟ فان الذيل المطبوع ينتهى فى سنة (٣٨٩ هـ) والخلف حصل بينهما فى سنة (٤٠٠). فليحرر . المترجم

أبا عيسى شاذى قائلا ؟ ها هوذا جيش بهاء الدولة قادم ! فماذا ترى ؟ فأجابه أبو عيسى : يجب أن تسارع إلى لقاء هذا الجيش وتقدم فروض الطاعة لبهاء الدولة محاولا إغراءه بالمال ! فاذا لم تجد هذه المحاولة نفعا ، فلا محيص إذن عن مضايقته هو ورجاله ، ثم تعيد الكرة ثانية ، لأن هذا الجيش ليس فى مكنتك منازلته إذ هو غير ذلك الجيش الذى ألحقت به الهزيمة أمام الدينور [٢] ، مع العلم بأنه زاحف عليك كطالب والدك .

ولكن (هلالا) قد خامره الشك وأخذته الريبة فى أن هذه النصيحة بريئة ، بل خيل إليه أنها مجرد خدعة ، فما كان منه إلا أن قتل أبا عيسى هذا. ثم عزم على الانقضاض على خصمه (فخر الملك) ليلا وفى جنح الظلام مباغتة ، ولكن (فخر الملك) علم بما يدبره له خصمه اللدود فى الخفاء فبادر على الفور إلى حشد جيشه وترك قوة صغيرة وراءه للمحافظة على العتاد والمهمات فى المعسكر ثم تقدم بخطى سريعة لمنازلة العدو ، هنا . وهنا فقط !! استيقظ (هلال) فقد أيقن عندما وقعت عيناه على هذا الجيش الحافل ، أن نصيحة أبى عيسى بن شاذى لم تكن كما تخيل ، بل كانت بريئة وسديدة ، فعض بنان الندم ولات حين مندم . وأرسل إلى (فخر الملك) يقول له . « إننى لم أحضر للحرب ، فاذا لم تحاربنى ، فأنا مستعد لتقديم فروض الطاعة » فوافق فخر الملك على هذا العرض ، وبعث بالرسول إلى (ناصر الدين بدر) ليطلعه على جلية الأمر ، غير أن بدرا قد أساء معاملة الرسول الموفد اليه وقابله بجفاء بل طرده شر طردة ، ثم بعث هو رسولا من قبله إلى فخر الملك يقول له : « إن هذا الذى يعرضه عليك (هلال) إن هو إلا حيلة ماكرة وخدعة

---

(٢) هذا هو الظاهر ولكن ابن الاثير يقول باب نهاوند (ج ٩ ص ٨٠) المترجم

بارعة، لأنه واثق من عدم قدرته على الحرب، فلذلك لا يجوز أن نترك له الفرصة! وعلى ضوء هذه الرسالة أيقن (فخر الملك) أن بدرا يضمر لابنه عداءا مستحكما، فأصدر أمره باشعال نيران الحرب. وبعد اشتعالها بقليل ألقى القبض على (هلال) وسلم لفخر الدولة، وقد ألح هلال فى رجائه كيلا يسلمه إلى والده، فلبى (فخر الدولة) رجاءه وحققه، ثم طلب اليه اطلاعه على الرمز الذى تسلم القلعة بموجبه، فنفذ (هلال) طلبه وأطلعه عليه. ولكن والدة (هلال) والحامية التى كانت قائمة على حراسة القلعة رفضوا تسليم القلعة، وطلبوا الأمان من فخر الملك فأمنهم. ثم دخل القلعة وسلمها لبدر بعد أن صادر جميع ما حوت من خزائن وأموال وغنائم لا تحصى وأكداس من الذهب والفضة والجوهرات والملابس والأسلحة وغير ذلك. (ج ٩ ص ٧٩، ٨٠ من الكامل)

هذا وما أن استعاد (ناصر الدين) مجده وبلاده من بين براثن ابنه (هلال) بفضل مساعدة بهاء الدولة الجدية، حتى بادر باعطاء بلاد (شهرزور) إلى عميد الجيوش وزير بهاء الدولة، ومنذ هذا التاريخ أصبح يتعاقب على حكم بلاد (شهرزور) نواب من قبل عميد الجيوش وزال سلطان البرزكانيين عليها وخرجت من حوزتهم.

أما (هلال) فقد ألقى به فى غياهب السجن ولبث سجينا طيلة عهد كل من (بهاء الدولة) وخلفه (سلطان الدولة) فى العراق إلى أن ظهر فجأة (طاهر بن هلال) فى الميدان وتمكن من تخليص «شهر زور» وانتزاعها من يد نائب عميد الجيوش عام (٤٠٤).

هذا وفى عام (٤٠٣ هـ) أعد ناصر الدين بدر جيشا زحف على رأسه وألقى حصارا منيعا على (حسين بن مسعود الكردى) فى قلعة (كوسجد)، وكان البرد وقتذاك قارسا فلاقى رجاله الأهوال وقاسوا مرارة البرد ولكن العدو قد استمات فى الدفاع عن القلعة فطالت مدة الحصار دون جدوى ولهذا تملك

اليأس رجال (بدر) فقرروا فيما بينهم اغتيال أميرهم (ناصر الدين بدر) ، وعلى الرغم من أن رجاله المخلصين قد أحاطوه علما بأسرار هذه المؤامرة فلم يعرها أية أهمية وقال لهم : « كيف يتسنى لهؤلاء الكلاب الاقدام على عمل كهذا ؟ » ولكن رجاله وأنصاره قد عادوا وأنذروه بأن اغتياله قد تقرر ! فلم يأبه لهم وأصم أذنيه عن سماع أقوالهم .

وبينما كان يجلس ذات يوم على باب معسكره القائم على ربوة ، انقض عليه بضعة رجال من عشيرة (الجوزكان = الجوزقان) وأردوه قتيلا يتخبط فى دمائه ونهبوا عسكره وتركوه وعادوا أدراجهم . ولما خرج الأمير « حسين ابن مسعود » من القلعة ووقع نظره على الجثة الهامدة ، أمر بتجهيزها وتكفينها ثم شيعها إلى مشهد (على رضى الله عنه) حيث دفنت به . وهكذا قضى ناصر الدين والدولة نحبه بعد عمر طويل وحكم دام ثلاثين عاما ، وقد تمتعت البلاد فى ظل حكمه باستقلال تام وعدالة مطلقة لا تشوبها شائبة وحسن تدبير للامور وحزم وعزم فى إدارة دفة شئونها مدة ثمانية وعشرين عاما أى منـــذ وفاة عضد الدولة عام (٣٧٢) للهجرة إلى أن أنشب الخلاف أظفاره بينه وبين ابنه هلال عام (٤٠٠) (١) .

ويذكر لنا مؤلف ذيل تجارب الأمم - وهو الوزير أبو الشجاع - الكثير عن صفات هذا الملك ومميزاته الفريدة النادرة ومحاسنه :

كان الملوك البزركانيون قد خصصوا خمسة آلاف دينار لمحافظة الحجاج تصرف سنويا لرؤساء القافلة التى تصحب الحجاج على شريطة ألا يأخذوا شيئا من الحجاج . كما كانوا قد خصصوا عشرين ألف دينار أخرى لتطهير

---

(١) ابن الأثير ص ٩٢ ج - ٩

الآبار وتعمير المنازل الواقعة فى طريق الحاج ، وتوزيع جزء منه على الفقراء من المهاجرين والأنصار فى الحجاز . وقد ظلت هذه القاعدة متبعة ، وهذه المخصصات تبذل طيلة عهد هذا الملك ثم أوقف صرفها إثر وفاته .

سياسته المالية :

كان (بدر) يوجه كل عنايته نحو المسائل المالية وكان له بصددها آراء سديدة وتدابير صائبة وتوجيهات حكيمة جعلت خزائنه تفيض دائما بالمال ولولا استيلاء فخر الملك ـ كما أسلفنا ـ على خزائنه المكدسة وعلى أمواله الطائلة فى « سابورخواست » لكانت خزائنه تحوى ما لا يحصى من أموال ونفائس .

ومن مفاخره التى سجلها له التاريخ من الناحية المالية منعه الاحتكار منعا باتا ومجازاة كل من يقدم على ارتكابه ، ولا غرو فقد كان يعده خيانة كبرى .

وكان فى حالة ظهور عجز فى الايراد العام نتيجة كوارث حقيقية ـ لا بفعل الملتزمين لمرافق الدولة ـ يعوض الملتزم عن الأضرار التى لحقت به من أموال الصدقة أو يؤجل بدل الالتزام مع تقسيطه عليه ، ولهذا كان كل فرد يسارع إلى توريد ما تعهد به من المال ولا يمكنه الامتناع عن التوريد أو التكاسل فى تحصيل الأموال . وكان يبذل سنويا مبلغا كبيرا من المال على الأعمال الخيرية ووجوه البر فى داخلية المدن . وما كان يألو جهدا فى إنشاء المعامل وإقامة المصانع وإنشاء الطرق التجارية وتمهيدها وإصلاح القائم منها . وكم بذل وأنفق عن سعة فى هذا المضمار ، مما أدى إلى نهضة بلاده نهضة شاملة ، والى تقدم تجارتها تقدما محسوسا ورواجها ، وكان ـ من رائع تدبيره ـ إذا أراد إقامة طريق مهم على سبيل المثال ، جلب جميع ما يلزم من معدات ، ومؤن ثم يفتتح سوقا مؤقتة يباع فيها ويشرى كل ما فى المدن من سلع ، فيؤمها العمال والصناع العاملين فى إنشاء الطريق لشراء ما يحتاجونه بأثمان معتدلة تعود على الطرفين بالخير الوفير .

مميزاته الشخصية :

كان (بدر) من دهاة السياسة فى زمنه ، وكان نافذ الكلمة بين بنى قومه ، قوى السلطة على جيشه ، كما كان فى نفس الوقت عادلا . رحيما ومحبا لرعيته، وكانت له فى الشئون المالية آراء سديدة ، وكان ثاقب الفكر فى جمع الايرادات وأوجه صرفها . وكان خيرا يميل بطبعه إلى فعل الخير . وكان صائب الرأى مدبرا ، حازما ، لا يفهم معنى التردد ولاسيما فى وقت الحروب وحال الملمات ، وكان حاسما وحاكما قديرا . إذ استطاع حكم العشائر البرزكانية بكل حزم وعزم فقضى على روح الفساد ، وحب الغارات والرغبة فى الغزو التى كانت تسيطر على هذه العشائر ، فساد الأمن وعم الإصلاح كل المرافق ، وأقبل الشعب على تعلم القراءة والكتابة ، وتنبهت الأذهان إلى الاستزادة من مناهل العلوم والفنون كما أنه أمن الزراع والفلاحين وحماهم من الأشرار والمستبدين ووقاهم شرهم كما أمكنه القضاء على تلك العادة السيئة القديمة التى كانت منتشرة بين الفلاحين ألا وهى إحراقهم بيادر بعضهم البعض .

ويؤخذ من رواية صاحب « ذيل تجارب الأمم » أن هذا الملك وقد رأى الفساد والخراب قد أخذا ينشبان أظفارهما فى البلاد ، صمم فى دخيلة نفسه على استئصال تلك الروح الشريرة بالسياسة والكياسة . فاولم وليمة كبرى تزخر بكافة الأصناف من مأكل ومشرب ولكنها خلت من الخبز ! فتوقف المدعوون وهم رؤساء العشائر عن تناول الطعام حتى تزود الموائد بالخبز وبينما هم فى انتظـــار الخبز واذا بناصر الدين يخاطبهم قائلا : يظهر أنكم لا يمكنكم الطعام دون الخبز ! فاذا كان الأمر كذلك فلماذا تستبيحون لأنفسكم الاغارة على زرع الناس وضرعهم وتقضون على معايشهم ! سود الله وجوهكم وقبح أفعالكم ! ! ! وأنى لأشهد الله على أنى سأهدر دم كل من تسول له نفسه من الآن فصاعدا التعدى على مزروعات الغير ، وظلم أخيه من بنى الانسان .

والثابت المحقق أنه قد نفذ قسمه وبر بيمينه حيث سفك دماء الكثيرين من المعتدين بغير حق ، وكان هذا عبرة لكل معتبر ودرسا قاسيا لكل مزدجر بل ولجميع العشائر . حيث لم يكن أحـــد يجسر بعد ذلك على إلحاق الضرر بالمزروعات أو الزراع . وبذلك سادت الطمأنينة وانصرف الفلاحون إلى مزارعهم يعملون ويكدون فى أمان وسلام .

وهاك أنموذجا آخر من آيات عدله :

وخرج ذات يوم بصحبة بضعة من رجال جيشه متفقدا أحوال الرعية !! فصادف فلاحا يحمل حطبا ، وكان فارس من فرسان الجيش قد اغتصب رغيفين من هذا الفلاح ، فلما أن أبصر (ناصر الدين بدر) صاح به قائلا : أيها الملك أنا حطاب فقير كان معى رغيفان أسد بهما رمقى ، وأستعين بثمن الحطب على إطعام أولادى وعيالى ، فاعترضنى فى الطريق فرسان جيشك وسلبنى أحدهم خبزى . فسأله ناصر الدين : أتعرف ذلك الفارس ؟ فأجاب الرجل : نعم أعرفه إذا وقع نظرى عليه !!

وعلى أثر هذه المناقشة بين الملك والحطاب ، وقف فى أحد مضايق الجبال وأمر رجال الجيش أن يمروا أمامه واحدا واحدا وإلى جانبه الحطاب، ولم يمض طويل وقت على مرور الجند حتى تعرف الحطاب على الفارس المقصود وأرشد الأمير اليه ، فأمر (ناصر الدين) بالفارس فأنزل عن فرسه ، وقال له مشيرا إلى الحطب : إحمل هذا الحطب ، واذهب به إلى المدينة وبعه ، ثم اعط ثمنه لهذا الرجل الحطاب الذى سلبت رغيفه اغتصابا ، وكان هذا الفارس رجلا معروفا وذا مال وثراء ، فأراد أن يتفادى العقوبة بتقديم مبلغ من المال يزن الحطب المراد بيعه ، ولكن ناصر الدين قد رفض ملتمسه ، وحمله الحطب وأبى إلا أن ينفذ أمره وكان له ما أراد . وما كان ينبغى من وراء ذلك إلا أن يتخذ العدل مجراه ويشعر الجميع بأنه لايراعى فى إقامة صرح

العدل كبيرا وصغيرا ، وكان لهذا أوضح الأثر فى تقويم الأخلاق .

ويقال إن ملكة الرى كانت عظيمة الثقة برجاحة عقل الأمير (بدر) وحسن تدبيره وكانت لا تفتأ تستشيره فى الملمات وتستعين برأيه الصائب فى تصريف شئون الدولة .

وحدث أن أوفد الأمير (نوح بن محمود بن سبكتيكين[١]) حاكم خراسان رسولا إلى الملكة يتهددها ويتوعدها بل ويتحرش بها ، فما كان منها إلا أن أسرعت بمكاتبة (ناصر الدين) تسأله رأيه ، فأجابها على الفور طالبا اليها أن توفد اليه هذا الرسول الذى يتحرش بها ... ، وما أن وصل هذا الرسول حتى كان (ناصر الدين) قد حشد جيشا كامل العدة والعدد لدرجة أن صفوفه قد امتدت من باب الرى الى (سابورخواست) ، وما أن وقع نظر الرسول على هذا الجيش الحافل ، وما أن رأى ما عليه الملك من مظاهر القوة والمنعة والثراء حتى اعترته الدهشة وأخذته الحيرة ، ولكن ناصر الدين قد هدأ من روعه وأكرم وفادته واحتفى به ، ثم زوده بالنصيحة التالية : « انه ينبغى للأمير نوح ابن محمود أن يسلك مع الملكة مسلك الوئام والتفاهم » ثم ودعه بمثل ما قوبل به من الحفاوة والتكريم .

ولما عاد الرسول وألقى بهذه النصيحة الغالية على مسامع الأمير نوح ابن محمود وجد لديه قبولا حسنا واقتناعا بوجاهتها ، وأبدى استعداده للصلح وتجنب اثارة الحرب . هذا ، وكانت الخدعة الحربية التى مثلها مع (قره تكين الجهشيارى) تعد أبرع مثال يدل على مقدرته الحربية .

وما أن لحق « ناصر الدين بدر » بالرفيق الأعلى ، وانقضت أيامه حتى بدأ الضعف ينخر فى كيان الحكومة البرزكانية ، فمنيت بالتدهور والانحلال

---

(١) فى ذيل التجارب ، يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين . المترجم

وساءت أمورها ، وفقدت سطوتها كحكومة منظمة ، وأضحت إمارة يخيم عليها الضعف ، ويضطرب حبل الأمن ويختل فى جميع أرجائها .

ويقول ابن الاثير فى(١) الكامل : حدث بعدمقتل الأمير «بدر» أن انحازت العشيرة الجوزكانية إلى جانب « شمس الدولة أبى طاهر بن فخر الدولة البويهى» ثم قام «طاهر بن هلال» حفيد « ناصر الدين بدر » مطالبا لنفسه بالملك ،ومن أجل هذا اشتبك مع شمس الدولة فى حروب طاحنة . غير ان الحظ قدتنكر له ، فوقع فى يد خصمه أسيرا ، ونهبت كل أمواله ، وألقى به فى غياهب سجن « همذان » مما أدى إلى انضمام العشائر اللورية والشاذنجان إلى «أبى الشوك ابن أبى الفتح محمدبن عناز » ، كما استولى شمس الدولة على البقية الباقية من الممتلكات البرزكانية .

وفى هذه الأثناء كان «هلال بن بدر» يعانى آلام السجن لدى «سلطان الدولة» فأطلق سراحه على أثر استيلاء شمس الدولة على البلاد ، وما أن غادر السجن حتى عمد إلى إعداد جيش ضخم حافل ، عزم على أن يسترد به ملك والده ، فتقدم على رأسه واشتبك مع شمس الدولة فى عدة معارك ،ولكن هذا الجيش لم يخلص له اذ لم يكن راغبا فى القتال مما أدى إلى خذلانه وقتله فى ذى القعدة عام (٤٠٥) .

وفى عام(٤٠٦) للهجرة قطع « طاهر بن هلال بن بدر » على نفسه العهود والمواثيق بالولاء والطاعة لشمس الدولة بن فخر الدولة بن بويه ، وتم التفاهم بينهما ، وعلى أثر ذلك زوده شمس الدولة بجيش توجه على رأسه شطر البلاد البرزكانية حيث اجتمع معه طوائف ، وما لبث أن أشتبك مع « أبى الشوك »

---

(١)انظر ابن الاثير(٩ ص ٩٢)حيث ورد: كانت مملكة بدر،سابورخواست والدينور وبروجرد ونهاوند واسداباد وقطعة من أعمال الاهواز وما بين ذلك من القلاع والولايات. المترجم

فى حرب طاحنة أسفرت عن اندحار أبى الشوك وقواته ، وقتل (سعدى) أخى أبى الشوك فى المعركة ، ورغم ذلك تم الصلح بينهما ، وتمكينا لأواصر هذا الصلح عقد ظاهر على أخت أبى الشوك ، « الكامل ٩ ص ٩٧ » .

ولكن أبا الشوك ظل يضمر له السوء ويتحين الفرصة للأخذ بثأر أخيه حتى تم له ما أراد بفضل مكيدة دبرها له فقضت على حياته ، ، وبموته دالت دولة أسرة (حسنويه) وانقضت أيامهم ، وانقرضت حكومتهم ، وخضع شطر كبير من البلدان التى كانت فى حوزتهم وخاضعة لسلطانهم ، وكذا جزء من منطقة « شهرزور » لامارة « بنى عناز(١) » الأكراد .

وكان آخر أمراء أسرة (حسنويه) هو الأمير « أبو سالم ديسم بن أبى الغنائم » أخى حسنويه الذى كان قد أقام حكومة فى قلعة « كاسان » فى منطقة (زهاو = زهاب) على مقربة من « بابا يادكار » ، وهى آخر حصن أوى إليه ، ولكن أيام هذا الأمير لم تعمر طويلا ، فانهارت بعد وفاة طاهر بمدة قليلة .

---

(١) هكذا ورد فى ابن الاثير بالزاى (عناز) ويذكرها شرفنامه (عيار) بالياء والراء فى الآخر . وقد خالفهما المرحوم سعيد باشا الديار بكرى فى كتابه مرآة العبر بالتركية فذكرها (عنان) بالنون فى الأول والآخر . وتبعه المؤلف كما سيأتى فى مبحث الحكومة العنانية أو العنازية . المترجم

الفصل الرابع

٤ ـ «الحكومة الشدادية» بأران (٣٤٠ ـ ٤٦٨ هـ)

إن التاريخ ليفتقر إلى معلومات مسهبة شافية عن (بنى شداد) الذين أسسوا حكومتهم فى (أران) فى عام (٢٤٠) (١) للهجرة ، تلك الحكومة التى عمرت حتى عام (٤٦٨) للهجرة حيث استولى ملكشاه السلجوقى على معظم أملاك هذه الدولة ، وضمها إلى رقعة إمبراطوريته المترامية الأطراف . . . ورغم ذلك ظل بعض أبناء تلك الأسرة الحاكمة محتفظين بالسيادة فى بعض الجهات مثل (كنجة ـ جنزه) و (آنى) تحت الحماية السلجوقية .

فمن المرجح جدا أن تكون هذه الأسرة كردية (٢) ولقد كانت مدن نخجوان ، كنحه ، تفليس ، دميرقبو ، قره باغ ـ من المدن الشهيرة التى كانت داخلة فى نطاق هذه الحكومة الأرانية التى كان معظم أهلوها ورعاياها من (اللكز ـ لزكى) . وفى عام ٣٣٧ للهجرة (٩٤٨م) حينما وقع فيه (السالار مرزبان بن محمد) حاكم أذربيجان أسيرا فى مضيق الرى ، انفرط عقد حكومته ونادى كل أمراء الأطراف فى المدن والقلاع بالاستقلال والانفراد بالحكم

---

(١) كذا فى الأصل. والظاهر انه تصحيف من (٣٤٠) هجرية كما فى جميع المصادر الأخرى (مثل منجم باشى) و (دول اسلاميه) .

(٢) تنص اغلب المصادر على كردية هذه الأسرة مثل (الدول الاسلاميه) لـ (إستنلى لين پول) و (دائرة المعارف الاسلاميه) . المترجم .

وكان من بين هؤلاء الأمراء أمير يدعى (محمد بن شداد بن كارعو) قد بادر قبل غيره من الأمراء إلى اعلان استقلاله فى (دبيل) ثم ما لبث أن سطع نجمه ، وعلا شأنه حتى وازى نفوذه وضاهى ، نفوذ حاكم آذربيجان . وظل يرفل وينعم بالسطوة والسلطان ، حتى عام ٣٤٤ للهجرة (٩٥٥ م) دون منافس أو منازع . . . وبعد ذلك أخذ نفوذه يتضاءل ويضمحل كما أخذ نجمه فى الأفول حتى تقلص سلطان الدولة ولم يعد يعدو فى عهد ابنه منطقة (آران) .

كان يحكم (كنجة) وقتذاك أمير يدعى (فضلون) يلوح أنه كان أخا لمحمد بن شداد . وكان لمحمد بن شداد هذا ، ولد يدعى (أبو الحسن على بن جعفر لشكرى) (١) ظل يحكم البلاد ثمانى سنوات ، ثم خلفه فى الحكم أخوه (مرزبان) الذى لبث فى الحكم سبع سنين ، (٣٦٨ - ٣٧٥) ثم قتله أخ له آخر يدعى (فضل بن محمد) أثناء الطراد والقنص ، واعتلى أريكة الحكم مكانه وقد قرب الناس اليه واكتسب محبة الجميع وحاز ثقتهم بفضل إدارته الحازمة لدفة شئون البلاد ، وعمله المتواصل لرفع مستوى البلاد ورقيها ، من نشر العلوم والمعارف إلى تنفيذ سلسلة من المشروعات العمرانية التى كان من بينها إقامة جسر كبير على نهر (الرس - آراكس) الشهير إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة النافعة . وظل هذا الأمير متربعا على أريكة الحكم ، وقابضا على زمام الأمور سبعة وأربعين عاما إلى أن توفاه الله إلى رحمته فى عام ٤٤٢ للهجرة

وقد خلفه فى الحكم ابنه (أبو الفتح موسى) الذى لم يلبث فى الحكم سوى ثلاث سنوات ، ثم خلفه بعده على أريكة الحكم ابنه (أبو الحسن

---

(١) كذا . وهذا ولا شك تصحيف . فالظاهر المعقول هو ماورد فى الدول الاسلامية هكذا « اللشكرى أبو الحسن على بن محمد . حكم ٢٤ سنة » المترجم

على بن موسى الشهير باللشكرى) الذى امتد حكمه حتى عام ٤٤٠ للهجرة. وقد أطنب الشاعر الشهير (قطران) فى مديح هذا الأمير الذى قام بحمايته فى مدينة (كنحه) وجاء بعده فى الحكم ابنه (نوشيروان) الذى لم يلبث فى الحكم سوى ثلاثة أشهر لحق بعدها إلى الرفيق الأعلى . وتولى الحـــكم من بعده (أبو الأسوار شاور بن فضل) الذى تزخر الروايات وكتب التاريخ بتفاصيل مسهبة عن أيام حكمه تفوق كثيرا ما أثر وكتب عن أسلافه من الأمراء ، ولقد أسهب (قطران) الشاعر صاحب كتاب (قابوسنامه) فى سرد أعماله ومشروعاته وذكره كثيرا بالخير كما تحدث عنه ابن الأثير المؤرخ حيث يقول : إن أرطغرل بك حينما قدم (كنجة) بعد غزوه لتبريز (١) فى عام ٤٤٦ للهجرة ، تقدم اليه الأمير (أبو الأسوار) صاحب كنجة وقدم له فروض الطاعة والولاء (٢) .

وفى عام(٤٥٦) للهجرة لحق (أبو الأسوار) بالرفيق الأعلى ، وخلفه فى الحكم ابنه (منوجهر) الشهير بالفضل الثانى . وحيث ان كتاب (قابوسنامه) الذى كتب فى عام ٤٦٨ كان باسم (فصلون بن أبى الأسوار) فالظاهر أن أستقلال بنى شداد قد ألقى عليه الستار بوفاة فضلون هذا ، وضمت مملكة (أران) إلى الامبراطورية السلجوقية فى عهد ملكشاه .

وإنه لمن العسير بل ومن المتعذر جدا تتبع أخبار هذه الأسرة بعد ذلك . وقصارى القول، نستطيع أن نقول ان (فضلون) إن هو إلا هو إلا صاحب هذا الاسم الرسمى (الفضل الثانى منوجهر) الذى كاتب به مادحه ومحميه الشاعر (قطران) ثم انه بطل جميع الروايات والقصص والأمثال التى ضمنها

---

(١) وكان اميرها حينذاك الأمير منصور وهسوذان بن محمد الروادى. المترجم

(٢) قد ذكر « منجم العمران » خبر تقديم هذه الطاعة (ج ٩ ص ١٩٠) المؤلف

الشاعر كتابه الشهير (كابوسنامه ـ قابوسنامه) . ويظهر أن حكم هذا الأمير البطل كان سائدا فى منطقة (كنجة) و (آنى) و (وتوين ـ دوين) . ويؤخذ من بحوث (خانيكوف) أن (الفضل منوجهر) كان له ابنان ، وأنه كان حاكما على (كنجه) حين استولى عليها ملكشاه فى عام ٤٨١ للهجرة . كما كان (أبو الأسوار الثانى شاور) حاكما على (آنى (١)) حينما استولى عليها الملك (داويد ـ داوود) فى عام ٥١٨ للهجرة . وكان لأبى الأسوار هذا ولد يدعى (محمود) وكان لمحمود هذا ولد يدعى (قاى سلطان) . وتتضمن لوحة أثرية كشفت أخيرا فى (آنى) معلومات هامة عن هذا الشخص إذ وجد منقوشا عليها عام ٤٩٥ للهجرة إلى جانب عبارة (قاى سلطان بن محمود بن شاور بن منوجهر الشدادى) .

وعلى ضوء ما ورد فى هذه اللوحة الأثرية من المعلومات يتسنى لنا ترتيب أسماء وسنى حكام بنى شداد كالتالى :

١ — محمد بن شداد بن كارعو (قرطق = قرطو) : تولى الحكم فى كنجه سنة ٣٤٠ هجرية باسم (فضلون الأول) .
٢ — أبو الحسن على بن جعفر لشكرى (٣٦٠ - ٣٦٨ هجرية)
٣ — مرزبان ٣٦٨ هجرية .
٤ — الفضل بن محمد (٣٧٥ - ٤٢٢ هجرية)
٥ — أبو الفتح موسى بن فضل (٤٢٢ - ٤٢٥ هجرية) .
٦ — أبو الحسن على بن موسى لشكرى (٤٢٥ هجرية) .
٧ — نوشيروان بن على بن موسى (٤٤٠ هجرية) .

---

(١) استولى الكرج ويقودهم (داويد الثانى) على (آنى) سنة ١١٢٤ م (٥١٨ هـ) ومنذ هذا التاريخ أضحت المدينة كرجية بحتة . المؤلف

٨ — أبو الأساور شاور بن الفضل بن محمد (٤٤٠ - ٤٥٦ هجرية .)
٩ — الفضل منوجهر بن شاور (فضلون الثانى) فى (كنجه)
١٠ — أبو المظفر فضلون الثالث فى (كنجه) .
١١ — أبو الأسوار شاور بن منوجهر فى (آنى) .
١٢ — أبو الفتح جعفر بن على بن موسى (آلان ؟ ٤٧٠ هجرية .)
١٣ — محمد بن شاور بن منوجهر بن شاور بن الفضل فى (آنى) .
١٤ — قاى سلطان بن محمود بن شاور (آنى - ٤٩٥ هجرية .)

الفصل الخامس

٥ – « الحكومة الدوستكية والمروانية » بديار بكر (٣٥٠ – ٣٧٠ – ٤٧٦)

أ) والدستكية

إن مؤسس هذه الحكومة هو (باز) أبو شجاع ابن دوستك . ويقول صاحب تاريخ الموصل : إن (بازا) الكردى أبا عبد الله حسين هو ابن دوستك الذى كان أميراً للعشيرة الحميدية ، وكانت كنيته (أبا شجاع) فى حين يرى (ابن خلدون) أن أبا عبدالله حسين هو أخوه ، وليس هو نفسه .

هذا وكان (باز) أو (باذ) فى أول أمره يرعى غنما ، وكان على جانب عظيم من رجاحة العقل وحرية الفكر ، تبدو عليه مخايل الفطنة وعلائم الذكاء والدهاء ، كما كان كريم الطبع جوادا ، يجود بكل ماملكت يداه على الفقراء واليتامى والمساكين ، حتى ذاع أمر كرمه الحاتمى وانتشر بين الناس . وكان يقوم بين الثمينة والفينة بشن غارات على بلدان الثغور حيث يعود منها محملا بالكثير الوافر من الغنائم التى كان يقسمها قسمة عادلة بين رجاله ورفاقه ، مما حبب فيه الكثيرين وأدى إلى التفافهم حوله فقوى نفوذه وعلا شأنه وأخذ نجمه يتلألأ .

وهذه الرواية — على ماأعتقد — مختلقة لا نصيب لهامن الصحة ، لأن العقل لايمكن أن يستسيغ أن سليل أمير عشيرة كبيرة يقوم برعى الغنم وقطع الطرق وهى أعمال لا يلجأ إليها إلا أفرادعضهم الدهر بنابه فأنتابهم بفقر مدقع أو دفعتهم إلى ارتكابها حاجة ملحة ، والطبع الذى يتمشى مع المنطق أن ابن سيد العشيرة لامندوحة فى أن يكون أبعد الناس عن الفقر والعوز .

والحقيقة التى لامراء فيها أن (أبا شجاع) قد قويت شوكته وأخذت

دائرة نفوذه تتسع رويدا رويدا حتى تمكن من تعبئة جيش فرض به سلطانه على من حوله من أمراء البلدان .

وما مضى على ذلك طويل وقت حتى واصل الزحف على إقليم « أرمينية » ونجح فى الاستيلاء على « أرجيش » وكانت هذه أول مدينة دانت لسلطانه ، وكما يقولون : أول الغيث قطر ثم ينهمر ، إذ كان لاستيلائه على هذه المدينة أثر واضح فى تقوية الروح المعنوية بين رجاله ، فازداد بذلك قوة على قوة ، وأغرته نشوة النصر على مواصلة الزحف حتى طرق أبواب «ديار بكر »واستولى على مدينتها « آمد » ثم على مدينة «ميافارقين»وماحواليها من القرى والدساكر(١).

وكان (باذ) عالى الهمة طموحا ، لا يألو جهدا فى سبيل الرفعة والمجد والوصول إلى الذروة . ومن المحتمل — كما يقول السيد حسين المكريانى — أنه تمشيا مع التقاليد المتوارثة المرعية وقتذاك ، قد أقدم على تكوين علاقات ودية مع عضد الدولة ، وأنه — توكيداً لهذه العلاقات — قدم مساعدة جدية للجيش البويهى لكسر شوكة الأمير (أبى تغلب) الحمدانى .

وما أن استولى البويهيون على الموصل ، وما أن دخل (عضد الدولة) المدينة حتى خف (باذ أبو شجاع) للقائه ، وأسرع لمقابلته ، ولكنه ما كاد يغادر مجلسه حتى بادر (عضد الدولة) الحاضرين وفاجأهم بقوله : إن هذا الأمير ممتلىء شجاعة ومهابة ، وإنه لمن الخطورة بمكان على الدولة أن يبقى حيا بين الأحياء ويظل على قيد الحياة ، فأصدر أمرا بإلقاء القبض عليه لولا أن (باذ) كان قد فطن إلى ما بيت له من شر وما نصب له من شباك فغادر المدينة سرا وعلى الفور ، حيث لحق بجيشه . (ذيل تجارب الأمم ج ٣ . ص٨٤—٨٧) .

وما أن لقى عضد الدولة ربه عام ٣٧٣ للهجرة حتى استطاع (أبو شجاع)

---

(١) (الكامل ج — ٩ ص ١٣٠) المترجم

ضم « نصيبين » إلى رقعة ممتلكاته ، فامتد سلطانه إلى أطراف الموصل، الأمر الذى شغل بال (صمصام الدولة) وأدى إلى استيائه وإشاعة القلق فى نفسه فبادر إلى إعداد حملة عسكرية بقيادة (أبى سعيد بهرام بن أردشير) وأعلن الحرب على الأمير (باذ) الذى عبأ جيشه للدفاع ، ثم تلاقى الجمعان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس ، أسفرت عن هزيمة (أبى سعد بهرام) هزيمة منكرة ، ووقع الكثيرون من قواد الجيش البويهى وزعمائه أسرى حرب .

وفى نفس العام عبأ (صمصام الدولة) جيشا عرمرما بقيادة (أبى القاسم سعد بن محمد الحاجب) وبعث به لمحاربة (أبو شجاع) واشتبك الجيشان فى مكان يدعى (باجلايا) على وادى خابور الحسينية(١) على مقربة من بلدة كواشى وأسفر القتال عن اندحار البويهيين وتمزيق صفوفهم شر ممزق ، وأسر وقتل من رجالهم الكثيرون ، أما من نجا منهم وهم قليلون فقد عادوا إلى الموصل وقد تملكهم النصب وأخذ منهم الاعياء كل مأخذ لما صادفهم من صعاب وما حف بهم من متاعب .

وبعد أن بعث أبو شجاع بالأسرى إلى المؤخرة ، واصل التقدم بجيشه متعقبا ومطاردا الذين لبستهم الهزيمة من الديالمة حتى بلغ أطراف الموصل وطرق أبوابها ، فما كان من أهليها إلا أن انفجروا ثائرين فى وجه حكامهم الديالمة، لما لاقوا على أيديهم وفى أيام حكمهم من ظلم فادح وعسف بالغ وجور فاضح ، وسلموا المدينة لأبى شجاع .

وبعد أن استقر بأبى شجاع المقام فى الموصل ، وبعد أن أصلح شئونها ودبر أمورها ، أخذ يعبىء الجيوش ويعد العدة لأنقاذ (بغداد) مركز الخلافة

---

(١) أى نهر الخابور الذى يصب فى دجله — المترجم

من بين براثن الديالمة وتخليصها من تحت نيرهم . وما أن بلغت (صمصام الدولة) أنباء هذه الاستعدادات التى كانت قائمة على قدم وساق حتى بادر إلى حشد جيش ضخم أسلم قيادته إلى (زيار بن شهراكويه) أكبر القواد الديالمة ، فزحف (زيار) على رأس جيشه إلى « الموصل » فانبرى له (أبو شجاع) بجيشه والتحم الجيشان ودارت بينهما معركة دامية أسفرت عن خذلان أبى شجاع وانهزامه هزيمة شنعاء ومنى جيشه بخسائر فادحة ووقع الكثيرون من رجاله أسرى حرب ، ثم قفل راجعا إلى (ديار بكر) يجر أذيال الهزيمة . وشرع فى حشد الرجال والمقاتلة . أما (زيار) فكان مزهوا بما أحرزه من نصر مؤزر ، وقد شطر جيشه إلى فريقين بعث بأحدهما تحت قيادة « سعد الحاجب » على بلدة الجزيرة . وزحف الآخر صوب « نصيبين » . والذى يبعث على الدهش أن كليهما قد شق عليه عصا الطاعة ، وما نفذا له ما أمرهما به . بل عزفا عن قتال « أبى شجاع » وتفاديا الاصطدام به .

وما أن طرقت هذه الأنباء مسامع (صمصام الدولة) حتى دخل على الفور فى مفاوضات مع (سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمـــدان) وتم الاتفاق بينهما على أن يزحف (سعد الدولة) بجيش يستأصل به شأفة (أبى شجاع) وتعطى له (ديار بكر) نظير قيامه بهذه المهمة . ولكن قد جانب النصر جيش « سعد الدولة » فباء بفشل ذريع ، وعاد أدراجه إلى حلب يجر ذيل الفشل .

ولما علم (سعد الدوله) بنبأ هذا الاخفاق حتى صمم على التخلص من (أبى شجاع) بسفك دمه ، وأوفد من يقوم على تنفيذ هذه المكيدة ، وتمكن الموفد من اقتحام معسكر (أبى شجاع) واندس بين جنوده ، وفى ليلة حالكة السواد وتحت جنح الظلام تسرب خفية إلى فسطاط (باذ) — الذى كان راقدا فى فراشه — وطعنه بسيفه طعنة لم تكن القاضية وإن كانت قد سببت له بعض جراح ثخينة ، ثم ولى النذل الغادر أدباره .

وبعد ردح من الزمن اندملت هذه الجراح وعوفى من آثارها ، وسرعان مادخل فى مفاوضات مع (زيار) و (سعد) وعقد بينهم صلح أشترط فيه أن يبقى(باذ) حاكما على (ديار بكر) كلهاو نصف منطقة (طورعابدين) الجبلية ، ثم عاد (زيار) على أثر ذلك إلى«بغداد» تاركا شطرا من جيشه«فى الموصل[١]» بقيادة سعد الحاجب . وفى عام ٣٧٧ هـ (٩٨٨ م) ، حشد (باذ)جيشا كبيرا زحف به على الموصل ، ـ وكان (شرف الدولة) ملك بغدادقدأقام « أبانصر خواشاذه » حاكما عليها ، خلفا لسعد الحاجب الذى كان قد توفى ،، وما كاد (أبو نصر) يحط رحاله فى الموصل ويقف على حقيقة ما عليه جيش « باذ » من قوة وسطوةوبسالة ، حتى بادر إلى طلب النجدة من«شرف الدوله» ،،ولكن «باذ» لم يعط له فرصة ، بل أخذه على غرة ، وضيق عليه الخناق مما اضطره إلى طلب معاونة عاجلة من لدن عرب قبيلتى « بنى عقيل » و « بنى نمير » ، اللتين شارك الكثيرون من رجالهما وفرسانهما ـ الديالمة القتال . ، فانبرى لهم « أبو شجاع » بقوة مختارة من صفوة رجاله تحت قيادة أخيه الذى لقى حتفه صريعا فى هذه المعركة وحاق بقوته فشل ذريع وخسران مبين . (راجع ابن الأثير ـ المترجم)وفى(٣٧٩[٢] هـ) وفداثنان من أبناء ناصر الدولة بن حمدان

---

(١) لم يتعرض تاريخ الموصل لبحث مساعدة سعد الدولة ، ويقول إن فدائيا كان قد ارسل من قبل (زيار) لاغتيال (باذ). المؤلف

(٢) يذكر كتاب تجارب الأمم (ج ـ ٣ ص ١٤٥) ان (باذ) قددبرحيلة بارعة فى هذه الموقعة قد بهرت الأعين وبعثت الرهبة فى المحيطين به ، وهى انه كان يضع البقر على رءوس الجبال و بينها رجال بيدهم سيوف تبرق وحراب تتلألأ فأذا شوهدوا عن بعد ظنوا رجالا فـلا يتجاسر الجنود على الصعود إليهم .. ولـكن حدث ان نزل اخ لباذ وقاتل قوما من العرب فقتل وبلغ قتله من باذ كل مبلغ .... الخ (المؤلف)

من بغداد وهما (ابو طاهر ابراهيم) و(ابو عبدالله الحسين) واستطاعا تعبئة جيش من بين عرب بنى عقيل وبنى نمير استعدادا للزحف به على الموصل ولكنهما لم يتجاسرا على تنفيذ خطة الزحف هذه ، ولجئا إلى « محمد بن المسيب » أمير بنى عقيل ، وكان أهل الموصل قد عقدوا — وقتئذاك — اتفاقا سريا مع أبى طاهر ابراهيم الحمدانى ، فى حين نص فى الاتفاق الذى تم بين « ابن المسيب » « وأبناء الحمدانى » على أن تكون الموصل وأطرافها للحمدانى، ومدينتا «نصيبين» و « الجزيرة » لابن المسيب . بعد ذلك زحف جيش الحمدانيين من الشرق ، وعرب بنى عقيل من الغرب على أن يطبقا سويا وفى وقت واحد على «الموصل» التى كانت نيران ثورة قام بها الأهلون مشتعلة بين جنباتها — فسارع جيش « باذ » للقاء الحمدانيين الزاحفين من الشرق فالتقى الجمعان ودارت بينهما معركة دامية سفك فيها دماء الكثيرين ، ثم تقدم جيشه وتصدى للزاحفين من الغرب وبينما هو وجيشه مستميتان فى القتال ومطاردة العدو ، وإذا بأهل الموصل يعمدون إلى فتح أبواب المدينة على مصاريعها لجنود ابن المسيب ، ويطعنون الجيش الكردى من الخلف طعنة قاصمة ، فانعكس تيار المعركة ، وتحطمت الروح المعنوية بين رجال « باذ » وجرح هو نفسه جرحا بليغا ثم مالبث أن فاضت روحه وصعدت إلى بارئها فى اليوم الثانى من شهر جماد الثانى عام (٣٨٠) للهجرة متأثرا بجراحه ، وبموته أضحى جيشه أعزل دون قائد فعاد الفهقرى إلى « ديار بكر » يجرر أذيال الهزيمة[١] .

---

(١) يذكر صاحب كتاب الكامل (ج - ٩ ص ٢٦) سنة ٣٨٠ وكذا (ذيل تجارب الامم) حوادث هذه الموقعة الأخيرة على منوال آخر وهاك ملخصها :ـ

كانت الموصل قد وقعت فى أيدى الحمدانيين ، وأراد (باذ) أن ينتهز هذه الفرصة ويستولى عليها فحشد جيشا عرمرما من الاكراد ، وكان يشد أزره =

فى مهمته هذا الأكراد البشنوية اصحاب قلعة (فنك) وكانوا كثيرا . ففى ذلك يقول الحسين البشنوى الشاعر لبنى مروان ويعتد عليهم بنجدتهم خالهم باذا من قصيدة

البشنوية أنصار لدولتكم وليس فى ذاخفا فى العجم والعرب
أنصار (باذ) بأرجيش وشيعته بظاهر الموصل الحدباء فى العطب
بيا جلايا جلونا عنه غمغمة ونحن فى الروع جلاؤن فى الكرب

فتوجه باذ بهذا الجيش الضخم تجاه الموصل من الجهة الشرقية ، فانبرى له فريق من جيش الحمدانيين و(أبى الذواد محمد بن المسيب) بداخل المدينة بعد أن عبروا دجلة ، بينما زحف الفريق الآخر وقوامه (٢٠٠٠) من فرسان من عرب بنى عقيل واجتازوا النهر أيضا من شمال المدينة لمناهضة العدو والاجهاز عليه ولما علم (ابو شجاع) بهذه الأنباء أراد أن يحسن موقفه الحربى ويقترب من الجبال ولكن الوقت لم يسعفه ، فاضطر ان يطلق لجواده العنان فكبا الجواد وسقط ابو شجاع على الارض طريحا يتقاطر الدم من جرح بليغ قد أصابه ، وتقدم إليه ابن اخته (ابو على الحسن بن مروان) وطلب إليه ان يمتطى صهوة جواده ويلحق بالجيش ، فرفض وقال له : إذهبوا انتم ودعونى وحالى فأنى قد انتهيت ، فاضطر (ابو على) ان يتركه مرغما واعتصم مع خمسمائة من رجال الجيش بالجبال .

بعد ذلك عثر رجل من بنى عقيل على (باذ) ملقى على الارض بين القتلى والجرحى ولم يكن قد فارق الحياة فقطع رقبته وقضى عليه وحمل رأسه إلى الحمدانيين الذين لم يكتفوا برقبته بل قطعوا يديه وبتروا رجليه وجاءوا بها إلى بغداد وعلقوا ما تبقى من الجثة على باب الامارة فى الموصل .

وقد استثار هذا العمل الشنيع اهل الموصل واثار مكامنهم فضجوا بالشكوى وابدوا عظيم استيائهم من هذا الظلم الصارخ والوحشية المتناهية قائلين : كيف يجوز ارتكاب مثل هذه الأعمال مع من له الايادى البيض فى الدفاع والذود عن الاسلام والجهاد فى سبيله ،، ثم عمدوا إلى جثته المعلقة فأخذوها واحتفلوا بدفنها احتفالا يليق بما لها من تجلة وإكرام ..... وهذا دليل ساطع على ماكان يكنه الشعب من محبة وتقدير لصاحب الجثة .

المؤلف

ب — « الحكومة المروانية »

ان « أبا على حسن» الذى هو ابن مروان بن دوستك كما فى الجزء الثانى من وفيات الأعيان، قد تخلى عن عمه[١] (باذ أبى شجاع) حين جاءه نبأ إصابة خاله (كذا) واندحار جيشه فى المعركة ، ويمم شطر «حصن كيف» القلعة المنيعة على ضفاف دجلة معتصما بها ومستهدفا بسط سلطانه على البلاد من غير إثارة فتنة.

وكانت زوج عمه الديلمية تقيم فى هذه القلعـة ، فالتمس مقابلتها بحجة أنه يحمل من لدن عمه بعض وصايا يريد الأفضاء بها اليها ، فصدقت زعمه وسمحت له بمقابلتها ، وأمرت بأن تفتح له أبواب القلعة على مصاريعها . فلما مثل بين يديها ، أسر لها بحقيقة أمره وألقى على سمعها بما دبره فى نفسه ، فلما وجد قلبها قد تفتح أمامه كاشـفها برغبته فى الزواج بهـا فقبلت عرضه راضية مرضية ، وهكذا ضمن الاستيلاء على القلعة دون سفك دماء وبغير قتال .

ولـكن مطامعه ما كانت لتقف به عند هذا الحد، بل أخذ يجند الجند ويعد العدة ويجمع شتات جيش عمه حتى عبأ قوة خارقة يخشى بأسها ويحسب حسابها وقد بعثت فيه هذه القوة روحا وثابة ، فأخذ بها يناضل ويكافح حتى أسس الدولة الدوستكية من جديد وانعقد له لواء زعامتها . وعلى أثر ذلك سارع زعماء

---

(١) اختلفت المصادر فى هل (باذ) خال (أبى على) فقط ، كما هو المتبادر من الشائع فى ابن مسكويه وابن الأثير . أم أنه عمه أيضا ، كما يؤخذ من مصادر أخرى، بدليل كون اسم والد (باذ) هو دوستك واسم والد (مروان) والد (أبى على) أيضا (دوستك) وغاية ما هنالك يجب فرض أن باذا ومروانا كانا أخوين لأب وأن مروانا تزوج بأخت باذ من أم فولد أبا على الحسن الذى صار (باذ) خاله وعمه فى آن واحد . وبهذا زال الخلاف بين المصادر وصارت تسمية هذه الدولة كلها دوستكية أصح من التسمية بالدوستكية والمروانية . المترجم

كردستان وقدموا له فروض الطاعة دون قتال ، فازداد بذلك قوة على قوة ، واضحى واسع النفوذ ، عريض السلطان .

وحدث أن رغب أبو طاهر وأبو عبد الله الحمدانيان - بعد أن تم لهما الاستيلاء على الموصل - فى مد سلطانهما على ما تبقى من البلدان التى كانت تدين بالخضوع للحكومة الدوستكية فعبئا جيشا كبيرا زحفا به - ومعهما رأس « باذ » - صوب « ديار بكر » ظانين أن البلاد خاوية على عروشها تفتقر إلى من يدفع عنها غائلة العدو أو يرد عنها كيد الكائدين ، ولكن ثبت قصر نظرهما ، بل طاش سهمهما وخاب ظنهما ، لأن (أبا على) كان قد جمع شتاته ، وسما مركزه وعلا ، فتمكن من إعداد قوة حربية ضخمة ومنظمة يضاف إلى ذلك انفجار الأهالى ثائرين على مظالم الحمدانيين ، وسوء إدارتهم وتعسفهم ، مما قوى ساعد (أبى على) وحفزه على العمل ... فزحف بجيشه والتحم مع جيش الحمدانيين فى معركة دامية أريقت فيها دماء الكثيرين من الحمدانيين وسقطوا صرعى يتخبطون فى دمائهم وانعقد لواء النصر « لأبى على » ووقع « أبو عبد الله » الحمدانى فى يده أسيرا ولكنه أحسن له المعاملة ، ولم ينظر إليه كأسير حرب وما جعله يحس ذل الإسار بل بالغ فى إكرامه ثم مالبث أن أطلق سراحه ، فتوجه على الفور للقاء أخيه « طاهر الحمدانى » الذى كان قائما على حصار قلعة آمد (ديار بكر) وقتذاك ، فأنبأه بما حدث له وأظهره على جلية الأمر ، ونصح له أن يعقد صلحا مع المروانيين وأن يكف عن الاشتباك بهم ، وألا يلج فى خصامهم . ولكن أبا طاهر لم يعره آذانا صاغية بل أبدى تصميمه على مواصلة القتال ، واستطاع حشد قوة هائلة من أبناء عرب بنى عقيل وبنى نمير ، كما اضطر أبو عبد الله مرغما أن يقف إلى جانب أخيه ويمد له يد المعونة رغم أنه لم يطع له أمرا وما قبل له نصيحة .

وفى اليوم الحادى عشر من صفر من عام ٣٨١ للهجرة سار (أبو على) على رأس جيشه الضخم لمنازلة خصومه الحمدانيين ودارت بين الجيشين رحى

معركة حامية الوطيس انعقد فيها لواء النصر لجيش أبى على ، وباء الحمدانيون بفشل ذريع وخسران مبين ، ووقع أبو عبد الله - لسوء الحظ - أسيرا للمرة الثانية ولكنه عومل فى أسره هذه المرة معاملة كلها قسوة وغلظة ، وعوقب عقابا صارما جزاء ما قدمت يداه ، وزج به فى أعماق السجون فى (آمد = ديار بكر) حيث انه لم يرع ضميرا ولا ذمة ، ولم يحفظ عهدا ، وأبى إلا الغدر والنكران جزاء ما لقى من عفو وإحسان .

ولما اشتدت الخصومة بين المروانيين والحمدانيين واستطال بينهما القتال رأى خليفة مصر أن يبذل وساطته بينهما لحسم النزاع وحقنا للدماء ، فأوفد من قبله جماعة من العلماء يطلبون إلى (أبى على) الأفراج عن أبى عبد الله ، فنفذ طلبتهم وحقق رجاءهم ، وقبل الأفراج عنه وفك إساره على شريطة أن يغادر على الفور أراضى الكرد والعراق ، فتسلمه العلماء واصطحبوه معهم إلى حلب (١) .

أما(أبوطاهر) الحمدانى فقد يمم شطر نصيبين بعد اندحاره وفشله الذريع وهنالك رآه صديقه القديم (أبو الذواد محمدبن المسيب) أمير بنى عقيل ورأى ما آل إليه أمره من ضعف وخذلان ، ومامنى به الحمدانيون من سوء المآل ، فاغتنم هذه الفرصة الذهبية ، فانقض عليه وعلى ابنه (على) وعلى (المزعفر)(٢) أمير بنى نمير واغتالهم جميعا ، وبذلك قضى على حلفائه بالأمس . . ، ثم خلا له الجو فزحف على الموصل واحتلها ثم كتب إلى (بهاء الدولة) سلطان بغداد طالبا إليه تعيين حاكم على الموصل ، فعين عليها (أبا الحسن عبد الله) وكان هذا الحاكم مسلوب السلطة ، مشلول النفوذ فى كل ناحية اللهم إلا جمع

---

(١) هكذا فى الأصل . والصحيح كما فى (ابن الأثير) مضى إلى مصر ومنها تقلد ولاية حلب واقام فى تلك الديار إلى ان توفى . (٢) وكذا فى ابن الاثير . ولكن فى ذيل تجارب الامم - والزعفيرامير بنى نمير (المترجم)

الضرائب وجباية الأموال ، حيث كان (ابن المسيب) قابضا على زمام الأمور ومهيمنا على كافة الشئون .

هذا وكان الملك (أبو على) كريم الأخلاق سمحا وقد اشتهر بين الناس بالبشاشة واللطف وإقامة العدل بينهم بالقسطاس المستقيم ، فأحبته الرعية ؛ ومنحته ثقتها وأحاطت به إحاطة السوار بالمعصم . ما عدا أهالى (ميافارقين) الذين انفجروا ثائرين فى وجهه وشقوا عليه وعلى رجاله عصا الطاعة ، فأطبق عليهم بجيشه صبيحة يوم العيد ، وكانوا مجتمعين خارج المدينة فى (المصلى) فانتهز فرصة خلو المدينة منهم واقتحمها من أحد أبوابها بينما كان (أبو الصقر) أحد قواده قد اقتحم المدينة من الداخل.اه (الكامل ج — ٩ ص٢٧)

وتقول دائرة المعارف الاسلامية ان (أبا على) قد بسط حكمه ومد سلطانه حتى بلاد (أخلاط) و (ملازكرد) و (أرجيش) وحتى المناطق الضاربة فى الشمال الشرقى لبحيرة (وان) ، كما امتد هذا السلطان غربا فى وقت ما ، حتى (الرها) التى انتزعها فى عام ٣٨١ للهجرة من بين براثن (باسيلى الثانى) امبراطور الروم أثناء حروبه فى بلاد الشام ، وظلت هذه المدينة خاضعة لحكمه ردحا من الزمن .

وفى عام ٣٨٧ (١) للهجرة عقد قران الملك أبى على حسن على ابنة سعد الدولة ابن سيف الدولة الحمدانى حاكم حلب وكانت تدعى (ست الناس) وسار موكب زفافها من « حلب » إلى « ديار بكر » حيث تقام الأفراح والحفلات ، فأوجس أهالى « ديار بكر » خيفة من وراء هذه الزيجة ، وخشى زعيمهم « عبدالبر » طغيان المروانيين على نفوذه إذ ربما يفعلون بها مثلما فعلوا فى ميافارقين فعمد

---

(١) ذكر (ابن الأثير) هذا البحث، ضمن وقائع عام ٣٨٠ فى حين تذكره (دائرة المعارف الأسلامية) ضمن وقائع عام ٣٨٧ وتجعل وفاته ايضا فى حوادث هذا العام . (المؤلف)

إلى تدبير مكيدة لاغتيال الملك المروانى حالما تطأ قدماه المدينة ، وعهد بذلك إلى شرير يدعى « ابن دمنة » الذى أودى بحياة الملك ، فساد الهرج والمرج(١) وأخذت جموع غفيرة من أتباع الملك والمرافقين له يتدفقون كالسيل الجارف شطر (ميافارقين) ، وكان بعض من دبروا هذه المؤامرة يبتغون من ورائها الوصول إلى الحكم واعتلاء الملك ، لولا أن محافظ المدينة قدفطن لما يضمرون فى أنفسهم فأفسد عليهم تدبيرهم ، فقد اتصل بالمسئولين من رجال الدولة، فقالوا له : إن كان الملك لا زال على قيد الحياة فليصعد إلى القلعة وإن كان قد لحق بالرفيق الأعلى فليخلفه من هو أحق بالملك وهو أخوه « ممهد الدولة أبو منصور » الذى وصل إلى مقر الحكم على عجل ، واعتلى عرش أخيه

« ابو سعيد المنصور ممهد الدولة »

كان أبو سعيد المنصور قد عاد إلى ميافارقين بعد وفاة الشاه « باذ » وظل حاكما عليها حتى لحق « أبو على » بالرفيق الأعلى : وعلى أثر اغتيال « أبى على الحسن » بميافارقين سارع اليها حيث نودى به ملكا على المملكة المروانية ... ويرى (أبو الفداء) أن حكمه قد امتد إلى عام ٤٠٢ للهجرة .

وعلى كل فنحن نفتقر إلى معلومات شافية عن عهد هذا الملك ، اللهم إذا استثنينا ما أسعفنا به « الكامل » من نتف مبعثرة وموجزة عن آخر سنة من عهده . وكيف دالت دولته وتقوض عرشه إذ يقول:

---

(١) جاء فى الكامل أن (عبد البر) هذا ـ بعد ارتكاب هذه الجناية الشنيعة ـ عقد قران ابن دمنة على ابنته مكافأة له على ما ارتكبه من جرم ، غير أن هذا الصهر القاتل قد عمد بعد مدة إلى نسيبه المنحوس الذى كان يعمل ليله ونهاره للوصول إلى الحكم فاغتاله ، وصفا له الجو ردحا من الزمن فى (ديار بكر) حيث بنى بها لنفسه قصرا ، وحسن علاقاته مع (ممهد الدولة) وسائر الحكومات المجاورة ، ودام حكمه فيها حتى عهد نصر الدولة . المؤلف

« كانت النقود تسك باسم أبي منصور ممهد الدولة ، وتلقى الخطب على المنابر باسمه ، وكان له صديق يدعى « شروه بن مامه » حاكم البلدة . وكان لهذا الصديق غلام يتولى منصب رئيس الشرطة ، وكان ممهد الدولة ينفر منه ويزدريه وهو غير راغب فى بقائه بل كان يسعى جاهدا لاغتياله ، لولا أنه عاد فعدل عن سفك دمه إرضاء لسيده ومراعاة لخاطره . ولكن الغلام كان قد فطن لما دبر له ، وتبين ما يكنه الملك له من السخط والازدراء فأخذ يسعى ويبذر بذور الفساد بين الملك وسيده حتى عكر صفو العلاقات بينهما وأزال ما بينهما من ود وصفاء ، وظل يوغر صدر سيده ويستثير مكامنه ضد الملك حتى صمم سيده على التخلص من الملك وكان أن أقام وليمة فى قلعة (هتاغ = أتاق (١)) للملك أبي منصور ، وكانت هذه القلعة ضمن اقطاعاته .

وما كاد الملك أبو منصور تطأ قدماه أرض القلعة حتى فوجىء بجنود من الكرج من حامية القلعة ينطلقون من مكمنهم ويغتالونه فى عام (٤٠٢) للهجرة

وما أن تأكد (شروه) من نجاح مؤامرته الاجرامية حتى غادر القلعة على الفور ميمما شطر ابناء عم (ممهد الدولة) وألقى القبض عليهم مدعيا بأن هذا الاجراء تنفيذ لأمر (ممهد الدولة) ثم توجه إلى (ميافارقين) وتقدم نحو أبوابها حسب الأصول المرعية والمتبعة فى المواكب الملكية وبيده المشاعل مما أدخل فى روع حفاظ الأمن وحراس المدينة أن الملك قادم من رحلته ويقصد الصعود إلى القلعة ، ففتحت أمام موكبه الأبواب على مصاريعها ودخلها آمنا مطمئنا . ولما دانت له الأمور على هذه الصورة وتوطد مركزه كتب إلى

---

(١) هى قلعة الهتاخ التى يطلق عليها الان (ليجه) بولاية (ديار بكر) كما نص على ذلك المرحوم سعيد باشا الديار بكرى فى كتابه مرآة العبر . باللغة التركية . المترجم .

محافظى القلاع الأخرى يدعوهم إلى طاعته ، وأوفد رجلا من رجاله إلى قلعة « أرزن = غرزان الحالية » طالبا إلى محافظها الأستاذ أبى القاسم المبادرة بالتسليم إلا أن أبا القاسم قد رفض التسليم بإباء وشمم فنهض متوجها إلى (ميافارقين). وما أن بلغ به المسير منتصف الطريق حتى علم بخبر مقتل ممهد الدولة فعدل عن مواصلة السير ، وعاد أدراجه إلى (أرزن) حيث بعث على جناح السرعة بمن ينبىء (أبا النصر بن مروان) أخا ممهد الدولة وحاكم قلعة (سعرد) بالخبر وكان أبو النصر هذا مبعدا بأمر أخيه لأنه كان يكن له البغضاء ولا يوده[1] .

« الملك العادل نصر الدولة أحمد »

امتد حكم هذا الملك من عام ٤٠٢ حتى عام (٤٥٣) للهجرة . . وقد اتفق المؤرخون على أنه كان ملكا يتحدث بعظمته الركبان وتضرب بعدله وحزمه الأمثال ، وبالاختصار فقد كان ، لا ككل ملوك بنى مروان بل كان أشهرهم بل ونسيج وحده بينهم ، ولا غرو فقد اشتهر بلقب العادل .

يقول ابن الأثير [٢] : إن الخواجة (الأستاذ) أبا القاسم حاكم (أرزن) حينما أرسل إلى الأمير (أحمد) يعرض عليه الأمر فسأله كاتبه عما إذا كان فى مكنته القيام بأعباء هذا المركز الخطير فأجاب الأمير بالإيجاب أى بنعم !!

وحينذاك كان (شروه) قد جرد حملة على الأمير (أحمد) ، ولكن قبل أن تطرق هذه الحملة أبواب (سعرد) كان الأمير (أحمد) قد غادر إلى (أرزن) ، وهنالك علم (شروه) أن الموقف جد خطير .

---

(١) يقول الكامل (ج٩ ـ ص ـ ٢٨) ان سبب الجفاء بين الأخوين هو أن ممهد الدولة رأى فى المنام أنه يحتضن الشمس وأن أخاه أبا النصر قد هاجمه وانتزعها منه . المؤلف

(٢) أنظره فى (ص ٢٨ ج ـ ٩) الطبعة المصرية المترجم

وتصادف وقتذاك أيضا أن (مروان) والد (ممهد الدولة) كان مع إمرأته فى (أرزن) وكانا جاثمين أمام قبر (أبي على) ، فجاء الخواجة أبو القاسم بأبي النصر أحمد إليهما وطلب إليه على مرأى ومسمع من قاضى (أرزن) وآخرين : أن يقسم يمينا بالله العظيم بأنه سيحكم البلاد متوخيا العدل والقسطاس المستقيم ، وعلى أثر تأديته اليمين سلمت اليه مفاتيح قلعة (أرزن) . ثم تلا ذلك خضوع سائر البلدان والقلاع المروانية بدياربكر الواحدة تلو الأخرى

وبعد أن دانت الأمور للملك ناصر الدولة داخل الحدود المروانية واستقرت له الأحوال وتوطد سلطانه وعم البلاد موجة من الرخاء وانتشر العدل بين أرجائها(١) ، سعى إلى تقوية أواصر الروابط وتوثيق العلاقات مع البلدان المجاورة فأوفد عام (٤١٠) للهجرة الرسل والسفراء إلى القسطنطينية وبغداد ومصر .

ثم نادى بإبنه الأمير (سليمان) وليا لعهد المملكة المروانية وعينه حاكما على جزيرة بوهتان (جزيرة ابن عمر) واختار مدينة (ميافارقين = سليوان) حاضرة لدولته ، وقد استن سنة حميدة ليشرف بنفسه على شئون رعاياه وهى زيارة المدن بين الفنية والفنية لهذا الغرض ، وكان يقضى فى (دياربكر) قرابة شهر كلما زارها ، كما أنه لم يبخل بزيارته الملكية على مدينتى (وان) و (أرجيش) وبقية مدن كردستان الأخرى .

---

(١) إلى أن قال ابن الأثير ، فدامت أيامه وأحسن السيرة وكان مقصداً للعلماء من سائر الآفاق وكثروا ببلاده. وممن قصده أبو عبد الله الكازرونى وعنه انتشر مذهب الشافعي بدياربكر وقصده الشعراء وأكثروا مدحه وأجزل جوائزهم وبقي كذلك من سنة ٤٠٢ ه إلى سنة ٤٥٣ ه فتوفى فيها وكان عمره نيفا وثمانين سنة وكانت الثغور معه آمنة وسيرته فى رعيته أحسن سيرة. فلما مات ملك بلاده، ولده. اه المترجم

ولما سمع الخليفة العباسى القادر بالله ، بنبأ هذا الملك الذى نشر لواء العدل بين رعيته وساس أمور دولته بحزم وعزم ، أكبر فيه هذه الصفات الفريدة وأنعم عليه بلقب (نصر الدولة) فى عام ٤٠٨ للهجرة .

ولكن هذه العلاقات التى قامت على الود والإكبار بين الخليفة العباسى والملك المروانى ما لبثت أن ساءت وتعكر صفوها بسبب التجاء أبى القاسم المغربى إلى الملك (نصر الدولة) عام ٤١٥ للهجرة ووزراته له، وظلت العلاقات بينهما متوترة حتى لقى أبو القاسم ربه عام ٤١٨ للهجرة عن عمر يناهز ستا وأربعين بمدينة (ميافارقين)، حيث عادت بينهما المياه إلى مجاريها ، فاستؤنفت العلاقات الودية وساد بينهما الصفاء والوئام [١] .

واستولى (نصر الدولة) على مدينة « الرها » عام (٤١٦) للهجرة ، وكان حاكم هذه المدينة وهو شيخ من نمير يدعى (عطير) وفيه شر وجهل وقد وكل شئون إدارتها إلى نائب عنه يدعى (أحمد بن محمد) فأحسن السيرة وبسط العدل بين ربوعها ، ولكن حدث أن قتل الشيخ (عطير) نائبه هذا بحجة سوء سيرته ، فاستاء الأهالى وأعلنوا سخطهم على الشيخ لاقدامه على ارتكاب هذا الجرم الشنيع ، واتصلوا سرا بالملك (نصر الدولة) طالبين إليه تعيين حاكم للمدينة من قبله ليحكمها باسمه ، فلبى الملك نداءهم ، وبعث إليهم برجل من رجاله - كان نائبا عنه فى (ديار بكر) - يدعى (زنك) . وما أن وصل هذا الحاكم الجديد إلى الرها حتى تسلم مقاليد أمورها باسم الملك .

ولكن الشيخ (عطير) النميرى ما كان لينام ملء جفونه مستسلما لمشيئة أهل المدينة ، بل سارع إلى تقديم ملتمس إلى نصر الدولة بوساطة الصالح ابن مرداس ، فقبل ناصر الدولة ملتمسه وأعاد إليه نصف مقاطعة (الرها)

---

(١) من الكامل لابن الأثير ج — ٩ ص ١٣ و ١٣٥ .   المترجم

فسر الشيخ ويمم شطر « ميافارقين » لتأدية واجب الشكر للملك وزيارته ، وهنالك أشـــار الوزراء على الملك بضرورة المبادرة بقتله والخلاص منه ،

ولـكن الملك رفض الاستجابة لمشورتهم وعزف عن اغتياله ؛ فقال أتقى شره بالوفاء لابالغدر ، فعاد الشيخ إلى « الرها » وعين فيهاوكيلا عنه ، وحدث أن أولم « زنك » وليمة دعاه إليها ، وفى طريق عودته من الوليمة ، تصدى له ابن الوكيل السابق المقتول « أحمد بن محمد » وقتله، مما أدى إلى نشوب حرب بين بنى نمير للاخذبالثأر ، واضطرار « زنك » وكيل ناصر الدولة إلى الزحف بجيشه والاشتباك معهم فى معركة دامية لقى فيها « زنك » حتفه فى أوائل سنة (٤١٨) ومزقت صفوف قوته شر ممزق . وهكذا فقدت قلعة الرها وانقرض حكم المروانيين فيها إذ عدل نصر الدوله نهائيا عن استردادها استجابة لرغبة وشفاعة صالح بن مرداس (١) .

وفى عام (٤١٩) للهجرة زحف « بدران بن مقلد » العقيلى على رأس جيش ضخم كامل العتاد للاستيلاء على « نصيبين » فانبرت له حاميتها من جنود « نصر الدوله » ورغم أنها أبلت بلاءا حسنا واستماتت فى الدفاع عن المدينة لـكنها لم تستطع الصمود أمام جحافل جيش العدو المغير وسرعان ما حاق بها فشل ذريع ، فبعث (نصر الدوله) بمدد جديد ولـكن دون جدوى إذ كانت الغلبة لقوات « بدران » الحاشدة ، ولما علم « نصر الدولة » بنبأ اندحار المدد الجديد تملكه الغضب وبعث للمرة الثالثة بنجدة هائلة قوامها ثلاثة آلاف من الفرسان انضمت إلى صفوف المدافعين عن المدينة وقام الجميع بشن هجوم عنيف مضاد على قوات « بدران » حتى أخذت تتضاءل وتنكمش أمامهم

---

(١) ـ تقول (دائرة المعارف الاسلامية) على خلاف (ابن الاثير) فى الـكامل ص ١٣٠ : ان ناصر الدولة استولى على الرها من البيزنطيين . المؤلف

وأخيرا ألحقوا بها هزيمة منكرة . وأخذوا يتعقبون فلولها ويطاردونهم حتى أبعدوهم وبذلك حازوا نصرا مبينا وأنقذوا القلعة بعد أن كان وقوعها قد أضحى قاب قوسين أو أدنى فى يد العدو .

ولكن العدو العنيد لم يستسلم لما حاق به من هزيمة وما لحق به من خذلان فقد انتهز فرصة انشغال قوات « نصر الدولة » فى السلب والنهب وأعاد الكرة وانقض على القلعة بهجوم عنيف وألحق بقوات (نصر الدولة) هزيمة شنعاء وطاردها حتى أبواب « نصيبين » وحينذاك بلغه أن أخاه « قرواش » زاحف للاغارة على الموصل ، فاضطر مرغما إلى مغادرة (نصيبين) على جناح السرعة لما كان بينه و بين أخيه من جفاء و نفور

ولم يمض طويل وقت حتى تبدد هذا الجفاء وساد الصفاء والوئام بين (بدران) وأخيه (قرواش) حاكم الموصل ، فى حين كانت العلاقات قد توترت بل وساءت جدا بين (نصر الدولة) و (قرواش) ، لأن العلاقة الزوجية بين نصر الدولة وزوجته وهى ابنة (قرواش) لم تكن على مايرام ، مما أدى إلى إعادتها إلى أبيها فى الموصل فاتخذ (قرواش) من هذا دعامة يتكئ عليها لمطالبة نصر الدوله بمهر ابنته البالغ عشرين ألف دينار ، وبقلعة (نصيبين) لأخيه (بدران) وبقلعة (جزيرة ابن عمر) مقابل نفقة لابنته . ولكن نصر الدوله لم يعر هذه المطالب التفاتا ، مما أدى إلى استشاطة (قرواش) غضبا وتصميمه الاستيلاء بالقوة على ما فشل فى الحصول عليه عن طريق السياسة والملاينة ، ووجه بالفعل جيشا للاستيلاء على الجزيرة ، كما بعث بآخر يقوده أخوه (بدران) إلى نصيبين لحاصرها ، ولكن الفشل كان حليف الجيشين ، والخذلان المبين رائدهما ، مما دفع (بدران) إلى الذهاب إلى (ميافارقين) حيث التمس من نصر الدوله منحه (نصيبين) فاستجاب نصر الدوله الرغبة وأجاب طلبته حسما للنزاع وحقنا للدماء ، فأعطاه (نصيبين) ، كما بعث بخمسة عشر ألف دينار إلى

(قرواش) مهرا لابنته . وهكذا زالت أسباب الجفاء وتلاشت العوامل المحركة للقتال وسفك الدماء . وفى عام(٤٢٢)للهجرة كان يحكم مدينة (الرها) كل من (ابن عطير) و (ابن شبل) مناصفة ، فباع (ابن عطير) نصيبه لملك الروم مما أدى إلى زحف الجيش الرومى واحتلاله المدينة بأكملها وقتل الكثيرين من مسلمى المدينة . ولما سمع (نصر الدوله) بهذه الأنباء وجه جيشا إلى (الرها) وضرب عليها حصارا شديدا ، وأخذ يضيق الخناق على الروم ويسدد اليهم ضرباته القاصمة حتى ألبسهم هزيمة منكرة . ودخل المدينة وطهرها من أشلائهم وأنقذها من وبائهم المستطير . ولكن الروم أبوا السكوت على هذه الهزيمة فعادوا بعد قليل وشنوا هجوما عنيفا على المدينة وتمكنوا من استردادها .

وفى عام (٤٢٦) للهجرة حشد (ابن الوثاب النميرى) جيشا كثيفا من العرب ومن غيرهم مستنجدا بأروام الرها ايضا وزحف به على المملكة المروانية ،، وكان « نصر الدولة » قد استعد للقائه على رأس جيش عرمرم تشد أزره نجدات اخرى تقاطرت عليه من الأطراف ،، وما أن علم « ابن الوثاب » بنبأ ماأعده (نصر الدولة) من استعدادات هائلة وقوات عاتية حتى تملكه الرعب وخشى سوء المصير فاختصر الطريق عائدا القهقرى دون قتال . أما نصر الدولة فقد كتب إلى ملك الروم يوجه إليه اللوم ويعتب عليه نقضه لمعاهدة الصلح والصداقة المبرمة بينهما . ثم هدده بمحاصرة « الرها » . ورد عليه ملك الروم معتذرا عما حدث قائلا إنه حدث دون علمه ، وأمطره بوابل من الهدايا إظهارا وتوكيدا للصداقة التى بينهما ،، فقبل (نصر الدولة) هذا الاعتذار واعتبر ماحدث كأنه لم يكن ، وفى رجب عام(٤٢٧) للهجرة أرسل(نصر الدولة) جيشا على (السويداء (١)) بقياده أحد قواده لمساعدة ابن عطير وابن الوثاب ، فاستولى

---

(١) الظاهر أن (السويداء) هذه هي قلعة (سورك = سيورك) الحالية بين آمد والرها ، سميت بهذا الاسم باللغة المحلية الكرديه لأن لون أراضيها أحمر حمرة تضرب إلى السواد بخلاف الرها التى لون أرضها أبيض المترجم

عليها ، ثم واصل الجيش زحفه وضرب حصارا شديدا حول مدينة « الرها » فسارع ملك الروم بارسال نجدة لإنقاذ المدينـة والدفاع عنها ولـكن الجيش الرومى قد منى بفشل ذريع ، وولى مدحورا مخذولا . ، واقتحم ابن الوثاب والقائد المروانى المدينة وقبضا على زمام الحكم فيها(١) . وفى عام ٤٣٢ ه(٢) أغار الغز — الذين أغرقوا منذ سنوات بلاد إيران المركزية وبلاد ذربيجان فى بحار من الدماء وأعملوا فيها السلب والنهب — على البلاد الكردية وأقليم كردستان ، فهرعت العشائر الهذبانيـــة عن بكرة أبيها لمقاومة الغز واستئصال شأفتهم ولـكن رغم دفاعهم المجيد واستماتتهم فى القتال ، أفلح المغيرون فى التقدم بخطى واسعة والتوغل فى داخلية البلاد والانتشار فى شرايينها. وتوجه فريق من الغز - كان فى (أرمية) — شطر البلاد الحكارية ، واشتبك رجال هذا الفريق فى قتال عنيف مع أكراد تلك الناحية ، وكان هؤلاء الغز مجبولين على الوحشية والغلظة والقسوة فاستحلوا لأنفسهم قتل النساء وسفك دم الأطفال الأبرياء ، مما أفضى إلى اعتصام الـكرد بين شعاب جبالهم الشامخة وبين ثنايا وهادهم السحيقة ، والترصد لعدوهم فى المضايق والمعابر حتى تمكنوا منه وفتكوا برجاله فتكا ذريعا وقتلوا منهم ألفا وخمسمائة وقعوا صرعى فى حومة الوغى يتخبطون فى دمائهم وأسروا منهم كثيرين من بينهم سبعة من القواد ومائة من الزعماء ، واستولوا على غنائم وأسلاب تجل عن الوصف ولا حصر لها ولا عد ، فضلا عما تركوه من أسلحة ومهمات . أما أولئك الذين تبقوا منهم على قيد الحياة فقد تفرقوا شذر مذر بين الوهاد وحنايا الجبال .

---

(٢) راجع ابن الاثير (ص ١٦٧ ج - ٩) وفيها ذكر غدر السناسنة وأخذ الحاج واعادة ما أخذوه ، بفضل (نصر الدوله) الذى عزم على محاربة الارمن عموما والسناسنة خصوصا . (٢) انظر ص ١٤٤ المترجم

وفى نفس هذا العام زحف (ابراهيم ينال) ـ أخو السلطان طغرل ـ صوب (الرى) فأوجس الغز الضاربون فى تلك البقاع منه خيفة وتركوا الرى و بلاد الجبل وتوجهوا عام ٤٢٣ للهجرة شطر بلاد (ديار بكر) و (الموصل) وفى الطريق اليهما ارتكبوا الكثير من أعمال العنف والتدمير والتقتيل ، وأخيرا وصلوا عن طريق الزوزان إلى (جزيرة ابن عمر) . وتوجه فريق الغز الذى كان بقيادة (بوقا) و (ناصغلى) وبعض زعمائهم إلى (ديار بكر) ونهبوا (قردى) و (بازبدا) و (الحسينية) و (فيشخابور = فيشابور) ودمروا هذه البلاد تدميرا ، أما أولئك الغز الذين كانوا فى شرقى الجزيرة تحت قيادة (منصور بن غزغلى) فقد كتب اليهم (الأمير سليمان أبو الحرب) ابن ناصر الدوله يعرض عليهم الصلح على أن يظلوا فى أماكنهم حتى يقبل الربيع على أن يرحلوا بعد ذلك إلى الشام[١] ،، فقبل قائدهم (منصور بن غزغلى) هذا العرض وأبدى موافقته على عقد الصلح . وبعد مدة اولم « أبو الحرب » وليمة دعا اليها هذا القائد ، وما أن حضرها حتى ألقى عليه القبض ، وبذلك تمكن من تشتيت شمل جيش الغز وتمزيق صفوفهم وقطع دابرهم. إذ كان القبض على قائدهم صدمة عنيفة وطعنة نجلاء صوبت إلى نحورهم وقصمت ظهورهم . ثم وجه كل من (قرواش) حاكم الموصل والملك (ناصر الدولة) وكذا الاكراد البشنوية اصحاب قلعة (فنك) قوات عسكرية عاتية طاردت الغز وألحت فى مضايقتهم حتى فروا تاركين وراءهم جميع أثقالهم وما كانوا يمتلكون من الأموال والدواب غنيمة باردة ، وقتل منهم كثيرون . وفى هذه الأثناء عاد فريق من الغز ـ الذين كانوا قد أغاروا على أطراف (نصيبين) و (سنجار) بغية النهب والسلب ـ إلى الجزيرة وحاصروها ولكنهم سرعان ما رفعوا عنها الحصار متجهين صوب (ديار بكر) حيث خربوا البلاد وسلبوا العباد .

---

(١) انظر ص ١٤٥ ـ ج من ابن الأثير . المترجم

وبعد ذلك أطلق (نصر الدولة) سراح قائد الغز (منصور بن غزغلى) ـ الذى كان أسيرا لدى ابنه الأمير (أبى الحرب سليمان) على شريطة أن يجلو هو وجميع الغز عن البلاد المروانية ، وزوده بحفنة من المال ،، ولكن رغم ذلك لم يحجم هؤلاء القوم المخربون عن السلب والنهب وتدمير البلاد حين جلوا عنها ، فدمروا أطراف (سنجار) و (نصيبين) تدميرا . وكان فريق آخر من الغز قد أغار على (الموصل) واحتلها واكثر فيها القتل والفساد . وقد كتب الملك (ناصر الدولة احمد) كتابا بعث به إلى السلطان (طغرل) يضج فيه بالشكوى(١) ، ويندد بما ارتكبه الغز فى البلاد من فظائع وأعمال وحشية وبربرته . وفى عام (٤٣٩) للهجرة ظهر « الأصفر التغلبى » فى أطراف (رأس عين) وادعى أنه من المذكورين فى الكتب واستغوى قوما بمخاريق وضعها وجمع جموعا زاخرة ، وبدأ يشن الغارات على أطراف بلاد الروم بغية السلب والنهب، والتدمير ، ولكن « ناصر الدولة » لم يمهله بل سارع بالقاء القبض عليه وزج به فى أعماق السجن ...(٢) وفى عام (٤٤٠) للهجرة ساءت العلاقات بين عشيرتى الحميدية والهذبانية الكرديتين من جهة وبين (قرواش) واخيه من جهة أخرى واشتد بينهما النضال ، وأوغلا فى الخصام، الذى يروى لنا « الكامل »(٣) سببه فيما يلى :ـ « كان على مقربة من الموصل عدة قلاع للأكراد الهموذية (الحميدية) مثل (عقره = اكرا) ، وكان زعيمهم يدعى (أبو الحسن بن العيسكانى الهموذى) ، وكان زعيم العشيرة الهذبانية يدعى (أبو الحسن بن موسك) صاحب قلعة هولير« اربيل » وأطرافها ، وكان الحاكم

---

(١) ابن الأثير (ص ١٤٦) وفيها ان الغز هم التركمان عبيد وأتباع السلجوق

(٢) انظر ابن الاثير ص ٢٠١ ج — ٩

(٣) ص ٢٠٤ ج — ٩

المترجم

« اربيل » هذا ، أخ يدعى « أبو على بن موسك » يناوىء أخاه ، فساعده أبو الحسن العيسكانى على أخيه لانتزاع « اربيل » منه ، واستولى عليها فعلا ، وقبض على أخيه « أبى الحسن » .. ثم جاء « قرواش » حاكم الموصل وطلب إلى كل من أبى الحسن العيسكانى وأبى على الهذبانى أن يعاوناه فى الزحف على « ناصر الدولة » فلبى « أبو الحسن بن عيسكان » الحميدى الدعوة بنفسه فى حين أوفد (أبو على الهذبانى) أخاه وقد صادف ذلك وقت تحسن العلاقات بين ناصر الدوله وقرواش وعودة المياه إلى مجاريها .

وفى عام (٤٤١) للهجرة نشبت الخصومة بين (معتمد الدولة أبى المنيع قرواش بن المقلد العقيلى المتوفى سنة ٤٤٤ بالموصل) وبين أخيه (زعيم الدولة أبى كامل بركه بن المقلد المتوفى سنة ٤٤٣ بتكريت) فأوعز قرواش إلى ابن أخيهما (قريش بن بدران بن المقلد) أن يشن هجوما عنيفا على أبى كامل ، فأطبق عليه وقهره ، مما أدى إلى التجاء « أبى كامل » إلى رحاب (أبى الحرب سليمان) ابن نصر الدولة ، المروانى ، فأصدر (نصر الدولة) أوامره إلى ابنه (أبى الحرب) أن يشنها حربا عوانا لاهوادة فيها على (قرواش) انتقاما منه ، كما كتب فى هذا المعنى إلى الأمير أبى الحسن العيسكانى ، وسرعان مازحف الجيشان صوب (الموصل) ، فتصدى لهما (قرواش) على رأس جيشه على مقربة من المدينة ، واشتبك الفريقان فى معركة دامية أسفرت عن اندحار ذريع وخذلان مبين لجيش (قرواش) ووقوع قرواش نفسه أسيرا فى قبضة (أبى الحرب) الذى سلمه بدوره لأخيه (زعيم الدولة أبى كامل)

ولكن (أبا كامل) الذى استفز الجيوش وحركها ضد أخيه عاد وتملكه الخوف وسرى فى أوصاله الرعب من تفاقم قوة الكرد ، وازدياد نفوذهم ، وخشى ضياع (الموصل) من أسرته ، فأطلق سراح أخيه (قرواش) وبعث إلى (الموصل) . وكان لهذا التصرف أسوأ الأثر فى نفس (أبى الحرب) فعاد

إلى بلده ثائراغاضبا(١) ، وفى نفس هذا العام (٤٤١ﻫ) طلب السلطان (طغرل) إلى الملك (ناصر الدولة) أن يأمر بذكر اسمه فى الخطب التى تلقى على المنابر فى أنحاء مملكته فاستجاب لطلبته وأمر بتنفيذ رغبته (٢) .

وفى نفس هذا العام أيضا طلب ملك الروم إلى الملك ناصر الدولة أن يبذل وساطته لدى السلطان (طغرل) ليطلق سراح ملك (ابخاز) ، فعهد ناصر الدولة بهذه المهمة إلى شيخ الإسلام أبى عبد الله بن المروانى وأوفده إلى السلطان طغرل لهذا الغرض ، ليعمل على تحقيق رجاء ملك الروم ... فما كان من السلطان طغرل إلا أن أطلق سراح هذا الملك الأسير على الفور ومن غير فدية مرضاة لناصر الدولة ومراعاة لخاطره ، فارتفع بذلك قدر ناصر الدولة ، وعلا شأنه وأمطره ملك الروم بفيض من الهدايا القيمة ..

---

(١) يقول الكامل فى هذا الصدد ما خلاصته : نشب خصام بين (قرواش) وأخيه (ابى كامل) فجرد كل منهما جيشا على الآخر ، وفى هذه الأثناء جاء كل من الأمير سليمان بن نصر الدولة وأبى الحسن العيسكانى الحميدى وبعض عشائر كردية أخرى نجدة لقرواش وساروا إلى بلدة « معلثايا » ودمروها ، ثم واصلوا الزحف إلى « المغيثة » ونزلوا بها ، وزحف أبو كامل بجيشه العربى مع ابن المسيب إلى مرج « باثنيا » ـ لعله باب نينوى ـ وبعد يومين من بدء القتال بين الجيشين انضم الأمير سليمان وغيره من قواد الكرد بجيوشهم وكذلك انحاز فريق من العرب فى جيش قرواش إلى صفوف أبى كامل مما أدى إلى ضعف قرواش فكاد يستسلم لولا أن أمراء الجيش العربى قد تقدموا إلى أبى كامل بطلبات تعذر عليه الاستجابة لها ، فأسرع بنفسه إلى اخيه ـ خوفا من أن يغدروا به لاستحالة تنفيذ مطالبهم وينضموا إلى صفوف قرواش وقدم لأخيه المعذرة وطلب منه العفو عما بدر منه . . وهكذا تبدد الخصام وساد بين الأخوين الصفاء والوئام . (ج ٩ ص ٢٠٦) المؤلف

(٢) هذه الفقرة وما بعدها من طلب الوساطة غير موجودة فى ابن الأثير . المترجم

وليبالغ فى ارضائه أمر بفتح جامع القسطنطينية على مصراعيه كما أمر بتجديده .

وفى عام (٤٤٦) للهجرة زحف السلطان طغرل على رأس جيش عرمرم صوب (ملاذ كرد = ملاذجرد) وكانت خاضعة لسلطان الروم . وضرب عليها الحصار ، وبهذه المناسبة بعث إليه نصر الدولة بجيش يشـــد أزره ، وبفيض من الهدايا القيمة (١)

وأثناء اشتباك السلطان طغرل مع الروم ، ساءت العلاقات وتوترت بين الأمير (أبى حرب سليمان بن نصر الدولة) الذى كان حاكما من قبل والده على الجزيرة ، وبين الأمير (موسك بن المجلى) زعيم الأكراد البختية وصاحب بعض القلاع المنيعة الواقعة شرقى الجزيرة ، واستحكم بينهما الخلاف وأوغلا فى العداء، إلا أن (أبا حرب) رغم أصراره بينه وبين نفسه على الخلاص منه قد تظاهر برغبته فى إزالة الجفاء وتصفية ما بينهما من عداء وخلاف ، فوقع الأمير (موسك) فى حبائله وعقـــد معه صلحا ، ولـكى يبعث أبو الحرب الطمأنينة فى قلبه سعى فى زواجه من ابنة الأمير (أبى طاهر البشنوى) صاحب قلعة (فنك) وابن أخت (نصر الدولة) ، فوافق أبو طاهر على هـذه الزيجة مرضاة لابن خاله ، وزفت العروس إلى الأمير (موسك) فى حفل رائع مهيب وهكذا ظن الأمير أنه قد أمن جانب عدوه (أبى حرب) وأقبل عليه ، غير أن أبا حرب قد أبى إلا إظهار ماأبطن وأضمر ، فألقى القبض على (موسك) وزج به فى أعماق السجن . .

---

(١) وردفى ابن الأثير(٩ — ج ص ٢٢٣) فى هذه السنة سار (طغرل بك) إلى آذربيجان فقصد تبريز وصاحبها الأمير (أبو منصور وهسوذان بن محمد الروادى) فأطاعه وخطب له وحمل إليه ما أرضاه وأعطاه ولده رهينة فسار طغرل بك عنه إلى الأمير (أبى الأسوار صاحب جنزة) فأطاعه أيضا وكذا غيرها فأبقى بلادهم عليهم وسار إلى أرمينية وقصد ملازكرد . إلى أن قال فأرسل إليه نصر الدوله الهدايا والعساكر وقدكان خطب له قبل هذا وأطاعه (المترجم)

وما أن ترامى هذا النبأ إلى مسامع السلطان (طغرل) فى ميدان القتال حتى بعث بخطاب إلى (نصر الدولة) يشفع فى الأمير (موسك) يرجوه فك إساره، ولكن السيف قد سبق العذل إذ أظهر نصر الدولة ان الأمير الأسير قد توفى. فشق ذلك على أبى طاهر وطار لبه من هول الفاجعة، وثارت ثائرته وتملكه الغضب ولم يخف استياءه من ناصر الدولة وولده الأمير أبى حرب سليمان وأرسل اليهما كتابا يقول فيه: «بما أنكما كنتما راغبين فى مقتل الأمير (موسك)! لماذا اتخذتما من كريمتى تكأة ووسيلة لتحقيق مآربكما. فألحقتمانى العار والشنار» ؟؟

وقد أوقع هذا العتب المرير الصارم الأمير أبا حرب سليمان فى حيص وبيص بل وأقض مضجعه وأقلق باله. وما هدأ روعه، إلا بعد أن دس لأبى طاهر السم الزعاف فقضى عليه وألحقه بزوج كريمته. وخلف (أبا طاهر) ابنه (عبيد الله)، فأظهر الأمير سليمان نحو هذا الأمير الشاب الكثير من علائم الود وسابغ العطف، وأخذ يمهد للوفاق والوئام وإعادة الميـــاه إلى مجاريها حتى تقرر عقد اجتماع بينهما فى مكان ما بين قلعتى (فنك) و(الجزيرة) وما أن التأم عقد هذا الاجتماع حتى نهض الأمير عبيد الله وفاجأ الأمير أبا حرب سليمان بضربة قاضية اردته قتيلا.

وعلى أثر تلك الحادثة المفجعة والنكبة القاصمة، عين (نصر الدولة) ابنه الأمير (نصرا) حاكما على الجزيرة وزوده بجيش ضخم كامل العتاد والعدد ليأخذ بثأر أخيه، وفى هذه الأثناء كان الأمير (قريش بن بدران) حاكم الموصل قد اغتنم الفرصة وزحف على رأس جيشه صوب الجزيرة، ولكى يضمن الاستيلاء عليها كاتب البختية والبشنوية، وأبرم معهما اتفاقا وبذلك وقف الجميع جبهة متراصة فى وجه الأمير (نصر) وقطعوا عليه الطريق إلى الجزيرة مما اضطره إلى أن يخوض معهم غمار حرب طاحنة وقع فيها الكثيرون

من الفريقين صرعى فى ساحة الوغى يتخبطون فى دمائهم، وأسفرت فى النهاية عن نصر مبين ومؤزر للامير نصر المروانى ، وهزيمة منكرة لجيش (قريش) وحلفائه ، ثم عاد (قريش) مثخن الجراح إلى (الموصل) عام٤٤٧ للهجرة(١)

وهكذا أدت سياسة (أبى الحرب) الخاطئة الخرقاء ، وسوء تدبيره ، وقصر نظره إلى هذه الحوادث الدامية والأعمال المهينة التى أفضت إلى بذر بذور الشقاق والخصام فى البلاد . وتمزيق أوصالها مما أفضى إلى خروج البشنوية والبختية الأكراد عليه وممالئتهم الطامعين فى البلاد من الأجانب ، ولم يعمر (ناصر الدولة أحمد) بعد ذلك طويلا بل وافاه الأجل المحتوم ولحق بالرفيق الأعلى فى عام ٤٥٢(٢) للهجرة عن أكثر من ثمانين عام حكم منها اثنين وخمسين عاما ... وكان يحمل لقب (نصر الدولة) الذى انعم به عليه الخليفة العباسى (القادر بالله) .

هذا وكانت المملكة المروانية فى عهده تسودها الطمأنينة وترفل فى حلل من الرخاء وكان العدل مبسوطا بين ربوعها والأمن مستتبا فى أنحائها ، وانتشرت العلوم كما ازدهرت الفنون ، مما هيأ لها مكانا عليا ، وشأنا رفيعا بين الممالك الاسلامية ، وقد تمتع هذا الملك بأبهى مظاهر الملك ومقتضياته وشرب كأس السعادة حتى ثمالتها إلى غير ذلك مما لم يتسن لملك غيره وقتذاك . وكان قصره يعج بالعدد الوفير من الجوارى الحسان والسرارى، بين مغنيات ومطربات يفوق عددهن الخمسمائة جارية . وكانت الأدوات التى تستخدم فى مجلس طربه تقدر بأكثر من مائة ألف دينار . وكان مطبخه يضم بين جدرانه الكثيرين من مشاهير وأمهر الطهاة الذين أرسل ببعضهم خصيصا إلى مصر لتعلم فن طهى

---

(١) الكامل (ص ٢٢٦ ج - ٩) المترجم
(٢) فى ابن الأثير سنة ٤٥٣ هـ (ص ٦ ح - ١٠)

بعض أصناف الطعام وإجادة طيها . وكان حرمه الملكى يضم الكثيرات من بنات الملوك والأمراء . وكان يمتلك جوهرة نادرة المثال كانت تسمى (جبل الياقوت) كان قد اشتراها من الملك العزيز أبى منصور جلال الدولة البويهى (١) ثم قدمها أخيراً هدية للسلطان (طغرل) . وكان من وزرائه أبو (القاسم المغربى) و (فخر الدولة) ابن جهير . ويقول الكامل : إن عهده كان عهداً زاهراً شهدت البلاد على يديه نهضة شاملة رائعة عمت جميع المرافق ، وبرز الكثيرون من العلماء والشعراء والفضلاء ، (ج ١٠ ص ٦ و ٧)

ويقول تاريخ الأمم الاسلامية : إن قصر (نصر الدولة) كان كعبة أهل العلم وذوى الفضل فيه يجتمع شملهم ويحجون اليه من كل صوب وحدب ، ومن بين هؤلاء العلماء المشاهير (أبو عبد الله الكازرونى) العالم الشافعى الذائع الصيت والذى انتشر بفضله ومجهوداته المذهب الشافعى فى البلاد الكردية .. وكان ناصر الدولة يبالغ فى إكرام الشعراء والعلماء والأدباء ويغدق عليهم من نعمه ومن فيض كرمه وماله ، وكان دمث الخلق ، عالى الهمة ، كريم النفس سمحاً . (ج . ٣ ص . ٤٥٠)

وتقول دائرة المعارف الاسلامية انه كان يدعى بأبى ناصر العادل ، خدم البلاد خدمة عظيمة فأحبته الرعية حباً جماً .

وقصارى القول ان لهذا الملك الهمام أيادى بيضاء على البلاد: فمن نشر المعارف والعلوم إلى نهضة عمرانية شاملة ، إلى إنشاء القلاع والمستشفيات

---

(١) الملك العزيز هذا هو ابن جلال الدولة بن بهاء الدولة البويهى ، نودى به ملكا على بغداد عام (٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م) وأثناء حربه مع الملك أبى كاليجار التجأ إلى رحاب (نصر الدولة) وبقى فى (ميافارقين) حتى وفاته حيث دفن بها . (تاريخ الموصل ص ١٤٢). المؤلف

والحمامات والمساجد والمكاتب فى (ميافارقين) إلى توصيل المياه إلى داخل شرايين المدينة ، إلى إنشاء الحدائق الغناء بين أرجائها يؤمها الأهلون دون ما تمييز أو فارق ، كما خاف فى المدن الأخرى آثارا كثيرة تدل عليه ، ومن آثاره الخالدة كذلك تلك المدينة التى كانت تدعى (الناصرية) على أربعة فراسخ من ميافارقين .

« قاسم أبو ناصر » (١)

تولى الملك بعد وفاة والده ، بفضل الوزير (فخر الدولة) وتعضيده إياه واستمر يحكم البلاد من عام (٤٥٣) حتى عام (٤٧٢) للهجرة ، وقد صادفته فى أول عهده عقبة كأداء ولكنه سرعان ما تغلب عليها، ألا وهى مناوأة أخيه الأمير سعيد بن نصر الدولة له - وقد توفى سنة (٤٥٥ هـ) - وشقه عليه عصا الطاعة وإعلانه العصيان مما أدى إلى تأجج نيران حروب داخلية أسفرت عن تغلبه على أخيه وتحطيم راية عصيانه . وبهذا دانت له الأمور وذللت العقبات ، ومرضاة لأخيه المغلوب أعطاه قلعة (آمد = ديار بكر) .

وتقول دائرة المعارف الاسلامية انه ضم إلى بلاده فى عام ٤٥٧ للهجرة كلا من بلدتى (حران) و (السويداء = سورك) ، وقد نال من مقام الخلافة لقب نظام الدولة .

---

(١) ورد فى وفيات الأعيان هكذا (أبو القاسم نظام الدين نصر) ج ١ ص ٥٧ - المؤلف] والصحيح كما فى ابن الأثير أيضا (نصر) لا (أبو ناصر) اهـ من ابن الأثير ج — ١٩ ص ٧ و ١١ . المترجم

« منصور »

هو ابن الأمير سعيد(١) ، وقد تولى حكم جميع البلاد المروانية بعد والده وعمه وأخضعها كلها لحكمه المباشر وقد ورد فى رواية أنه خطب فى بلاده باسمه وباسم الخليفة الفاطمى بمصر على المنابر ، مما أدى إلى استياء الخليفة العباسى وغضبه عليه لأن ذلك قد أثار حفيظته .

وفى عام ٤٧٦ (٢) للهجرة أقطع ملكشاه السلجوقى بلاد (ديار بكر) (لفخر الدولة ابن جهير) الذى كان وزيرا سابقا للملك (نصر الدولة أحمد) وزوده بقوة عسكرية كبيرة زحف على رأسها إلى (ديار بكر = آمد) فاضطر « المنصور » إلى طلب النجدة والمعونة من جيرانه الأمراء فلبوا نداءه وخف إلى نجدته (شرف الدولة مسلم بن قريش) حاكم الموصل بجيش لجب ، فلما رأى فخر الدولة التضامن بين خصومه ووقوفهم جبهة متحدة للاجهاز عليه وما معه من قوة ، مال إلى الصلح ، لأنه كان كارها الاشتباك فى حرب بنى قومه ، ولكن الجنود الترك قد فطنوا لما تنطوى عليه سريرته ، فبدأوا القتال ليلا، تحت جنح الظلام بعد أن تكتموا أسرار هجومهم وأخذوا جيش الموصل على غرة فقتلوا من رجاله الكثيرين واغتنموا منه غنائم وأسلاب كثيرة وأموالا طائلة ، وانسحب (شرف الدولة) من الميدان بعد جهد جهيد، وبكل صعوبة سار إلى (ديار بكر = آمد) فلحق به فخر الدولة على رأس جيشه وحاصر المدينة ، وتمكن شرف الدولة من انقاذ نفسه بفضل وساطة القائد التركى (أرتق بن أكسب) . وكان ذلك فى سنة (٤٧٧ هـ)

---

(١) ورد فى وفيات الاعيان (٢ ص ٦٦) فى سيرة (فخر الدولة أبى نصر محمد بن جهير الموصلى التغلبى) أن ناصر الدولة أبا المظفر منصوراً هذا ، هو ابن نظام الدين أبى القاسم نصر . وهذا هو الصحيح

(٢) أنظر ابن الأثير ج ١٠ ص ٤٧ و ص ٥٢ و ٥٣ المترجم

أما فخر الدولة فقد ترك (آمد) محاصرة وتوجه شطر (ميافارقين) وأسعفه (ملكشاه) بنجدة فاستطاع الاستيلاء عليها، ثم عاد ثانية إلى (آمد) عام (٤٧٨) للهجرة حيث كانت حاميتها قد تملكها اليأس وضعفت روحها المعنوية وسئمت الحرب ودبت روح الثورة والانتقاض بين الاهالى فثاروا فى وجه رجال الحكم والادارة، وكان معظمهم من النصارى، اذ كان بنو مروان يقربونهم ويساوون بينهم وبين المسلمين فى توزيع المناصب والعدل، وهكذا وقعت (آمد) فى قبضة « فخر الدوله بن جهير » بسهولة حيث أخذها من ناصر الدولة ابى المظفر منصور بن نظام الدين سنة (٤٧٩ ه). أما الملك « المنصور » فقد تمكن من الوصول إلى الجزيرة وهنالك استقر به المقام، واستولى على بضعة قلاع بها وبالبلاد البختية. ولكن فخر الدوله بن جهير(١) الذى انغمس فى نعيم المروانيين وعاش سعيدا فى كنفهم قد تنكر لهم وأبى أن يترك الفرصة تسنح والمجد يعود ويتلالأ لآخر ملك من ملوكهم، فجهز جيشا كبيرا هاجم به الجزيرة وحاصرها، وكان بالمدينة أسرة غنية قديمة وهى أسرة (بنو وهبان) وكان لهذه الأسرة باب خاص فى القلعة يدعى باب (البوبيه) يسمح بمرور رجل واحد راجلا، وكانوا يمرون منه إلى خارج المدينة. فكسر بنو وهبان وحطموه وبذلك استطاع فخر الدولة هو وجنوده اقتحام المدينة والتسلل إليها من هذه الثغرة. وهكذا تم له فتح المدينة وألقى القبض على الملك المنصور التعس آخر الملوك المروانيين فدالت دولته وأسدل الستار على حكومته.

(ابن الأثير (١٠ ص ٥٣) — أبو الفداء)

---

(١) كان فخر الدولة بن جهير وزيرا لدى (قريش بن بدران) فأوفده سفيراً من قبله إلى ملك الروم وتصادف أن (ناصر الدولة أحمد المروانى) كان قد أوفد فى هذا الوقت نفسه سفيرا إلى ملك الروم فاجتمع السفيران فى بلاط ملك الروم، فأراد (ابن جهير) أن يتقدم سفير ناصر الدولة فى مقابلة ملك الروم =

الفصل السادس

٦ — حكومة بنى عنان[1] في حلوان (٣٨٠ — ٥١٠ هـ)

أول من وضع أساس هذه الحكومة الكردية ، ودعم أركانها هو الأمير (أبو الفتح محمد بن عنان) أمير أكراد (الشاذنجان) ،وكان ذلك فى عام (٣٨١هـ)

= فرفض سفير ناصرالدولة ، ولما عاد ابن جهير إلى قريش بن بدران هم بالقاء القبض عليه وحبسه، ولكنه نجا وتمكن من الوصول إلى حلب ، ووزر لمعز الدولة أبى ثمال بن صالح ، ثم غادرها إلى ملطيه ومنها التجأ إلى (ناصر الدولة) الذى سأله عن السبب فيما أقدم عليه من محاولته التقدم على سفيره لدى ملك الروم فأجابه بأنه قام بذلك تنفيذا لأمر سيده ، فسر (ناصرالدولة) من هذا الجواب السديد واتخذه وزيرا له . وبعد وفاة (ناصر الدولة) كان وزيراً لابنه أيضا ، ولكنه عاد إلى بغداد بعد مدة ووزر للخليفة . ثم عزل من الوزارة ، فأقطعه ملكشاه اقليم (ديار بكر) وهكذا كان سببا فى انقراض الدولة المروانية ولكن الله سبحانه وتعالى قد عجل بالانتقام منه حيث قبض عليه (آرتق) فى (ديار بكر) وأرسله إلى الموصل حيث مات فيها فى محرم أو رجب سنة (٤٨٣) هو حيدا فى عزلته التى فرضت عليه . (الكامل ج ١٠ ص ٤٨ و ٥٢ و ٥٣ و ٦٧) المؤلف

(١) هذا ما ذهب إليه المرحوم سعيد باشا الدياربكرى فى تاريخه القيم المسمى (مرآت العبر) باللغة التركية ولكن ابن الأثير ومن بعده (منجم باشى) ذكراه هكذا « عناز » بالنون والزاء بخلاف « شرفنامه » فانه ذكره «عيار» بالياء والراء وأظن أن هذا الأخير أقرب إلى الصواب وأبعد عن التصحيف .

المترجم

ولقد ظل متربعا على أريكة الحكم عشرين عاما دون منافس ولا منازع إلى ان توفاه الله إلى رحمته فى سنة(٤٠٠ هـ)

وتولى الحكم من بعده ابنه (أبو الشوك = أبو الشوق) واسمه (فارس) ولقبه (حسام الدين) .. وكان بينه وبين(طاهر بن هلال) ـ ملك الحسنويين ـ نزاع مستحكم ، وعداء قديم ، فلا غرابة إذن أن يبادر (طاهر) على أثر إطلاق سراحه من السجن ، إلى تجريد حملة عسكرية على (أبى الشوك) دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس أسفرت عن اندحار ذريع وخذلان مبين لأبى الشوك ، وقضى على أخيه قضاء مبرما حيث ذهب ضحية المعركة . . . وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل سقطت بضعة من بلدان (بنى عنان) فى أيدى الحسنويين ورغم ميل الطرفين كليهما ـ على أثر هذه الحرب ـ إلى التفاهم والصلح وإحلال السلام بينهما ، بدل التناحر والخصام ، ورغم تصاهرهما لتدعيم أركان المحبة وعلائم الود بينهما ، إلا أنه لم يمض على ذلك طويل وقت حتى ساءت بينهما العلاقات من جديد ، وعادت سيرتها الأولى .. فعمد أبو الشوك سرا إلى إعداد جيش شن به هجوما عنيفا على بلاد الحسنويين وتمكن من الاستيلاء عليها جميعها ، وفى عام (٤١٤ هـ) توجه (علاء الدولة كاكويه(١)) صوب « الدينور » فاستولى عليها ، ولكنه ما لبث أن عاد فجلا عنها ورجع إلى همذان حين سمع وعلم بسطوة (شرف الدولة) وقوة شكيمته ببغداد.

وفى عام (٤٢٠ هـ) شن الغز هجوما عنيفا على ولاية (الدينور) ، ولكن أبا الفتح بن أبى الشوك قد تصدى لمناوأتهم ، واستمات فى مقاومتهم ، وقتل

---

(١) هو مؤسس(حكومة بنى كاكويه الكردية) التى قامت باصفهان (٣٩٤ ـ ٤٣٧ هـ) كما فى الدول الاسلامية لاستنلى ـ لن بول . وفى منجم باشى. (المترجم)

وأسر الكثيرين منهم ، فازداد نفوذه وعلا شأنه . هذا وفى عام (٤٣٠) ه تمكن من الاستيلاء على (قرميسن) ، وعلى كافة بلاد الجبال . وكان أبو الفتح هذا ، يدير دفة شئون ولاية الدينور باسم والده ،، فطمع وتطلع فى وقت ما إلى غزو قلعة (بكورا) التى كان يحكمها عمه (مهلهل) ، ومالبث أن سار إليها . واشتبك مع عمه فى القتال . ولكن الحظ قد خانه فوقع أسيرا ،، فاضطر والده (أبو الشوك) إلى إعداد جيش زحف به لقتال (مهلهل) الذى سارع إلى طلب النجدة من (علاء الدولة ابن كاكويه) ؛ فجاء هذا الأمير ، واستولى على ولاية (الدينور) فى نفس الوقت الذى زحف فيه (سرخاب) أخو أبى الشوك إلى (الداقوق) واستولى عليها وجرد أكراد تلك البقاع من أسلحتهم وعتادهم . واضطر (أبو الشوك) إزاء هذه الظروف الحرجة إلى الالتجاء إلى (بغداد) لكى يستعين بجلال الدولة على خصومه . ثم مالبث أن عاد إلى (حلوان) مع جيش بغداد .

أما (مهلهل) فكان قد لجأ إلى (علاء الدوله) الذى نصحه بأن يذهب هو الآخر إلى (بغداد) لعرض شكواه على مسامع (جلال الدولة) ، فقبل النصيحة . ولقد أدى تدخل « بغداد » إلى تواد الأخوين وتفاهمهما وعقد الصلح بينهما ، ولكنهما قد افتقدا ولاية الدينور التى خرجت عن أيديهما . وعلى أثر هذا الصلح ، توجه (أبو الشوك) إلى (شهرزور) ، وحاصر قلعة (بيزارشاه) التى وافق صاحبها (أبو القاسم بن عياض) على الصلح مع أبى الشوك على شريطة أن يعمل الأخير على إطلاق سراح (أبى الفتح) من السجن وعاد (أبو الشوك) إلى بلاده ، ورفع الحصار عن القلعة ؛ إلا أن « مهلهل » قد رفض إطلاق سراح أبى الفتح وأبى ؛ مما اضطر « أبا الشوك » إلى السير صوب (الصامغان) والاستيلاء على كافة بلاد « مهلهل » . وسرعان ماعادت المياه إلى مجاريها بين الأخوين ، وتبدد التناحر وزال الخصام وتم التفاهم والصلح.

وفى تلك الأثناء زحف (ابراهيم ينال) ـ أخو السلطان طغرل السلجوقى ـ بجيش لجب إلى (الدينور) فاستولى عليها ، كما استولى على مدينة (قرميسن = كرمانشاه) فلم يجد « أبو الشوك » مندوحة من الإنسحاب إلى (حلوان) وهنالك أيضا لم يستطع الصمود ولا الثبات أمام جحافل الزاحفين مما اضطره إلى الالتجاء هو ورجاله وأبناء أسرته ، إلى قلعة (سيروان) حيث أخذ من هنا لك يخابر أخاه (مهلهل) ويستحثه على القيام بدفاع مشترك عن حوزة البلاد .

وعلى الرغم من وفاة أبى الفتح فى السجن فى هذه الأثناء ، فقد تم الاتفاق بين الأخوين ، وأخذا سويا فى إعداد العدة لدفع خطر العدو عن البلاد ، وقد قام (سرخاب) وقتذاك بغزو (بندنيجين) ونهبها .

وفى عام (٤٣٧) توفى أبو الشوك بقلعة (سيروان) فخلفه فى الإمارة أخوه (مهلهل) وحرم منها ابنه (سعد) الذى لجأ إلى (ابراهيم ينال) طالبا اليه إسناد إمارة والده اليه . وكان (ابراهيم ينال) قد عهد بادارة (قرميسن) إلى (بدر) الحسنوئى ، فزحف (مهلهل) على (بدر) هذا ، عام ٤٣٨ للهجرة وانتزع منه (قرميسن) كما ألحق هزيمة منكرة بجيش (ابراهيم ينال) الذى اضطر أخيرا إلى تجريد حملة أخرى من الغز بقيادة « سعد بن أبى الشوك » على (حلوان) فاستولت عليها . وإن هى إلا فترة وجيزة حتى عاد (مهلهل) فاستولى عليها من جديد وقهر أعداءه وأجلاهم عنها . وهكذا قضى (سعد) حقبة من الزمن فى النزال والقتال مع عميه ، حتى وقع أسيرا فى يد (سرخاب) وأخيرا شق (أبو العسكر) عصا الطاعه على أبيه (سرخاب) وقلب له ظهر المجن ، وعاونه أكراد تلك البقاع ومدوا له يد المساعدة ، وبهذا تمكن من أسر والده ، وارساله إلى (ابراهيم ينال) فأقدم هذا الأمير السلجوقى على سمل عينى (سرخاب) ، وأطلق سراح (سعد) الذى اقتنص الفرصة

واستولى على (حلوان) بعد ذلك . وبعد أن استمات (مهلهل) فى محاربة الغز قصد إلى بغداد فى عام ٤٤٣ لاجئا إلى السلطان (طغرل) الذى أعطاه الداقوقا و (شهر زور) و (الصامغان) . كما أعطى قلعة (ماهكى) لسرخاب ، و (رادندين) لسعد .

ولقد استمرت القلاقل والفتن قائمة بين (سعد) و (مهلهل) بعد ذلك إلى أن وقع (مهلهل) فى قبضة « سعد » ثم توسط السلطان طغرل فى إطلاق سراح (مهلهل) فرفض سعد . وزحف (بدر بن مهلهل) إلى سعد بجيش جرار فى عام ٤٤٦ وقضى عليه .

وهكذا انتقلت الحكومة (العنانية ـ العنازية) هى الأخرى إلى مقبرة التاريخ

اهـ من (مرآة العبر ج ـ ٧ ص ٣٧٤ ـ ٣٨٠)

الفصل السابع

٧ — حكومة الشبانكاره (شوانكاره) بفارس (٤١٢ ـ ٦٥٨ هـ)

كان الأمير (فضلويه بن علي بن حسن بن أيوب) من فرقة الراماني من أكراد الشبانكاره ، رئيسا لعشيرته وزعيما لقومه ، وقد عين سپهسالاراً للجيش في عهد الصاحب (عادل) الوزير البويهي بفارس . وكان البويهيون قبل هذا التعيين يضيقون ذرعا بغارات الشبانكاريين عليهم وغزوهم لبلادهم ، ويألمون لذلك أشد الألم .

وقد جاء في تاريخ « كزيده » الفارسي أن زعيما شبانكاريا يدعى (اسماعيل) كان معاصرا الحاكم فارس المدعو (عماد الدين أبو كاليجار) سنة (٤١٦ - ٤٤٠ هـ) ثم خلف هذا الحاكم ابنه الأكبر الذي توفي عام (٤٤٧) فاحتل مكانه أخوه الأصغر « أبو منصور فلاستون » وكان الصاحب « عادل » وزيرا لهذا الأمير الأخير . وقد أعلن « فضلويه » عصيانه على هذا الأخير بل إنه قد تمكن عن أسره هو ووالدته السيدة « خوراسويه » واستولى على كل بلاده استيلاء تاما ، وسجنه في قلعة على مقربة من (شيراز) ثم قتله في عام (٤٤٨) وخنقت والدته في الحمام بأمر من « فضلويه » . وهكذا دان الحكم لأمراء (الشبانكارة) في بلاد فارس أيضا ، ولكن لم يمض على ذلك طويل وقت حتى اشتبك « فضلويه » في قتال مع السلاجقة بقيادة (قاوورت) أخي « آلب أرسلان » أسفر عن إرغامه على الاعتراف بسلطان آلب آرسلان عليه مع بقائه حاكما لفارس من قبله

ومضت أيام على ذلك . ثم عاد (فضلويه) فشق عصا الطاعة على (آلب أرسلان)

واعتصم بقلعة (خورشاه) حيث حاصره فيها (نظام الملك) الوزير الشهير ، واستولى عليها ، ثم أسره بعد أن أبدى مقاومة عنيفة ثم ما لبث أن أعدمه . وكان ذلك فى عام ٤٦٤ هـ [١] . هذا وقد كانت العشائر الشبانكارية مبعث قلاقل ومصدر فتن فى إقليمى (كرمان) و (وفارس) فترة طويلة، ففى عام ٤٩٢ للهجرة — ١٠٩٩ م) تمكن الشبانكاريون يعضدهم « ايرانشاه » بن « قاوورت » حاكم كرمان من هزيمة (أنز) والى فارس الذى كان معينا من قبل السلطان (بركيا روق) .

وبعد هذه الحوادث بقليل نشبت الحروب بين الشبانكارة وبين (فخر الدين جاولى)المتوفى عام ٥١٠ للهجرة ، وهو الذى كان يحكم فارس من قبل السلطان محمد بن ملكشاه حاكم العراق . وسبب ذلك عدم اعتراف (حسن بن المبارز خسرو) أمير الشبانكارة بسلطان (جاولى) على فارس ، فشن عليه جاولى هجوما عنيفا فتمكن خسرو من صده فى البداية بمساعدة أخيه (فضلوى) ، ولكن اليأس لم يجد إلى قلب (جاولى) سبيلا فعاد بعد فترة وعاود الكرة وحاصر (خسرو) فى قلعته ، ولما أيقن خسرو أن الحصار سيشتد وقد يطول أمده اتفق مع (جاولى) ، بل ورافقه فى حرب (كرمان) التى نشبت بسبب التجاء (اسماعيل) أحد زعماء الشبانكارة وحاكم (دارابجرد) إلى ملك كرمان ومطالبة (جاولى) بتسليمه له دون جدوى .

ويؤخذ من مجريات الحوادث بعد ذلك أن عشيرة الشبا نكارة قد جنحت إلى السلم فى عهد السلطان محمد بن ملكشاه ، بيد أنها أوقعت نفسها فى خضم من القلاقل والفتن فى عهد السلطان محمود ابن السلطان محمد نتيجة لسوء تصرف وزيره (ناصر بن على الدركزينى) تلك القلاقل والاضطرابات التى عرضت

---

(١) هذا هو مارواه ابن البلخى صاحب (فارسنامه) الذى كان معاصرا لهذه الحوادث . المؤلف

تلك الجهات لألوان شتى من الويلات بل ودمرتها تدميرا . إذ عمت البلاد الفتن وسادها الاضطراب ولاسيما خلال حرب (كرمان) . وحدث فى تلك الفترة أيضا حدث تاريخى هام جدير بالذكر ، ألا وهو انتصار (أبى طاهر محمد الكردى) الذى كان فى معية الأتابك (سنقر) السلغرى ، والذى صار فيما بعد حاكما مستقلا للر الكبير) على الشبانكارة فى معركة حاسمة ؛ وبعد أن انتصر عليها فرض عليها سلطانه ، وكان ذلك بسبب التجاء (زنكى بن تكلا) إلى حمى تلك العشيرة . ولنستعرض الآن العهد الذهبى لعشيرة الشبانكارة . ذلك العهد الذى لم يعمر طويلا فنقول :-

استغل (قطب الدين مبارز) رئيس الشبانكارة وأخوه (قطب الدين محمد) الذى كان أمير (ايغ = إيج) الموقف الذى نشأ عن حالة الاضطراب والفتن التى برزت عقب زوال حكومة سلاجقة كرمان وما ترتب على ذلك من انتشار الفوضى واختلال حبل الأمن فى تلك الأنحاء ؛ حيث استنجد بهما الوزير (ناصح الدين) ضد الغز فلبيا نجدته واستجابا لندائه ؛ ولكنهما قد بادرا إلى احتلال مركز (برده سير) قبل أن يشتبكا فى قتال مع الغز وكان ذلك تنفيذا لرغبة الأهالى وإن كان خلافا لرأى الوزير . وباستيلائهما على هذا المركز ضمنا لنفسيهما حكم بلاد كرمان أيضا فى سنة (١٢٠٠م-٥٩٧ هـ) ؛ ثم اشتبك هذان الأميران فى حرب ضروس مع الغز ؛ وفى تلك الأثناء ساءت العلاقات بينهما وبين أتابك فارس ؛ الأمر الذى اضطرهما إلى العودة سراعا إلى بلادهما تاركين فى كرمان نائبا عنهما من إحدى أسر كرمان القديمة ليدير دفة شئونها نيابة عنهم فعاد الغز إلى النهب والسلب وتدمير البلاد ؛ ومما زاد الطين بلة أن أحد أمراء كرمان المدعو (هرمز تاج الدين شهنشاه) قد اتفق مع الغز ، وتواطأ معهم على تثبيت أقدامهم فى البلاد ، فاضطر نظام الدين(١) إلى التحرك من (ايغ) والتوجه

---

(١) لعله قطب الدين محمد حاكم (ايغ) المترجم .

لمقاتلة هذا الأمير وظل يقاتله حتى قضى عليه ؛ ثم أخذ فى مطاردة الترك (الغز) حتى شتت شملهم شذر مذر .

ولم يمض على هذا طويل وقت حتى دخل نظام الدين بلدة (برده سير) ثانية وقد تملكه الزهو وداخله التيه والاستخفاف بالأمور ، فما كان من أعدائه إلا أن تربصوا له حتى باغتوه ذات ليلة ، وألقوا القبض عليه وعلى أولاده ، وكان ذلك فى عام (٦٠٠) للهجرة . ثم هاجموا أمراء المبارزية جميعهم وضيقوا عليهم الحصار . وفى خلال هذه الحوادث ظهر على مسرح السياسة رجل آخر ، ألا وهو (عجمشاه) ابن الملك (دينار) الذى كان مؤيدا ومحميا من قبل (خوارزمشاه) ، والذى اتفق مع الغز وزحف معهم إلى بلاد كرمان ، وما أن تمكن منها حتى بعث بنظام الدين مقبوضا عليه إلى أتابك فارس ظنا منه أن عمله هذا سيقربه ، ويعجل به إلى القبض على زمام الأمور طواعية وبكل سهولة ، وأنه سيؤدى حتما إلى سقوط كرمان فى يده سائغة خالصة له ولكن (سعد بن زنكى) أتابك فارس قد خيب ظنه ، وأرسل إليه يقول : قد أرسلت لك جيشا يقوده (عز الدين فضلون) قائد جيش فارس كى تسارع حامية كرمان إلى التسليم . وجاء هذا الجيش فعلا واستولى على مدينة (كرمان) وانتزعها من أيدى الشبانكارة . وقد قدم فى هذه الأثناء (المبارز) أخو (قطب الدين) للنجدة والانقاذ ولكن دون جدوى ومن غير طائل اللهم إلا إحداث الدمار والخراب فى شرايين البلاد وبين أنحائها .

وفى (٦٥٨) للهجرة حينما أغار « هلاكو » على تلك البلاد ، واستولى على « ايغ » ، وقتل أمير الشبانكارة ، خضعت حكومة الشبانكارة ردحا من الزمن لسلطان الايلخانيين ثم لآل المظفر الذين قام ملكهم بفارس .

الفصل الثامن

٨ — « حكومة أتابكية اللر الـكبير » (٥٥٠ — ٨٢٧ هـ)

أو

الحـكومة الفضلوئية

قامت هذه الحـكومة فى جنوب شرقى لرستان بايران ، وعمرت مائتين وسبعة وسبعين عاما ، أى من عام (٥٥٠) حتى عام (٨٢٧) للهجرة . وكان أقليم (لرستان) يتألف منذ أواخر القرن الثالث الهجرى من قسمين : (اللر الـكبير ، واللر الصغير) حيث كان هنا لك أخوان يحكمان ذينك القسمين وهما (بدر) و (أبو منصور) وقد خلف بدرا فى اللر الـكبير ، حفيده (نصر الدين) فى الوقت الذى كان النصف من هذه البلاد يدين بالخضوع لأسرة من أكراد « الشول » كان زعيمها يدعى « سيف الدين » وهى الأسرة التى ترجع الروايات القديمة والأساطير حكمها لهذه البلاد إلى عهد الساسانيين .

هـذا وفى أواخر القرن الخامس جاءت مائة أسرة كردية ، من موطنهـا الأول بجبـل السماق بشمالى سورية إلى لرستان ، وأقامت بجبـل (أمعاد ؟) لدى (محمد خورشيد) وزير الملك نصير الدين (١) وكان زعيم هذه العشيرة الـكردية يدعى (أبو الحسن فضلوى).

---

(١) تقول دائرة المعارف الاسلامية (ج ـ ٣) ان هذه العشيرة الـكردية بزعامة (فضـلوى) وصلت أولا إلى (ميافارقين) ثم غادرتها إلى (آذربيجان وكيلان) وهناك اتفقت مع (ديباجى) حاكم (كيلان) واسـتقر بها المقام إلى أن كان عام (٥٠٠) للهجرة حيث عادت فغادرت تلك البلاد إلى الهضبة الشمالية لـ (شتران كوه) بلرستان . المؤلف

(١) — « أبو طاهر محمد »

كانت فارس تخضع للحكام السلغريين (١) فى تلك الاثناء ، فدخل (أبو طاهر محمد) حفيد « أبي الحسن فضلوى » هذا ـ وهو متصف بالبسالة الفائقة ـ فى خدمة حكام فارس الذين كان بينهم وبين ولاة « الشبانكارة » عداء مستحكم ونزاع شديد فعمد حاكم فارس الى تجريد حملة عسكرية قوية بقيادة ابى طاهر محمد بن على بن ابى الحسن فضلوى ،على حكومة الشبانكارة . فانتصر أبو طاهر فى حملته انتصارا باهرا ، وعاد ظافرا منصورا ؛ فأعجب به حاكم فارس « أتابك سنقر » وسر منه أيما سرور ، وأسبغ عليه من فيض عطفه حيث أقطعه ـ بناء على طلبه ـ ناحية « كوه كاوى = كوهجيلويه » وأصحبه جيشا لغزو «لرستان » فى عام ٥٤٣هـ وقد أخذ أبو طاهر يعمل بالتدريج على بسط سلطانه على لرستان بالحرب والقتال تارة ، وبالسلم وإتباع أساليب الدهاء والسياسه تارة أخرى ، حتى انتهى به المطاف إلى إعلان استقلاله وانفراده بالحكم فى غير ماخضوع لأحد .

وهكذا تم وضع أساس الحكومه الفضلوئية بفضل مهارة وبسالة « أبي طاهر محمد » الذى عاش حتى عام « ٥٥٥ » حيث وافاه الأجل المحتوم فمات تاركا من ورائه خمسة أولاد ذكور وهم : هزار أسب ، بهمن ، عماد الدين بهلوان ، نصرة الدين أيلوا كوش ، قزل بحكم ؟. وقد تم الاتفاق بين الابن الاكبر وأخواته على أن يتولى هو الحكم بعد أبيه .

---

(١) مؤسس هذه الحكومة هو (سنقر) أحد القواد السلجوقيين ، وضع أساس حكومته عام ٥٤٢ للهجرة ، وقد عمرت حتى عام ٦٨٦ للهجرة حيث نالت اخيرا لقب أتابك من السلطنة السلجوقية . المؤلف

(٢) — « أتابك هزار أسب »

كان حاكما عاقلا وعادلا ، تقدمت البلاد فى عهده تقدما محسوسا نحو العمران والرخاء ، وقد وفدت إلى « لرستان » فى عهده بضع عشائر كردية من جبل السماق بشمالى سورية ، وكان من بين هذه العشائر بعض عشائر عربية أيضا . وفيما يلى أسماء هذه العشائر حسبما ذكرت فى تاريخ « كزيده » الفارسى:

آسوكى ، مماكونه « لعله مماكويه » بختيارى (١) ، مراسلى ، سداسان ، زاهديان ، علانى = آلانى » كونوند ، پى وند ، بدائى ، بوازكى ، شنويد ، راكى ، جاكى (٢) ، هارمى (٣) ، أسبك (٤) ، كفى (٥) ، شموس (٦) ، نخوئى ، كماكشى (٧) ، مامهسى (٨) ، أويلكى (٩) ، ليراوى ، دلكى ، توانى كيا ، مديجا كورد ، كولارد . . إلخ

ولقدازداد موقف « هزارأسب » قوة بفضل تأييدهذه العشائر له ،وبهذا تمكن من طرد الأسرة الشولية من لرستان نهائيا ، واستخلاص البلادبأسرها لأسرته ، كما اتسعت رقعة بلاده حتى بلغ امتدادها الى مسافة أربعة فراسخ من « أصبهان » مما حدا بأتابك تكله السلغرى إلى تجريد بضع حملات عسكرية عليه للحد من نفوذه والقضاء على قوته ، بيد أنه أخفق فى جميع محاولاته فكان الفشل حليف كل ما وجهه من حملات .

وهكذا كان يعلو شأن (هزارأسب) يوما بعد يوم . وقد تقدمت فى عهده التجارة والزراعة فى البلاد ، واتسعت معالم النهضة العمرانية . فمن إنشاء القرى والمدن والمؤسسات الخيرية إلى تنفيذ مشاريع عامة فى طول

---

(١) بخيارى (٢) خاكى (٣) هارونى (٤) أشكي (٥) كويى (٦) تحسفوى (٧) كمانكش (٨) مماستى (٩) أوملكى اهـ من (كتاب كردلر ص ٩٧ ، ٩٨) المؤلف

البلاد وعرضها ، وأخيرا أوفد (هزارأسب) ابنه إلى بلاط الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، ملتمسا منحه لقب « أتابك » فتكرم الخليفة ومنحه هذا اللقب وبعث اليه بالخلع وبراءة اللقب ، ولم يقتصر عمل (هزارأسب) السياسى على هذا فقط ، بل نجح أيضا فى توطيد دعائم الصداقة وصلات المودة مع السلطان محمد الخوارزمى بمصاهرة كريمة حيث زوج ابنته للامير (غياث الدين) ابن السلطان الخوارزمى .

وقد لحق (هزارأسب) بالرفيق الأعلى فى عام (٦٥٥)(١) بعد قرن من الزمان قضاه فى الجهاد وبث روح العمران ونشر ألوية السلام فى كافة شرايين البلاد (ويبدأ هذا القرن من عام (٥٥٥ هـ) حتى عام (٦٥٥ هـ (٢)) إذا كان تاريخ الوفاة هذا صحيحا)

(٣) — « اتابك تيكله »

هو ابن « هزارأسب » وأمه من أسرة « السلغريين » حكام فارس . وما أن ترامى نبأ وفاة (هزارأسب) إلى فارس حتى سارع الأتابك (سعد) السغلرى إلى تجريد حملة عسكرية على (تيكله) قوامها ألفان من الجنود تحت قيادة ابن عم لهزارأسب يدعى « جمال الدين عمر » لاسترداد حق الأسرة الشولية المسلوب ، وعلى مقربة من قلعة (بيروئه) ، اصطدمت هذه الحملة

---

(١) فى دول اسلامية ـ أنه توفى سنة ٦٥٠ تقريبا . المترجم

(٢) تذكر (دائرة المعارف الاسلامية) هذا التاريخ مبدأ لجلوس الأتابك (تيكله) وتأريخا لوفاة سلفه (هزار أسب) ، ويظهر أنه غير صحيح لأن (تيكله) كان بعد بضع سنوات من قيام حكومته وخوضه غمار حروب كثيرة ، فى معية (هلاكو) حين اقتحامه بغداد فى شهر المحرم من عام ٦٥٦ للهجرة . (١٦ كانون الثانى سنه ١٢٥٨) المؤلف

بقوات (تيكله) التى لم يكن يربو عددها على الخمسمائة فارس ، ودارت بين الفريقين رحى معارك دامية أسفرت عن اندحار (تيكله) فى بادىء الأمر ، ولكن القدر ساعده أخيرا فجعل الظفر يتحول فى النهاية إلى جانبه ، وقد ساعده على هذا إصابة قائد جيش خصمه ، بسهم فى مقتله فخر صريعا يتخبط فى دمه، الأمر الذى أدى إلى اندحار خصمه بعد أن كان النصر حليفه فى بداية المعركة . ولقد جرد السلغريون ـ بعد هذه المعركة ـ ثلاث حملات عسكرية أخرى على (تيكله) ولكن واحدة منها لم تكلل بالنجاح .

وبعد ذلك استقرت الأمور للاتابك (تيكله) ، فشرع فى توسيع حدود بلاده ، وزحف على مقاطعة اللر الصغير ، وانتزع بعض النواحى من أيدى حاكمها (حسام الدين خليل) . ثم حدث بعد ذلك ـ لأسباب نجهلها ـ أن بعث خليفة بغداد بحملة عسكرية على « لرستان » تحت قيادة كل من (بهاء الدين كرشاسب) و (عمـــاد الدين يونس) ، فأنزل هذا الجيش اللجب الدمار ببعض بلدان هذا الاقليم العامر ، وأسر أخا لتيكله فى حومة الوغى وألقى به سجينا فى قلعة (لاهوج) ، وفى تلك الأثناء كان (تيكله) يعيد تنظيم جيشه ويلم شعثه ، حتى إذا فرغ من إعداده ، سار على رأسه لمقابلة العدو المغير على بلاده ، وقد أسفر القتال الذى نشب بينهما عن اندحار الجيش المغير وخذلانه ومقتل (عماد الدين يونس) وأسر (بهاء الدين كرشاسب) الذى أطلق (تيكله) سراحه أخيرا على شريطة إطلاق سراح أخيه .

وفى عام (٦٥٥هـ) حينما زحف ملك المغول (هلاكو) بسيوله الجارفة وجحافله المدمرة على بغداد عاصمة الدولة العباسية ، كان أتابك (تيكله) يصحب هذه الجيوش الجرارة فى معية (هلاكو) حيث أدخله فى تومان = فرقة (كيتوقابوس = كيتموقا)، وذلك كى يضمن (تيكله) حماية أملاكه والمحافظة على كيان دولته . بيد أن فاجعة (بغداد) قد كان لها أسوأ الأثر فى نفسه ولاسيما

قتل الخليفة والاسراف فى سفك دماء المسلمين ، وقد أبدى استياءه وبالغ تأثره من ارتكاب تلك المآسى فى شتى المناسبات ، فترامى نبأ ذلك إلى مسامع (هلاكو) فغضب أشد الغضب ، وأسره فى نفسه ، ولكن أتابك « تيكلة » كان على علم بغدر (هلاكو) وشديد بطشه ، وبأنه لايرعى إلا ولا ذمة فانتهز الفرصة وفر هاربا إلى (لرستان) مقر ملكه ، ولكن (هلاكو) كان له بالمرصاد فأرسل فى أعقابه حملة عسكرية يقودها (كيتو قابوس) لالقاء القبض عليه فى عقر داره . وما أن سرى نبأ هذه الحملة إلى لرستان حتى تقدم (شمس الدين آلب أرغون) من أخيه قائلا له « إن المصلحة تقتضى أن ترسلنى إلى هلاكو كى أسعى لديه حتى أوفق بينكما ليعود الجيش المغولى من حيث أتى »

فصادف هذا الاقتراح هوى فى نفس (تيكله) وتقبله قبولا حسنا ووعد أخاه بألا ينبرى لقتال المغول حتى يعودهو إلى لرستان . ولما وصل شمس الدين إلى مرج « فهركه » فى حدود لرستان اعترض جيش المغول سبيله ، فحاول أن يفهم قواد الجيش مقصده ولكنهم أصموا آذانهم عن الاستماع إلى كلامه وقبضوا عليه وقيدوه بالسلاسل والأغلال وقتلوا جميع المرافقين له ثم استأنفوا الزحف على لرستان و لقد خشى تيكله مغبة الأمر فأقلع عن مقاومة المغول خشية أن يقتلوا أخاه المعتقل ولجأ إلى قلعة « جاينخشت » رافضا الاستسلام إلى المغول على الرغم من وعودهم وعهودهم المتكررة بالابقاء عليه والمحافظة على حياته حتى جاءه خاتم الأمان من هلاكو نفسه فنزل من القلعة وسلم نفسه لقواد الحملة الذين أرسلوه بدورهم إلى (تبريز) وهنالك صلبوه حانثين بوعودهم وبمواثيقهم . وقد تمكن رجاله من أخذ جثته سرا وعادوا بها حيث دفنوها فى لرستان .

(٤) — « أتابك شمس الدين آلب أرغون »

نصبه (هلاكو) أتابكا وحاكما على لرستان بعد مقتل أخيه (تيكله) ،

وأصدر أمره بعودة الجيش من لرستان ولما جاء الأتابك الجديد إلى البلاد ألفاها خرابا يبابا ، حيث كان المغول قد عاثوا فيها فسادا وعانت البلاد على أيديهم ألوانا من الظلم والبؤس والشقاء ، مما ألجأ الأهالى والسكان إلى الاعتصام بالجبال والوهاد . وقد عاد هؤلاء السكان إلى مواطنهم وأخذوا فى تعمير البلاد وزراعتها وإنعاش التجارة ، فانتعشت البلاد فى فترة وجيزة انتعاشا قل أن يتيسر مثله فى البلاد المجاورة . وكان الاتابك يمضى أيام الشتاء فى مدينة (ايدج = ايزاج) و (سوس) وفى أطراف (شستر = تستر) ، فى حين كان يقضى أيام الصيف فى الجبال الكائنة حوالى منابع نهرى (شستر) و (زنده رود) الشهيرة بتدفق مياهها وغزارة غياضها وباسق أشجارها وحدائقها الغناء التى كانت تبدو كقطعة من جنة الخلد ومثالا مجسما للفردوس . وهكذا قضى (شمس الدين آلب أرغون) أيام حكمه فى هدوء ودعة وسعادة وهناءة إلى أن توفاه الله إلى رحمته بعد أن تربع على أريكة الحكم خمسة عشر عاما .

(٥) — « أتابك يوسف شاه »

كان فى بلاط (أبقاخان) عند ما توفى والده ، وبعد أن مضى شهر على هذه الوفاة أصدر (أبقاخان) مرسوما بتعيينه خلفا لأبيه على حكومة لرستان ولكنه لم يذهب إلى مقر ملكه بل آثر البقاء فى عاصمة الامبراطورية المغولية مع مائتى فارس من رجاله مكتفيا بتعيين وكيل عنه فى (لرستان) .

وقد اشترك بجيشه اللورى فى حروب (أبقاخان) ضد (براق خان) فأبدى فيها شجاعة فائقة وبسالة نادرة ، كما أنه قد اصطحب (أبقاخان) ولازمه فى حروبه فى كيلان والديلم ، بل كان له الفضل فى إنقاذه من ورطة كادت تودى بحياته : خلاصتها أن جماعة من الفدائيين من الديلم قد باغتت (أبقاخان) فى إحدى المعارك الحامية الوطيس وأحاطت به من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، فما كان من (يوسف شاه) إلا أن انقض على هؤلاء المغيرين وردهم

على أعقابهم خائبين مدحورين ، مما أثار إعجاب (أبقاخان) وسروره منه وجعله ينعم عليه بمقاطعات خوزستان بأكملها و (كوه كيلويه) ومدينة (فيروزان) و (جرباذقان) الواقعة على مسافة سبعة فراسخ من شمالى أصفهان وذلك مكافأة له على صنيعه وجزاء وفاقا لما قدمت يداه . وقد أغار (يوسف شاه) بعد هذه المعركة بمدة على (كوه كيلويه) وشن هجوما على الشولية القاطنين بجهة « مامه سانى » وتمكن من قتل أخى حاكمها .

وبعد أن انقضت أيام « أبقاخان » وولت ، وخضع شرقى ايران « لأحمد تكودار » ساءت العلاقات بين « يوسف شاه » وبين « أرغون خان » خليفة « أبقاخان » ومع ذلك لم ينتقض عليه ، بل إنه قد اضطر إلى الاشتراك والمساهمة فى حروب « خراسان » ضد « أحمد تكودار » بقوة من ألفى فارس وعشرة آلاف من المشاة . ولما أسفرت هذه الحروب عن إلحاق الهزيمة بجيش « أحمد تكودار » فى عام (٦٨٣ هـ) ، عاد الجيش اللورى إلى لرستان عن طريق « تاباس » و « نوتانزا » مخترقا الصحارى الشاسعة التى لا ماء فيها ولا أثر للحياة .. عاد هذا الجيش بعد أن مات الكثيرون من رجاله من شدة العطش والأعياء ، كما ذهب « يوسف شاه » إلى لرستان بأمر من « أرغون شاه » ليحل محل الصاحب الخواجه (شمس الدين) وهنالك تزوج بكريمة الصاحب ثم ألقى القبض عليه وأرسله إلى « أرغون شاه » وقد عاد « يوسف شاه » إلى لرستان نهائيا بعد شهادة الخواجه شمس الدين وظل بها مقيما حتى توفاه الله إلى رحمته .

(٦) — « أتابك أفراسياب »

وبعد وفاة « يوسف شاه » عين ابنه « افراسياب » خلفا له ، وقد أرسل « افراسياب » أخاه « أحمد » إلى عاصمة المغول ، وبقى هو فى لرستان يصرف شئون الحكم ، وكان ظالما فتاكا لا يخاف الله ولا يتقيه فى عمله ، حيث شرع

يصب جام غضبه وينزل المظالم والعقاب على رءوس الذين يخالفون أهواءه من رجال « هزار أسب »، وألقى القبض على الوزراء أمثال « الخواجه نظام الدين وجلال الدين وصدر الدين »، وصادر أموالهم، ثم ما لبث أن قتلهم ملتمسا أسباب ومعاذير ما أنزل الله بها من سلطان؛ ثم نفى رجال هؤلاء المنكوبين وذوى قرباهم إلى « أصفهان » ولكنهم لم يحدوا من نشاطهم ضده، فأرسل من ورائهم من يتعقبهم ويتتبع آثارهم. وفى هذه الأثناء هلك (أرغون خان) فثار زعماء بعض البيوتات القديمة بأصفهان وقتلوا الوالى المغولى، فانتهز « أفراسياب » هذه الفرصة وعين من أقربائه ورجاله ولاة وحكاما للمقاطعات الممتدة من همذان وفارس حتى الخليج الفارسى راميا من وراء ذلك إلى القضاء على نفوذ المغول، وقد أسند إلى جلال ابن الأتابك (تيكله) قيادة حملة عسكرية جردها للمحافظة على « كوهرود ». وهنالك اشتبكت هذه الحملة فى قتال عنيف مع المغول أسفر فى بادىء الأمر عن هزيمة المغول. ولكن انغماس جنود الحملة فى أعمال النهب وإمعانهم فى السلب قد أعطى الفرصة للمغول المنهزمين فأعادوا تنظيم صفوفهم وكروا عليهم بغتة فأنزلوا بهم هزيمة منكرة. ولما ترامى نبأ هذه الحوادث إلى مسامع الامبراطور « كيخاتو خان » أرسل قوة عسكرية يقودها الأمير « طولداى ايداجى » وتتألف من جيشى المغول واللر الصغير لمناوأة « أفراسياب » وقتله، فلم يستطع الاتابك الصمود أمام المغيرين ولجأ إلى قلعة « جاينخست » وقتل الكثيرون من أهالى « لرستان » خلال هذه المعارك والحادثات، كما لجأت جموع غفيرة منهم إلى الجبال والوهاد فرارا من مظالم المغول الذين أسرفوا فى القتل والنهب والتدمير إلى أن أحاطوا بالقلعة وأرغموا أفراسياب على التسليم وأرسلوه الى العاصمة حيث تدخل هنالك فى الأمر لصالحه كل من (أروك خان) و (پادشاه خاتون) فعفا عنه الامبراطور وأعيد إلى مقر حكمه بلرستان، فرجع إلى سابق عهده

من الظلم والجبروت ومصادرة الأموال والحريات والقضاء على كبار رجال الدولة وأبناء البيوتات الكبيرة .

ولما تولى (غازان خان) حكم الامبراطورية ، عطف على (أفراسياب) فى بادىء الأمر ، فأولاه ثقته ، ولكنه عاد أخيرا فسحب هذه الثقة منه وقتله وكان ذلك فى عام (٦٩٦) للهجرة على أثر اندحار (هوركوداك) أمير فارس فى القتال الذى نشب .

(٧) — « أتابك نصرة الدين أحمد »

تولى الحكم سنة (٦٩٦ هـ) بعد أخيه (أفراسياب) وظل متربعا على أريكته حتى عام (٧٣٠) للهجرة فى رواية. أو عام (٧٣٣هـ) فى رواية أخرى) ؛ وقد أمضى أكثر أيام حياته فى بلاط الايلخانيين ، وكان حاكما عاقلا مدبرا ومحبا لرعيته ، وفق فى فترة وجيزة إلى خلق نهضة عمرانية فى البلاد ، وإلى القضاء على آثار الخراب الذى كان قد أصابها فى عهد سلفه ، فاستتب الأمن ، وعم الرخاء وازداد دخل الدولة وتحسنت حالتها المالية. وقد عين ابنه (عماد الدين بهلوان) نائبا عنه فى حكم (لرستان) ، كما أنه نصب (خسرو شاه بن الملك حسام الدين) قائدا للجيش ، وهكذا نظم الأمور وساس البلاد بحكمة وأدار دفة شئونها بحزم ، مما جعل البلاد كلها تشعر بالأمن التام والرفاهية الكاملة. وكان (نصرة الدين) يحب العلم والعلماء ويقربهم إليه دائما ويشجعهم . ومن آثار ذلك تأليف « ملافضل الله بن عبد الله القزوينى » لكتابه (تاريخ المعجم فى آثار ملوك العجم (١)) باسمه واهدائه اليه . كما أن كتاب

---

(١) طبع بفارس سنة ١٢٨٠ موجود بدار الكتب المصرية — المترجم

(مجمع الأنساب (١)) قد لقب هذا الحاكم العادل الحازم بلقب (بير) . ويقول الرحالة ابن بطوطة ان أتابك (نصرة الدين) هذا قد أنشأ فى عهده مائة وستين مدرسة ، كان أربع وأربعون منها فى مدينة (ايزاج) بينما كان البعض منها منتشرا بين العشائر فى أماكن مختلفة فى الجبال (٢) .

(٨) — « أتابك ركن الدين يوسف شاه الثاني »

دام حكم هذا الاتابك من سنة (٧٣٣) حتى سنة (٧٤٠) . وكان حاكما عادلا عاقلا مدبرا حازما. ويقول كتاب (مجمع الأنساب) إن سلطان هذا الأتابك كان يمتد حتى البصرة وخوزستان و(لاموستان=لارستان) وفيروزان

٩ — « مظفر الدين افراسياب الثانى »

كان اسمه أحمد ، وهو ابن يوسف شاه الثانى « أخوه حسب رواية ابن بطوطة » وكانت رحلة ابن بطوطة لهذه البلاد فى عهد هذا الحاكم ، ويرى الشيخ محمد الخضرى أن حكمه قد دام حتى عام ٧٥٦ للهجرة (٣)

وليس فى متناول أيدينا معلومات شافية عن حكام هذه الأسرة المتأخرين

---

(١) لمحمد بن على شبانكاره . (مخطوط) المترجم

(٢) يوجد فى تاريخ كزيده تفصيل عن هذه الحكومة حتى آخر عهد الأتابك (نصرة الدين) ولكننى استقيت المعلومات عنها بعد هذا التاريخ من دائرة المعارف الاسلامية وترجمة كتاب (كردلو) للدكتور فريج .

(٣) يقول الدكتور فريج ان هذا الأتابك كان معاصرا لتيمورلنك وإنه كان قائدا من قواده ، فى حين تفصل بين عهد هذا الأتابك و بين عهد تيمورلنك ، فترة مداها اربعون سنة . المؤلف

فقد خلت المصادر من أخبارهم اللهم إلا ما ذكره « ميرزا اسكندر » معتمدا على روايات المؤرخين المعاصرين لذلك العهد وهو كما يلي :

(١٠) — «نور الودود»

لقد خلف هذا العاهل أفراسياب الثانى فى الحكم ، وكان مسرفا متلافا مبددا للاموال لايقف فى سبيله شيء ، وهكذا قضى على خزينة الأتابكية فى فترة وجيزة ، ويؤخذ من رواية رواها « جهان آرا » أنه اتخذ (محمد مظفر) حاكم فارس ولدا له « ٧١٣ - ٧٦٠ »

(١١) - « شمس الدين بشنك »

المعروف أنه ابن يوسف شاه الثانى(١) وخلف (نور الودود) ، وقد استمر حكمه حتى عام (٧٨٠) للهجرة ، وقد أصيبت البلاد فى عهده بأضرار جسيمة على أيدى « آل المظفر » بشيراز حيث اتخذ الشاه منصور المظفرى « شستر » قاعدة لأعماله الحربية ضد (لرستان) مما أدى الى قيام « الشاه شجاع » بنجدة الأتابك بشنك وشد أزره ، لأنه كان ينافس الشاه منصور فى الحكم وقد عثر فى « إيزاج » على قطع من النقود باسم الشاه شجاع يرجع تاريخها إلى سنتى ٧٦٢ ، ٧٦٤ للهجرة

(١٢) — « بير أحمد »

تولى الحكم فى لرستان بعد وفاة « بشنك » وقد حدث أن نشب قتال بينه وبين أحد أفراد أسرته المدعو « ملك هوشنك » أسفر عن قتله فى المعركة

---

(١) يقول الشيخ محمد الخضرى فى محاضراته إنه كان يدعى شمس الدين هوشنك ، وإنه ابن ابن أفراسياب الثانى . المؤلف

ويروى بعضهم أن كلا من بير احمد وهوشنك كانا أخوين وكانا ابنين لنور الودود ، وقد أخرج الشاه منصور المظفرى بيراحمد هذا من لرستان وعين أحد زعماء اللور حاكما بدله وبهذا انتهت أيامه ودالت دولته

وفى عام (٧٩٥) للهجرة حين مر « تيمور » بلرستان ، خف اليه (بيراحمد) واجتمع به فى مدينة « رامهرمز » ثم فى « شيراز » حيث قدم له فروض الولاء والطاعة فأكرمه تيمور وأضفى عليه سابغ عطفه حيث أبقاه على عرش آبائه وأجداده ، وسمح له باعادة نقل ألفى أسرة لورية ـ كانت مبعدة بأمر من الشاه منصور ـ الى لورستان : ثم أخذ تيمور معه الى « سمرقند» كلا من « أفراسياب » أخى « بير أحمد » و (الشاه منصور) كرهينة لديه

وبعد فترة من الزمن قسم « تيمور » لورستان الكبير بين بيراحمد وأخيه أفراساب وبعد وفاة تيمور أسر الميرزا بير محمد ، بير أحمد هذا فى (كوهان دز) وقد تمكن من أن ينتزع مقاليد أمر لرستان لنفسه فى عام (٨١١) للهجرة ، ولكنه ما لبث أن قتل إبان ثورة داخلية اشتعل لهيبها فى البلاد بعد ذلك .

(١٣) ـ « أبو سعيد »

هو ابن (بير أحمد) وقد لبث فى شيراز عامين كرهينة ، ثم تولى الحكم بعد وفاة والده ، وقضى نحبه فى عام ٨٢٠ للهجرة .

(١٤) ـ « الشاه حسين »

كان ابنا لأبى سعيد وخلفا له ، وقد حدث بعد توليه حكم لرستان أن نشب قتال عنيف بينه وبين (غياث الدين كاوس) أحد أفراد أسرته أسفر عن قتله أثناء المعركة ، وكان ذلك فى عام (٨٢٧) للهجرة.

(١٥) ـ « غياث الدين كاوس »

كان ابنا لهوشنك ، وقد تمكن من انتزاع الحكم لنفسه من (شاه حسين)

ولكن لم يمض على حكمه طويل وقت حتى غزا (سلطان ابراهيم بن شاه رخ ابن تيمولنك)لرستان ، وقضى على الحكومة الفضلوئية نهائيا ، فنتج عن ذلك انتقال الحكم إلى أيدى رجال العشيرة البختيارية .

ملحوظة :

إن كتاب الدكتور (فريج) الألمانى الذى ترجمته إدارة المهاجرين العامة بتركيا وطبعته ونشرته باللغة التركية ، إذا كانت ترجمته صحيحة ومطابقة للاصل ، فالذى لا شك فيه أنه يحمل بين طياته أفكارا وآراء مغرضة عن الكرد لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، ويكاد العداء يظهر فى ثنايا كل سطر من سطوره فهو أبعد ما يكون عن التاريخ الذى يجب أن يكتب كما هو ، دون تحيز وبكل نزاهة ودقة ، لا بتغيير الحقائق فضلا عن تشويهها وقلبها رأسا على عقب ، كما حدث من استغلاله لمجرد مشابهة لفظية عثر عليها بأن جعل فضلوى من أسرة تركية لا كردية مخالفا بذلك روايات ونصوص المعاصرين من المؤرخين التى سجلها كتاب (كزيده) وغيره من الكتب التى يعول عليها ، والظاهر أنه تردد فى القول بهذه النظرية الغريبة ، فاضطر أخيرا لأن ينسب غلبة (أبى طاهر) وانصاره إلى قائد جيش الترك ، وهكذا استرسل فى العداء وطمس معالم الحقيقة بل وأنكر وجود الشعب الكردى وقوميته البارزة فى مختلف عصور التاريخ .

ورغم ذلك فان التاريخ ليعترف ويهتف بأعلى صوته بأن هذه الحكومة المحلية كانت كردية لحما ودما ، وأنها عاشت مستقلة مائة عام أو أكثر ، منذ ظهور (أبى طاهر) على مسرح التاريخ حتى ظهور شبح المغول فى العالم الاسلامى . وبعده خضعت للمغول ثم للتيموريين شأنها فى ذلك شأن سائر الحكومات الشرقية .

الفصل التاسع

٩ ـ حكومة اللر الصغير (٥٧٠ ـ ١٢٥٠ هـ)
أو
الاسرة الخورشيدية

كانت العشائر اللورية وغيرها من العشائر بشمال (لرستان) وشماله الغربي تعيش حتى أواسط القرن السادس الهجري عيشة قبلية ، تستقل كل عشيرة وكل أسرة منها بشؤونها الخاصة . وفيما يلي بيان بأسماء عشائر ذلك العهد حسب رواية تاريخ (كزيده) :

داوودى ، عباسى ، محمدكومارى ، كروهى ، جنكروبى (هذه العشائر هى أصل اللر الصغير حيث كانت الإماره فيهم ، وهى من فرع السلغريين) وهنالك عشائرأخرى غير تلك التى ذكرناها مثل : كارندى ، جنكردى، فضلى سنوندى ، آلانى ، كاهكاهى ، رجواركى ، درى ، براوند ، مابكى ، دارى آبادكى ، أبو العباس ، علومائى ، كجائى ، سلسكى ، خودكى ، بندوئى ، إلى غير ذلك ، أما عشائر (ساهى ، أرسان ، أركى ، بيهى) فهى وإن كانت تتكلم اللهجة اللورية إلا أنها لم تكن من اللر ، كما أن سكان القرى هم الآخرون فلم يكونوا يدخلون فى عداد اللور .

هذا ولم يكن لهذه العشائر جميعها إدارة خاصة حتى منتصف القرن السادس الهجرى بل كانت خاضعة للحكومة المركزية فى بغداد مباشرة .

ففى عام (٥٥٠ هـ) عين تركى أفشارى يدعى (حسام الدين سوهلى) حاكما للر الصغير وخوزستان من قبل السلجوقيين ، وكان أجداد الأسرة

الخورشيدية[١] فى معية هذا الحاكم السلجوقى ، وكانوا لورا من عشيرة الجنكروى ، وكان (شجاع الدين خورشيد بن أبى بكر بن محمد بن خورشيد) من آل خورشيد يحتل مع أخيـــه (نور الدين محمد) مكانة سامية لدى (حسام الدين سوهلى) ، فكان (شجاع الدين خورشيد) محافظا من قبله لقسم من اللر الصغير .

(١) ـ « شجاع الدين خورشيد »

تولى حكم اللر الصغير بأكمله على سبيل الاستقلال به ، بعد وفاة (حسام الدين سوهلى) فى عام (٥٧٠ هـ) وكان يرأس عشيرة (جنكروى) التى تنتمى اليها أسرة (شجاع الدين خورشيد) وقتذاك :(سرخاب بن عيار) الذى كان منافسا وخصما لشجاع الدين ، ولهذا جرد عليه (شجاع الدين) جيشا حاصره فى (دزى سياه = القلعة السوداء) واضطر أهالى (مانرود) كلها للهجرة والرحيل ، مما أدى إلى تدخل خليفة بغداد فى الأمر ، وبذل وساطته لحسم النزاع فأمر (شجاع الدين) بأن يتنازل عن قلعة (مانكاره) فقط ، وأن يرجع عن خصمه فأطاع (شجاع الدين) أمر الخليفة الذى كافأه على طاعته اياه باسناده حكم ناحية (طرازك ـــ بخوزستان) اليه [٢]

---

(١) تقول « دائرة المعارف الاسلامية » انه كان هنالك قبل تشكيل دولة « أتابكية اللر الكبير » فى هذه البلاد ، حاكم له وزير يدعى « خورشيد » ويظهر أن لخورشيد هذا علاقة بخورشيد رأس الأسرة الخورشيدية .

(٢) يذكر تاريخ « كزيده » هذه الواقعة بشكل آخر فيقول : ان شجاع الدين تمكن من سرخاب حتى سلم له بمحافظة « مانرود » ثم أرسل شجاع الدين =

ويحدثنا تاريخ (كزيده) عن البقية الباقية من أيام(شجاع الدين) فيقول بأن هذا الأمير كان طاعنا فى السن ، ولهذا كان يلازمه دائما فى غدوه ورواحه كل من ابنه (بدر) وابن أخيه (سيف الدين رستم) ، ويقومان بتنفيذ أوامره وفى هذه الأثناء كانت عشيرة (بيات) مستولية على أجزاء من بلاد لورستان فقام بدر وسيف الدين بمهاجمة هذه العشيرة وأخرجاها من لرستان بعد قتال عنيف طال أمده . وكان(شجاع الدين) قد عين ابنه (بدر) وليا لعهده على أن يكون (سيف الدين رستم) وليا للعهد من بعده ، بيد أن سيف الدين قد افترى فرية على (بدر) وتوسل بها لقتله . وقد علم شجاع الدين أخيرا بخفايا هذه الجناية المروعة ولكن القدر لم يمهله بعدها فتوفى إلى رحمة الله فى عام (٦٢١ هـ) عن أكثر من مائة عام . وكان حاكما عادلا أحبه الناس فى حياته وبعد مماته حيث أضحى قبره مزارا يحج إليه اللوريون بكل تجلة واحترام وله حرمة وقداسة وشهرة عظيمة . إذ كان رحمه الله يمضى أيامه فى رحلات صيفية وشتوية

ابنيه « بدرا وحيدرا » بجيش جرار إلى عشيرة جنكروى فنازلاها وحاصرا قلعة « دزسياه » وقتل « حيدر » فى المعركة مما أثار نقمة « شجاع الدين » على أفراد هذه العشيرة وجعله يقتل كل من يقع فى يده منهم حتى ثار جميع أهالى (مانرود) وأخذوا يجلون عن أوطانهم . وبعد مد دعاهم مركز الخلافة للمثول بين يدى الخليفة فذهب اليه كل من(شجاع الدين) وأخيه(نور الدين) فطلب اليهما إخلاء قلعة مانكاره من رجالها فرفضا طلبه فزج بهما فى غيابة السجن ، ومات نور الدين فى السجن بعد أن أوصى أخاه بألا يترك القلعة لأحد قط ، ولكن شجاع الدين لما أيقن بألا نجاة له من السجن إلا بترك القلعة عرض على المسؤلين بدار الخلافة أن يتركها على أن يعوض عنها بقلعة « طرازك » ، فقبلوا طلبه . وأطلقوا سراحه ، فعاد إلى « لرستان » فى عام (٥٩٠) للهجرة حيث حكم البلاد بعد ذلك مدة ثلاثين عاما أخرى. المؤلف

فكان يقيم صيفا فى (كـــيربت) ، وشتاء فى قرية (دهلوران = ده‌لوران فى‌بشتكوه) ، ولـكن العاصمة كانت مدينة (خرم آباد) .

٢ — « اتابك سيف الدين رستم »

هو ابن (نور الدين محمد) ، وقد نال لقب أتابك ، ونشر لواء العدل ، وحقق المساواة بين الناس . وهنالك قصص حية تدل على ما كان يسود البلاد فى عهده الزاهر من هناءة ورفاهة . وهو الذى أصدر أمرا بمنع الاغارات المشينة التى كانت‌القبائل دائبة على شنها دون هوادة، مما أثار عليه نقمة بعض الزعماء وغضبهم ، فالتفوا حول أخيه (شرف الدين أبو بكر) ، وتربصوا له حتى دخل الحمام ذات يوم فانقضوا عليه انقضاض الصاعقة ، ولـكنه تمكن من الفرار من بين براثنهم بأعجوبة ، فتعقبوه وطاردوه حتى قتلوه هو وابن أخيه (على بن بدر) .

٣ — « شرف الدين أبو بكر »

كان عهد هذا الأمير مليئا بالدسائس والنزاع والمنافسة والعداء المستحكم بين أعضاء الأسرة المالكة .

٤ — « عز الدين كرشاسب »

هو أخو (شرف الدين أبو بـكر) ، وقد تزوج امرأة أخيه « ملكة خاتون » أخت (سليمان شاه) قائد الخليفة المستعصم .

وما أن علم (حسام الدين خليل بن بدر) الذى كان مقيما منذ أمد فى بغداد ، بأن (عز الدين كرشاسب) أضحى حاكم لرستان حتى خف سراعا إلى خوزستان ، وهنالك حشد جيشا تقدم به نحو (لرستان) ، وكان (عزالدين

على يقين بأن لا قبل له بمقاومة هذا الجيش الجرار . إلا أنه اضطر لذلك اضطرارا تحت تأثير امرأته وأخته ، ولما رأى الجيش اللورى ، ألا طائل من وراء التصدى لهذا الجيش، إنحاز إلى المغيرين، فاضطر عزالدين للتسليم والتخلى عن الحكم ، فدانت أمور البلاد لحسام الدين وتربع على أريكة الحكم .

٥ — « حسام الدين خليل »

هو ابن (بدر بن شجاع الدين خورشيد) ، كان قد لجأ إلى بغداد بعد مقتل والده . ولما دانت له الأمور واستولى على حكومة اللر الصغير كما بيناه ، عين (عز الدين كرشاسب) وليا لعهده ، ولكنه عاد فدعاه إليه وقتله لأسباب ومعاذير انتحلها ما أنزل الله بها من سلطان : ولما ترامى نبأ ذلك إلى مسامع امرأة عز الدين (ملكة خاتون) عمدت سرا إلى إرسال ثلاثة أبناء لعز الدين كانوا ما يزالون أطفالا ـ إلى أخيها شهاب الدين سليمانشاه(١) . ومن هنا بدأ العداء ينشب أظفاره بين حسام الدين وسليما نشاه لدرجة أنه حدث فى خلال شهر واحد أن نشب بينهما قتال لعدة مرات لهذا السبب . وفى النهاية حاقت الهزيمة بسليما نشاه، وأدى هذا الخذلان إلى دخول قلعة (بهار) وبضعة بلدان أخرى من مقاطعة (كردستان) فى حوزة حسام الدين . وأخيرا قام سليمانشا على رأس حملة عسكرية كبيرة ، تعضده دار الخلافة لمهاجمة (حسام الدين) ، فالتقى الجمعان بسهل (شابور خواست) ودارت بينهما رحى معركة طاحنة أسفرت عن مقتل (حسام الدين خليل) وانتصار خصمه ، فى عام (٦٤٠) للهجرة .

---

(١) هو سليمان بن برجم الايوائى مقدم الطائفة الايوائية التركمانية كما فى ملحق تاريخ العراق للعزاوى نقلا من نهج البلاغة . المترجم

٦ — « بدر الدين مسعود »

كان أخا لحسام الدين ، وقد ذهب إلى بلاط (منكوخان) بعد مقتل أخيه ورفع إليه شكايته وعرض عليه أمره ، ثم جاء إلى إيران مع (هلاكو) حين زحفه على بغداد . ولما قتل (سليمانشاه) فى حادث استيلاء المغول على بغداد ، عمد (بدر الدين مسعود) إلى نقل أسرة سليمانشاه وذوى قرباه معه إلى لرستان . وبعد أن حكم البلاد ستة عشر عاما توفى إلى رحمة الله عام (٦٥٨ هـ) . وكان أميرا عادلا عاقلا عالما تقيا رحيما بارا بالرعية ، وبارعا فى فقه الشافعية . وبعد وفاته ، دب دبيب الخلاف ونشب القتال بين اثنين من أبنائه وبين (تاج الدين شاه) ، وظل القتال محتدما إلى أن جاء (أبقاخان) وتدخل بين الفريقين ، وأصدر أمرا بقتل ابنى (بدر الدين مسعود) ،وباسناد حكم البلاد إلى (تاج الدين) .

٧ — « تاج الدين شاه »

حكم هذا الأمير البلاد سبعة عشر عاما . وكان حازما فى إدارته وعادلا فى حكمه يقول صاحب كتاب (عالم آراى عباسى) فى المجلد الثانى منه ان هذه الأسرة الخورشيدية كانت تلقب بالعباسية أيضا ، وذلك راجع إلى أن بلادها كانت من أملاك الخلفاء العباسيين خاصة . وأخيرا فى عام (٦٧٧) للهجرة قتل (أبقاخان) هذا الأمير أيضا .

٨ — « فلك الدين وعز الدين »

بعد أن قتل (أبقاخان) ، الأمير (تاج الدين شاه) ، عمد إلى تنصيب (فلك الدين) و (عز الدين) ولدى (بد الدين مسعود) حاكمين على البلاد

وتنفيذا للأرادة الايلخانية المغولية كانت إدارة الشئون المالية مسندة إلى (فلك الدين) فى حين كان يقوم أخوه (عز الدين) بادارة شئون الأملاك الخاصة بالخاقان (السلطان الأعظم) . وقد قام هذان الأخوان بتصريف شئون « لرستان » خمسة عشر عاما بكل حكمة وجدارة، حتى أصبح للبلاد قوة عسكرية يعتد بها، قوامها سبعة عشر ألف مقاتل . كما نجحا فى طرد البياتيين من «لرستان» عن آخرهم ، وفى توسيع حدود البلاد حتى بلغ امتدادها إلى (شستر) و(همذان) و(أصفهان) من ناحية ، ثم إلى العراق العربى من الناحية الأخرى

فكان الأمير (فلك الدين) عاقلا وعالما مطلعا ، فى حين كان الأمير (عز الدين) طاغيا جبارا قهارا ، ومع ذلك لم يكن لهذا الاختلاف البين، بين الأخوين أية تأثير على إدارة شؤون البلاد ، فقد حكما البلاد بالعدل و المساواة فكانت راية السلام ترفرف فى الداخل على الجميع بلا استثناء ، كما كانت العلاقات الخارجية طيبة، مع الدول المجاورة وتسودها المودة والصداقة.

ومن المصادفات العجيبة أن هذين الأخوين قد انتقلا سويا إلى رحمة الله فى عام واحد هو (٦٩٣ هـ) .

٩ — « جمال الدين خضر »

كان ابنا للأمير (تاج الدين شاه) ، وقد أصدر (كيخاتوخان) مرسوما بتعيينه حاكما على البــلاد ، ولـكن ظهر له منافسان قويا الشكيمة وهما (حسام الدين عمر) حفيـد (بدر بن شجاع الدين خورشيد) و (شمس الدين الياس) فأخذا يعرقلان جهوده ، ويناوآنه وينازعانه الحكم والسلطان حتى انتهزا بالتعـاون مع المغول المحتلين للبـلاد ، خروجه ذات يوم للصيد والقنص فاغتالوه ومن معه من خدامه وهكذا انقرضت ذرية « حسام الدين خليل » من البلاد فى عام(٦٩٣) للهجرة .

١٠ — « حسام الدين عمر »

تولى هذا الأمير مقاليد الأمور قوة واغتصابا ، وقد نازعه الحكم وناصبه العداء كل من « صمصام الدين محمود » و « نور الدين محمود » نجلى « عز الدين كرشاسب » وسائر أقاربه ، وكان « حسام الدين » يعتز بالمغول ويعتمد عليهم بينما كان كافة الأمراء من آل خورشيد يعضدون « صمصام الدين محمود » ويشدون أزره ، لأنه كان أميرا شجاعا راجح العقل . وقد استطاع فى فترة وجيزة حشد جيش لجب زحف على رأسه من حدود « خوزستان » إلى ناحية « خرم آباد » ، مما أدى إلى تنازل (حسام الدين عمر) عن الحكم لصمصام الدين

١١ « صمصام الدين محمود »

انقضى عهد هذا الأمير فى فتن داخلية ومنازعات طاحنة بين الأقارب وذوى الرحم حول تولى الحكم . وقدقتله (غازان خان) فى عام (٦٩٥) للهجرة.

١٢ — « عز الدين أحمد [١] »

كان ابنا للأمير محمد بن عز الدين حسين بدر الدين مسعود . وقد عين حاكما على (لرستان) بعد صمصام الدين وهو مايزال طفلا ، ولهذا أبى ابن عمه (بدر الدين مسعود بن فلك الدين حسن) أن يخضع له بحجة أنه أكبر منه سنا وأكثر رشدا ، مما حمل (أولجايتوخان)[١] على تعيين ابن عمه هذا أتابكا وحاكما على (دلار)[١] . وترك قسم (انجو) من البلاد تحت حكم (عز الدين) الذى انفرد

---

(١) فى (شرفنامه) « عز الدين محمد » لا « أحمد » والسلطان (محمد خدابنده) لا (اولجايتوخان) و (ولاى) لا (دلار) . المترجم

بحكم كافة بلاد اللر الصغير بعد وفاة ابن عمه (بدر الدين) هذا .

١٣ — « دولت خاتون »

تولت الحكم فى البلاد بعد وفاة زوجها الأمير (عزالدين أحمد) ، ولكنها لم تتمكن من مباشرة شئون الدولة كما يجب بسبب تدخل المغول (١) وتقول رواية من الروايات ان هذه الملكة تخلت عن الحكم بعد فترة، لعز الدين حسين (ويروى شرفنامه أنه أخوها . المترجم) بسبب زواجها من يوسفشاه أتابك اللر الكبير .

١٤ — « عز الدين حسين »

اعترف السلطان أبو سعيد بحكومة هذا الأمير التى عمرت أربعة عشر عاما

١٥ — « شجاع الدين محمود »

جاء فى رواية للدكتور فريج أن هذا الأمير قد حاول الاستقلال بشؤون البلاد وعدم الاعتراف بسلطة المغول ، ولكن الشعب قد أبى أن يسايره فى تحقيق هذه الرغبة ، وامتشق الحسام وقاومه حتى أزاله من الوجود .

ولكن كتاب (شرفنامه) يقول انه ابن الأمير السابق ويرجع مقتله إلى خلاف من نوع آخر نشب بينه وبين الأهالى . ومهما تعددت الأسباب وتباينت فالثابت أنه قد قضى عليه فى عام ٧٥٠ للهجرة .

---

(١) يذكر تاريخ (كزيده) حوادث هذه الدولة حتى عهد (دولت خاتون) هذه ، أما الباقى فمأخوذ من دائرة المعارف الاسلامية ، ومن مؤلف الدكتور فريج أى الترجمة التركية باسم (كردلر) . المؤلف

١٦ ـ « الملك عز الدين بن شجاع الدين »

كان ما يزال طفلا لم يتعد الثانية عشرة من عمره حين وفاة والده . وفى سنة ٨٧٥ للهجرة وصل (شاه شجاع) من آل مظفر بجيشه إلى (خرم آباد) وتزوج فيها من أحـــدى بنات الملك عز الدين ، وقد تزوج من الاخرى السلطان أحمد الجلايرى حاكم بغداد . وفى عام (٧٨٨) للهجرة حينما وصل (تيمورلنك) إلى إيران كان لرستان الصغير يسوده اضطراب وقلاقل ، فبادر تيمور إلى الزحف من فيروزكوه إلى لرستان ، وحاصر خرم آباد أمدا قصيرا ثم ما لبث أن استولى عليها وخربها ، ثم أعمل السيف فى رقاب الناس حتى قضى على جميع رؤساء اللر وعلى رجالهم البارزين ، فعم الخراب والدمار جميع البلاد من أقصاها إلى أقصاها .

وتقول بعض الروايات . ان الملك عز الدين وولده (سيد احمد) أسرا فى قلعة (رميان) الواقعة على مقربة من (بروجرد) ، فاعتقل هو فى (سمرقند) وإبنه فى قلعة (أندكان) على مقربة من همذان . ثم أرسلا إلى لرستان بعد ثلاث سنوات وقد أبدى الملك عز الدين هذا نشاطا محسوسا فى أيام زين العابدين من آل المظفر . وفى عام (٧٩٠) عاد تيمورلنك إلى إيران ، وجعل البلاد فى هذه المرة خرابا يبابا بشكل لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، كما أغرق لرستان فى بحار من الدماء ودمرها تدميرا ، ومع ذلك لم يتمكن من القبض على الملك عز الدين ولا على إبنه الذى فر هاربا من البلاد . وقد استغل (محمد سلطان) حاكم فارس اضطراب حبل الامور فى هذه البلاد فى تلك الأثناء ، فجرد جيشا فى عام (٧٩٨) للهجرة ، على خوزستان ولرستان واستولى عليهما . وتقول رواية أخرى ان تيمورلنك قد قبض على الملك عز الدين بن شجاع بعد مدة وقتله سنة (٨٠٤ هـ) .

١٧ ـ « الملك سيد أحمد »

كان مختفيا حين مقتل والده ، ثم خرج من مخبئه وظهر للعيان بعد أن انقضى زمن تيمورلنك وأسدل عليه الستار ، وأسس حكومته فى لرستان من جديد عام (٨١٠) للهجرة ، وظل يحكم البلاد مستقلا حتى عام ٨١٥ للهجرة .

١٨ ـ « شاه حسين »

تولى زمام الحكم بعد وفاة أخيه (سيد أحمد) ، وانتهز فرصة النزاع الناشب بين أحفاد (تيمور) وشرع فى توسيع حدود مملكته حتى امتدت إلى (همذان) و (جرباذقان) و (أصفهان) . وقد غزا أقليم (شهرزور) أيضا ، بيد أن القدر قد قسا عليه فأوقعه أسيرا فى أيدى عشيرة (بهارلو) فكانت هذه نهايته ، حيث قضى عليه فى عام (٨٧١) للهجرة .

١٩ ـ « شاه رستم »

كان ابنا لشاه حسين ، وقد تولى الحكم بعد والده ، ولما رجع الشاه اسماعيل الصفوى من فتح بغداد إلى (حويزه) حشد جيشا مؤلفا من عشرة آلاف رجل بقيادة (حسن بك لالا) و (بيرام بك قرمانلو) ، وجرده على (شاه رستم) الذى اضطر إلى الاعتصام بالجبال لأنه لم يستطع الصمود أمام هذا الجيش العرمرم ، ولما ضاقت به السبل بادر إلى التسليم ، وجاء للقاء الشاه اسماعيل الذى منحه عفوه وأظهر تقديره له وأعاده حاكما على لرستان . (١)

---

(١) يقول (تاريخ عالم آراى عباسى) ان « شاه رستم » كان ذا لحية طويلة ، وقد أمره الشاه اسماعيل أن يزينها بالدرر والجواهر ويحضر إلى بلاط الشاه على هذه الصورة ، فنفذ أمر الشاه . (ج ـ ١) المؤلف

٢٠ ـ «أوغوزخان»

كان ابنا لشاه رستم ، أسندإليه الشاه (طهماسب) قيادة جيش إيران وفى الحق أنه كان قائدا مغورا وجنديا صنديدا ، وقد زحف فى عام (٩٤٠هـ) بجيش لجب إلىماوراء النهر لمنازلة (عبد الله خان أزبك) الذى كانقد وصل وقتذاك إلى (خراسان) مهددا إيران كلها بالخطر الداهم والشر المستطير وكان أوغوزخان قد ترك أخاه (جهانكير) نائبا عنه فى« لرستان » طيلة أيام حروبه فى خراسان وماوراء النهر فما كان من هذا الأخ إلاأن انتهز فرصة تغيب أخيه عن البلادوانشغاله فى الحروب، وسارع باعلان استقلاله بلرستان بمساعدة الشعب الذى آزره وأيده بجميع قواه، ولما عاد (أوغوزخان)من ميدان الحرب اشتبك مع أخيه فى حروب دامية أسفرت عن قتله خلال احدى المعارك .

٢١ ـ« جهانكير »

عالج هذا الأمير شئون الحكم مستقلا ودون منافس بعدمقتل أوغوزخان بضع سنين لم يحدث خلالها توتر فى العلاقات بينه وبين الدولة الصفوية ، والسر فى ذلك هو أنه لما وصل الشاه (طهماسب) إلى تلك البقاع عام ٩٤٨ لتأديب (علاء الدولة رعناش) والى (ديزفولى) فقدسارع (جهانكير) إلى بلاطه ، وقدم له فروض الولاء والاخلاص والاجلال .

ويقول (اسكندر منشى) فى المجلد الثانى من كتابه ان (جهانكير) قد انقلب أخيرا وشق عصا الطاعة على إيران ، فجرد عليه الشاه (طهماسب) الأول جيشا لجبا بقيادة (عبد الله خان استاجلو) ، ودارت رحى معركة طاحنة بين الفريقين أسفرت عن قتل (جهانكير) واندحار جيشه ، وانطلق الجيش الايرانى فى شرايين البلاد يعيث فيهافسادا، وقتل الكثيرين من الأبرياء حتى جعل البلاد قاعا صفصفا .

وقدلجأ كل من(شاهرستم) وأخيه (محمدى) ولدى(جهانكير)الى بلاطه

بغداد ، وبعد فترة توسط لهما (سيد أمير) لدى الشاه ، فعفا(١) عن شاه رستم ولـكن رغبته الملحة فى الاستقلال وسعيه الحثيث المتواصل لتحقيقه أدى فى النهاية إلى إلقاء القبض عليه وقتله فى عام ٩٤٩ للهجرة .

(٢٢) ـ « شاه رستم الثانى »

كان هذا الأمير ابنا لجهانـكير ، وقد اعترف الشاه (طهماسب) بحكومته دون رغبة أو ارتياح . لأن حكام (لرستان) ما كانوا ينقطعون أو يكفون عن احداث القلاقل وإشعال نار الفتن فى سبيل نزعتهم الاستقلالية ، الأمر الذى دفع الشاه (طهماسب) إلى القضاء على هذه الأسرة القديمة لاسيما وأن شاه (رستم) لم يكن له سوى أخ صغير وحيد . فأوعز فى يوم ما إلى الأمير (مسلم كودرزى) أحد أمراء (شاه رستم) بأن يخدع سيده ويستدرجه إلى طهران. فحقق الأمير طلبة الشاه (طمهاسب) الذى تمكن بتلك الحيلة الجهنمية من القاء القبض على (شاه رستم) والزج به فى غياهب السجون . ولما أدرك الشعب اللورى الغرض الذى يرمى اليه الشـاه (طهماسب) من وراء هذا العمل بادر إلى نقل (محمدى) الصغير أخى (شاه رستم) إلى قلعة (چنكوله = شنـكوله) وإخفائه فيها ، وتولت حراسته قوة عسكرية يعتد بهـا . وهكذا لبثت البلاد بغير حاكم بضع سنين . وإذا برجل يظهر فجأة مدعيـــا بأنه (شاه رستم) وأنه تمكن من الفرار من السجن . وكان الرجل يبدى معرفة تامة بالبلاد ، فضلا عن أنه كان يشبه (شاه رستم) تمام الشبه لدرجة أن نسـاءه

---

(١) ولـكن نفس المؤرخ (اسكندر منشى) يقول ان الشاه (طهماسب) بعد ان عفا عنهما ، قسم بلاد لرستان الصغير بين (شاه رستم) واخيه (محمدى) ، فى حين أن دائرة المعارف الاسلامية تقول غير هذا القول . المؤلف

أنفسهن لم يفطن إلى كذب هذا الدعى الأفاك . وهكذا تم احياء حكومة لرستان من جديد ولكن بشكل آخر .

ولما ترامى نبأ ذلك إلى مسامع الشاه (عباس) تملكه الغضب ، وأطلق سراح (شاه رستم) الحقيقى على الفور ، وسلمه مرسوما باسناد الامارة اليه وأمره بالعودة سراعا إلى لرستان ، وما أن وطئت قدماه أرض البلاد حتى انكشفت حقيقة الأمير الدعى الكذاب ، فقبض عليه وقتل . وهكذا عاد الحق إلى نصابه ، وتولى الأمر صاحبه الشرعى .

وفى خلال تلك الحقبة كان أخوه الأمير (محمدى) قد شب وكبر والتف حوله أنصار كثيرون ، يطالبون له بالامارة ، وكاد القتال ينشب بين الأخوين لهذا السبب لولا تدخل بعض الزعماء بينهما ، وقد أدى تدخلهم إلى عقد صلح بين الأخوين أشترط فيه بقاء أربعة أسداس البلاد تحت إمرة (شاه رستم) وتسليم السدسين الباقيين إلى أخيه (محمدى) وقد تلا عقد الصلح فترة سكون وهدوء ولكن الأمير (محمدى) لم يكن ليقنع بنصيبه ، وما فتىء يحدث القلاقل ويثير الاضطرابات ضد أخيه حتى دبر له أخوه (شاه رستم) مكيدة للتخلص من متاعبه . فدعاه ورجاله ذات يوم إلى وليمة كبرى وما أن حضروها واجتمع شملهم حتى ألقى القبض عليهم وزج بهم فى غياهب السجن .

وكان للامير محمدى هذا ثلاثة أبناء ، ما أن علموا بما آل اليه أمر أبيهم حتى شقوا عصا الطاعة ، وأقضوا مضاجع كل من (شاه رستم) والشاه (طهماسب) فأصيبت البلاد بالنكبات ولقى الناس الكثير من الويلات ولحقتهم الاضرار من جراء ذلك ، ولم يقف زعماء اللور مكتوفى الأيدى أمام هذه الحالة المثيرة

---

(١) يقول المصدر السابق انه قبض على (محمدى) من قبل أميرخان الموصللو وحبس فى قلعة آغوت . المؤلف

فاجتمعوا وفكروا فى إيجاد وسيلة لاخماد نيران الثورة وقطع دابر الفساد من البلاد ، فما وجدوا وسيلة أنجع من إصدار قرار باعادة (محمدى) إلى الحكم وأرسلوا بمحضر اجتماعهم مشفوعا برأيهم إلى بلاط الشاه وقد وافق الشاه على هذا الرأى ونفذ طلبتهم بشرط إرسال أبناء (محمدى) إلى طهران كرهائن لديه ، وهكذا أطلق سراح (محمدى) ولكن لم يمض على اطلاق سراحه طويل وقت حتى انتهز أبناؤه فرصة سنحت لهم ففروا من طهران ورجعوا إلى أبيهم، ثم أخذ محمدى فى مضايقة شاه رستم وإيغار صدره من جديد ومنازعته الحكم حتى تمكن من انتزاع لرستان من يده والانفراد بالحكم ، ثم تطورت العلاقات بين محمدى وبين البلاط الايرانى فأصبحت ودية للغاية، كما أنه حسن علاقاته أيضا بالعثمانيين حيث أنشأ صلات طيبة بينه وبين سلطانهم « مراد » الثالث، كان من نتيجتها أن ضمن للرستان الصغير حماية الدولة العثمانية سنة ٩٩٢ هـ وضم نواحى (مندلى وبدره وجسان وتورساق) إلى بلاده.

بيد أنه لم يمض على هذا طويل وقت حتى ساءت علاقاته بالدولة العثمانية فاضطر إلى التفاهم مع شاه ايران ورفض حماية العثمانيين الذين غضبوا لذلك وأمروا حاكم بغداد العثمانى بالزحف على لرستان لتأديب حاكمه فنفذ الأمر ولكنه أخفق فى مهمته

(٢٣) ـ «شاه ويردى»

كان (شاه ويردى) رهينة فى بغداد حين وفاة والده (محمدى) وما أن علم بوفاة والده حتى أخذ يفكر فى وسيلة للخلاص حتى تهيأت له أسباب الفرار وتمكن من الوصول إلى لرستان فى الوقت المناسب واعتلى عرش أبيه واعترف له الشاه (محمد خدابنده) الصفوى بالحكومة والامارة .

ويقول « تاريخ عالم آراى عباسى ج - ٢ » ان (شاه ويردى خان) كان

قد ذهب إلى همذان حين هاجم الجيش العثمانى (نهاوند) واستولى عليها ، ولما ترامت الأنباء إلى همذان بأن (سنان باشا) قائد الجيش العثمانى متجه صوب (همذان)، كاشف حاكمها بأن الجيش الايرانى قليل العدد لا يعول عليه ولا يمكن الصمود به أمام جحافل العدو ونصح له بعدم التصدى لهذه الجحافل المتدفقة . ولكن حاكم (همذان) قد أصم أذنيه عن الاستماع إلى هذه النصيحة السديدة وخاض غمار الحرب فوقع أسيرا فى قبضة العدو. وعاد (شاه ويردى) إلى لرستان . وفى خلال تلك الفترة حدثت هجرة عشيرة (قره أولوس) الضاربة فى جهات نهاوند إلى بلاد لرستان فاضطر (شاه ويردى) إلى الترحيب بهم . وقد سلك مع العثمانيين مسلك المداراة وتصنع معهم السياسة رعاية لمصالحه ومحافظة على استقلال البلاد .

وفى العام الألف للهجرة (١٠٠٠ هـ) تحسنت علاقاته بالحكومة الايرانية حيث لم يجد من جانب الترك المعونة التى كانت ينتظرها منهم ، فزوج أخته شاه إيران ، وتزوج هو من إحدى أميرات الأسرة الصفوية الايرانية. ولكن هذا التفاهم وذلك الانسجام لم يدوما طويلا ، إذ نشب القتال بينه وبين (اوغورلى سلطان) البياتى حاكم أصفهان حينما قدم إلى (بروجرد) لتحصيل الأموال الأميرية فقتل فى إحدى المعارك الخاطفة . وكان الشاه عباس - وقتذاك - فى خراسان ، وما أن ترامت أنباء هذا القتال المثيرة إلى مسامعه حتى عاد سراعا إلى لرستان لتأديب (شاه ويردى) الذى لم يصمد أمام الشاه ولجأ إلى الدولة العثمانية ، فقسم الشاه عباس بلاد لرستان إلى قسمين أحدهما يشمل منطقة (خرم آباد) وقد أعطاه لمهدى قلى خان شاملو وثانيهما ويشتمل على ما تبقى من البلاد أسنده إلى (سلطان حسين بن شاه رستم) . ونقل عشيرة (قره ألوس) إلى منطقة (عليشكر)

عام ١٠٠٢ للهجرة : ثم عطف على عشيرة (البيات) فأدبها تأديبا صارما .[١]

وبعد عام أصدرت الحكومة الايرانية عفوها عن (شاه ويردى) على أثر توسط كل من (اعتماد الدولة) و (فرهادخان) لصالحه ، فعاد إلى لرستان بعد أن تعطف عليه الشاه بالانعامات والخلع السنية ، وأعاد إليه إمارة منطقة (خرم آباد) .

وفى عام (١٠٠٦) للهجرة عاد الشاه عباس فجرد عليه حملة من أجل (خرم آباد) فعمد (شاه ويردى) إلى الفرار واعتصم بقلعة « جنكوله » ، ولكن قوة من حملة الشاه العسكرية يقودها (الله ويردى خان)قد تعقبته حتى القلعة، وبعد صدام عنيف وقتال قصير الأمد ألقت القبض على (شاه ويردى) وجىء به إلى الشاه عباس فى (صدمره) فأمر بقتله. وبعد مقتل (شاه ويردى) ولوان (حسين خان بن منصور بك) صار حاكما على قسم من لرستان ، إلا أن (طهماسب قلى) أعنى نادر شاه أقطع بلدان (الصيمرة وهيزماس وبشتكوه) لعشيرة (أينانلو) وهكذا أسدل الستار على حكومة (لرستان الصغير) وكان ذلك فى عام (٩٩٣ هـ – ١٥٨٥ م[٢]) ومع ذلك تمكن أحفاد (شاه ويردى) من المحافظة على إمارة صغيرة فى (بشتكوة) ظلت فى أيديهم وتعاقب عليها ابتداء من عهد (حسين خان) حكام منهم، عرفوا باسم الولاة: وهم حسين خان ، إسماعيل خان أسد خان ، حسن خان ، كلب على خان ، على خان ، حيدر على خان (هذان الواليان الأخيران كانا ابنى حسن خان المتوفى سنة ١٢٥٦ هـ = ١٨٤٠م) وحسين قلى خان وغلام رضا خان . (وفى عهد هذا الوالى الأخير وهو آخر وال مستقل للورستان ، عمد (رضا شاه بهلوى) إلى ولاية لورستان فألغى

---

(١) تاريخ عالم آراى عباسى جزء ثان . — المؤلف

(٢) كذا ، ولعله (١٠٠٤ــ ١٥٩٥ هـ) — المترجم

إمارتها المستقلة وربطها مع سائر الولايات الايرانية بالحكومة المركزية .

ملحوظة :

إذا أمعنا النظر فى أحوال هذه الحكومة العريقة فى القدم لوجدنا أن فترة الاستقلال والحرية الكاملة لهذه الحكومة لم تعمر طويلا ، وكل ما فى الأمر أنها تمتعت بالاستقلال التام فى عهد(شجاع الدين خورشيد الثانى) لمدة ثلاثين عاما . إذ أفضى النزاع الداخلى بين أعضاء الأسرة المالكة حول الحكم إلى ضعف البلاد ، وانحلالها . وكان ولايزال هذا الداء الاجتماعى الفتاك مستشريا فى كيان أغلب حكومات تلك العهود . ثم توالت إغارات المغول والتيموريين على البلاد تلك الاغارات التى أكرهت الحكومة اللورية على التبعية والخضوع للمغول تارة والتيموريين وأحفادهم تارة أخرى، شأنهم فى ذلك شأن سائر الحكومات وقتذاك . ومع ذلك فانها توسعت كثيرا فى الداخل وفى الخارج ، وأصبحت لا تقل شأنا عن حكومات المناذرة والغساسنة والحمدانيين وأتابكية (ديار بكر) و (ماردين) إذ امتدت رقعة أملاكها من نهر (قارون) إلى (شهرزور) ،ومن حدود العراق حتى (همذان)و(أصفهان) ولاشك فى أنها كانت وحدة سياسية لها شأنها بالنسبة للزمن الذى كانت فيه قائمة

الفصل العاشر

١٠ ـ « الحكومات الايوبية » (٥٦٧ ـ ٦٨٥ ـ ٩٥٠ هـ)

---

(١) ـ من هو مؤسس هذه الحكومات ، وما اسم كل من والده وجده ، ومن أين قدموا ؟

هذه الدولة أو الحكومات هي بحق أعظم الدول التي أسسها الكرد، ولهذا يجدر بنا أن نبحث باسهاب وإمعان في موضوع تأسيسها وفي أصل مؤسسها العظيم وتحقيق نسبه . فتذهب (دائرة المعارف الاسلامية) إلى القول بأن جد (صلاح الدين يوسف) مؤسس هذه الدولة، إن هو إلا (شادي = شاذي) بن مروان الذي كان من عشيرة الروادي (راوندي) الكردية القاطنة في منطقة (دوين) وهذه العشيرة بطن من بطون قبيلة (أز بني ـ هاز بني (١)) الكبيرة، ولاريب في أن نسبة (شادي) لمدينة (دوين) مسألة في غاية الأهمية . لأننا نعلم أن الحكومة الشدادية الكردية قامت في مدينة دوين (٢) ولهذا ليس من السهل

---

(١) هي القبيلة الشهيرة باسم الهذبانية في أغلب المصادر العربية والاسلامية ولكن (ابن خلكان)يضبطها هكذا (الهذانية) . وهذا أقرب إلى الأصل الكردي الذي هو (هذان ـ هزان ـ خيزان) إذلايزال هو اسم طائفة من الكرد جنوب بحيرة (وان) .وبلدة بشرق جنوب بدليس . المترجم

(٢) في الواقع أن مسألة (دوين) هذه مهمة جدا ، إذ كانت في منطقة (أربيل) أيضا مدينة تحمل هذا الاسم وكانت عاصمة لحكومة (سوران) الكردية ردحا من الزمن . . وكان قسم كبير من القبيلة الهذبانية الشهيرة تسكن تلك الجهة في عهد الاتابكية ، ويظهر أن هنالك صلة وثيقة بين =

الاعتقاد بأن الناس فى عهد (شادى) كانوا يجهلون أو ينسون ذكرى هذه الحكومة وما كان لها من خطورة الشأن . [من حيث إنها من اولى الحكومات الوطنية التى قامت فى أقصى الحدود الشمالية لكرد ستان . المترجم]

وذكر بعض المؤرخين كابن خلدون سلسلة نسب مفصلة لشادى حيث أوصلها إلى (عوف الحمير الدوسى؟) ولكن ليس لهذا أدنى نصيب من الصحة بل هو بعيد كل البعد عن الصواب ، إذ الحقيقة أن التاريخ يجهل اسم جد (شادى) (١) .

وقد ولد (أيوب) و (شيركوه) ابنا (شادى) فى قرية (أجدانكان أو أجد نقان) ويقول « القاضى ابن شداد » وهو من صحب السلطان صلاح الدين ومؤلف كتاب (النوادر السلطانية) ان (نجم الدين أيوب) كان من (دوين) وكان واليا على (تكريت) ويؤيد نفس هذه الرواية أيضا ما قاله (تاج الدين شهنشاه الأيوبى) فى كتابه التاريخ من أن (شادى) كان من أهالى (دوين) .

وجاء فى رواية أخرى أن (نجم الدين أيوب) ولد فى بلدة (شيختان) وعلى ما يظهر (شيخان) (٢) ونشأ وترعرع فى الموصل ، وخدم السلطان

= (دوين) هذه وبين القسم المذكور من الهذبانية وأسرة « شادى » أيضا ، ولذا فهى فى حاجة قصوى إلى تمحيص وتنقيب ، ويظهر أن لفظ « دوين » كردى ومعناه « الحديث أو السؤال » المؤلف

(١) والده معروف وعلى رواية ابن خلكان يدعى « مروان » ٢ ج - ص ٨٤ .

(٢) فى ابن خلكان « سجستان » ثم يضعف هذه الرواية ويقول ، وقيل انه ولد بجبل جور وربى بالموصل ... المترجم

(محمدملكشاه) الذى عينه محافظا لقلعة (تكريت) . اهـ من كتاب « الحروب الصليبية ص ١١٢ » .

وقصارى القول ان « شادى » - كما جاء فى (دائرة المعارف الاسلامية) كان صديقا لبهروز الخادم الرومى الذى كان أستاذا لأبناء الملوك السلجوقيين . وذات يوم غادر (بهروز) هذا بلدة دوين إلى بغداد سرا ، وهنالك تقدم بفضل مهارته ولباقته إلى السلطان « مسعود بن ملكشاه » السلجوقى فعينه محافظا لبغداد(١) ولم يلبث بعد توليه هذا المنصب أن بعث فى طلب صديقه (شادى) فلبى دعوته واستجاب لطلبته :

(٢) - كيف تقدموا ؟

غادر شادى جد صلاح الدين وطنه إجابة لرغبة صديقه « مجاهد الدين بهروز » واصطحب معه أسرته إلى بغداد ، وبعد حين تفضل السلطان مسعود ، على بهروز فأقطعه ولاية (تكريت) بصفة التمليك ، وقد أناب مجاهد الدين بهروز صديقه شادى عنه فى إدارة أمور هذه المقاطعة وتصريف شئونها وبعد فترة من الزمن مات (شاذى) ودفن فى هذه البلدة وعين ابنه الكبير نجم الدين أيوب خلفا له

وفى عام ٥٢٦ هـ اشتبك أتابك الموصل (عماد الدين زنكى) فى حرب ضروس فى جنوبى تكريت مع جيش للسلجوقيين ببغداد أسفرت عن هزيمته ، هزيمة منكرة واضطراره الى التقهقر والفرار من الميدان الى قلعة (تكريت) لاجئا الى رحاب (نجم الدين أيوب) الذى أكرم وفادته وهيأ له الكثير من المعابر من أرمات وأطواف سهلت له عبور دجلة ، الأمر الذى أدى الى استياء حكومة بغداد وشدة غضبها على نجم الدين أيوب ولم يقف الأمر عند هذه الحادثة فحسب

---

(١) ويقول صاحب مرآة الزمان (٣ - ج ص ٥٨) ان (نهروز = بهروز) الخادم تعين شحنة لبغداد من قبل (محمدشاه السلجوقى) سنة ٥٠٧ هـ . المؤلف .

بل جدت حوادث أخرى ضاعفت نقمة حكومة بغداد ، منها أن (أسد الدين شيركوه) أخا (نجم الدين أيوب) قد أردى ضابطا من حامية تكريت قتيلا فتزعزع من جراء ذلك مركز الأسرة بأسرها ، وتملك (بهروز) الخوف على مركزه ،خشية أن تطيح به هذهالعاصفة فسارع إلى إقالة (نجم الدين أيوب) من النيابة عنه ، وأنذره بوجوب مغادرة (تكريت) على الفور ، فاضطر (نجم الدين) وأخوه وكافة أفراد أسرتهما إلى مبارحة (تكريت) ليلا فى دياجير الظلام ، متجهين شطر الموصل إلى رحاب(عماد الدين زنكى)معللين أنفسهم بأمل حسن وفادته لهم جزاء ما سبق أن أسدوه له من معروف .

ويقال ان « صلاح الدين » ولد بقلعة تكريت فى عام (٥٣٢ هـ ١١٣٧ م) (وهو رأى استانلى لين بول أيضا) بينما يذهب بعضهم إلى أن (صلاح الدين) إنما ولد فى نفس الليلة التى أمر (مجاهد الدين بهروز) فيها (نجم الدين) وأسرته بضرورة مغادرة (تكريت) ، الأمر الذى أوقع (أيوب) فى حيص بيص، وجر عليه الهم والقلق بسبب متاعب الهجرة المفاجئة ، والآلام التى نجمت عن الوضع فى هذا الوقت الغير ملائم .

وما أن وصل (نجم الدين أيوب) وأسرته إلى الموصل ، حتى أكرم (عماد الدين زنكى) وفادتهم ، وتقبلهم قبولا حسنا واضعا نصب عينيه ذلك المعروف الذى سبق أن أسداه له (نجم الدين أيوب) فيما مضى ، فأجرى له راتبا مناسبا ، ولقى الأخوان كل تجلة وإكرام فى قصر (عماد الدين) ، وكانا له الساعد الأيمن فى بعض حروبه وفتوحاته . ، ولما نجح (عماد الدين) فى الاستيلاء على قلعة (بعلبك) خلال هجومه العام على سورية عام (٥٣٤ هـ) عين(نجم الدين أيوب) محافظا لها .هذا ولما لحق (عماد الدين زنكى) بالرفيق الأعلى وصعدت روحه إلى بارئها ، تقاسم أولاده بلدانه فيما بينهم ، وعلم (نجم الدين أيوب) أن جنود الشام مقبلون للاستيلاء على (بعلبك) فاستسلم

للأمر الواقع ، ولم يبد أية مقاومة ، بل رافقهم فى العودة إلى الشام . وكان هذا التصرف من جانبه فى منتهى الحكمة والكياسة . وهناك فى بلاد الشام بسم له الحظ ،وأخذت ثقة ولاة الأمور فيه تزداد وتقوى على مر الأيام حتى عين أخيرا رئيسا على كافة جند الشام . وأما (شيركوه) أخوه فقد بقى لدى (نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى) وتبسم له الدهر هو الاخر فظل يتدرج فى سلك الترقى حتى أضحى رئيسا لكافة جنوده وقد ظهرت مواهب « نجم الدين أيوب » الحربية وبراعته النادرة أثناء محاصرة الصليبيين دمشق الشام فى حملتهم الثانية ، فقد أبدى نجم الدين وقتذاك من الشجاعة الفائقة، والاستماتة فى المقاومة ما حير الصليبيين وألحق بهم هزيمة منكرة ، وخسرانا مبينا ، فأطاح بسيولهم الجارفة عن الشام إلى مسافات شاسعة.

وعلى الرغم من أن أمير الشام كان قد قدم فروض الطاعة لنور الدين محمود ، إلا أن هذا لم يحل دون تفكير نورالدين فى إعادة الوضع إلى ما كان عليه فى عهد والده « عماد الدين زنكى » وضرورة الاستيلاء على دمشق ، ، وما لبث أن جرد حملة فى عام (٥٤٧ هـ) على دمشق بقيادة شيركوه ، الأمر الذى أوقع نجم الدين أيوب فى مشكلة عويصة ، إذ وجد نفسه بين عاملين اثنين لا ثالث لهما ولكن أيسرهما مر ، فاما الاتفاق مع أخيه وهذا مالا يريده وإما الوقوف فى وجهه . وهذا لا بد مؤد إلى محاربة بجل ولى نعمته وهو مايحرص على تلافى الوقوع فيه . ، ، وأخيرا بعد أن أعمل الفكر وفق إلى حل وسط انتشله مما وقع فيه من حيرة ، وهذا الحل الوسط ، ما هو إلا اتباعه الطرق السلمية لحل المشكلة ، ، فدخل فورا مع أخيه (شيركوه) فى مفاوضات رسمية أفضت إلى دخول جيش (شيركوه) دمشق بعد ستة أيام من اجراء المفاوضات.

وبعد فترة من الزمن عين السلطان نور الدين محمود ، نجم الدين أيوب حاكما على دمشق ، وقربه إليه واتخذه له خدنا وصفيا . وأخذت الأمور تجرى على أعنتها وتسير على هذا المنوال ، حتى وقع اختيار السلطان(نورالدين) على

صلاح الدين بن أيوب لفتح مصر .

(٣) — « نشأة الامير صلاح الدين »

أمضى (صلاح الدين) بضعة من سنى طفولته فى (بعلبك) . ولكن التاريخ للأسف يجهل تماما تفاصيل حياته الأولى هذه . ويقول (ستانلى) انه لابد وأن يكون مثل (صلاح الدين) كمثل سائر أبناء الأمراء المسلمين الاخرين فتلقى العلم فى المدارس الدينية ، وحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة. ولا شك فى أنه أتم دراسة علمى الصرف والنحو على أيدى أساتذة خصوصيين فى (بعلبك) ، وتزود بقسط وافر من سائر العلوم كمبادىء الشعر والانشاء وعلوم الحديث والقرآن وغيرها ، لأن والده وقد كان من عظماء الدولة، كان فى مكنته إحضار أساتذة اختصاصيين وعلماء لتثقيف ابنه ثقافة عالية

ويقول صاحب كتاب (طبقات الشافعية) فى هذا الصدد ان صلاح الدين تلقى علم الحديث على الحافظ أبى طاهر السلفى ، وأبى طاهر بن عوف، والشيخ قطب الدين النيسابورى ، وعبد الله بن برى النحوى ، وآخرين من مشاهير علماء عصره . وكان يحفظ القرآن ، وكتاب (التنبيه) فى الفقه ،وبعض رسائل أخرى عن ظهر قلب . ويقف مؤرخو العرب مكتوفى الأيدى فلا يذكرون شيئا عن عهد (صلاح الدين) قبل سفره إلى مصر ، وان كان البعض من المؤرخين الغربيين قد ذكر أن (صلاح الدين) كان يواظب على مجلس (نور الدين) وكان يلقى من لدنه كل تجلة وإكرام بصفته ابن الحاكم . دمشق . وكان شابا عاقلا ، نجيبا ، متدينا ، تقيا ، ويلوح أنه كان كسائر أنجال الأمراء فى عصره يميل إلى الصيد والقنص . ولا شك فى أنه كان يجيد لعب الكرة والصولجان ، ويشارك السلطان (نور الدين) أحيانا فى هذا الضرب الشهير من اللعب . ويؤخذ من كتاب بعث به إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله ،

أنه شارك أباه وعمه ـ قبل سفره إلى مصر ـ فى جميع غزواتهما وفتوحاتهما. وكما صرح صاحب كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبى) بأنه كان فارسا بارعا صنديدا حسبما تقضى عليه قوميته الكردية .

ويقول القاضى (ابن شداد) فى كتابه (النوادر السلطانية) ان صلاح الدين من يوم أن قدم من (بعلبك) إلى دمشق الشام مع والده، كان يلازمه ويصطحبه فى الحل والترحال ، فيتزود من فضله ، ويتتبع آثاره ويترسم خطاه ، حتى طبقت شهرته الافاق ، وذاع صيته ، فأقبل عليه السلطان (نور الدين) كل الإقبال ، وقربه إليه ، وكان يرفع من قدره ، يوما أثر يوم .

ويقول صاحب مرآة الزمان فى (ج ـ ٣ ص ١٥٦) ان السلطان نور الدين عينه فى سنة (٥٦٠) شحنة للشام .

(٤) ــ «سفره الأول إلى مصر»

لما استنجد (شاور) وزير الخليفة الفاطمى بمصر بالسلطان (نور الدين) سارع السلطان إلى إرسال حملة عسكرية إلى مصر عام (٥٦٢ هـ)(١) بقيادة (شيركوه) ، وكان الأمير (صلاح الدين) ــ كرغبة عمه ــ من بين قواد وضباط هذه الحملة ، وكان يقود فرقة الطليعة فى هذه الحمله . ويقول (ابن شداد) أن أسد الدين شيركوه كان لا يبرم أمرا و لا يقدم علـى أى عمل من غير استشارة الأمير صلاح الدين ، لأنه كان يعتمد الاعتماد كله على رجاحة عقله وحسن تدبيره .

وما أن وصل (شيركوه) إلى مصر حتى ألحق بجيش ضرغام ــ خصم شاور ــ هزيمة منكرة فى مدينة (بلبيس) وظل يتعقبه حتى ضيق عليه الحصار

---

(١) عام ٥٦٠ للهجرة فى دائرة المعارف الاسلامية . [المؤلف] . وفى (ابن خلكان) روايتان احداهما سنة ٥٥٩ وهي الاصح والثانية سنة ٥٥٨ هـ المترجم

فى القاهرة نفسها ، وسرعان ما سقطت (الفسطاط) فى قبضة (شاور) ووقع ضرغام صريعا فى المعركة ، وبموته خلا الجو لشاور الذى سولت له نفسه الغدر بمن استعان بهم للقضاء على خصمه وحال بالفعل بين (شيركوه) وبين دخول القاهرة ، مما أدى إلى قيام (شيركوه) بارسال حملة عسكرية بقيادة الأمير (صلاح الدين) إلى مدينة « بلبيس » حيث استولت على الشرقية وما أن طرق هذا النبأ مسامع (شاور) حتى طلب النجدة من (أماريك) ملك الصليبيين بالقدس للخلاص من (شيركوه) فأسعفه الملك الصليبي بحملة عسكرية قوية ، وما أن وصلت هذه الحملة إلى مصر حتى وقع كل من شيركوه وصلاح الدين بين نارى المصريين والصليبيين وظلا كذلك ثلاثة أشهر كاملة وقد استماتا فى الدفاع عن بلبيس رغم اشتداد أوار الحرب ولهيبها ، إلى أن جد ما أسرع بالحرب إلى نهايتها ، ذلك أن السلطان « نور الدين » كان قد جرد وقتذاك حملة كبيرة وقادها بنفسه على مملكة القدس لتخفيف الضغط على مصر وحاصر قلعة (بانياس) وما أن ترامى هذا النبأ إلى مسامع ملك القدس حتى ساورته المخاوف وسارع إلى الدخول فى مفاوضات مع شيركوه لعقد الصلح ، وتم الاتفاق بينهما على أن يجلو كل من جيشى الشام والقدس عن البلاد المصرية . . . وتنفيذا لتلك الاتفاقية عاد « شيركوه » بجيشه إلى الشام .

وبعد أن خلا المسرح من (شيركوه) ، اتصل (شاور) المخادع الماكر بملك القدس وسمح له باقامة حامية صغيرة من جنده فى القاهرة ليستعين بها على قضاء مآربه ويبدو جليا ما فى هذا التصرف من نقض لشروط المعاهدة التى جلا جيش الشام عن مصر بمقتضاها ، ولهذا استقر الرأى بين السلطان (نور الدين) و (شيركوه) على الزحف إلى مصر مرة أخرى والاستيلاء عليها نهائيا ، ووافق الخليفة العباسى فى بغداد على هذا القرار الحكيم والرأى الصائب .

(٥) ـ « صلاح الدين يسافر إلى مصر للمرة الثانية »

بعد أعوام ثلاثة من السفر الأول توجه (شيركوه) (١) ومعه الأمير (صلاح الدين) على رأس جيش من ألفين من أبرع الجنود الكرد المنتخبين إلى مصر ، وسرعان ما وصل هذا الجيش إلى أطفيح على بعد أربعين ميلا من القاهرة ، بعد أن لاقى ضروبا من المشاق وألوانا من الصعوبات والمتاعب، ومن هناك تمكن من الوصول إلى الجيزة حيث كان جيش ملك القدس معسكرا قبالته على الضفة اليسرى للنيل .

وفى هذه الأثناء عقد الملك (آرمون) ملك القدس معاهدة مع الخليفة الفاطمى دخلت مصر بموجبها تحت حمايته ، وعلى أثر ذلك اجتاز ملك القدس النيل بجيشه الجرار سرا إلى الضفة الأخرى ، وما أن رأى شيركوه ذلك حتى انسحب بجيشه صوب الصعيد فتعقبه ملك القدس حتى (البابين)(٢) حيث وقف شيركوه عن التقهقر وتهيأ للطعان فالتقى الجمعان والتحم الفريقان ، وحمى وطيس القتال بينهما ، وكان لمهارة الأمير (صلاح الدين) الفائقة فى إدارة دفة الأعمال والخطط الحربية ولبسالته النادرة، أكبر الفضل فى إلحاق هزيمة ساحقة بجيش القدس ، مما أفضى إلى استيلاء جيش الشام فيما بعد على قلعة (الاسكندرية) الحصينة ، التى عهد شيركوه إلى صلاح الدين الدفاع عنها فكان هذا أول اعتراف بامارة صلاح الدين وأعقب هذا أن قسم شيركوه جيشه شطرين ، ترك الشطر الأول مع صلاح الدين وعاد بالشطر الثانى صوب صعيد مصر أما ملك القدس فقد رجع إلى القاهرة يجر أذيال الفشل والهزيمة واتفق

---

(١) أعنى فى سنة (٥٦٢ هـ)على أصح الروايات .

(٢) فى ابن خلكان، وكانت باطفيح وقعة الباقين عند الاشمونيين . وفى ابن الأثير، وكان يعرف بالبابين . فليحرر . المترجم

مع الحكومة المصرية على محاصرة الاسكندرية برا وبحرا وأرسل هو أسطولا من أساطيله إلى مياه الاسكندرية لشد أزر المحاصرين لها من البر ، إلا أن الأمير (صلاح الدين) قد دافع عن القلعة دفاع الأبطال ، وتصدى لجيشى مصر والقدس ، فأبدى ضروبا من الشجاعة الفائقة والمقاومة الرائعة خلال فترة الحصار التى دامت سبعين يوما حيث كان يصد الهجمات البرية والبحرية كالهزبر آناء الليل وأطراف النهار . وكان(شيركوه) حينذاك قد توجه صوب العاصمة (القاهرة) وضرب نطاق الحصار عليها فى (بركة الحبشة) مما أدى الى انتشار الذعر والخوف بين صفوف أعدائه فطلبوا الصلح على شريطة خروج كل من جيشى القدس والشام من مصر ، وعدم التدخل فى شئونها مستقبلا وفى أثناء مفاوضات الصلح على هذا الوضع الذى ارتضاه الطرفان ، أمضى صلاح الدين بضعة أيام لدى ملك القدس فى معسكره بجوار الاسكندرية فانتهز هذه الفرصة بطبيعة الحال ودرس عن كثب الأنظمة العسكرية عند هؤلاء الأجانب .

وتنفيذا لشروط الصلح جلا كل من الجيشين عن مصر وانتهى عهد احتلالهما لها ، ولم يمض طويل وقت على عقد هذا الصلح حتى طمع الملك (أماريك) فى الاستيلاء على مصر ، فزحف عليها بجيش عرمرم ، وتمكن من الاستيلاء على (بلبيس) وواصل التقدم إلى الأمام مسرفا فى سفك دماء كثير من المصريين من بينهم جم غفير من النساء والأطفال

وفى هذه المرة لم يجد الخليفة الفاطمى بمصر مندوحة من الاستغاثة والاستنجاد بالسلطان نور الدين فبعث اليه بكتاب خاص وضع طيه خصلة من شعور نساء المسلمين للدلالة على أن الحالة قد وصلت بالمسلمين فوق ما يطيقون ، وأنهم جميعا فى أمس الحاجة إلى حمايته وعطفه ونجدته ، أما (شاور) وزير الخليفة الذى كان نسيج وحده فى الدهاء والمكر والذى كان لا يشق له

غبار فى الخيانة والخداع ، فقد عمد كعادته إلى مصانعة ملك القدس ، ومحاولة خداعه باطماعه فى مال مصر وثروتها ، ثم دخل معه فى مفاوضات لعقد الصلح وكان يهدف من وراء ذلك إلى كسب الوقت حتى تصل النجدة من لدن السلطان (نور الدين) ، وكان له ما أراد ، فقد توقف ملك القدس فعلا على بعد خمسة أميال من القاهرة ، حيث دارت بينهما المخابرات .

(٦) - « سفره الثالث إلى مصر » :

على أثر استغاثة الخليفة الفاطمى بالسلطان (نور الدين) واستجابة لرجائه الحار ، أمر السلطان (نور الدين) بحشد جيش عرمرم لنجدة خليفة مصر ظاهرا ، والاستيلاء على مصر نهائيا ، وانتزاعها من أيدى الذين لا يحسنون حكمها فى الواقع ، وتحرك هذا الجيش - المؤلف من ثمانية آلاف من نخبة الجنود والضباط ومشاهير القواد - صوب مصر بقيادة (شيركوه) . وكان الأمير صلاح الدين غير راغب فى السفر هذه المرة لو خلى بينه وبين نفسه ، ولكنه عاد فاستجاب لرغبة السلطان فى ضرورة سفره ، وطلب عمه فى اللحاق به مهما كانت الظروف ، فاضطر إلى السفر إلى مصر مكرها . وما أن سمع (أملريك) ملك القدس بقدوم (شيركوه) ، حتى شمر عن ساعد الجد ، وأراد أن يحول - بادىء ذى بدء - دون اتصال الجيش الشامى والمصرى بعضهما ببعض ، ولكنه أخفق فى ذلك إخفاقا ذريعا واضطر فى سلخ ربيع الثانى من عام ٥٦٤ (كانون ثانى - يناير ١١٦٩ م) إلى الرجوع أدراجه إلى القدس مدحورا مذموما . وحينذاك وصل شيركوه إلى أبواب القاهرة ، فبادر الخليفة وأعيان مصر وسكانها إلى استقباله استقبالا منقطع النظير ، وأعربوا له عن مزيد شكرهم الخالص على ما أسدى لهم من جليل الأعمال ، وما أبداه من الشهامة والنخوة لانقاذهم من نير العدو الذى لا يرحم .

وبعد أن استراح (شير كوه) من وعثاء السفر ، ضرب مخيمه فى خارج القاهرة لاقامته هو وجنده ، وقد شرفه الخليفة بزيارته فى مقره ، وشكره شكرا خاصا على أعماله المجيدة وجهوده الفذة الموفقة . ثم أعقبه الوزير شاور فى الزيارة متظاهرا بابداء الكثير من آيات الود وعلائم السرور، فى حين كان يضمر خلاف ما يظهر ، وكان لا يدع يوما يمر دون أن يحضر راكبا إلى المعسكر لزيارة (شيركوه) فى خيمته ، ويتظاهر له بالود الصافى والصداقة الخالصة والله وحده يعلم أنه كاذب ومخادع . إذ كان يرمى من وراء ذلك الى تهيئة فرصة ذهبية لتدبير مكيدة جهنمية للقضاء على (شيركوه) وقواد جيشه لتنفيذ مآربه ، غير أن ابنه (الكامل) قد فطن إلى أن أباه قد فكر فى اقامة وليمة فاخرة يدعو اليها ضحاياه لهذا الغرض فخاف مغبة هذا العمل الإجرامى فما كان منه إلا أن هدد والده بافشاء هذا السر والافضاء باسرار هذه المكيدة الى شيركوه اذا سولت له نفسه الأمارة بالسوء الاصرار على تنفيذ هذه الفعلة الشنعاء ، ورغم ذلك عزم شاور فيما بينه وبين نفسه على ضرورة تنفيذ فكرته وأسرها فى نفسه حتى تحين أقرب فرصة مواتية لتنفيذ هذا الهدف السىء الذى لم يكن خافيا على أغلب المحيطين بشيركوه من القواد والضباط .

ولكن القدر قد أراد له ما دبره هو لغيره إذ توجه فى يوم جمعة كعادته إلى معسكر (شيركوه) وتصادف تغيب شيركوه عن المعسكر يومذاك فتقدم اليه الأمير (صلاح الدين) وبعض القواد وركبوا معه كالعادة للتنزه والقنص وما أن بعد بهم المسير حتى أبعدوا عنه الخيالة وكان ممتطيا صهوة جواده فانقضوا عليه وطرحوه أرضا وأوثقوه بالحبال ثم أرسلوه للخليفة الذى أعاده اليهم ليقطعوا رأسه ، ويرسلوها اليه فنفذوا أمره على الفور وهكذا أسدل الستار على هذا الوزير الخائن الذى كادت سياسته الخرقاء وأطماعه الدنيئة الهوجاء ، أن يؤدى إلى وقوع مصر بأكملها فى قبضة الافرنج

وعلى أثر هذا الحادث أخذت الأبواب تنفتح والمجال يتسع أمام (شيركوه) فقد بعث الخليفة العاضد فى طلبه . وأسند إليه منصب الوزارة ، ومنحه لقب (الملك المنصور أمير الجيوش) .

وهكذا أخذ (أسد الدين شيركوه) يدبر أمور الحكومة المصرية ، ويصرف شئونها ، بصفته وزيرا للخليفة ، غير أن المنية قد عاجلته ، فلم يعمر طويلا ، ووافاه الأجل المحتوم يوم السبت الموافق (٢٢ من جماد الثانى من عام ٥٦٤ هـ) وكان الأمير (صلاح الدين) يقوم بادارة دفة أغلب شئون الدولة وتصريف أمورها فى حياة عمه .

(٧) - « وزارة الأمير صلاح الدين »

بعد أيام ثلاثة من وفاة (أسد الدين شيركوه) وقيام ابن أخيه الأمير صلاح الدين بتقبل العزاء فى عمه ، أصدر الخليفة مرسوما بإسناد منصب الوزارة إلى الأمير صلاح الدين ، غير أن هذا الاجراء قد أوغر صدور بعض قواد جيش (شيركوه) فعادوا إلى الشام وقد تملكهم الغضب والحقد على (صلاح الدين) الذى واتاه الحظ وأخطأهم ، وفى الحق أن هذا المنصب الخطير لم يكن يصلح للقيام بأعبائه سوى الأمير (صلاح الدين) ولهذا أنعم عليه الخليفة بلقب (الملك الناصر أبى المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب)

نعم ! قد وصل الملك الناصر إلى هذا المنصب الخطير فى الثانية بعد العشرين من عمره ، كنتيجة حتمية لتقدمه المحسوس فى ميدان السياسة والجندية ، وما أن اعتلى صلاح الدين أريكة هذا المنصب حتى ألقى نظرة ذات اليمين وذات الشمال وأمعن النظر فيمن حوله من القواد والضباط . فلم يجد من بينهم من يطمئن إلى إخلاصه له ، أو نشاطه فى العمل ، فأعمل الفكر وأخيرا رأى أن أنجع وسيلة هى أن يجمع حوله والده ، وإخوته ، وأقرباءه الآخرين ، فكتب إليهم

طالبا اللحاق به ، فسرعان ما حضروا والتفوا حوله . وأكرم (صلاح الدين) وفادة والده ، لدرجة أنه تنازل له عن منصب الوزارة ولكن والده رفض قبوله قائلا له : « لو لم تكن أنت جديرا بهذا المنصب لما منحك إياه سبحانه وتعالى » وقد آلى الناصر صلاح الدين على نفسه أن يكسب قلوب المصريين كافة ويحوز ثقتهم ويجتذبهم إليه ، فأغدق عليهم النعم والأعطيات ، وبالغ فى إرضائهم ، وأحسن معاملتهم فى شتى الأمور ، وعلى الرغم من أنه كان سنيا ، وكافة المصريين تقريبا من الشيعة ، لم يفكر مطلقا فى التدخل فى الشئون المذهبية ، أو الحيدة عن جادة العدل والمساواة ، ولهذا اكتفى بذكر اسم السلطان (نور الدين) فى الخطبة بعد اسم الخليفة السنى.

هذا وقد استولى الصليبيون على (دمياط) فى عهد وزارته هذه ، فانبرى لهم بجيش ضخم ، وبعد نضال عنيف وقتال مرير ، تغلب عليهم وانتزع المدينة من بين براثنهم ، وهكذا خلص البلاد منهم وطردهم نهائيا عن الأراضى المصرية ولم يكتف بذلك ، بل سار إلى العقبة وهى واقعة فى طريق الحاج فاستولى عليها وطهرها من الصليبيين وقد أحدث هذان الانتصاران الباهران فى نفوس المصريين خاصة والمسلمين عامة أثرا طيبا وإعجابا به منقطع النظير . فعلا شأنه وارتفع قدره فى نفوسهم فازدادوا به تعلقا لا فرق فى ذلك بين العامة من الجنود وبين الأمراء والقواد .

وحدث أن (مؤتمن الخلافة) المدعو (جوهر) قد حدثته نفسه مناضلة الملك الناصر (صلاح الدين) ومخاصمته خصومة غير شريفة . فأخذ يدس له ويدبر له المكائد ، لدرجة أنه اتصل بالأفرنج يستقدمهم لاحتلال مصر ثانية ليوقع صلاح الدين بين نارى العدوين الخارجى والداخلى ، وكان مؤتمن الخلافة هذا معتزا بجيش سودانى يقرب عدده من خمسين ألفا ، فكان يعتمد عليه الاعتماد كله ، غير أن الملك الناصر سرعان ما سنحت له فرصة ذهبية للقضاء

عليه قضاء مبرما ، فثارت لذلك ثائرة السودانيين فى جيش الخليفة .

وقد عمد الملك الناصر إلى تعيين أخيه (شمس الدولة تورانشاه) لأخماد هذه الثورة الجامحة ، فعرف هذا الأخ الشجاع ، والبطل المغوار ، كيف ينتقم من الثوار أشد انتقام ويستأصل شأفتهم فى أقل من بضع سنين ، وقطع دابرهم من البلدان المصرية بكل الوسائل من تقتيل ، إلى تشريد ، إلى طرد ، وإبعاد إلى البلاد السودانية حيث تسلمهم هناك « العادل » أخو « الملك الناصر » وقضى عليهم قضاء مبرما وأجهز عليهم ، وكان صلاح الدين قد عين (بهاء الدين قره قوش) فى وظيفة (مؤتمن الخلافة) بعد مقتل (جوهر) ، ولم يكن الملك الناصر يتخلص من ثورة السودانيين ، وفتنتهم الجامحة ، حتى زحف الصليبيون إلى (دمياط) لأن ملك القدس كان قد عقد اتفاقا مع الامبراطورية الرومانية الشرقية على احتلال مصر .

وتنفيذا لهـذا الاتفاق ، عجل ملك القدس بالزحف إلى (دمياط) قبل وصول جيش الروم وأسطولهم ، ولـكن الملك النـاصر كان قد اتخذ أهبته وحصن هذه القلعة تحصينا منيعا ، وأعدها لدفاع طويل الأمد ، ولهذا تمكنت القلعة من الصمود ، وصدت هجمات جيش ملك القدس وأسطوله بعد حصار دام خمسـين يوما ، وعاد المهاجمان أدراجهما يجران أذيال الهزيمة والخسران المبين دون أن ينالا من القلعة . وفضلا عن ذلك فقد لعبت الطبيعة دورها ، وأبى القدر إلا أن يقتص من رجال العدو وأسطوله ويريهم جزاء ما عملوا ، فسلط عليهم فى عرض البحر ريحا صرصرا وعاصـــفة هوجاء شتتت شملهم وقضت على ما تبقى لهم من سفن الأسطول الرومى ، وانتهز الملك الناصر هذه الفرصة الذهبية ، فترك مهمة الدفاع ، وأخذ يوغل فى مطاردة العدو ثم توجه بحملة عسكرية شطر فلسطين ، وأطلق لجيشه العنان للسلب والنهب وشن الغارات وتضييق الخناق على العدو ومضايقته أينما وجد .

ولا ريب فى أن هذا التحول الخطير فى الموقفين العسكرى والسياسى فى مصر، وقيام جيش مصر بالزحف على فلسطين ، قد أحدث دويا هائلا فى مصر وبهر أبصار المصريين واستلفت أنظار أهليها الذين عانوا الظلم ، واكتووا بنار الفوضى - إلى تلك الحالة الجديدة التى وصلوا إليها بفضل إدارة الملك الناصر الحازمة ، ودهائه السياسى ، الذى أفضى إلى نتائج باهرة ، ومواقف مشرفة ، حيث أخذ جيش مصر يضيق الخناق على العدو فى عقر داره ، وأثار بين صفوفه الرعب والذعر والقلق المستمر الأمر الذى أفضى إلى ازدياد محبة المصريين للملك الناصر مما بعث فيه قوة على قوة ، وفى نفس الوقت الذى كان فيه الملك الناصر وزيرا للخليفة العاضد بالله ، كان أيضا سردارا لجيش السلطان نور الدين ، فكان طبعيا أن يكن له كل إخلاص وولاء .

هذا وكان كل من (القاضى الفاضل) والكاتب الشهير (عماد الدين الأصفهانى) يتمتع ويحظى بكامل ثقة الملك الناصر وعطفه السابغ عليهما حيث كانا يتوليان إدارة المخابرات الرسمية وإسداء المشوره الخاصة له فى الملمات والحادثات . وقد اختار أخيرا لسكرتاريته الخاصة فى عام (٥٨٤) القاضى الذائع الشهرة (ابن شداد) الذى رافقه فى جميع فتوحاته وغزواته .

وما أن فرغ (الملك الناصر) من إخماد نيران الثورات الداخلية ،والقضاء على مطامع الأفرنج فى مصر ، حتى شرع يعمل جاهدا على الانفراد بالحكم والاستقلال ، والتخلص من التبعية للغير ؛ وأخذ يمهد لذلك بنشر المذهب السنى بين المصريين بدلا من المذهب الشيعى الذى كان سائدا بينهم ، وأنشأ خصيصا لهذا الغرض مدرستين دينيتين إحداهما (الناصرية) والأخرى (الكاملية) تدرس فيهما مذاهب أهل السنة والجماعة ، فيقول ابن الأثير : ان صلاح الدين قد هدم السجن الشهير الذى كان يعرف باسم (دار المعونة) ، وأقام مكانه مدرسة للشافعية ، كما حول (دار العدل) أيضا إلى مدرسة للشافعية وعزل جميع قضاة الشيعة واستبدلهم بقضاة من الشافعية .

وكان السلطان (نور الدين) يشدد عليه ويلح فى جعل الخطبة باسم الخلفاء العباسيين وهو الاتجاه الذى كان يميل اليه الرأى العام أيضا ، ولكن الملك الناصر قد آثر التريث ، ولم يتعجل البت فى هذا الموضوع واضعا نصب عينيه أولا وقبل كل شىء ، تقوية مركزه قبل أن يخطو هذه الخطوة ويستجيب لرغبة السلطان ، وان هى إلا فترة زمنية حتى جمع مجلس شوراه كعادته ، وطرح على المجتمعين مسألة تحويل الخطبة عن الفاطميين إلى الخلفاء العباسيين فأقروها بالاجماع ، وهكذا تحولت الخطبة الى اسم الخلفاء العباسيين حسب قرار المجلس ، وكان الخليفة الفاطمى العاضد بالله وقتذاك مريضا طريح الفراش . فأمر الملك الناصر بأن يكتم عنه الخبر ويبقى فى طى الكتمان ، ولم يطل بهم هذا التكتم إذ عاجلت المنية الخليفة العاضد بعد ذلك ببضعة أيام وكان ذلك فى عام (٥٦٧ هـ) ، وقد شق نعيه على الملك الناصر ، لأن وفاته جعلته وجها لوجه مع السلطان نور الدين .

وبعد أن قام الملك الناصر بدفن الخليفة العاضد ، وتقبل العزاء فيه ، أخلى قصر الخلافة من قاطنيه من الفاطميين وأتباعهم وأسكن النساء منهم فى دار أخرى ، وفرض عليهم رقابة دقيقة لتلافى حدوث القلاقل والفتن التى قد تنجم عن اتصال الجمهور بهم . ثم وزع أموال القصر وخزائنه على الأمراء والقواد وذوى الحاجة من الجند والشعب .

وبعد أن أضحى الملك الناصر حاكم مصر المستقل ، كان باكورة أعماله إنشاء قلعة القاهرة . حيث وجد هذه العاصمة الكبيرة تضم الفسطاط وقطائع أحمد بن طولون والقاهرة المعزية ، فأنشأ حول هذه كلها سورا متينا وقلعة حصينة للمحافظة على المدينة سميت قلعة (صلاح الدين) وبنى فيها دورا وقصورا ومنازل لنفسه ولأهله ولسائر أتباعه . ولما كانت سياسة الملك الناصر (صلاح الدين) ترمى إلى تجنب اغضاب السلطان (نور الدين) منه ،

وعدم إثارة الشكوك والشبهات حوله ، فقد عمد إلى ذكر اسم السلطان نور الدين بعد اسم الخليفة فى الخطب على المنابر ، وضرب النقود باسمه ، ثم انتقى هدية فاخرة من بين كنوز خزائن قصر الخلافة وبعث بها اليه .

وحدث فى وقت ما أن قصد الملك الناصر إلى قلعة (الشوبك) فى فلسطين الواقعة على الطريق التجارى بين مصر والشام افتحها . وما أن سمع بقدوم السلطان نور الدين الى تلك الجهات ، حتى قفل راجعا إلى مصر على جناح السرعة صارفا النظر عن فتح القلعـــة . حيث لم ير من السياسة الحكيمة الاجتماع بالسلطان فى تلك الآونة ، إذ أن بعض أمراء (نور الدين) الذين كانوا بصحبة (أسد الدين شيركوه) والملك الناصر صلاح الدين إبان فتح مصر ، ثم غادروها إلى الشام حين تولى (صلاح الدين) زمام الأمور فيها ، ما فتئوا يعملون جاهدين ويسعون سعيا متواصلا للتأثير على السلطان نور الدين لينتزعوا ثقته ، ويغيروا من رأيه فى صلاح الدين حتى انه ليقال ان السلطان تحت تأثير منهم قد فكر فى مواصلة الزحف على مصر والاستيلاء عليها بعد رجوع الناصر صلاح الدين من قلعة (الشوبك) إلى القاهرة

وما أن ترامى هذا النبأ الى مسامع الملك الناصر حتى بادر وجمع مجلس شوراه على الفور للنظر فى هذا الموقف الجديد ، وقال أحد أعضاء المجلس إنه يجب مقابلة السلطان بالقوة والحيلولة بينه وبين دخوله مصر . فاستهجن (نجم الدين أيوب) والد الملك الناصر ـ هذا الرأى ولم يستصوبه بل اشتد به الغضب وقال « ان هذه البلاد إن هى إلا بلاد السلطان نور الدين وكلنا له رعايا مخلصون وعبيد خاضعون » ثم فض المجلس وانتحى بابنه جانبا ووجه اليه لوما لاذعا على ما بدر منه ، ثم أسدى اليه نصائح فى غاية من السداد والحكمة . وفى الواقع لم يكن فى مكنة السلطان نور الدين مواصلة الزحف الى مصر وقتذاك بسبب انشغاله بأمور الجزيرة أى كردستان الجنوبى . وبعد حقبة من الزمن

ندب الملك الناصر أخاه (تورانشاه) لتنظيم أمور السودان وتدبير شئونه .

وما أن فرغ السلطان (نور الدين) من تنظيم شئون الجزيرة ، وتسلمه كتبا من الملك الناصر معبرة عما يكنه له من ولاء وطاعة ، حتى بعث يطلب أن يزحف على رأس جيشه ويجتمع به فى فلسطين ليقوما معا بزحف مزدوج على ملك القدس ، فلبى الملك الناصر نداءه ، وسافر بجيشه إلى فلسطين ، بيد أنه اضطر للعودة إلى مصر قبل ملاقاة السلطان، بحجة مرض والده وخطورة حالته ، بسبب سقوطه على الأرض إثر كبوة فرسه على مقربة من باب النصر بالقاهرة ، حيث توفى إلى رحمة الله إثر هذا الحادث .

ورغم هذا فقد أبدى السلطان أشد الاستياء من عودة الملك الناصر إلى مصر ، فغضب واستقر رأيه على أن يزحف بنفسه إلى مصر للاستيلاء عليها ، ويعزل الملك الناصر من ولايته عليها ، لولا أن المنية قد عاجلته قبل تنفيذ ما استقر عليه قراره ، وقد وافاه الأجل المحتوم فى يوم الأربعاء (٢١ من شوال من عام ٥٦٩ = ٢٥ مايو ١١٧٤ م) وكان الملك الناصر قد أبدى قبل وفاة السلطان نور الدين كثيرا من ضروب النشاط المحسوس ، فأول ماوجه اليه همه كان تنظيم الجيش فقد وجه إليه الكثير من عنايته وساعده أبوه فى تنظيمه ودقة الأشراف على شئونه ، وحسن تدريبه ، حتى استطاع الملك الناصر بفضل هذا الجيش من فتح شمالى أفريقيا ، وسواحل البحر الأبيض من أيالتى طرابلس الغرب وتونس ، ومن ناحية أخرى أرسل أخاه (تورانشاه) إلى اليمن ، فتمكن من غزوها فى رجب عام (٥٦٩) وهكذا خضعت تلك البلاد الشاسعة وولاية (عدن) ذات الأهمية ، لسلطان بنى أيوب فى مصر .

وفى هذه الأثناء دبر من وراء ستار ، الشاعر المعروف (عمارة اليمنى) مع بعض رفاقه ، إشعال نيران ثورة جامحة ، وكانوا قد اتخذوا أهبتهم ، واتصلوا بالافرنج لنجدتهم إذا لزم الأمر ، غير أن الملك الناصر قد اكتشف أسرار

المؤامرة قبل وقوعها ، فقضى عليها فى المهد ، واستأصل شأفة المدبرين لها على الفور ، وقد تصادف هجوم أسطول صقلية على الاسكندرية وقتذاك ، فدافع الملك الناصر عنها دفاعا مجيدا ، ومات ملك القدس الصليبي فى تلك الآونة ، فاستراح الملك الناصر بموته من عدو لدود ، وخصم عنيد .

ولا شك أيضا أن الملك الناصر قد أضحى ، بعد وفاة السلطان نورالدين سلطانا مستقلا تمام الاستقلال ، وحاكما مطلقا للشرق الاسلامى ، لاشريك له فى حكمه . . إذ لم يبق أمامه من ينازعه السيادة المطلقة على الشرق والدفاع عن الاسلام . .

نعم ! كان هنالك نجل السلطان نور الدين الطفل ، يحكم بعض القلاع والبلاد ، وابن أخيه سيف الدين حاكم الموصل ، والملك السلجوقى فى بلاد الروم (الأناضول) . . . ولكن هؤلاء الملوك والأمراء جميعهم لم يكونوا ليصلوا إلى مقدرة الملك الناصر لما كان يتمتع به من النفوذ الواسع ، والسلطان العريض فى العالم الإسلامى ، حتى يتسنى لهم منافسته .

ولما كان الملك الناصر قد شعر ورأى، أن من أقدس واجباته الدينية محاربة الأفرنج ، وطردهم من البلاد الإسلامية ، فقد وجد أن من الحكمة وأصالة الرأى أن يتفق مع سائر الأمراء والملوك المسلمين ، ليوحدوا قواهم ، ويجمعوا شملهم ، ويقفوا جبهة واحدة متراصة لتحقيق هذه الغاية ، فكانت هذه الخطة القويمة أساس سياسته الرشيدة مستقبلا ، وقد حالفه التوفيق كل التوفيق فى تنفيذها .

(٨) — « بعد وفاة السلطان نور الدين » :

قبض الملك (الصالح اسماعيل) على ناصية الأمور ، بعد وفاة والده السلطان (نور الدين) وله من العمر حينذاك خمسة عشر عاما ، ولكن

التوفيق قد جانبه ، وكنتيجة حتمية لسوء إدارته تغلب عليه رجال والده وقواد جيشه ، فاستولى ابن عمه (سيف الدين) حاكم الموصل على جميع البلاد التى كانت خاضعة للسلطان (نور الدين) كما استقل كل من الأمراء الآخرين بشئون البلاد التى كان يحكمها نيابة عن السلطان .

وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع الملك الناصر حتى بادر على الفور بارسال خطاب إلى وزير الملك الصالح ، المدعو (شمس الدين محمد بن عبدالملك ابن المقدم) موجها إليه اللوم فيه على ما فرط منه ، قائلا له : « إذا لم تخلصوا الخدمة للملك الصالح اسماعيل ولم تحافظو على ملكه تماما ، فسأحضر بنفسى وأحافظ على حقوقه ». ولكن الأمراء والقواد قد أصموا آذانهم عن الاستماع لهذه النصيحة ، فقد عمد (شمس الدين ابن الدايه) حاكم حلب إلى إيفاد (سعد الدين كمشتكين) إلى الملك الصالح اسماعيل ليدعوه إلى حلب ليحول بهذا دون مجىء الملك الناصر لمساعدته والتمسك به ولكن أهل الشام قد عارضوا — أول الأمر — فى ذهاب الملك الصالح اسماعيل إلى حلب فعاد (كمشتكين) دون أن يصحبه معه ، ولكنه سرعان ماعاد ثانية لنفس الغرض وفى هذه المرة استطاع بدهائه أن يخدع الملك الصالح اسماعيل وينقله إلى حلب ثم ألقى القبض على (شمس الدين بن الداية) وعلى أولاده وسائر أقربائه ، وزج بهم جميعا فى غياهب السجن .

وهكذا سيطر (كمشتكين) على حلب ، وفرض عليها سلطانه ، وشرع يعمل جاهدا على تعزيز مركزه وتوطيده ، فاتصل بملك الأفرنج بالقدس ، وعقد معه اتفاقا ضد الملك الناصر للحيلولة دون زحفه إلى الشام وحلب فاضطر الملك الناصر إلى عرض هذا الأمر على الخليفة العباسى المستضىء بالله ، فبعث إليه بخطاب مؤثر يشكو فيه سوء الأحوال وتحرجها فى بلاد الملك الصالح اسماعيل ، الأمر الذى قد يؤدى إلى تمزيق أوصال البلاد ووقوعها

فى أيدى الأفرنج ، وفى الواقع كانت الأحوال السياسية ، والظروف الدولية موآتية للملك الناصر لتحقيق غايته النبيلة ، إذ كانت كل من فلسطين وسورية خاضعة لملك صبى لم يعركه الدهر ولم تحنكه التجارب ، وهما (بلدوين) الرابع الشهير بـ (بلك = لعله بمعنى الأرقط) ابن الملك (آمورى) ، والملك الصالح (اسماعيل) ، فكان من حسن السياسة أن ينتهز هذه الفرصة ويخضع هاتين المملكتين لحكمه المباشر ، الا أنه لما جبل عليه من بعد النظر ، آثر التريث ، ولم يتعجل الأمر ، لأنه لم يكن راغبا فى إغضاب أهل الشام منه ، ولهذا كان لا يفتأ يكاتب الملك الصالح (اسماعيل) مبديا له ما يكنه له من الإخلاص والطاعة ، وكان يسك العملة ويقرأ الخطبة بإسمه . وما أن حضر الملك الصالح إلى حلب ، وصار (كمشتكين) حاكما مستقلا بها ، حتى ساور القلق والمخاوف (ابن المقدم) وأنصاره من القواد والأمراء فأرسلوا يستنجدون بسيف الدين حاكم الموصل ، لمساعدتهم .

ولكن (سيف الدين) قد آثر التريث ، وطال به التردد لأنه لم يكن يثق فيهم . وأخيرا استقر رأيه على مفاوضة الجانب الآخر ، والاتفاق مع الملك الصالح . فلما تبين أمراء دمشق حقيقة الأمر أسقط فى أيديهم ، ولم يجدوا محيصا هذه المرة من الاتصال على الفور بالملك الناصر ، وأرسلوا اليه يلتمسون النجدة من لدنه ، ويرجون العمل على انقاذهم من الورطة التى وقعوا فيها .

وقد بادر الملك الناصر الذى كان يتحين الفرصة منذ بعيد ، إلى الزحف بجيش عرمرم شطر (سورية) فوصلها بعد أن قطع صحراء التيه ، مارا ببلاد فلسطين الخاضعة للصليبيين غير هياب ولا وجل ، ولاسيما أنه كان قد مهد السبيل لذلك سياسيا ، حيث كان قد عرض على الخليفة ببغداد رغبته الملحة فى ضم سورية إلى أملاكه حتى يتسنى له التفرغ لمحاربة الافرنج والدفاع عن

مصالح المسلمين دفاعا ناجعا ، لأن حكومة الملك الصالح لم تكن لتستطيع القيام بهذه المهمة المجيدة ، فضلا عن أنها لاتعمل لها قط ، بل الأدهى في الأمر أنها عقدت اتفاقا مع الافرنج ضد مصالح المسلمين . . . وهكذا استطاع الملك الناصر الحصول على إذن من الخليفة ، واعترف له الجميع بأنه المدافع عن الاسلام بحق ، مما أفضى إلى تدفق النجدات والامدادات على جيشه من كل صوب وفج عميق . ولم يتصد له أى كائن ليحول بينه وبين الوصول إلى تحقيق رغبته .

وما أن وصل إلى مدينة (بصرى = أسكى شام) حتى هرع حاكمها لمقابلته طائعا مختارا واضعا نفسه طوع أمره ورهن إشارته ، ومن هذه المدينة توجه الملك الناصر رأسا إلى دمشق الشام ، فوصلها فى أواخر ربيع الأول عام (٥٧٠ هـ) ، وقصد توا إلى بيت والده حيث استراح قليلا ؛ ثم أخذ فى تسلم القلعة وما احتوته من الخزائن والأموال الطائلة ، التى لم يحتجزها أو يستأثر بها لنفسه بل وزعها جميعها على أهل الشام مما أثلج صدور جميع الطبقات وشتى الهيئات من الأهالى ، وكان الملك الناصر بما طبع عليه من فطنة وذكاء خارق يبدو فى جميع حركاته وسكناته بمظهر الذى أقدم على هذا العمل لا لشىء إلا لمساعدة ابن ولى نعمته الملك الصالح ، وانقاذا له من بين براثن المحيطين به والطامعين فيه . مما قربه إلى قلوب الناس وحببهم فيه وحفز أمراء الشام وأعيانها إلى الانخراط فى سلك جيشه ، واتباع أوامره .

وبعد أن نظم الملك الناصر أمور الشام ، وعين أخاه (سيف الاسلام طغتكين) واليا عليها ، تقدم نحو (حمص) فاستولى على المدينة ثم ترك قوة من جنوده لمحاصرة القلعة ثم واصل سيره إلى (حماه) وكان أمير هذه البلاد وقتذاك المدعو (عز الدين جرديك) الذى كان مع الأمير (صلاح الدين) فى سفرته الثالثة إلى مصر ثم عاد إلى الشام حينما تولى (صلاح الدين) الوزارة

فى مصر ، مؤثرا عدم البقاء فى معيته ، وما كان من هذا الأمير الذى لم ير الخضوع للملك الناصر فى بادىء الأمر ، إلا أن عاد أخيرا واطمأن لمواثيق الملك الناصر وعهوده وسلم المدينة اليه ، محتفظا بالقلعة فى قبضة أخيه .

وقد أوفد الملك الناصر الأمير عز الدين هذا إلى حلب كمندوب من قبله للمفاوصة فيما يعود على المسلمين بالخير من إطلاق الأسرى وحقن دماء المسلمين ولكن ما كاد الأمير عز الدين هذا يصل إلى حلب ، حتى ألقى (كمشتكين) القبض عليه ، وزج به فى أعماق السجن ، ولما ترامى هذا النبأ إلى مسامع أخيه بادر إلى تسليم القلعة إلى الملك الناصر الذى توجه إثر ذلك صوب حلب وضرب نطاق الحصار عليها فى اليوم الثالث من جمادى الثانية عام (٥٧٠) ثم أعلن على الملا أنه لم يأت كعدو يقصد بالمسلمين سوءا، انما جاءهم لانقاذ الملك الصالح من بين براثن (كمشتكين) وبعض الأمراء والقواد من العصاة والطغاة .

ولما أحس (كمشتكين) بخطورة الحالة أوجس خيفة ، وفكر فى القضاء على الملك الناصر بأيدى الفدائيين الاسماعيليين ، فأوفد من قبله رسولا خاصا المرشد الاسماعيلى المدعو (شيخ الجبل راشد الدين سنان) يطلب اليه اختيار بضعة من رجاله للفتك بالملك الناصر وسفك دمه ، فما كان من هذا الزعيم الاسماعيلى إلا أن لبى نداءه ، واستجاب لطلبته ، وبعث بجماعة من الفدائيين لارتكاب الجريمة ، إلا أن الملك الناصر كان قد علم بأسرار تلك المؤامرة الدنيئة فتمكن من القبض عليهم وأعدمهم جميعا.

بعد ذلك اشتد ضغط (كمشتكين) على الملك الصالح لكى يحرض الأهالى ويستفزهم لقتال الملك الناصر ، وفعلا نشب القتال بين الطرفين ، ودافع الحلبيون عن قلعتهم بشدة ، ثم أطلق (كمشتكين) سراح (ريامو ند) حاكم طرابلس الصليبي الذى كان أسيرا منذ عهد السلطان(نور الدين) فى قلعة

حلب ، أطلق سراحه كى يكون له ظهيرا ضد الملك الناصر وقد انتهز هذا الحاكم الصليبي الذى تولى الوصاية على بلدوين ملك القدس بعد اطلاق سراحه فرصة طلب (كمشتكين) اليه مساعدته ، فزحف شطر « حمص » لينتقم لنفسه من المسلمين ، ولكن الملك الناصر حامى حمى الاسلام والمسلمين كان له بالمرصاد ، وما أن علم بذلك حتى بادر إلى رفع الحصار عن (حلب) والتوجه على الفور للقاء جيش القدس المحاصر لحمص ، ولكن (رياموند) لم يصمد ولم يقو على الوقوف أمامه ، فقفل راجعا أدراجه ، واستولى الملك الناصر وقتذاك على قلعة (بعلبك) ثم عاد إلى دمشق الشام . وحينذاك استنجد الملك الصالح بالأمير (سيف الدين) حاكم الموصل فخف الأخير على الفور لنجدته ، وسار بنفسه على رأس جيش ضخم إلى حلب ، وانضم جيش الموصل إلى جيش حلب للوقوف صفا واحدا ضد الملك الناصر ومناوأته من الناحيتين وايقاعه بين النارين .

ولكن الملك الناصر ، لما جبل عليه من توخى مصلحة المسلمين ، وحقن دمائهم ، والحيلولة دون إفادة أعدائهم الفرنج من الخلاف بينهم ، قد أفسد عليهم تدبيرهم وخطتهم ، وعرض عليهم الصلح مبديا استعداده للتخلى عن جميع البلاد السورية التى استولى عليها وانتزعها منهم ما عدا دمشق الشام التى رأى أن الضرورة تقتضى أن يحكمها هو نيابة عن الملك الصالح ، ثم يعود إلى مصر .

بيد أن سيف الدين والملك الصالح لم يقبلا هذه الشروط السخية ، وآثرا القتال على قبولها ، فاضطر الملك الناصر إزاء ذلك إلى الزحف إليهم ونشب القتال بين الفريقين فى التاسع عشر من رمضان عام (٥٧٠ ﻫ) على مقربة من (حماه) حيث دارت بينهما معركة دامية أسفرت عن انتصار باهر للملك الناصر ، بينما منى خصومه باندحار ذريع . فولوا الأدبار يجرون أذيال الهزيمة إلى أن

دخلوا قلعة (حلب). فتعقبهم الملك الناصر وضرب الحصار على تلك القلعة ولـكن سيف الدين قد تمكن من عبور الفرات إلى الموصل ، إلا أن جيش الملك الناصرلم يكف عن مطاردته حتى أبواب الموصل، مما اضطر (سيف الدين) إلى أن يجرد جيشا مؤلفا من ستة آلاف من خيرة جنوده ليرد به المطاردين فالتحما فى مكان يدعى (تل السلطان) ودارت الدائرة على جيش الموصل فى هذه المرة أيضا ، وأسر من رجاله الـكثيرون ، واستحوذ الملك الناصر على الـكثير من الغنائم . أما من نجا من فلول جيش الموصل فقد هربوا إلى حلب وبعد هذا النصر المبين ، استولى الملك الناصر فى طريقه الى حلب ، على قلاع (بزاغة) و (المنبج) و (أعزاز) ، ثم ضيق نطاق الحصار على (حلب) وحدث وقتذاك أن هجم فدائى إسماعيلى بغتة وعلى حين غرة على الملك الناصر أثناء حصاره لقلعة (أعزاز) على مقربة من (حلب) وطعنه بالسيف فى أم رأسه ، غير أن قلنسوته الذهبية قد حالت دون اصابته اصابة خطيرة وتكاثرت حاشية الملك الناصر على الفدائى فأردوه قتيلا فما هى إلا فترة وجيزة حتى تتابع الفدائيون وأخذوا ينقضون على الملك الناصر ، الواحد تلو الآخر ، كان نصيبهم جميعا القتل بنفس الطريقة التى قضى بها على زميلهم الأول. والذى لاشك فيه أن هؤلاء القتلة الفدائيين كانو محرضين ومبعوثين من قبل (كمشتكين) الخائن .

وقد شدد الملك الناصر الحصار على حلب على أثر تلك الحادثة الطائشة مما اضطر أهالى حلب وأرغمهم الى طلب الصلح ببضعة شروط عرضوها . وقد حضرت وقتذاك كريمة السلطان نور الدين وأخت الملك الصالح الى الملك الناصر ، لتشفع لأخيها بين يديه ولتطلب الصفح عن أهالى حلب فأكرم الملك الناصر وفادتها وبالغ فى الحفاوة بها ولبى رجاءها حيث أطلق سراح أسرى حلب على الفور وداوى جرحاهم مرضاة لها ومراعاة لخاطرها .

وأخيرا وافق الملك الصالح على الصلح وأقر السلم نزولا عند رغبة الاهالى وتمشيا مع ميولهم وكف عن المطالبة بالبلاد التى فتحها الملك الناصر . وبهذا لم يتبق فى حوزته من أملاكه سوى حلب وأعمالها .

وقد عاد الملك الناصر الى الشام فى شهر شوال من تلك السنة ، حيث تلقى بها خلعة خلعها عليه الخليفة العباسى والانعام عليه بلقب السلطان وصاحب مصر والشام . ومنذ ذلك اليوم لم يعد يذكر اسم الملك الصالح فى الخطبة ولم تعد تضرب السكة باسمه بل أصبحت تضرب باسم الملك الناصر يوسف بن أيوب ، وقد وزع الملك الناصر جميع الغنائم التى حصل عليها فى هذه الوقائع والحروب على الجيش من ضباط وجنود دون أن يستأثر بشىء منها لنفسه .

(٩) - « عهد السلطنة » .

بعد أن أتم السلطان (صلاح الدين) تنظيم شئون البلدان الشامية ،وتدبير أمورها عمد إلى التنكيل بالاسماعيلية أعنف تنكيل وأمره ، ثم عين أخاه (شمس الدولة تورانشاه) الذى كان قد قدم من اليمن إلى الشام لزيارته - وكيلا عنه على كافة البلاد الشامية ، ثم عاد إلى مصر ، وشرع فى بناء سور القاهرة وإقامة قلعتها الشهيرة العاتية . نعم، إن هذه القلعة قد جددت مرارا وعمرت تكرارا ، إلا أن العلامة الدالة على راية السلطان الخاصة ، والتى هى عبارة عن صورة نسر حمراء فى أرضية صفراء ، لاتزال موجودة وماثلة للعيان على أحد أسوارها .

وما أن عاد صلاح الدين إلى مصر ، وعلم الأفرنج بعودته ، حتى بادروا بانتهاز هذه الفرصة ، وزحفوا بجيشين مستقلين ، من الجانبين صوب الشام وبعلبك ، وأوغلوا فى النهب والسلب ، وأمعنوا فى تدمير البلاد وتخريب القرى

حتى ألحقوا هزيمة منكرة بجيش (تورانشاه) وأسروا كثيرين من المسلمين .

وما أن ترامت هذه الأنباء إلى مسامع السلطان (صلاح الدين) حتى نهض على الفور كالأسد الهصور وزحف بجيش ليس بكبير إلى فلسطين ، وظل يواصل السير إلى أن وصل (الرملة) وما فتىء أن اشتبك بجوارها بجيش قوى للأفرنج ، وأسفر القتال عن انتصار العدو ، وقد نجا السلطان نفسه بأعجوبة نادرة من شر هذه النكبة المريعة المباغتة وكان ذلك فى عام (٥٧٣) للهجرة ووقع الأمير الفقيه (عيسى الحكاوى) أسيرا ، ولكن ما لبث أن افتداه السلطان بالكثير من المال فأنقذه من ذل الإسار ، ومن الذين أسروا فى هذه الموقعة الدامية الأمير (تقى الدين عمر) وغيرهم من الأمراء والقواد حيث أصيب جيش السلطان بخسائر فادحة مما أفضى إلى السلطان أن يترك جميع أثقاله وأحماله ويتوجه إلى مصر معانيا الأهوال والمشقات . وقد توجه جيش الأفرنج هذا بعد الموقعة إلى (حماه) وضرب نطاق الحصار عليها ولكن من حسن الحظ أن كان الأمير سيف الدين أحمد المشطوب بالقلعة المذكورة فشارك حاكمها شهاب الدين محمود فى الدفاع عنها دفاع الأبطال وأضطروا العدو إلى الرجوع عنها خائبين .

ولما عاد السلطان (صلاح الدين) إلى مصر ، قامت الاستعدادات على قدم وساق لاعداد جيش قوى فى تلك المرة ، وقد تم إعداده فى خلال ثلاثة أشهر ، وما أن تم تجهيزه حتى بادر بالزحف إلى سورية حيث سارع جيشها بالانضمام إلى جيش مصر ، ثم شرع فى مضايقة الأفرنج ، وأمعن فى مناوشتهم ، بشتى الوسائل ، حتى اضطر جيشهم الذى كان محاصرا وقتذاك لمدينة (حماه) إلى رفع الحصار والتخلى عنها والتوجه صوب (حارم) الخاضعة لحكومة حلب ، وما تركوها ورحلوا عنها إلا بعد أن نقدهم الملك الصالح ، الطائل من الأموال ، ولما لمس الأفرنج ضعف موقفهم ، وحروجة مركزهم أمام سطوة

السلطان شرعوا فى تحصين حدودهم ، وإنشاء قلعة حصينة من جديد على مقربة من (بيت يعقوب) ولا شك أن هذه القلعة لم تكن فى صالح الإسلام ، ، ولهذا لم يأل السلطان جهدا ليثنى الأفرنج عن إتمام تحصين هذه القلعة ببذل الأموال واغداقها عن سعة عليهم ولكن دون جدوى فلم يكلل مجهوده بالنجاح ولم يستطع المال تثبيط عزيمتهم فاستمروا فى مواصلة العمل حتى أتموا تحصينها وهكذا أضحت القلعة نقطة حربية هامة ، تمكن ملك القدس بفضلها من تجريد حملة قوية على سورية .

وما كان من السلطان إزاء هذا إلا أن جرد هو الآخر حملة عسكرية تحت قيادة ابن أخيه (فرخشاه (١)) لمقابلة العدو . وما لبث أن احتدم القتال بين الفريقين وحمى وطيسه حتى أسفر فى النهاية عن انتصار (فرخشاه) انتصارا باهرا وعن هزيمة منكرة لملك القدس الذى أوشك أن يقع فى ذل الأسار ، لولا أن غامر أحد الفرسان الأفرنج المدعو (همفرى) وأنقذ ملكه .

وكان (صلاح الدين) قد زحف من ناحية أخرى بجيش خاص إلى قلعة (بيت يعقوب) وألقى عليها حصارا شديدا ، وأطلق لرجاله العنان للنهب والتدمير فى أطراف بلدتى (صيدا) و (بيروت) .

هنالك تحركت شهوة الانتقام من السلطان فى نفس ملك القدس ، فزحف بجيش عرمرم إلى حيث يكمن جيش السلطان ، واشتبك معه فى معركة دامية فى (مرج عيون) ولكن دارت الدائرة على الأفرنج ولحقت بهم هزيمة شنعاء ووقع الكثيرون منهم أسرى ومن بينهم قواد عديدون على رأسهم (رياموند) حاكم طرابلس ، و « بلدوين » حاكم الرملة ، و « هرج » حاكم الطبرية ، وغيرهم

---

(١) هو أبو سعيد عز الدين داود فرخشاه بن نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين أيوب .
المترجم

من الأمراء والعظماء ، وكان ذلك فى الثانى من محرم عام (٥٧٥) (١٠ يونيه عام ١١٧٩ م) .

وبعد شهرين من احراز هذا النصر الباهر المبين ، زحف السلطان صوب قلعة (بيت يعقوب) على مقربة من بانياس فاستولى عليها بعد قتال دام خمسة أيام ، وأسر حاميتها . ثم أخربها وجعل عاليها سافلها (١) .

ولقد أدى سقوط قلعة (يعقوب) فى أيدى المسلمين إلى هلع الأفرنج وخوفهم وقلقهم على مصائرهم التى أضحت فى كفة القدر ، فطلبوا عقد هدنة لمدة عامين ، فوافق السلطان (صلاح الدين) على هذا العرض ، وأبرم جميع الأمراء والحكام هذه الاتفاقية ماعدا حاكم (أنطاكية) الأفرنجى . واقتنص السلطان هذه الفرصة واغتنمها كى يتفرغ لتنظيم شئون البلاد الجزرية ، إذكان (نور الدين) حاكم (حصن كيف) ، على خلاف شديد مع حميه (قليج أرسلان) من ملوك سلاجقة الروم (الانضول) ، والذى كان قد أعلن الحرب على نور الدين فى حين كان نور الدين حليفا للسلطان ، وفضلا عن ذلك كان السلطان مستاء وغير راض عن أعمال ملك الروم من جراء موقعة (حصن رعبان) .

ورغم كل هذه الأسباب مجتمعة ، فقد رأى السلطان ـ حقنا لدماء المسلمين أن يتفادى الاصطدام بهؤلاء ، وألا يتدخل فى القتال الناشب بين الصهر وحميه مفضلا القيام بهجوم على ما كان يسمى (أرمينيه الصغرى) لارغام حاكمها المدعو (روبين(٢)) على الخضوع وقبول عقد صلح معه .

والذى لا يحتمل الشك ، أن هذه الانتصارات الباهرة المتوالية قد استرعت أنظار الجميع إلى ما كان يتمتع به السلطان من المقدرة الفائقة ، والنفوذ الشامل

---

(١) انظر ابن الاثير ج ١١ ص ١٨٥ تجد فيه التفاصيل .

(٢) وهو الشهير بابن ليون، كما فى ابن الاثير ج ١١ ص ١٩٠ . المترجم

والتوفيق الرائع ... ولا أدل على ذلك من مسارعة الحكومات الصغيرة المجاورة إلى الاعتراف بسلطان (صلاح الدين) المطلق ، وخطب وده ، وتقديم فروض الطاعة وعلائم الولاء والخضوع له ، والى عقد أواصر الاتفاق ، وتوثيق عرى الاتحاد معه .

وقد استقر رأى كل من حكام (الموصل) و (الجزيرة) و (أربل) و (حصن كيف) و (ماردين) ، وملك الروم ، وحاكم أرمينية ، على مهادنة السلطان عامين كاملين ابتداء من جمادى الأولى عام (٥٧٥ هـ) . (تشرين أول سنة ١١٧٩ م) .

وقد قطعت هذه الهدنة دابر النزاع ، وإثارة القتال والبغضاء بين المسلمين كافة ،، وبفضلها تتلألأت عظمة السلطان صلاح الدين وقوة شكيمته بأجلى مظاهرها فى طول وعرض البلاد القائمة بين البحر الأسود والخليج الفارسى والبحر الأبيض ، وافضى كل ذلك إلى امكان توحيد القوى الإسلامية المبعثرة المشتتة وضم شملها ، وتوجيهها لمحاربة الأفرنج الدخلاء على البلاد . وهكذا تمكن السلطان من العودة إلى مصر فى رجب عام (٥٧٦هـ) راضيا وقد اطمأن قلبه كل الأطمئنان على مصالح الاسلام ،، تاركا ابن أخيه الأمير (فرخشاه) نائبا عنه فى دمشق الشام .

وما أن وطئت قدما السلطان أرض مصر حتى شرع على الفور فى إصلاح أمورها وتنظيم شئونها ، وبدأ بتنفيذ سلسلة من المشروعات النافعة ، فأنشأ بها المدارس والمكاتب ، ثم أخذ فى تحصين قلعة الاسكندرية التى كان يحكمها وقتئذاك أخوه (شمس الدولة تورانشاة) الذى تسلمها إثر تخليها عن حكم (بعلبك) ، وقد توفى بها قبل وصول السلطان إلى مصر .

وبينما كان السلطان منهمكا فى إصلاح شئون مصر وتدبير أمورها ، جاءه النبأ بأن (رينولد آرناط) حاكم الكرك قد أخل بشروط المعاهدة

القائمة ، حيث سطا على قافلة إسلامية من التجار على مقربة من (الكرك) ، فسارع السلطان إلى إلقاء القبض على الحجاج المسيحيين الذين كانوا على ظهر سفينة لاجئة إلى ثغر (دمياط) .

وفى خلال هذ الفترة ، طير نبأ وفاة (الأمير سيف الدين غازى) حاكم الموصل والجزيرة (كردستان الجنوبى) وكان قد أوصى قبـــل مماته ببلدة (جزيرة ابن عمر) لإبنه (سنجرشاه) ، وببلدة (عقر الحميدى) لناصر الدين كشك ، وببقية بلدان الجزيرة والموصل لأخيه « عز الدين مسعود » وبعد فترة من الزمن، وفى اليوم الخامس بعد العشرين من رجب من عام (٥٧٧هـ) توفى إلى رحمة الله الملك الصالح (اسماعيل) وكان قد أوصى هو الآخر قبل مماته « بحلب » لعزالدين مسعود الذى تبادلها « بسنجار » مع أخيه عمادالدين فى الثالث عشر من المحرم من عام (٥٨٧ هـ)

وقد تأثر صلاح الدين لوفاة الملك الصالح كل التأثر وأخذ منه الحزن كل مأخذ ، وفى الوقت نفسه لم يخف استياءه من استيلاء عماد الدين على «حلب» غير أنه لم يكن فى مكنته الزحف على « حلب » احتراما للاتفاقية المعقودة التى تحرم القتال عامين كاملين . وفى الواقع لم يكن يخطر ببال صلاح الدين ، وما كان يدور بخلده نقض شروط هذه الاتفاقية ولا الحنث بالعهود التى ارتبط بها ، مع أنه لم يكن باقيا من مدة العامين المذكورين سوى أربعة أشهر فقط .

ولكن سرعان ما تواترت الأنباء وأخذت تترى بأن بعض الموقعين على الاتفاقية ، على اتصال بشيخ الجبـــل وبالأفرنج يدبرون معهم المكائد ويحيكون الخطط لمناوأة السلطان صلاح الدين ، فأمام هذه الحالة الدقيقة لم يكن السلطان ليقف مكتوف الأيدى حتى يؤخذ على غرة، فعول، دون ماتردد على إيقافهم عند حدهم وإفساد خططهم ، فتحرك بجيشه بمصر متجها صوب الشام وكان قد بعث بأثقاله وعتاده اليها قبل تحركه مع أخيه (تاج الملوك بورى)

وما أن اقتحم بجيشه الأراضى السورية حتى أمعن رجاله فى نهب البلاد الخاضعة للافرنج الذين لم يستطيعوا مقاومته ولا الوقوف فى وجهه أو على الأقل الحيلولة بينه وبين تخريب بلادهم ، ولهذا تمكن بكل سهولة من الوصول إلى دمشق فى صفر عام (٥٧٨هـ) وبعد أن أخلد إلى الراحة فيها بضعة أيام شن هجوما آخر على الأفرنج وانتزع منهم بلدة (بيسان) ثم قفل راجعا إلى الشام ، وبعد أن أمضى فى ربوعها شهرا ، توجه شطر « بيروت » وحاصرها برا وبحرا ، وقبل استيلائه عليها ، سار نحو الجزيرة تلبية لدعوة (كوكبورى) حاكم « حران » له .. وفى هذه الأثناء كانت مدة العامين المحرم خلالهما القتال كنص الاتفاقية السالفة الذكر قد انتهت ، فأبدى معظم حكام البلاد الجزرية بل أغلبيتهم رغبتهم الصادقة فى الأنضواء تحت لواء السلطان ، وعرضوا عليه هذه الرغبة بالفعل ، ولا شك فى أن هذا التطور السياسى كان خير مقدمة ، وبداية موفقة ، تبشر بانعقاد لواء النصر للسلطان على طول الخط .

وقد بادر السلطان إلى استغلال هذه الفرصة استغلالا واسع المدى ، فزحف على الموصل وكل هدفه أن ينتزعها من حاكمها ، فألقى عليها الحصار غير أنه اضطر بعد شهرين من محاصرتها إلى رفع الحصار عنها ، والتوجه صوب (سنجار) والاستيلاء عليها فى اليوم الثانى من رمضان عام (٥٧٨هـ) ، وفى هذه الأثناء تواترت الأنباء بأن الأفرنج يستعدون لنهب جنوبى سورية . ولكن السلطان لم يعر هذه الأنباء أية التفاتة أو أهمية ، قائلا : إن الأفرنج هنالك يستولون على القرى ، ونحن هنا يمكننا أن نستولى على المدن والبنادر ، ثم نسترد منهم جميع ما امتلكوه من البلاد الصغيرة حين عودتنا إلى تلك الجهات

والواقع أن جل غرض السلطان كان منصبا على توكيد اتحاد الأمراء المسلمين وتأمين خضوعهم لقيادته ليضمن بذلك تأليب جميع قوى الاسلام ضد الأفرنج واستعادة القدس إلى حظيرة الاسلام . ولهذا كان يفضل تسوية

مسألة البلاد الجزرية أولا وقبل كل شيء ، ولقد توجه السلطان بعد استيلائه على (سنجار) شطر قلعة آمد (ديار بكر) تلك القلعة العظيمة الحصينة ، فاستولى عليها ، بعد أن طوقها وألقى عليها الحصار ثمانية أيام .

وتواترت الأنباء وقتذاك بأن (عماد الدين) حاكم حلب ، قد مد يده للأفرنج واتفق معهم على مناوأة السلطان ، وأنهم يبيتون الهجوم على بلاده ، فسارع السلطان إلى اجتياز الفرات على الفور لإفساد خططهم ، وفى طريقه اليهم استولى على « عينتاب » وكان ذلك فى اليوم السادس عشر من محرم عام « ٥٧٩هـ » ثم يمم شطر « حلب » فطوقها وألقى عليها حصارا منيعا ، ولما أيقن « عماد الدين » بألا قبل له فى هذه المرة بمقاومة السلطان والوقوف فى وجهه ، أبدى ميلا واضحا لعقد الصلح ، عارضا على السلطان مبادلة « حلب » بسنجار » وما يتبعها من البلدان وهى « نصيبين والخابور والرقة وسروج » .

فقبل السلطان هذا العرض فى اليوم السابع عشر من عام « ٥٧٩هـ » « ١٩ حزيران ١١٨٣م » ودخل « حلب » ظافرا يحدوه النصر ، وقابله أهلوها بالفرح والسرور والترحاب ، دون سفك دماء .

وكان قد جاءه أثناء ضربه الحصار على (حلب) نبأ وفاة أخيه (مجد الدين بورى) فتأثر على وفاته بالغ التأثر ، واشتد به الحزن ، وأخذ منه الألم كل مأخذ . وقد أرسل (محى الدين بن الزكى) قاضى الشام ، قصيدة عصماء يمتدح فيها السلطان ، ويشير إلى فتوحاته مطلعها :

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر   مبشر بفتوح القدس فى رجب

ولا شك أن فتح « حلب » وضمها إلى قائمة البلدان السلطانية ، كان نصرا للسلطان مؤزرا حيث أعلى من قدره وعظيم شهرته ، بل وجعله هذا الفتح المبين فى فى طليعة عظماء الاسلام وأمرائه طرا ، فقد دانت له جميع البلاد الجزرية

ما عدا (الموصل) حتى (الرملة) بفلسطين ، ومنها حتى طرابلس الغرب ثم اليمن ، وكان أمراء تلك البلاد جميعها يأتمرون بأمره وينفذون طوعا أحكامه وينتهون بنواهيه . . . ولم يعد يشغل بال السلطان ويسيطر على أفكاره سوى فكرة استرداد (القدس) ، وطرد الأفرنج من كافة البلاد الاسلامية .

ولقد غادر السلطان مدينة (حلب) فى الثالث من جمادى الأولى من عام (٥٧٩ هـ) وكان الافرنج حينذاك ، قدانتهزوا فرصة وفاة (عز الدين فرخشاه) نائب السلطان فى دمشق وأغاروا على البلاد السلطانية ، حتى وصلوا قرى الشام وأخذوا يخربون ويدمرون وينهبون ويسلبون . وحدث ذلك فى الوقت الذى كان أمير الكرك الأفرنجى ممعنا هو الآخر فى شن الغارات على البلاد الاسلامية حتى وصل إلى أطراف المدينة المنورة ، ولم يكن بينه وبين اقتحامها الا مدى يسير ، لولا وصول الأمير (لؤلؤ) فى الوقت المناسب لانقاذ المدينة من المغيرين ، فاشتبك معهم فى حرب ضروس طاحنة ، غلبهم فيها على أمرهم ، وردهم على أعقابهم خائبين ، مدحورين ، بعد أن أسر منهم الجم الغفير .

ولا ريب أن هذه الحوادث قد أثرت فى أفكار واتجاهات السلطان تأثيرا بعيد المدى . فوطن نفسه للانتقام من الافرنج شر انتقام ، فعبر نهر الأردن بجيش عرمرم . وما أن وصل (بيسان) حتى أحرقها . ثم التحم بالعدو شمالى (العفولة) ولكن العدو ما لبث أن ولى الأدبار ، ولم يجسر على الاشتباك بجيشه الضخم فى القتال . وقد عاد الى ناحية (الصفورية) .

وعلى أثر ذلك نظم السلطان صفوفه وواصل الزحف حتى وصل الى الكرك وحاصرها حصارا منيعا وضيق الخناق عليها ولكن القلعة الحصينة قد امتنعت عليه ، ولم يفده حصارها ، ولكن اليأس لم يجد الى نفسه سبيلا

فأعاد الكرة وعاد اليها بعد عام ولم ينل منها أيضا .[1]

واثر هذه الحوادث طلب الأفرنج جميعا الصلح والمهادنة من السلطان لمدة أربع سنوات ، فقبل السلطان طلبتهم ، وعاد إلى الشام . وفى هذه الاثناء رغب حاكم الموصل — بعدموافقة الخليفة العباسى — فى عقد صلح مع السلطان وإزالة مابينهما من جفوة وشقاق ، فأرسل إليه وفدا مؤلفا من (القاضى بهاء الدين بن شداد) الذى كان مقربا من السلطان ومكرما لديه ، ومن (صدر الدين شيخ الشيوخ) . بيد أن السلطان لم ير من مصلحته فى شىء ، قبول عروض

---

(١) نشرت مجلة (كل شىء) المصرية فى العدد ٢٩٦ الصادر بتاريخ ١١ يوليو سنة ١٩٣١ تحت عنوان (صلاح الدين والأميرة الأفرنجية) قصة تدور حول محاصرة الكرك ملخصها :

« فى عام (٥٧٩ هـ) ألقى السلطان صلاح الدين الحصار على قلعة الكرك وفى هذه الآثناء كان (همفروى) الرابع (كونت دى تورون) قدعقد زواجه على كريمة الكونت (رينو دى شاتليون) وكانت الاستعدادات تجرى فى أحد أبراج القلعة توطئة للاحتفال بالزواج فأوفدت والدة العريس وهى الأميرة (ايتانات) هيئة من كبار قومها حاملين هدايا فاخرة إلى السلطان صلاح الدين ، ورسالة منها اليه ترجوه فيها ألا يطوق البرج الذى يقام فيه الاحتفال فى الليلة المعلومة وأن يتقبل المسلمون هدايا العرس بقبول حسن ثم تخاطب السلطان فتقول « أتذكر حينما كنت أسيرا فى قصرنا ما كنا نحوطك به من التجلة والاكرام ، وتيسير أسباب الراحة لك ، والعناية بك؟ فتقديرا لهذه الذكريات الصادقة ، أرجو ألا ينقلب فرح ابنى إلى ما يكدر الصفو » — فبناء على هذا يكون السلطان قد أسر فى وقت ماوأنه كان مقيما فى اساره لدى (همفروا) . (المؤلف) — [المصادر الاسلامية لا تعرف مثل هذه الروايات والقصص — المترجم] .

الصلح مؤثرا إعمال السيف وإثارة الحرب ، ولهذا جهز جيشا توجه به صوب الموصل ، وألقى الحصار عليها فى عام (٥٨١ هـ) ،، وأوفد إليه حاكم الموصل فى هذه المرة والدته وهى كريمة عمه المغفور له السلطان (نور الدين) ، أملا فى موافقة السلطان على عقد الصلح إكراما لوفادتها ، ولكن الموفدة قد عادت بخفى حنين .

ولما جاءت الانباء بقيام اضطرابات ونشوب قلاقل وفتن فى أنحاء (خلاط) رفع الحصار عن الموصل ، وتوجه صوب (ميافارقين) فاستولى عليها فى ربيع الآخر عام (٥٨١ هـ) ثم عاد إلى محاصرة الموصل واستمر حصاره لها حتى انتابه مرض عضال ، وألح عليه المرض واشتدت به العلة ، فاضطر للعودة إلى «حران» ليمضى فيها بعض الوقت ، وقد قابله فى طريقه إليها مندوب آخر من قبل حاكم الموصل ، ليعرض عليه شروطا ملائمة للصلح ؛ منها الخطبة وضرب النقود باسم السلطان مع التنازل له عن بعض البلاد ؛ غير أن المرض الذى لا يرحم قد اشتد على السلطان لدرجة أن بلغ ببعضهم اليأس فى شفائه ،وأوصى السلطان باللازم وما يتبع ،، ولكن حدثت المعجزة إذ لم يمض على ذلك طويل وقت حتى خفت وطأة المرض ، وأخذ يتماثل للشفاء فى أواخر ذى القعدة عام (٥٨١ هـ) ، وقد وصل وفتئذاك إلى (حران) القاضى ابن شداد وعرض على مسامع السلطان — باسم حاكم الموصل — شروط الصلح ، فقبلها السلطان ، وهى تقضى بالاعتراف بالسلطان حاكما على شمالى الجزيرة ، وشطر من كردستان (أرمينية) وعلى أثر ذلك ، عاد السلطان من حران إلى حمص ، وهنالك لبث فترة من الزمن ، ثم عاد إلى الشام حيث وصلها فى المحرم من عام (٥٨٢) للهجرة .

١٠ — « السلطان صلاح الدين والصليبيون »

لما استتب الأمر للسلطان صلاح الدين ، أو بمعنى آخر بعد أن انتهى من

تدبير شئون الشام والجزيرة ، وقضى على أسباب الفرقة والشقاق التى كانت مستحكمة الحلقات بين أمراء تلك البلاد وحكامها حيث أخضعهم جميعا لأمره وتسنى له بفضل ذلك أن يضم شمل القوى المتنازعة ، ويجمعها حول فكرة موحدة ، وهدف واحد ألا وهو « ضرورة فتح القدس وطرد الصليبيين من البلاد الاسلامية جمعاء . »

وهكذا أقدم بكل جرأة وعزم من حديد على اعلان الجهاد المقدس ضد الافرنج . وكانت الظروف مواتية له ومساعدة من ناحية الافرنج أنفسهم اذ كان أمراؤهم وقوادهم فى فلسطين متنابذين متناحرين وعلى الخلاف مع بعضهم البعض مواظبين ، ولا سيما بعد وفاة (بلدوين الرابع) حيث تزعزعت أركان الحكم ، واختل النظام بينهم ، وقام (رياموند) حاكم طرابلس بتصريف شئون الحكم ـ بالنيابة ـ فترة من الزمن ، ولما تزوجت (سيبيل) أخت الملك المتوفى بأمير يدعى (جوى) ثم توجت بدل أخيها ، أقدم زوجها الأمير (جوى) على حشد جيش ضخم ؛ وزحف به على (رياموند) الذى كان وقتذاك فى (طبرية) فاضطر (ريامو ند) إلى طلب النجدة من السلطان، الا أن السلطان قد آثر التريث ولم يسرع بموافاته بما طلب منه من نجدة اذ لم يكن راغبا فى أن يكون هو البادىء بنقض شروط المعاهدة القائمة ، ولكن الذى أقدم على نقض الشروط فى هذه المرة أيضا ، هو أمير من أمراء الأفرنج وهو (رينولد) حاكم الكرك ، وكان ذلك فى عام (٥٨٢) للهجرة حيث كانت قافلة إسلامية مارة على مقربة من الكرك فهاجمها الأفرنج ، وسلبوها ، وأسروا من يصطحب القافلة من رجال ونساء ... وجاء فى رواية أن أخت السلطان كانت ضمن الأسرى أيضا ... ولم يكتف (رينولد) بارتكاب هذا الحادث ، بل بدر منه الكثير مما يعتبر ماسا بشعائر الدين الأسلامى وكرامة المسلمين . ولما ترامى نبأ هذه الحوادث المثيرة إلى مسامع السلطان ، استشاط غضبا ، وغلى الدم فى عروقه ، وأقسم الأيمان المغلظة بأنه إذا قيض له أن يقبض على (رينولد) ،

فأنه سيتولى بنفسه وبيده قتله ، جزاء وفاقا لعمله المنكر .

وقد أعلن السلطان الجهاد العام ، واتخذ التدابير اللازمة للمحافظة على طريق الحاج وتأمينه ، ثم أقام معسكره فى « قصر السلامة » على مقربة من «بصرى» وما هى إلا فترة وجيزة حتى وصل الجيش من مصر وعسكر إلى جانبه ،، وفى هذه الآونة تواترت الأنباء بأن ابنه الملك (الأفضل على) قد عقد له لواء النصر على جيش للأفرنج فى جهة « عكا » وألحق بهم هزيمة منكرة ، وخسرانا مبينا.

وأخيرا ، وبعد نزاع طال أمده ، تصالح « ريامو ند » مع إخوانه الأفرنج وأزال ما كان بينه وبينهم من فرقة وجفوة فقوى جانب الأفرنج وأضحوا - كما كانوا قبلا - كتلة موحدة متراصة . وإزاء ذلك ، عقد السلطان مجلس حرب للتشاور فيما يجب اتباعه بصدد الحالة الحربية الراهنة ، وموقف الأفرنج العدائى من المسلمين ، وبعد المناقشة استقر رأى المجلس على شن حرب لاهوادة فيها على الأفرنج .

وفى يوم الخميس ١٦ ربيع الأول من عام « ٥٨٣ هـ » تحركت جحافل الجيوش الأسلامية فعبرت نهر الاردن فى جنوبى « الطبرية » يوم الجمعة ، ثم تقدمت قوة إلى الأمام مستطلعة أنباء العدو الذى كان معسكرا فى المكان المسمى « صفورية » ، ثم ترك السلطان قوة عسكرية أمام العدو لمناوشته وشغله وعاد هو ببقية الجيش إلى « الطبرية » واستولى عليها ؛ غير أن أهل «ريامو ند» قد تمكنوا من اللجوء إلى القلعة بأموالهم ونسائهم ، وطلبوا النجدة من الملك (جوى) . وبعد أن طال أمد المفاوضات والمشاورات بين الحكام الأفرنج استقر رأيهم بالأجماع على محاربة السلطان ، ثم عمدوا إلى قطع المياه عن جيوش السلطان ، ولكن تدبيرهم هذا قد ذهب سدى ، لأن السلطان كان قد سبقهم واتخذ تدابير فعالة تحول دون وصول الأعداء إلى أغراضهم ، بل المدهش أنه قد حدث العكس وظل الأعداء محرومين من المياه فى ايام اشتد فيها القيظ وحمى وطيس القتال ، فلم يجدوا مندوحة من الرجوع إلى معسكراتهم خائبين

مدحورين . وفى عداة ذلك اليوم شن الجيش الاسلامى حملة قاسية وهجوما عنيفا على الجيوش الأفرنجية ، فأذاقها مرارة الحرب والقتال علاوة على ما ولده فيها العطش والجوع من الخور والضعف وأسفر القتال عن هزيمة الأفرنج واندحارهم . ويعتبر اليوم السادس بعد العشرين من ربيع الآخر من عام (٥٨٣) للهجرة ، يوم انهيار أساس ودعائم السلطة الأفرنجية بفلسطين . حيث وقع فى الاسر كل من الملك (جوى) ، وأمير الكرك ، وأخى الملك ، وأمراء آخرين وغيرهم كثيرين من كبار الأفرنج ... وكان من بين الغنائم الكثيرة التى استحوذ عليها المسلمون ، خشبة الصليب المقدس ،

والذى لا يتطرق إليه الشك أن هذه الهزيمة كانت منكرة بل وقاصمة ، فلم يصب بمثلها الأفرنج منذ وطئت أقدامهم أراضى البلاد الشرقية . وقد أقيم سرادق فاخر ـ على اثر الحاق الهزيمة بالأفرنج ـ للسلطان ، حيث جلس فى صدره ، ومن حوله بضعة من قواده وكبار الأعيان ، ثم قدم إليه الاسرى يتقدمهم الملك (جوى) ، وأمير الكرك المشهور . وما أن استقر المقام بالملك (جوى) حتى طلب ماء جىء به إليه . فسارع إلى شربه وبعد أن تناول جرعة منه ، ناوله إلى أمير الكرك ، ولكن السلطان منعه من ذلك قائلا : « نحن لم نعطه هذا الماء حتى يأمن من انتقامنا منه » ثم استرسل فى سرد وتبيان ما ارتكبه أمير الكرك من المظالم والقسوة ضد المسلمين ، وما ألحق بالحجاج المسلمين من الأذى وما وجه إليهم من إهانات ،،، ثم انفرد السلطان قائما وضرب عنقه بنفسه وبذلك بر بيمينه وتأثر الملك (جوى) بهذا الحادث ، وتملكه الذعر والخوف على نفسه ، إلا أن السلطان قد بعث فى نفسه الطمأنينة ، وأزال ما انتابه من خوف وذعر ، ثم أكرم وفادته ، وأمر بتقديم المساعدات والتسهيلات الضرورية له ولجميع الأسرى الآخرين وبترحيلهم إلى الشام بكل تجلة وإكرام ، ماعدا مائتى أسير أمر السلطان بقتلهم جميعا ، لماسبق أن أظهروه من قسوة وارتكبوه من مظالم حيال المسلمين .

وبعد فترة من الزمن زحف السلطان على قلعة (الطبرية) ، فاضطرت زوجة (رياموند) اللاجئة اليها ، إلى تسليمه القلعة ، ثم واصل السلطان الزحف حيث توجه صوب ما تبقى من بلاد فلسطين ودخلها الواحدة تلو الأخرى ، فاتحا غازيا ، وكان كلما طرق أبواب بلدة سارع أهلوها بتسليمها إليه ، ولم يكن بها من الحاميات إلا عدد قليل ، وكان السلطان يعامل الأهالى من غير ما فارق جنسى ولا دينى ، وأحسن معاملة الجميع دون استثناء مما حببه اليهم عامة .

وبعد أن تم له الاستيلاء على (الطبرية) واصل الزحف على (عكا) التى استماتت حاميتها فى الدفاع عنها بادىء الأمر ، ولكنها عادت واستسلمت أخيرا ورضخت للصلح ، وسمح السلطان لأهليها بمغادرة البلدة ، فدخلها جيش المسلمين فى اليوم الثانى من جمادى الأولى (٥٨٣ ﻫ) ، وأدوا صلاة الجمعة فى الجامع الذى كان الأفرنج قد حولوه إلى كنيسة .. وقد اغتنم المسلمون الكثير الطائل من الأموال من هذه القلعة .

ثم بعث السلطان إلى أخيه الملك العادل بمصر يبشره بالانتصار ويأمره بالاغارة على البلاد المتاخمة حتى الحدود المصرية ، وتطهيرها من فلول الصليبيين فقام الملك العادل بالمهمة التى وكل إليه تنفيذها ، فاستولى على حصن (مجدل يابا) ومدينة (يافا) ، ووقع فى قبضته الكثيرون من الأفرنج أسرى وكان السلطان قد أرسل بنفسه بعض سراياه من قلعة (عكا) إلى الأطراف ، فاستولت هذه القوات على (الناصرة) و (قيسارية) و (حيفا) و (صفورية) و (الشقيف) و (الفوله) و (معليا) فى حين أن استولت جيوش إسلامية أخرى على « نابلس » و « سبسطيه » وبها قبر زكريا ، ومدن أخرى فى تلك الجهات . . . ثم زحف السلطان بنفسه على قلعة « تبنين » التى كان قد أنفذ ابن أخيه (تقى الدين عمر) للاستيلاء عليها واستولى هو عليها ، ثم عرج على «صيدا»

فاحتلها دون سفك دماء ، كما استولى على « بيروت » بعد قتال دام ثمانية أيام وأراد السلطان بعد ذلك الاستيلاء على (عسقلان) لأنها تقع على طريق مصر والبلاد الشامية ، وتعتبر مفتاح القدس، ومن دواعي الأسف أن السلطان قد أهمل الاستيلاء على قلعة « صور » حينذاك حيث كان يجتمع فيها رويدا رويدا فلول الصليبيين المهزومة ، غير أنهم كانوا يفتقرون إلى زعيم يلتفون حوله ، ويأتمرون بأمره ، فكان الاستيلاء عليها فى غاية السهولة ، إلا أن السلطان لأسباب نجهلها لم يبد اهتمامه بها حينذاك ، فأحجم عن الاستيلاء عليها فى هذا الظرف المواتى .

وهكذا أصبحت هذه القلعة فيما بعد أهم مركز عسكرى حصين للنصارى، حيث قدم المركيز (كونارد) عن طريق القسطنطينية بجنود كثيرين ، وعتاد ضخم ، واعتصم بهذه القلعة ، ونظم بها خطط الدفاع عن البقية الباقية من أملاك الصليبيين فى تلك البقاع ، وسميت هذه الحملة بالحملة الصليبية الثالثة التى جرت الكثير من الويلات والمصائب على المسلمين .

ولا شك أن هذا الاهمال اليسير لمن أكبر أخطاء السلطان السياسية والعسكرية ، لأن أهالى (صور) كانوا يطلبون الصلح ويعرضون التسليم بلا قيد ولا شرط ، ولكن مالبثوا أن تراجعوا وغيروا رأيهم إثر وصول (كونارد) هذا ، وقد أراد السلطان أن يستعين بوالد (كونارد) الذى كان أسيرا لديه فى دمشق على تسليم (صور) ومنع أهليها فى الدفاع عنها ولكنه أخفق فيما أراد . وذهبت مساعيه فى هذا الصدد أدراج الرياح . وفد توجه السلطان بعد ذلك إلى (عسقلان) وحاصرها أربعة عشر يوما ، بذل فى أثنائها مجهودا جبارا أملا فى الاستيلاء عليها بطريق سلمى ، بوساطة الملك (جوى) ولكن دون جدوى . فاضطر فى آخر جمادى الثانية للقيام بهجوم عنيف على القلعة واضطر المدافعين إلى التسليم بشروط . . . وأعقب ذلك استيلاؤه

على غزة والرملة وخليل الرحمن وبيت لحم ، وبيت جبريل وبضعة بلدان أخرى.

وقد أتم السلطان هذه الفتوحات العظيمة فى مدة لا تزيد على شهرين على التحديد ، الأمر الذى لم يتيسر لأحد من السلاطين قبله فى سنين . ولقد أدى ذلك كله إلى فتح الطرق إلى القدس الشريف من كل الجهات أمام المسلمين .

ونظرا لأن السلطان كان يقدر قيمة هذه المدينة المقدسة فى نظر المسلمين والنصارى على السواء ، ويعرفها حق المعرفة ، فلم يرد ـ رحمه الله ـ الاقدام فى بادىء الأمر على محاولة الاستيلاء عليها عنوة ، بالوسائل العسكرية المدمرة ، فأوفد رسلا من قبله إلى أهالى القدس وأولى الأمر فيها كى يسلموا المدينة بطريقة سلمية حقنا للدماء ، ولكن الأفرنج قد ركبوا رءوسهم ، ورفضوا قبول الصلح ؛ كما أبوا التسليم بطريقة سلمية ، وسبب ذلك هو أن (بلبان(١)) حاكم الرملة سابقا والذى وقع أسيرا فى قبضة السلطان فى معركة (حطين) ، كان قد طلب إلى السلطان السماح له بقضاء ليلة واحدة فى القدس ، ثم يعود بعدها مستصحبا معه أسرته المقيمة فى القدس .. فسمح له السلطان وأجابه إلى طلبته ، اعتمادا على شرفه العسكرى .. إلا أن هذا القائد العديم الشرف قد أخلف وعده ، وتخلف فى القدس ليقود ويترأس حاميتها ، وينظم الدفاع عنها ... وقد تسنى له حشد ستين ألفا من الجنود وتجهيزهم أتم تجهيز بفضل الأموال الطائلة مما هو مدخر فى خزائن الكنائس وغيرها ، والتى وضعها مطران القدس تحت أمره ورهن إشارته للإنفاق منها على شئون الدفاع .

ولما وصلت الأنباء الأكيدة عن هذه الاستعدادات الهائلة إلى السلطان صلاح الدين ، توجه على الفور بجنوده صوب القدس ، فوصلها فى الخامس عشر من شهر رجب من عام (٥٨٣ هـ) ، وضرب نطاق الحصار حولها .

---

(١) فى ابن الاثير (١٢ ص ٢٢٣) باليان بن بيرزان صاحب الرملة ومرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك .
المترجم

وبعد أن أمعن النظر فى المراكز الحربية ، وفحصها فحصا دقيقا طيلة أيام خمسة كاملة تراءى له صلاحية الجهة الشمالية من المدينة للقيام منها بالهجوم العام ، فنقل إليها معسكره على الفور ، واتخذ (جبل الزيتون) مركزا لقيادته . وأخذ يضيق الحصار على المدينة من هنالك . ثم بدأت الجيوش الاسلامية تتقدم شيئا فشيئا ، وتجتاز مافى طريقها من العقبات والعراقيل التى كانت تحوط المدينة ولم يلبث سكان المدينة أن اشتد بهم الضيق . فاضطر المدافعون من الأفرنج إلى طلب الصلح . والأمان .. وبعد مفاوضات طويـــلة شاقة بين الطرفين ، تم الاتفاق على أن يغادر الأفرنج المدينة والقلعة فى خلال أربعين يوما ، نظير دفع كل واحد من الرجال عشرة دنانير ، وكل واحدة من النساء خمسة دنانير ، وعن كل طفل دينارين فدية لنجاتهم وسلامتهم من الهلاك .

وهكذا سلمت المدينة لصلاح الدين وبدأ خروج أهاليها وحاميتها منذ يوم الجمعة السابع بعد العشرين رجب من عام (٥٠٣هـ) وبذلك تحققت نبوءة (محى الدين) قاضى الشام حين فتح حلب حيث قال إن القدس أيضا ستفتح فى شهر رجب كما فتحت (حلب) فيه [١] .

وقد استدعى السلطان هذا القاضى لمقابلته . وكلفه بإلقاء خطبة الجمعة فى القدس يوم فتحها . وكان عدد المصلين فى ذلك اليوم كبيرا لدرجة أن المسجد الأقصى قد ضاق بهم على سعته ، وكانت الفدية التى فرضها (صلاح الدين) على حامية القدس من الأفرنج قد اختص بها الأفرنج وأتباعهم دون غيرهم ، لأنه سمح للنصارى المحليين بأن يلبثوا فى القدس كسائر النصارى الذميين ،

---

(١) قال لى المرحوم ابراهيم أفندى الحيدرى ان القاضى محى الدين جعل البيت الآتى مقدمة لخطبة الجمعة التى ألقيت يوم الفتح فى المسجد الأقصى .

الحمـد لله ذلت دولة الصلبى وعز بالـكرد دين المصطفى العربى

المؤلف

خاضعين لأحكام الشريعة الاسلامية · ولم يدخل السلطان المدينة إلا بعد أن غادرها قواد وزعماء الجيش الصليبي ، وما أن وطأت قدماه أرض المدينة حتى أصدر عفوا عن سبعة آلاف من أولئك الذين عجزوا عن دفع الفدية ، من الأفرنج ، وذلك تلبية وتحقيقا لرجاء أخيه الملك العادل (أبى بكر محمد) ، ثم أصدر عفوا آخر عن عشرة آلاف آخرين حين تحقق عجزهم عن دفع الفدية ولم يكتف بهذا ، بل إنه قد أباح يوما كاملا لخروج الفقراء من ذكور وإناث دون أن يطالبوا بدفع الفدية ، كما أذن للقسس والموظفين الدينيين . بأن يحملوا معهم ما يلزمهم من الأمتعة .

وخلاصة القول ان السلطان قد أظهر فى فتح القدس من آيات العدل ومظاهر الرحمة والعطف ، ماقد فاق وتجاوز مايتصوره العقل ،وهذا الأمر متفق عليه ويعترف به المؤلفون والمؤرخون الأفرنج ويدهشون له ،، إذ كان السلطان يكرم مثوى الضعفاء والعاجزين ، ويحترم النساء ، ويقدم لهن كافة التسهيلات وأجل الخدمات ،. وقد أثر عنه أنه أكرم وفادة الملكة (سيبيل) وحقق رجاءهم إذ أرسلها إلى زوجها الملك (جوى) الذى كان أسيرا فى نابلس كما أنه أجاب طلب الكثيرات من الامهات والزوجات اللائى مررن أمامه باكيات مولولات باطلاق سراح أبنائهن وأزواجهن من الاسر .

ولا يخفى أن هذه المعاملة الشريفة السامية التى عامل بها (صلاح الدين) أفرنج القدس وفلسطين ، كانت على العكس تماما من تلك المعاملة القاسية التى عامل بها هؤلاء الافرنج المسلمين لان (جودفرى) حينما استولى على القدس سنة (٤٩٢ هـ — ١٠٩٩ م) ، قد ارتكب ما يندى له جبين التاريخ من الفظائع والاهوال مع المسلمين الآمنين ، إذ قتل منهم سبعين ألفا من الرجال والنساء على التحديد .. وهذه حقيقة ثابتة لايمكن أن ينكرها المؤرخون المسيحيون، بل إنهم قداعترفوا بها بكل جلاء وصراحة .. ولبث صلاح الدين

فى القدس قرابة شهر نظم خلاله بعض أمورها ، فعمر الجوامع والمؤسسات الاسلامية وأعاد اليها بهاءها ورونقها من جديد ، وأنشأ المدارس والمعاهد وأجرى عليها ما يكفيها من الصدقات الجارية والأوقاف الثابتة ، ثم توجه على رأس جيشه الظافر إلى (صور) حيث كان أسطوله قد توجه من مصر صوب ميناء هذه القلعة بأمر منه ، غير أن المركيز (كونارد) كان قد اغتنم الفرصة وحصن هذه القلعة تحصينا قويا ، ولهذا لم تكلل بالنجاح جميع الجهود التى بذلها السلطان لاقتحام هذه القلعة والاستيلاء عليها عنوة من البر والبحر . وكان الشتاء قد أقبل ببرده القارس ، فانصاع السلطان لنصيحة بعض الأمراء والقواد ورفع الحصار وعاد بالجيش حيث أخلدوا إلى الراحة .

ولكن السلطان ما لبث أن عض بنان الندم حيث لم يكن هؤلاء الأمراء فى بادىء الأمر قد عرفوا أهمية هذه القلعة وما لها من قيمة حربية . مثل ما كان يعلم السلطان ، فكان من الواجب إذن الاستيلاء على هذه القلعة الوحيدة الباقية فى قبضة الصليبيين بأى وسيلة كانت ليظهروا البلدان الفلسطينية منهم تمام التطهير . ولكن مما يؤسف له أن القواد والأمراء العسكريين قد أصروا على خلاف ما ارتآه وأراده السلطان بصدد الاستيلاء على هذه القلعة الهامة.

وقد ترتب على ذلك ثلاثة أخطاء بارزة :

١ ـ كان الواجب أن يتقدم فتح هذه القلعة ، فتح القدس، مادام لم يحدث ذلك فى وقته المناسب الذى أضاعوه سابقا .

٢ ـ كان الواجب أن يحول السلطان دون عودة الأسرى الافرنج وغيرهم من مقاتليهم الذين أطلق سراحهم أو الذين غادروا المدن المستردة من الافرنج وغيرهم إلى الاحتشاد فى قلعة (صور) والتحفز لقتال المسلمين مرة أخرى .

٣ ـ كان الواجب الاستيلاء على هذه القلعة بأى ثمن كان ، بعد أن أتم

الجيش الاسلامى فتح القدس ونظم أمورها ، ثم ضرب فعلا نطاق الحصار حولها فلم يكن من الكياسة إذن تركها دون فتح .

وصفوة القول إن فتح القدس من جديد على أيدى المسلمين قد أثار روح التعصب بين المسيحيين فى أوربا ، وأقام القسس ورجال الدين وأقعدهم ، فانبثوا فى أنحاء البلاد يوقدون نار الحماس والتعصب بين المسيحيين من كافة الأمم والأجناس . فما هى إلا فترة وجيزة حتى احتشدت منهم قوة هائلة توجهت من كل فج عميق نحو فلسطين تحت قيادة ملوكهم وزعمائهم المشهورين ، وكان من الرؤساء البارزين فى هذه الحملة الصليبية المشهورة امبراطور ألمانيا ، وملك انجلترا (ريشارد) الشهير بقلب الأسد ، وغيرهما من الملوك والعظماء .

وفى هذه الأثناء كان (صلاح الدين) قد أتم فتح قلعة (هو نيين) وضرب نطاق الحصار حول قلاع كوكب وصفد والكرك ، ثم عاد إلى دمشق فى السادس من ربيع الأول من عام (٥٨٤ هـ) حيث جهز جيشا حافلا توجه على رأسه صوب (أنطاكية) و (طرابلس) ولما استولى على(أنطرطوس) أطلق سراح الملك(جوى) (؟)مشترطا عليه ألا يعود إلى قتاله ، وأن يبارح سورية على الفور إلى أوروبا . ولكن هذا الملك قد خان عهده وذهب توا إلى(صور) عارضا خدمته على (كونارد) ولكن عرضه هذا كان نصيبه الرفض وعدم القبول ، فذهب أخيرا إلى (طرابلس) وتمكن من حشد بقايا الصليبيين ثم عاد أخيرا واشترك مع جيش « صور » فى الزحف على (عكا)

وقد كتب الفوز للسلطان فى هذه الحروب حيث استولى على (المرقب والجبلة ، واللاذقية ، وصهيون) وغيرها من القلاع والمدن ثم عاد عن طريق حلب إلى دمشق الشام وصرف عامة جيوشه للراحة والاستجمام وتوجه هو بخاصة عسكره خلال الشتاء إلى (صفد) و (كوكب) فاستولى عليهما .

وفى نفس الوقت جاءت الأنبـاء تترى بأن أخاه (الملك العادل) قد استولى على قلعة (الـكرك) الشهيرة .

نعم ! إن السلطان قد تمكن من انتزاع جميع قلاع سورية وفلسطين ومدنهما من بين براثن الافرنج ما عدا قلعة الصور ذات الأهمية ، والتى أدى بقاؤها فى قبضة الأفرنج إلى تهديد المسلمين بخطر شديد ، ولاسيما أن التعصب الأوروبى كان قد بلغ منتهاه من الشدة وقتذاك ، وكانت جموع الصليبيين من الحملة الثالثة ، قد أخذت تتدفق كالسيل الجارف على فلسطين ، وتعتصم بقلعة « الصور » الأمر الذى أدى إلى تغيير موقف السلطان من خطة الهجوم إلى خطة الدفاع ابتداء من عام (٥٨٥ هـ)

وقد حشد (كونارد) قائد قلعة الصور ، قوة عسـكرية هائلة فى هذه القلعة ، ودلت كافة القرائن وجميع الدلائل على أن هذه القوة آخذة فى الزحف على البلاد الاسلامية ، حيث صارت فيما بعد مقدمة لأكبر نكبة حاقت بالاسلام . وتفصيل ذلك ، أن الملك (جوى) قدحشد — على خلاف ما أعطى على نفسه من العهود والمواثيق — جيوشا حافلة وكثيرة فى طرابلس وكان يتلقى بين آن وآخر نجدات وامدادات كبيرة عن طريق البحر من الافرنج .

ولم يقف السلطان إزاء ذلك مكتوف اليدين ، بل أخذ بدوره فى اعداد جيش لملاقاة خصومه فى (مرج عيون = مرجعيون) هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ضرب نطاق الحصار على قلعة (شقيف أرنون) . ولما جاءته الأنباء بأن الأفرنج قد ضيقوا الحصار على (عكا) ترك فريقا من جيشه ملقيا الحصار على الشقيف وتوجه بالأغلبية العظمى من جيشه لرفع الحصار عن عكا . وكان المحاصر لها من الافرنج هو الملك جوى ، وقد دام هذا الحصار عامين كاملين ، وكان السبب فى طول مدة الحصار هو تلقى الافرنج النجدات

تلو النجدات . واشترك (كونارد) أيضا فى هذا الحصار .

ولو أن صلاح الدين قد أبدى اهتماما بحصار « عكا » من بادىء الأمر ووجه ضربة قاضية إلى المحاصرين قبل تزايد عددهم واشتداد ساعدهم ، وقبل وصول (كونارد) لنجدتهم ، لما طال الحصار إلى هذا الحد ، ولما طمع الأفرنج فى الاستيلاء على القدس وفلسطين مرة أخرى . بل الذى حدث هو العكس ، إذ أن السلطان قد اهتم بادىء ذى بدء بقلعة الشقيف وترك الفرصة للملك (جوى) كى يحشد قواته ويزيدها يوما فيوما . وما أن وصل السلطان صلاح الدين إلى عكا ، ورأى الأفرنج منهمكين فى تضييق الحصار ، حتى بادر إلى مناوشتهم وسبر غورهم ، وإن هى إلا بضعة أيام حتى سنحت له الفرصة للقيام بهجوم مباغت عنيف فى إحدى نواحى (عكا) واقتحمت قوة كبيرة البلدة تحت قيادة ابن أخيه الأمير (تقى الدين عمر بن شاهنشاه) ، وفتحت الطريق لايصال النجدات والعتاد .

ويقول (ستانلى) إن السلطان قد تمكن بنفسه من دخول (عكا) فى أصيل اليوم الثانى من شعبان عام (٥٨٥ هـ) . ونصب الأمير (حسام الدين السمين) حاكما للقلعة وقائدا عليها . . ولما أرخى الليل سدوله عادت القوات الاسلامية إلى معسكرها خارج القلعة ، فانتهز الافرنج الفرصة وأقاموا تحصينات هائلة فى الجهات والمراكز الملائمة ، ولاسيما ذلك الطريق الذى كان السلطان وجنوده قد افتتحوه نهارا بكل مشقة فقد أغلقه الافرنج فى وجوههم وهكذا ذهبت جميع جهود السلطان وجنوده فى هذا اليوم هباء وضاعت سدى . ولقد تجاسر العدو بعد ذلك فقام فى الخامس من رمضان عام (٥٨٥ هـ) — علاوة على تضييقه الحصار — بهجوم شامل وعام على جيوش الاسلام فشتتها ، وأبعدها عن أطراف (عكا) ، وحدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه كافة قوات الاسلام موزعة ومبعثرة فى جهات عدة . . فكان فريق منها

مضطرا للوقوف أمام (أنطاكية) ليرصد حركات أميرها (بوهمند = بيمند) وفريق آخر يقوم على حراسة (دمشق) مما عسى أن تقوم به الحاميات الأفرنجية بطرابلس الشام من حركات ضد المدينة ، بينما كانت هنالك قوة أخرى كبيرة تسهر على حماية « دمياط » و « اسكندرية » من غزو الصليبيين المفاجىء لهما .

وهكذا أفضى هذا الانكسار الجزئى [1] من جهة ، وحلول شهر رمضان واصرار قواد الجيش الاسلامى على الرجوع وترك القتال فترة من الزمن من جهة أخرى ، إلى اضطرار السلطان إلى الانسحاب والتراجع إلى الوراء حتى (الخروبه) وترك (عكا) بمن فيها تحت رحمة القدر . وقد استاء صلاح الدين وحز فى نفسه الألم من نشاط الأفرنج وشدة غيرتهم وحرصهم على مصالحهم فى الوقت الذى ينفر فيه المسلمون من مواصلة القتال مفضلين عليها الراحة والاخلاد إلى السكينة ، لأنه كان يقدر مغبة هذا الأمر تمام التقدير ويعلم بل ويتنبأ بمدى الأخطار المحدقة بالمسلمين ، ولهذا أرسل كتبا إلى شتى البقاع الاسلامية يدعو فيها الملوك والأمراء والزعماء لنجدة الاسلام والمسلمين ، وأمضى الشتاء فى (الخروبة) دون القيام بأى عمل إلى أن تماثل للشفاء من المرض الذى ألم به ، وقد اجتمعت حوله خلال ذلك الجيوش الاسلامية ، فنهض على الفور وتوجه على تلك الجيوش الجرارة لملاقاة الأفرنج فى اليوم السابع عشر من ربيع الأول من عام (٥٨٦ هـ) ، فوصل (عكا) بعد سبعة أيام ، وكان العدو قد ضيق الحصار على المحاصرين ، وفى هذه الآونة كان

---

(١) كانت الغلبة والنصر فى النهاية فى جانب السلطان بحيث قتل من الصليبيين زهاء عشرة آلاف من الجنود والضباط والقواد . (تاريخ إسلام ص ٣٨١)
المؤلف

الأسطول الاسلامى قد وصل من مصر ودخل مياه (عكا) واشتبك مع أسطول الأفرنج فى القتال ، وألحق به هزيمة منكرة ، وتمكن من دخول الميناء حيث استطاع إمداد المحاصرين بمعدات تمكنهم من مواصلة الدفاع .

وفى هذا الوقت بالذات ، جاءت الأنباء تترى بأن (فردريك باربروس) إمبراطور الألمان ، قد دخل فى صفوف الصليبيين الذين تحركوا قاصدين فلسطين وكانت طلائع الجيش الألمانى قد وصلت إلى شمال بلاد قليقية (أطنه الحالية) فلم يسع السلطان أمام سيول الصليبيين المتدفقة الجارفة، إلا الاستعانة بملوك المسلمين وحكامهم فى أطراف الأرض ومشارقها ومغاربها . حتى انه أرسل وفدا لسلطان مراكش (يعقوب المنصور) يطلب إليه مد المسلمين بالمعونة والمساعدة . ومما يؤسف له أن استصراخ السلطان هذا قد ذهب هباء ولم يجد آذانا صاغية ولا قلوبا واعية . إذ لم يلب أحد منهم دعوته ونداءه .

وهكذا بقى بطل الاسلام وحامى حماه وحيدا منفردا أمام أعدائه الكثيرين مستعينا بالله وبقواته الخاصة .

ومن عجائب القدر أن إمبراطور الالمان الذى كان على رأس جيش لجب من جيوش الصليبيين قد لقى حتفه غريقا فى أحد[1] الأنهار حين اجتيازه له فى الحادى عشر من شهر حزيران (يونيو) عام (١١٩٠م) = (٥٨٦هـ) مما أدى إلى عودة فريق من جيشه إلى بلاده ، فى حين توجه الفريق الآخر بقيادة نجله (دوق دوسوابيادا) إلى فلسطين عن طريق أنطاكية .

وكانت جيوش الصليبيين قد انقسمت إلى شطرين ، شطر يقوم بأعباء الحصار ، وشطر وهو الأكبر قد خصص لمحاربة السلطان ومنازلته ، وقد

---

(١) هو نهر جيحان الذى يجرى فى كليكيا (قليقية) ويقال له فى كتب الجغرافيا الاسلامية القديمة نهر المصيصة . المترجم

قام هذا الفريق من الصليبيين فعلا بمهاجمة السلطان فى العشرين من جمادى الآخرة من عام (٥٨٦) للهجرة (٢٦ تموز سنة ١١٩٠ م) فتزعزع جيش السلطان واضطرب كيانه فى بادىء الأمر . ولحق به انكسار جزئى . وتشتت فريق منه حتى وصل إلى أبواب « دمشق » و « الطبرية » واقتحمت بعض طلائع الأفرنج معسكر السلطان. وهنا أخذت الحمية تدب فى الجيوش الاسلامية فثبتت أمام العدو كالطود وكرت على جحافله كرة عنيفة فألحقت بها هزيمة منكرة. وهكذا دب دبيب الفزع والخوف بين صفوف العدو فولوا الادبار ولاذوا بالفرار ومن ناحية أخرى كان المدافعون عن قلعة (عكا) قد تمكنوا ببعض الوسائل، من إحراق الابراج التى كان العدو قد أقامها لتضييق نطاق الحصار عليهم

(١١) — « اتصال السلطان بالجيش الانجليزى »

فى اليوم الثانى والعشرين من شهر جمادى الآخرة من عام (٥٨٦ ﻫ) ، وصل جيش كبير من جيوش الصليبيين بقيادة الكونت (هنرى) ابن أخت ملك الانجليز إلى أبواب (عكا) وأقام معسكره خارجها . وأعد نفسه للقيام بهجوم عام على جيوش المسلمين . . . هنالك فطن السلطان إلى عدم ملاءمة مستقره ومقامه لمنازلة العدو . فانسحب سراعا إلى الخروبة ، بيد أن هذا العمل من جانب السلطان قد قوى من عزائم الافرنج ، فأمعنوا فى تشديد الحصار ، ولكن محافظ القلعة وهو الأمير (حسام الدين) من ناحية ، (وبهاء الدين قره قوش) قائد التحصينات والمهمات من ناحية أخرى ، كانا يبذلان مع الأبطال من المدافعين جهود الجبابرة لصد هجمات العدو الشديدة .

وقد أثنى المؤرخ (ميشو) على حسن بلاء هذين القائدين ثناء مستطابا لما أظهراه من ضروب البطولة والبسالة أثناء الدفاع ، لأنهما تمكنا من إحراق البرج السيار الذى كان يقذف حمما على القلعة وأبراجها من قبل الأفرنج ،

وكانا يخرجان بين الفينة والفنية إلى خارج القلعة ويقتحمان صفوف العدو ويضطرانها إلى تغيير قواعدها ومراكزها والتقهقر والتراجع إلى الوراء .

وقد أفضى ذلك إلى استماتة الكونت (هنرى) فى القتال ، وتشديده الحصار ، وتركيز كافة جهوده فى هذا السبيل . وفى هذا الوقت كانت الذخيرة والميرة قد أخذت تنفد من معسكرى الطرفين ولا سيما لدى المحصورين فى القلعة ولكن السلطان قد تمكن من جلب كمية طائلة من العتاد والأقوات من (بيروت) وإيصالها للمدافعين عن القلعة ، ولما أيقن الصليبيون أن وسائل الحصار التى أقاموها غير كافية لاسقاط القلعة أمام بسالة المسلمين، واستماتتهم فى الدفاع عنها ، بعثوا برسلهم إلى أوروبا من جديد يستصرخون الملوك والزعماء والقسس وعلى رأسهم البابا . فأخذت القوات الصليبية تترى وتتدفق على (فلسطين) وتصل إلى أبواب قلعة (عكا) طيلة فترة الحصار .

وانتهز الكونت (هنرى) الفرصة التى ارتآها سانحة للصليبيين ، فقام بهجوم عام على الجيوش الاسلامية واحتدم بين الفريقين وطيس القتال . . وكان السلطان وقتذاك مريضا طريح الفراش لم يتمكن من الاشتراك والمساهمة فى المعركة الناشبة ، فجلس فى خيمته يشاهد عن كثب معارك حرب ضروس طال أمدها ، واشتد أوارها ثم أسفرت عن اندحار ذريع وخسران مبين للافرنج . مما أدى إلى تقهقرهم وتراجعهم إلى قواعدهم ومراكزهم السابقة . .

ويقول (السيد أمير على الهندى) مؤلف تاريخ الإسلام المصور : انه لو كان السلطان هو الذى يدير بنفسه دفة القتال فى هذا اليوم لانعقد لواء نصر مبين ، ولسجل عمل حاسم لا مثيل له للمسلمين .

وفى تلك الأثناء كان الأسطول الأفرنجى بعيداً من « عكا » بسبب تغير حالة الجو فى البحر . فاستغل المسلمون هذا الموقف ، كما استغلوا فرصة النصر فاستبدلوا حامية « عكا » بحامية أخرى تحت قيادة الأمير (سيف الدين على

المشطوب)، ولكنها كانت أقل من الأولى عددا، على خلاف رأى السلطان وهذا علاوة على عدم كفاية العتاد والسلاح لدى الحامية الجديدة. ويقول بعض المؤرخين إن سبب سقوط «عكا» فى أيدى الأفرنج إنما يرجع إلى قلة عدد المدافعين عنها، وعدم رغبتهم الصادقة فى القتال، وتدفق نجدات متوالية على الأفرنج . . . إذ وصل (فيليب أوجوست) ملك فرنسا فى الثانى عشر من ربيع الأول من عام (٥٨٧ هـ)، إلى أبواب «عكا»، وجعل من جيوشه وسائر جيوش الصليبيين جبهة متحدة متراصة، مما أدى إلى تفوق قوة الأفرنج تفوقا محسوسا على جيوش السلطان، فاضطر السلطان إلى طلب النجدة والمساعدة من الأمراء المسلمين الخاضعين لسلطانه.

وقد زاد الطين بلة وصول (ريتشارد قلب الأسد) ملك الإنجليز أيضا إلى ميدان القتال. وهو الذى اشتهر فى أوربا بقوته الخارقة وبسالته النادرة [١] وما لبث أن اشتد الحصار على (عكا) براوبحرا، واستبسل المدافعون واستماتوا فى القتال إلى حين،، ولم يكن (صلاح الدين) قد تلقى نجدات بعد ولذا لم يكن فى مكنته حتى هذه الساعة القيام بهجوم على المحاصريين لتخفيف الضغط على المحصورين الذين كانوا قد أشرفوا على الفناء والاضمحلال بسبب قلة الأغذية، واستفحال وطأة الأمراض المنتشرة من جراء الجوع والعرى والفاقة، وسائر ويلات الحرب. وقد أمر السلطان فى هذه الآونة بأرسال سفينة محملة بالاغذية من «بيروت» ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهى السفن وجرت الاقدار على خلاف المبتغى، إذ اعترض سبيل السفينة جمع من قوات

---

(١) حينما وصل ملكا الانجليز والفرنسيس إلى (عكا) كانا مريضين، فبعث إليهما السلطان بثلج وفاكهة من جبل لبنان. اهـ (تاريخ الاسلام المصور). المؤلف

ملك الانجليز ، فما كان من قائدها إلا أن سارع باغراقها خوفا من وقوعها المحقق فى أيدى العدو . وقد جاء هذا الحادث ضربة قاضية على آمال المدافعين فى الثبات على الدفاع عن القلعة التى لبثت عامين كاملين تقاوم كافة الهجمات التى أحاطها بها الافرنج من جميع الجهات . فمن غارات شعواء وقتال عنيف إلى اشتداد وطأة الامراض الفتاكة إلى غير ذلك ، مما كان له أكبر الاثر فى إضعاف الروح المعنوية بين جوانح الجنود فاضطروا إلى طلب المعونة من السلطان وألحفوا فى الطلب ، ولكن السلطان لم يكن فى مكنته إجابتهم لقلة مالديه من قوات.

ولما كانت الحالة تسير من سيء إلى أسوأ ، فقد ذهب الأمير « سيف الدين على المشطوب » قائد الحامية إلى ملك فرنسا وقال له : « إننا على استعداد لتسليمكم المدينة على شريطة أن تعاملونا كمثل المعاملة التى عاملنا كم بها سابقا فرد (فيليب أوجوست) على هذا العرض المعقول بقوله : « لا أقبل قط بقاء أحد من حامية عكا وسكانها حيا على وجه الأرض » فاضطر القائد إلى العودة إلى قلعته يائسا حزينا ، وقاومت القلعة فترة أخرى ولكن بكل صعوبة ، إلا أن الجوع و القحط قد أثرا فى النهاية على المدافعين ، فقرروا تسليم القلعة بشرط واحد ، وهو المحافظة على أرواح المسلمين ، وكان ذلك فى اليوم السابع عشر من رجب عام (٥٨٧) . (١٢ تموز = يوليو ١١٩١ م) وكان الاتفاق يقضى بإطلاق سراح ألف وستمائة أسير صليبي لدى المسلمين ودفع مائتى ألف دينار لزعماء ورؤساء الصليبيين الذين لم يكترثوا بتنفيذ هذه الشروط ، وداسوا بالاقدام على العهود والمواثيق ، فأسكرتهم نشوة النصر ، والتعصب الممقوت وعرضوا سكان (عكا) عموما إلى هلاك محقق حيث أعدوا لهم مذبحة دامية وأعمل فيهم ملك الانجليز وجموعه السيوف التى خلفتها حامية القلعة عند باب من أبواب المدينة حتى أفناهم عن آخرهم فى اليوم الثالث بعد العشرين من رجب ، وهكذا أفضى الدفاع عن القلعة إلى التضحية بستين

ألفا من المسلمين فى هذه المرة . وأخيرا كانت بذور الشقاق والخلاف قد أخذت تدب بين الصليبيين أنفسهم مع بعضهم البعض قبل الاستيلاء على (عكا) لان العلاقات بين ملكى الانجليز والفرنسيس كانت متوترة جدا ، كما كان التنافس على أشده بين الملك (جوى والمركيز (كونارد) حول تاج فلسطين ، فكان الملك (فيليب) يعضد المركيز كونارد ويقف إلى جانبه ، بينما كان الملك (ريشارد) يحمى الملك جوى ويشد أزره . وحدث أن أبدى الملك (فيليب) امتعاضه وشديد استيائه من ملك الانجليز نتيجة بعض تصرفات غير لائقة بدت له منه ، فغادر فلسطين فى اليوم السابع من رجب عام (٥٨٧ھ) . إلى أوروبا . ومن ناحية أخرى كان المركيز (كونارد) يفاوض السلطان سرا للاتفاق معه ضد ملك الانجليز .

ولا شك فى أن هذه الامور قد حدت من سطوة الصليبيين وصولتهم ، وقوت ساعد المسلمين وخففت عنهم لوعة ما نزل بهم من الكوارث والبلايا وقد توجه ملك الانجليز صوب (يافا) بعد أن أمضى شهرا فى عكا للراحة والاستجمام ، ولكن جيشه لم ينج فى الطريق من مهاجمة القوات الاسلامية له ، حيث ألحقت به خسائر جسيمة فما كان من ملك الانجليز ـ ردا على ذلك ـ إلا أن بادر إلى تحصين قلعة (يافا) تحصينا منيعا ، وأضاف إلى ذلك بناء قلاع أخرى فى السهول المحيطة بتلك القلعة ولكن الجيوش الاسلامية كانت له بالمرصاد فلم تكن تترك له الفرصة الكافية لاتمام تحصيناتها . ولقد احتدم الصدام بين الفريقين المتنازعين إلى حد أن ملك الانجليز نفسه قد تعرض للاسر والخطف مرارا وتكرارا .

وصفوة القول إن ملك الانجليز لما أدرك ورأى ثبات السلطان ومضاء عزمه ورباطة جأشه وعزمه الاكيد على مواصلة القتال مهما كانت الظروف مع ما يتمتع به من الصفات الحربية النادرة ، ومضاء العزيمة ـ أيقن أنه أمام

خصم جبار لا يشق له غبار . وأنه لايقاس بغيره من الخصوم ، فآمن بأن مناوأته لمثل هذا الخصم العنيد ضرب من المحال وعبث لا طائل من ورائه ، فلهذا وبسبب اعتزامه العودة الى انجلترا قد استقر رأيه على طلب الصلح من السلطان . وكان السلطان صلاح الدين على ما اتصف به من خلق متين ،وجنان ثابت ومضاء عزيمة ، طاهر القلب والنفس ، رقيق الشعور مرهف الاحساس والعاطفة ، فلهذا كان شديد التأثر لكثرة ما أصاب المسلمين من الويلات والمصائب والنكبات ، وهذا ما حمله على أن يأذن للملك العادل بالدخول فى مفاوضات مع الملك (ريشارد) لعقد الصلح . فاجتمع هذان العاهلان وتولى الترجمة بينهما (همفرى دوتورن) . . . إلا أن المفاوضات لم تسفر عن اتفاق لعدم ملائمة الشروط التى عرضها ملك الإنجليز لوضع حد لهذه الحروب الطاحنة الدامية . . ومع ذلك لم تتوقف المساعى لتحقيق هذا الهدف النبيل، والذى قام بالمسعى هذه المرة هو (ماركى دوفروا) وملك الانجليز . . وبعد أخذ ورد انتهى الملك العادل والملك ريشارد الى اقرار الشروط التالية

(١) يتزوج الملك العادل أخت ملك الانجليز على أن يترك له ملك الإنجليز جميع البلاد الساحلية التى تحت سلطانه كهدية للزواج .

(١) يتنازل السلطان صلاح الدين عن البلاد التى فتحها وانتزعها من الصليبيين للملك العادل ، على أن تكون مدينة القدس مشتركة وحرة بين المسلمين والنصارى تحت ادارة أخت ملك الإنجليز وقرينة الملك العادل .

ولقد قبل السلطان صلاح الدين هذه الشروط على مضض حيث لم يطمئن إليها، فى حين رفضها رجال الدين من المسيحيين ولم يقبلوها ، واعتبروا الملك ريشارد وأخته خارجين على الدين المسيحى ، ولهذا لم تنفذ شروط هذا الصلح البتة . والفائدة الوحيدة التى جناها صلاح الدين خلال فترة الصلح هذه وإبان المفاوضات والمخابرات ، هى انتهازه الفرصة والحاقه الخراب والدمار بقلعة

(عسقلان) الشهيرة فى اليوم التاسع بعد العشرين من شعبان عام (٥٨٧ ﻫ) حتى لا تقع غنيمة باردة فى أيدى الأفرنج ، مادام المسلمون يرفضون الدفاع عنها لأن الدفاع عن (عكا) قد كلفهم غاليا . . . ثم عرج السلطان على(الرملة) فأمر بتخريبها أيضا . . . ثم واصل الزحف بجيشه إلى (عين النطرون) فلم يترك فى هذه المنطقة عامرا إلا دمره ، كيلا يفيد منه الأعداء ، ، ولما أقبل الشتاء ذهب السلطان سرا إلى القدس ، وأذن للمجاهدين بالانصراف ، تاركا قوة صغيرة فى تلك الأنحاء بعيدة عن الأبصار لترصد وترقب حركات العدو من ناحية ، وتعزز حصون القدس وقلاعها من ناحية أخرى .

وفى أوائل ذى الحجة عام (٥٨٧ ﻫ) فى صميم الشتاء القارس ، توجه (ريشارد) نحو الرملة فاستولى عليها بعد جهد جهيد ، ثم واصل الزحف والغزو حتى (بيت النوبة) . ولكنه لم يستطع الصمود والثبات هنالك فقفل راجعا تاركا وراءه بعض قوات الصليبيين للاغارة على الأطراف . فذهب هؤلاء إلى (يافا) و (عكا) ... وهكذا انكمشت بل ونقصت قوات (ريشارد) ووزعت وبعثرت فى شتى الجهات . .

ثم أراد هو — وقتذاك — تعمير قلعة (عسقلان) ليتخذهامقراومركزا لحركاته العسكرية الخاصة .. إلاأن الشقاق الذى كان ينخر فى عظام الصليبيين ويهدد كيانهم ، ومنافسة (كونارد) للملك الانجليز ، ووصول أنباء غير مطمئنة له من انجلترا ـ قد ثبط من همة (ريشارد) وسرعان ماأبدى ميله مرة أخرى لعقد الصلح ، فدخل فى مفاوضات لهذا الغرض .

وما أن أقبل الربيع ، حتى تواترت الأنباء بظهور بوادر ثورة داخلية فى أطراف الجزيرة ، فاضطر السلطان لتجريد قوة من جيوشه ، لاخماد تلك الثورات فى مهدها قبل تفاقمها واندلاع لهيبها . . . حينذاك أراد (ريشارد) أن يستغل هذا الموقف ويقوم بمهاجمة السلطان فى هذه الآونة . . . وفعلا

حشد جيشا كبيرا ، وزحف به صوب البلاد السلطانية ، فى منتصف جمادى الأولى من عام (٥٨٨ هـ) وظل يواصل الزحف حتى وصل (حصن الداروم)

وبعد أن سفك (ريشارد) دماء الكثيرين من أهالى تلك البقاع من المسلمين ، وخرب المدن والقرى فى تلك الأصقاع ، أراد أن يعود من حيث أتى ، خشية أن يلحقه إندحار مفاجىء فيقعده عن استرداد القدس ؛ بيد أن الصليبيين لم يذعنوا لأمره، فاضطر لمواصلة الزحف والغزو حتى (بيت النوبة) حيث كان السلطان قد أعد نفسه للدفاع المجيد، فكان قد خرب الطرق ، وغور الآبار ، وأنضب العيون فى جميع المسالك التى يحتمل أن يسلكها العدو ، الأمر الذى أساء الصليبيين أيما إساءة وأقض مضاجعهم ، فساورهم قلق شديد مضن . . . وكان أن عقدوا مجلسا حربيا قرروا فيه العدول عن استرداد (القدس) ، والزحف على مصر نفسها بدل الزحف على القدس .

ولما عاد الملك (ريشارد) إلى « عكا » بعث برسالة إلى السلطان، أثار فيها مسألة الصلح من جديد ، ودارت بينهما مفاوضات انتهت بعقد صلح فى اليوم الثانى بعد العشرين من شعبان عام (٥٨٨ هـ) . (٢ كانون أول سنة ١١٩٢ م) على شريطة أن تبق (يافا) أيضا فى قبضة الصليبيين .

تلك هى النتيجة الحتمية التى وصلت إليها الحملة الصليبية الثالثة فى بلاد المشرق بعدفقدانهم الآلاف من الضحايا التى قدمتها جماعات الفدائيين والمتطوعين من الأوروبيين الذين ساقتهم نزوات التعصب الأعمى الممقوت ، إلى بطاح فلسطين وسهول القدس المترامية الأطراف ، وماذلك إلا بفضل قوة السلطان صلاح الدين ومضاء عزيمته ، وحسن تدبيره للامور، وجرأته النادرة،وسرعة خاطره فى أحرج الأوقات وأشدها حلكة وخطرا ، ولهذا لم يحصل صليبيو الحملة الثالثة فى فترة الخمس سنوات التى خاضوا خلالها غمار معارك طاحنة ، ذهب ضحيتها معظمهم ونجا الباقون بالعودة إلى بلادهم إلا على بلدتين على الساحل حيث بسطوا سلطانهم عليهما .

وأما ما أفاده (صلاح الدين) من هذه المعارك والحروب الأخيرة ، فلنذكر فى هذا المقام ما ذهب إليه صاحب كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبى) حيث يقول : « إن حروب فلسطين قد ابتدأت من بعد معركة (حطين) الكبرى ، ولم يكن حينذاك فى أيدى المسلمين ولا قرية واحدة من أرض (فلسطين) ، ولكن صلح الرملة الذى أبرم فى اليوم الثانى بعد العشرين من شعبان عام (٥٨٨ هـ) ، قد مكن المسلمين من بسط سلطانهم ونفوذهم على كل (فلسطين) سوى قطعة من الارض مستطيلة تمتد من الصور إلى عكا ، حيث طرد الافرنج من كافة البلاد فى تلك البقاع الشاسعة ، وعادت القدس إلى أملاك السلطان ، وبذلك ظهر شأن الاسلام واسترد شرفه ورونقه من جديد »

عاد (صلاح الدين) بطل الكرد والإسلام بعد هذا الصلح إلى القدس حيث تفرغ لتنظيم شئونها وتدعيم أمورها ، فأنشأ بها من المدارس العلمية والملاجىء الخيرية ، والمستشفيات ، ما خلد به ذكره على مدى السنين والايام ثم أبدى رغبة صادقة فى الحج إلى بيت الله الحرام ، ولكن قواد الجيش وزعماء الإسلام قد ثنوه عن عزمه والتمسوا منه العدول عن هذه الفكرة خشية أن تتصدى له العصابات الصليبية فى الطريق وتعتدى عليه، إذ كان الطريق إلى بيت الله الحرام مارا بمنطقتهم ، ، وإزاء إلحاحهم قد عدل السلطان بصفة مؤقتة عن تحقيق هذه الامنية المباركة ... ثم قام بجولة تفتيشية فى البلاد الساحلية ومعه قوة خاصة صغيرة ، فتفقد الشئون والقلاع ، وأمر بتهيئة الوسائل لراحة السكان ، وتعزيز القوات ثم توجه عن طريق (نابلس) و(بيسان) و (كوكب) إلى (بيروت) حيث اجتمع هنالك بأمير (أنطاكية) ، وأخيرا عاد إلى دمشق فى اليوم السادس بعد العشرين من شوال عام (٥٨٨ هـ) .

(١٢) « وفاة السلطان صلاح الدين »

قام السلطان خلال الفترة التى أقامها بدمشق ـ علاوة على معالجته شئون

الدولة - بتوزيع الصدقات من ماله الخاص على المساكين والأيامى والفقراء والذين انقطعت بهم السبل، وعلى الغزاة والمجاهدين، وترحيلهم إلى بلادهم، وإلى جانب ذلك كان يقضى بضع ساعات من أوقات فراغه فى الخروج للصيد والقنص، وفى اليوم الرابع عشر من صفر عام (٥٨٩ هـ)، خرج السلطان لاستقبال الحجاج العائدين من (مكة) حيث كان الاحتفال بعودتهم رائعا وبالغ الروعة. فقد شهده جمع غفير من العظماء والكبراء وعامة الناس، وقد بلغ بالسلطان التأثر من بهجة هذه المشاهد الروحانية أن أجهش بالبكاء لعدم تأدية فريضة الحج فى هذه السنة المباركة، وشوقا منه لزيارة بيت الله الحرام..

وما أن عاد إلى مقره العالى حتى اعترته قشعريرة قاسية وانتابته حمى شديدة وأخذ المرض الذى لا يرحم يشتد ويلح عليه يوما بعد يوم إلى أن توفاه الله إلى رحمته فى يوم الأربعاء الموافق السابع بعد العشرين من رجب عام (٥٨٩هـ) (٤ مارس سنة ١١٩٣ م)، عن سبعة وخمسين عاما... فبكاه الناس على اختلاف طبقاتهم بكاء مرا، واعتكفوا فى بيوتهم طيلة يوم الوفاة حدادا وحزنا عليه، فلم يكن يرى فى المدينة سوى أسواق مقفلة، وشوارع مقفرة،، وقد أقيمت مراسم الجنازة على أبسط وأقل ما يمكن من المظاهر - تنفيذا لوصيته - ودفن حيث مات... وبعد نحو من ثلاث سنوات، اشترى نجله (الملك الأفضل على) دارا يمتلكها رجل صالح بجوار الجامع الأموى، وأقام بها ضريحا نقل إليه رفات والده العظيم وكان ذلك فى يوم عاشوراء باحتفال مهيب عظيم، وأقام مأتما كبيرا وجلس بالجامع لتقبل العزاء ثلاثة أيام كاملة.

هذا وفى اليوم التالى لوفاته، احتشد جمع غفير من الناس فى الميادين والشوارع، يبكون وينتحبون، فكان عويلهم يرتفع ويصعد إلى عنان السماء، ولكن السلطات سرعان ما تدخلت لمنع الاسترسال فى هذا الصراخ، ولم تسمح لأى فرد بالرثاء والعويل، اللهم إلا الشاعر (العماد الكاتب الأصفهانى)

الذى رثاه بقصائد طويلة عصماء ، أبكت الناس أجمعين .

ويقول الدكتور أحمد البيلى : « مات السلطان ، وبموته فقدت الأمة الاسلامية سلطانا قويا أعزها وأقالها من عثرة كادت تؤدى بها إلى الهلاك والدمار . . . توفى صلاح الدين وقد قدر فضله أعداؤه إذ وجدوا فيه أستاذا كبيرا ، وعاملا عظيما ، فأخذوا عنه دروسا فى الشجاعة والفروسية ، ونماذج فى الكرم ، ومثالا يحتذى لمكارم الأخلاق ، وينبوعا للرحمة والشفقة ، فاعترفوا من فضائله غير قليل . » وكان للسلطان فى حياته سبعة عشر ولدا من الذكور وأنثى واحدة . كما نص على ذلك صاحب كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى .

(١٣) « صفاته العالية وخصاله الحميدة »

تبينا من مجريات تاريخ حياة هذا العاهل الاسلامى والبطل المغوار . كم بذل من جهود جبارة ومضنية لبث الروح المعنوية بين الغزاة المسلمين والمجاهدين وتقوية روح الشجاعة والاقدام وحب التضحية فيهم منذ أن صار وزيرا للخليفة العاضد حتى يوم أن لقى ربه . . وكم قدم من الخدمات الجلى لا للعالم الاسلامى فحسب ، بل للعالم الشرقى بأسره .. وكيف نجح فى تذليل الصعاب ، وتحطيم العقبات ، وإزالة العراقيل التى كانت تقف حجر عثرة فى سبيل توحيد الجهود الاسلامية ، والوقوف جبهة متراصة كالبنيان المرصوص فى وجه الفرنجة المغيرين الطامعين ، وذلك بالتغلب على الأمراء المسلمين من المنشقين المستقلين اللاهين ، وبالظفر بالفرنجة والصليبيين المغيرين على الشام ومصر اللتين طالما فرقت بينهما أهواء السياسة ، والخلافات المذهبيـــة ، والأغراض الطائفية والحزازات الشخصية ، فتمكن هذا العبقرى الهمام من الجمع بين هذين القطرين تحت راية عدله وإدارته الحازمة . . . وكيف لازمه التوفيق فى إنشاء وحدة إدارية شاملة تنتظم عقد جميع البلاد الاسلامية التى يقطنها كثير من الأقوام

المتباينة الجنس والمختلفة اللغة ، بادئا بكردستان موطن آبائه واجداده البهاليل حتى بلاد تونس من ناحية ، واليمن وعدن من جهة أخرى

وكيف نشر لواء العدل فى تلك الاصقاع . وعامل الناس بالقسطاس المستقيم ، وحقق المساواة ، وقوى فيهم الشعور بالاخوة الإسلامية . . فلا عجب إذن ألا يبقى أو يوجد بين هؤلاء الاقوام أحد غير راض عنه ، أو يتوانى عن بذل النفس والنفيس مرضاة له ، وهذا أبلغ دليل على ما كان يتمتع به السلطان من كامل ثقة الجمهور وعظيم احترامهم لذاته ، ولا غرو فقد كان ينتصر المظلوم ويعينه على الظالم ، ويغيث الملهوف ، ويقسو على القوى ، ويحارب العدو ، ويتساهل فى حقوق نفسه ، ويتسامح ، وكان كل همه منصبا على رعاية شئون الإسلام وتحقيق المسلمين والحرص على حقوقهم والسهر على مصالحهم .

ولم يكن صلاح الدين سلطانا مستبدا يفعل ما يريد أو يبرم كما يتراءى له ، بل كان الأمر شورى بينه وبين ذوى المكانة والعقل الراجح ، وأصحاب الرأى الصائب والفكر الثاقب من رجالاته . وذلك تمشيا مع روح الشريعة الإسلامية الغراء المستمدة من كتاب الله والسنة النبوية . . ولم يعرف عنه أنه مال قط إلى الاستبداد بالرأى ، أو الانفراد بالبت فى المسائل والشئون العامة ... وطالما تنازل عن رأيه الخاص احتراما لرأى الجماعة ونزولا على ارادة الأغلبية . (كما حدث ذلك فى مسألتى « صور » و « عكا ») .

وكان السلطان بارعا فى كسب القلوب واسترضاء الناس وذلك لمحاولة توفير الخير والرفاهة للجميع ... فلا عجب أن كانت وفاته صدمة عنيفة ونكبة عامة للجميع ، لأنهم كانوا يعتبرونه أبا بارا ، وملكا عادلا ، ومخلصا لرعاياه ، وسلطانا قوى البطش بأعداء الإسلام ، وشديداً على خصومه أينما كانوا . وبالجملة فقد كان الخادم المخلص للدين والعامل على رفع شأنه وليس أدل على

ذلك من النصيحة التالية التى ألقاها على مسامع نجله الظاهر (غازى)حين عينه فى منصب من مناصب الدولة . ألا وهى :

« أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به ، فإنه سبب نجاتك » وأحذر من الدماء والدخول فيها والتقلد بها ، فإن الدم لاينام ، ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والامراء وأرباب الدولة والاكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس ، ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس ، فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم »

ولا يمكن أن يلحظ الإنسان من بين ثنايا أخبار (صلاح الدين) أو يلمح من أحواله مع رعيته أبهة الملوك وعظمة السلاطين ، فكان لاى فرد من أفراد رعيته حق الوصول إليه والمثول بين يديه دون مشقة أو عناء ، لا يعترض سبيله حاجب أو يقف دونه حائل ، لا يعتريه خوف ولا رهبة ، ولصاحب المظلمة أن يذهب بنفسه للقاء السلطان لبث شكواه ، وكان ذوو الحاجات وأرباب المظالم يتزاحمون عليه فلايظهر عليه ضجر أو ملل ، وما توافد الناس عليه من كل فج إلا لانهم لمسوا فيه لين الجانب ، وإحقاق الحق ، والالفة والانس ، والتلطف مع الجميع على السواء . . . وكان فوق ذلك رقيق القلب سريع التأثر ، تتحرك عواطفه وتدمع عيناه إذا ماطرق سمعه صوت ضعيف أو أنين مسكين ، وكان يجزل العطايا للبؤساء والايامى والمساكين ، وكان شفوقا لدرجة لا يستطيع معها أن يرى خادما له يضرب ... وعجيب هذا من سلطان كان السادة فى أيامه لا يفتأون يقسون ويضربون عبيدهم وخدمهم .

وكان رحمه الله مثال البساطة النادرة فى ملبسه ومأكله ومسكنه ، وقد حدث أن شيد له منزل أنيق فى دمشق فألقى عليه نظرة عاجلة ثم قال « ما كنا لنجلس فى هذا المكان إلى الابد ، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت ، وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه » .

ولم تفتنه أموال ملكه الواسع فكان يقول « إن المال والتراب سيان عندى» لذلك كان يكره أن يسأله سائل دون أن يعطيه وإذا عاد السائل وطلب المزيد أعطاه دون أن يقول له « قد أعطيناك من قبل » ولكثرة بذله ، وسعة سخائه كان أعوانه ينكرون وجود مال لديهم حتى لا يتمادى فى البذل حتى تنفد الأموال ولا يجد ما يجهز به الجيوش لمحاربة الأعداء . . وليس أدل على جوده وكرمه من أنه حين وافته المنيـــة لم يوجد فى حوزته مال ، كما أنه لم يـترك ضيعة ولا قصرا . . وإلى هذا يشير صاحب السمو الملكى الأمير (محمد على) ولى عهد المملكة المصرية الآن فى الرحلة الشامية « كان رحمه الله غاية فى الجود والـكرم حتى قيل انه لم يترك بعد وفاته سوى سـبعة وأربعين درهما ، وهى ثروة ربما ترك السائل لأولاده أضعاف أضعافها ، ولـكن السخاء والحنان والشفقة على المساكين والفقراء تستنفد المال ولو كان مثل الجبال »

وفى عام ١٣١٦ للهجرة (١٨٩٨ م) حينما زار امبراطور المـــانيا وأمبراطورتها بلاد الشام ، ألقى ـ وهما فى دمشق ـ خطبة قال فيها ما ترجمته: «ومما يزيد فى سرورى أننى موجود فى بلد عاش فيه ذلك الرجل الذى كان أعظم رجال عصره ، وفريد دهره شجاعة وبسالة ومن كان مثال الشهامة النادرة ، والذى طبقت شهرته الآفاق . ألا وهو البطل المغوار صلاح الدين الأيوبى » وقد أرسلت الامبراطورة أكايلا بديعا من الزهر ليوضع باسم الأمبراطور على ضريح بطل التاريخ الاسـلامى ، وقد نقش عليه بالعربية (ويلهلم الثانى قيصر ألمانيا وملك بروسيا تذكارا للبطل السلطان صلاح الدين الأيوبى)

ويقول مؤلف كتاب (حياة صلاح الدين الأيوبى) : كيف لا تجتمع الأمة الاسلامية بأسرها على محبة هذا الرجل العظيم الذى كشف عنها الغمة التى حاقت بها من جراء تعدى الفرنجة عليها وعلى بلادها وديارها ، والذى نهض بجلائل الأعمال فى سبيل الشرق والشرقيين، وإعلاء شأن الإسلام والمسلمين

والذى قال لجنود الأعداء (قفوا مكانكم، فما قلب أسد أقوى من قلب أسدكم) دون أن يخشى سهام العدو المصوبة إلى قلبه، ولقد كان يمتطى صهوة جواده ويقود جنده وهو مريض ويقول (إنى إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادى) فلا غرو إذا وضع الناس أرواحهم بين يديه وأنفسهم طوع بنانه ورهن إشارته ... نعم! وصل السلطان صلاح الدين هذه المكانة فى أمته بل وعند أعدائه بإقدام شهد بثبات جنانه. ودربة استمال بها القلوب والألباب. وخبرة افتتح بها البلدان وقادبها الأجناد. وحنان وشفقة جعلتاله فى المكانة فى قلوب رعيته مالم يتسن لغيره من قبله. فأحبها وقام بكلياته على رعاية مصالحها، فكان خلاصة الشرف الإسلامى، والبقية الباقية من المجد الشرقى ومثال البسالة الكردية النادرة.

وكان يضم مجلسه العلماء والوجهاء، ويقصد بابه الفقراء والضعفاء وكان من شيمته التواضع حتى قال قائل (أدهشنى منه التواضع والتقى) وكثيرا ما كان يعرض نفسه للاخطار مع جنده، محافظة على ملكه الذى كان العدو يتربص له ويرنو إلى انتزاعه منه، وهذا إقدام وشمم وعلو نفس قل أن يتحلى بها غيره من السلاطين والملوك.

ولقد شهد له بهذا بل وبأكثر من هذا أعداؤه أنفسهم، فقد قال «استانلى» ما ترجمته: «ولم يخطىء الناس ادراك أوصافه وأخلاقه، فهو دون منازع شريف النفس، همام، شهم، شجاع، وديع، رقيق، شفوق، طاهر القلب نقيه، ناصع الحياة، زاهد فيها، مجد، كدود، بسيط، ساذج فى جميع أحواله، غيور على دينه... بهذه الصفات الفريدة النادرة أصبح جديرا بأن يكون مثال البطولة فى الإسلام»

وجاء فى كتاب تاريخ المؤرخين ما ترجمه: (والذى أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته وسخاؤه وكرمه ورحمته وحلمه وصفحه

وعفوه ، لا سيما محافظته على العهود والمواثيق . ومن المدهش حقا أن تكون هذه الاوصاف التى ملأت قلوب أهل أوروبا إعجابا هى الاوصاف التى يصفون بها ذلك الرجل الذى انتصر عليهم وألحق بهم الهزيمة فى آسيا) .

وقال عنه « استيفنسن » : (كان صلاح الدين موفقا فى خططه ، ماهرا فى عمله ، سريعا فى تقدير قوى عدوه ، ما تردد لحظة واحدة فى تنفيذ مارسمه أما عن نشاطه فما كان الملل يجد إلى نفسه سبيلا ، وكان صبورا على الشدائد وعظيم الثقة بنفسه . . كل هذه كانت من صفاته البارزة بوضوح وجلاء ، نظرته فى الامور نظرة صادقة ، وحكمه عليها حكم عادل ، كان إذا عن له أمر نادر بتنفيذه دون تردد أو ابطاء . . . وقد خدمته كل هذه المزايا فى أعماله السياسية والحربية) . كما قال عنه السيد أمير على الهندى فى كتابه (تاريخ الإسلام المصور) أنه كان من أعظم الملوك الفاتحين وأشدهم بطولة وبسالة فى العالم . وقال عنه (أحمد زكى باشا المصرى) فى خطاب ألقاه ونشر فى مجلة « رعمسيس » ما نصه : (وقد كان القبط يحبون هذا الملك العظيم صلاح الدين الذى حماهم وراعاهم وعرفوا فى ظل أيامه السعادة والهناء . . وأى دليل على هذا أكبر من وضع صورته إلى جانب الآنية المقدسة ؟) . . ثم أردفت المجلة هذا بقولها أن أحد شعراء الأندلس المدعو عبد المنعم الاندلسى ، قد زار مصر فى ذلك الحين فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين ، ونظم فى ذلك قصيدة تمثل الحقيقة التاريخية، نورد منها هذين البيتين:

خطوا بأرجاء الهياكل صورة   لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم

يدين لها قس ويرقى بوصفها   ويكتبه يشفى به فى التمائم

وقد ورد فى تاريخ « هامر » أن (صلاح الدين) قد أوصى فى أواخر حياته بالتالى : « إدفنوا معى سيفى الذى حاربت به فى قبرى ليكون لى خير شاهد يوم القيامة » .

(١٤) « آثاره العمرانية والمدنية »

تلك حياة صلاح الدين كما رأيناها كلها حرب وقتال وجهاد . . إلا أنه قد وجه عنايته إلى جانب هذا إلى النواحي العمرانية التي يذكرها له التاريخ بمداد الفخر والتقدير . . . رأى أن التدريس في جامع الفسطاط (جامع عمرو) يسير على منوال ما هو متبع في الأزهر ، فابتنى في عام (٥٦٦ هـ ١١٧٠م) المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق وخصصها للشافعية ، وهي أول مدرسة أسست في مصر . . . ثم ابتنى المدرسة القمحية بالقرب من الأولى وخصصها للمالكية . . . ثم ابتنى مدرسة للحنفية في عام (٥٧٢ = ١١٧٦م) واتخذ لها مقرا دار الوزير البطائحي وتعرف الآن بالمدرسة السيوفية ، ولم تقف مجهودات السلطان عند فتح هذه المدارس بل رتب الوظائف للمدرسين والطلبة فيها على السواء ، فتمكن بذلك من نشر المذهب السني واحلاله عند العامة والخاصة محل المذهب الشيعي ، ويقول صاحب « كتاب صبح الأعشى » : أما الخوانق والربط فلم يكن للديار المصرية بها عهد قبل الدولة الأيوبية ، وكان المبتكر لها هو السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) رحمه الله ، فابتنى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء ، ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة وبستان الحبانية بزقاق البركة .

هذا ويرجع الفضل إلى (صلاح الدين) في وضع أساس الأسطول المصري حيث رأى بثاقب فكره وبعد نظره أن مصر ينبوع متدفق يستقي منه قوته البحرية . فبنى السفن . وعمر الأسطول ، وبلغ من اهتمامه بأمر الأسطول أن أنشأ له ديوانا خاصا يسمى ديوان الأسطول سلم مقاليده لأخيه الملك العادل ، وقد كانت الاسكندرية ودمياط الميناءين البحريين في ديار مصر يضاف اليهما مدينة « تنيس » الخربة الآن .

أما (الفسطاط) و (قوص) فكانتا من أعظم الموانى النيليـة ، وكانت السفن الحربيـــة تبنى فى هذه الموانىء وترابط بتلك الثغور حتى إذا أزفت الآزفة شقت طريقها إلى البحر لأعلاء كلمة الاسلام .

تطلع صلاح الدين إلى الاسكندرية فوجدها محط أنظار الفرنجة ، ولكى يطمئن عليها قلبه أمر بعمارة أسوارها وأبراجها ، ثم ابتنى بها(بيمارستانا = مستشفى) بعد أن ابتنى آخر بمصر . وفيه يقول صاحب صبح الأعشى: (ولما ملك السلطان الديار المصرية ، واستولى على القصر ، وكان القصر قاعة بناها العزيز بن المعز فى عام (٣٨٤) للهجرة ، فجعلها السلطان بيمارستانا ، وهو البيمارستان العتيق الذى بداخل القصر) . . ثم أنشأ السلطان بها دارا للغرباء ، كما أنه مهد بعض الجسور ، وطهر الترع لإصلاح حال المزارعين ، ولما كان من عادته أن يسرح جنـده فى الشتاء ، فقد كان حال الزراعة مرضيا ثم نظر إلى الأهلين وقد أثقل كاهلهم وزراء الفواطم بمختلف أنواع الضرائب ، فبادر على الفور إلى إلغاء المـكوس ، وقرأت نسخة مسجلة على المنـابر يوم الجمعة الموافق ٣ صفر عام (٥٦٧ هـ)ـ (٣٠ يونيو سنة ١١٧١م) . وإليك نبذة من هذا السجل : (وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم (المقس) والمنية بأبواب المـكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر برا وبحرا مركبا وظهرا سرا وجهرا لا يحل ماشـده ولا يحاول ما عنده ولا يكشف ما ستره ولا يسأل عما أورده أو صـدره ولا يستوقف فى طريقه ولا يشرق بريقه ولا يؤخـذ منه طعمه ولا يستباح له حرمه)

من هذا السجل يدرك المرء لأول وهلة مدى ما كان يصادفه الناس من عبء هذه الضريبة وغيرها التى ما كانت تترك غاديا ولا رائحا إلا كشفت ستره

ومدت أيدى العمال والموظفين إلى ماله فسلبته ، وإلى متاعه فنهبته ، ووردت بعد ذلك عنه إلى الخزانة السلطانية ما شاء طمعها .

ويقول الدكتور أحمد بيلى : إن الانسان ليدرك من إبطال هذه المكوس ما كان يعانيه السكان من الذلة من جهة ، وما كان يرمى اليه صلاح الدين من نشر التجارة وتسهيل سبلها من جهة أخرى ، لاعتقاده وتأكده بأنها مرقى الأمم إلى الحضارة والمدنية ، ولذلك أثر عنه أنه كان يبيحها مع الفرنجة أثناء حروبه معهم .

ولما أبطل مغارم أهل الحجاز أيضا ، عوض أمير مكة عنها بألفى دينار وألف أردب من القمح سنويا هذا عدا عدة إقطاعات بالصعيد واليمن ، وبهذا زال عن كاهل الحجاج ذلك العناء الذى كان يقف حجر عثرة فى سبيل الكثيرين من راغبي أداء الفريضة . . واختتم كلامه بقوله : هذا قليل من كثير من مناقب هذا السلطان الكبير ، والقائد العظيم وعندى أنه لو كثر بين ملوك المسلمين أمثال صلاح الدين لما وصلت الأمم الاسلامية من الضعف والوهن فى أمورها الداخلية والخارجية إلى ماوصلت اليه .

ويقول السيد أمير على: ان القاضى الفاضل الذى كان وزير السلطان كان ساعده الأيمن فى تنفيذ مشروعاته الخيرية ، إذ لم تكن حكومة صلاح الدين الشورية مؤلفة من (قرةقوش) و(حسام الدين) و(المشطوب) فقط، بل كانت تضم غيرهم من أمثال القاضى الفاضل وعماد الدين الكاتب وعيسى الهكارى وبعض علماء آخرين . (١)

---

(١) يقول الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادى الذى اجتمع بصلاح الدين فى القدس بعد الصلح ، أن أول ليلة تشرفت فيها بمقابلة السلطان رأيتـه فى مجمع من العلماء يصغى إلى كلامهم تارة ويناقشهم فى مباحثاتهم تارة أخرى=

١٥ ـ (أنجال السلطان صلاح الدين)

قسم السلطان مملكته قبل مماته بين أولاده ، فعهد بحكومة فلسطين وسورية إلى الملك « الأفضل أبى الحسن نور الدين على » . . وبحكومة مصر إلى الملك « العزيز عثمان أبى الفتح عماد الدين » وبحكومة (حلب) إلى الملك « الظاهر الغازى غياث الدين » . . وكان أخوه « الملك العادل » يحكم شطرا من البلاد الجزرية ، كما كان أبناء عمه « شيركوه » منفردين بحكم حمص وبلادها . . . أما اليمن فكان يحكمها أولاد أخيه « سيف الاسلام طغتكين » ولكن السلطان لم يعين ـ حين وفاته ـ خلفا له على أريكة الحكم ولا وارثا . ولهذا استقر كل من هؤلاء يدير دفة الحكم فى مكانه حسب النظام السابق قرابة عام وكلهم معترفون باشراف الملك الأفضل عليهم .

(الملك الافضل ، والملك العزيز ، والملك العادل)

كان الملك الأفضل أكبر أنجال السلطان (صلاح الدين) وكان يخضع له رؤساء باقى الحكومات الايوبية . . وكان « ضياء الدين ابن الأثير » ـ أخو ابن الأثير المؤرخ الشهير ـ وزيره ومدبر أمور مملكته المترامية الأطراف. ومن دواعى الأسف أن هذا الوزير كان ضعيف الرأى ، سىء التدبير تنقصه الحنكة فى السياسة والدربة فى الادارة ، مما أفضى إلى اضطراب زمام الأمور

وكان يهتم بتحصين قلعة القدس وتشييد سورها حتى انه كان ينقل الأحجار بنفسه للبنائين وكان يحضر يوميا من شروق الشمس للاشراف على البنائين والعمال ، وكان يقضى ليله فى تصريف شئون الدولة . (تاريخ الاسلام المصور) . المؤلف

واختلال النظام ، وأبعد الكثيرون من عمال الدولة وذوى المناصب الكبيرة ممن حنكتهم التجارب وعلمتهم الحوادث ، وممن برعوا فى الادارة من رجال صلاح الدين ـ أبعدوا عن مناصبهم ، فاضطروا أن يرحلوا إلى مصر الواحد تلو الآخر حيث ضم شملهم بلاط الملك العزيز ، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى أعلن الملك العزيز استقلال مصر .

وفى عام (٥٩٠) للهجرة توجه بجيش لجب صوب (سوريا) واستولى على بلاد أخيه وضمها لمصر ، غير أن تدخل الملك « العادل » وبعض الأمراء الايوبيين وتوسطهم فى الامر ، قد حسم النزاع بين الاخوين تلك المرة ، ولم يمض على ذلك عام أو بعض عام حتى أعاد الملك العزيز الكرة وزحف على (سورية) مرة أخرى وفى هذه المرة وقف الملك « العادل » إلى جانب الملك « الافضل » وأثار بحسن تدبيره وبدسائسه المحكمة الفعالة الجيش المصرى ضد ملكه العزيز فاضطر هذا الملك الشاب إلى العودة إلى مصر خائبا مدحورا .

وكان الملك العادل يتظاهر فى بادىء الأمر بالسعى الحثيث لإزالة ما بين أبناء أخيه من الشقاق والخلاف إلا أنه لما تحقق لديه ما جبل عليه رجال الملكين المتنازعين فى مصر وسورية من قلة التجارب وسوء الادارة ، وأيقن أن ما عاناه صلاح الدين فى تكوين الدولة الاسلامية الموحدة من الجهود المضنية الجبارة سيذهب هباء وسدى وأن هذا الصرح الشامخ الذى يعتز به بنو أيوب سينهار من جراء التشاحن والتطاحن بين أنجاله القليلى الدربة والضعيفى الارادة . إزاء هذا عمد إلى ما يكفل تركيز إدارة البلاد كلها تحت سلطانه وحكمه الحازم وفرض إرادته العليا على الجميع ولا سيما وأن أحوال ابنى أخيه كانت تساعده على تحقيق هذا المأرب ، وعلى هذا الأساس قام بنصرة الملك الأفضل واضطر الملك العزيز الى العودة الى مصر كما ذكرنا .

وأخيرا وبعد أن أصلح ذات البين بين الملكين عاد الملك الأفضل إلى سورية ولبث هو فى مصر بحجة إصلاح أمر الملك العزيز ، وتنظيم الادارة بها وفى الواقع أنه كان يضع أساس حكومته فى مصر ، وبعد حقبةمن الزمن تشبث لسبب ما ، بالزحف مع الملك العزيز على رأس جيش كبير صوب سورية وكان ذلك فى عام (٥٩٢) للهجرة ، وانتزع الشام من الملك الافضل الذى اضطر إلى قبول قلعة (صرخد) واتخذها له مقاما بدل دمشق الشام .

وهكذا خضعت البلاد الشامية لحكم الملك العادل تحت ستار خضوعها لمصر ولملكها .

نعم ! إن هذه التدابير ولاسيما بين الأقرباء والأنسباء ليستمن الأمور المقبولةمن الوجهةالأخلاقية، وإن كانت ضرورةملحة منوجهة المصلحةالعامة للمحافظة على كيان أسرة بنى أيوب ، ولضمان عدم تشتيت القوى الاسلامية أمام هجمات الصليبيين المتوالية على أطراف البلاد وتحفزهم فى كل وقت لاسترداد ما فقدوه من البلاد فى حروبهم مع صلاح الدين فمن هذا يتضح أن مصلحة البلاد نفسها كانت تتطلب قيام حاكم قوى وقائد بارع وإدارى حازم على رأس الحكومة ليتولى مهمة الدفاع عنها والذود عن حياضها .

ولاشك فى أننا إذا نظرنا إلى هذا الموضوع من تلك الناحية أى من وجهة المصلحة العامة لما وجدنا أى سبب وجيه يحملناعلى توجيهالعتب التاريخى لفاتح الكرك ألا وهو الملك العادل الذى ـ بعد أن تم لهما أرادمنإخضاع سورية إلى تنظيم أمورها ـ قام بجولة تفتيشية فى أنحاء البلاد الجزرية ، ونظم أمورها ، وحسن أحوالها ثم اضطر للعودة إلى سورية على جناح السرعة بسبب وفاة الملك العزيز الفجائية فى ٢٧ المحرم من عام (٥٩٥ ﻫ) بمصر ، واستدعاء الملك الأفضل من قلعة (صرخد) الى مصر ، وتعيينه نائبا ووصيا على الملك المنصور (محمود ابن الملك العزيز) الذى كان وقتذاك لايزال طفلا صغيرا

ولقد شاء الملك الأفضل استغلال منصبه الجديد ، فأخذ يعمل جاهدا على استرداد حقه المسلوب من عمه الملك العادل ، ودخل فعلا فى مفاوضات مع أخيه الملك الظاهر بحلب . فوعده هذا الأخير بتقديم يد المساعدة له ، وشد أزره حينما يصل جيش الملك الأفضل إلى سورية ، غير أن الملك العادل كان عالما بما يجرى بين الأخوين من مخابرات وما دار بينهما من مفاوضات فبادر بقوة نفوذه ورشيد سياسته وبعد نظره إلى إثارة نيران الفتنة وإشعالها بين صفوف جيش الملك الأفضل وبين قواده . ثم ما لبث أن زحف اليه بجيشه . وضيق عليه الخناق . إلى أن أضطر إلى تسليم نفسه فى ربيع الثانى عام (٥٩٦ هـ) وبهذا أبعد الملك الأفضل والملك المنصور محمود من مصر وضم البلاد المصرية إلى البلاد الأخرى الخاضعة لنفوذه وسلطانه .

وعاد الملك الأفضل وقد باء بفشل ذريع إلى قلعة (صرخد) وفى خلال ذلك زحف أخوه الملك الظاهر بجيشه من حلب إلى الشام على أمل الاستيلاء عليها ، فضيق عليها الحصار ولكن سياسة الملك العادل الرشيدة قد برزت ونجحت فى هذه المرة أيضا ، حيث تدارك الأمور بسامى حكمته قبل استفحالها ونجح فى الوقيعة بين الأخوين مما أدى الى رفع الحصار عن دمشق ، وتخلى الملك الظاهر عنها ،وعودته بجيشه الى حلب كما عاد الملك الأفضل هو الآخر الى قلعة (صرخد) ثانية ، إلا أن الملك العادل قد أقطع الملك الأفضل قلعة النجم ، وقلعة سروج ، وقلعة صمصاد . ولكن هذا الانعام لم يدم طويلا حيث عاد فانتزعها منه بعد فترة يسيرة ، وكان ذلك فى عام (٥٩٩ هـ) وذلك رغم شدة إلحاح والدة الملك الافضل ورجائها ابقاء تلك القلاع فى قبضة ابنها ، ولكن الملك الأفضل قد عمد الى تحصين قلعة « صمصاد » وتعميرها ثم أعلن تبعيته لسلطنة سلاجقة الروم (الأنضول) وأمضى ردحا من الزمن على هذا الوضع الى أن توفى أخوه الملك الظاهر ، فأراد ـ بتعضيد من الملك

(كيكاوس) ملك السلجوق فى قونيه - أن يستولى على حلب فيقيم له بها حكومة خاصة ، غير أن هذه المآرب والآمال قد تحطمت لعدم توفر الاخلاص بين المتفقين ، ولسبب تدخل الملك الأشرف نجل الملك العادل فى الامر فى الوقت المناسب ، فعاد الملك الافضل الذى جانبه الحظ أدراجه الى صمصاد فى عام (٦١٥ هـ) يجر ذيل الفشل ، ولبث فيها منعزلا عن الناس إلى أن توفاه الله الى رحمته فجأة فى عام (٦٢٢ هـ) .

١) « سلطنة الملك العادل »

أعلن الملك العادل (سيف الدين) نفسه سلطانا فى القاهرة فى اليوم السادس عشر من ربيع الآخر عام (٥٩٦ هـ) وكان قد أخضع جميع البلاد التى كانت تابعة لصلاح الدين عدا (حلب) وأطرافها كما سبق الذكر ، وسلك مسلك أخيه فى إدارة دفة الحكم فى البلاد ، وتصريف شئونها العامة بمنتهى العدل والعزم ، فوزع المناصب - باسمه - على أنجاله ، فعهد بمصر إلى نجله الملك الكامل ، وبالبلاد الشامية إلى الملك المعظم عيسى ؛ وبالبلاد الجزرية إلى الملك الأشرف موسى ، كما عهد إلى آخرين من أولاده ببعض بيلاد أقل أهمية تابعة لأملاك أخوتهم فى تلك البقاع . ولم تكن وطأة الصليبيين شديدة على البلاد الاسلامية فى عهد الملك العادل، ومع ذلك فقد نقض الفرنجة شروطهم واتفاقاتهم التى كانوا قد ارتضوها وأبرموها فى عهد (صلاح الدين) وذلك ديدنهم دائما مع المسلمين ، إذ زحف جيش كبير منهم عن طريق البحر صوب (بيروت) فاستولى عليها فى الوقت الذى كان فيه أنجال صلاح الدين متنابذين متطاحنين ولم يقف الملك العادل مكتوف الأيدى، بل بادر باعداد جيش قوى بمجرد أن دانت له الأمور واستقرت الأحوال ، وزحف على رأسه إلى « يافا » واستولى عليها . وكان الصليبيون يحاصرون - وقتذاك - بلدة (التبنين)

ولكنهم عجزوا عن فتحها ، وما لبثوا أن طلبوا عقد الصلح فأجيبوا إلى طلبهم وتم عقد هدنة مدتها ثلاث سنوات .

وهكذا مرت بسلام عاصفة الحملة الرابعة من حملات الصليبيين السبع على البلاد الاسلامية، وسبق أن أشرنا إلى أنه لما توفى الملك الظاهر (غازى) حاكم حلب فى عام (٦١٣ هـ) قام الملك الأفضل - يعضده الملك السلجوقى كيكاوس - بمحاولات للاستيلاء على حلب، وأن محاولاته قد أخفقت والآن نقول إن ذلك الاخفاق قد أدى إلى سقوط (حلب) كغيرها فى قبضة الملك الأشرف نجل الملك العادل ، وهكذا انتهت بل انقرضت حكومات أبناء البطل المغوار (صلاح الدين) فى كافه البلدان انتهاء مبرما، وقد كان من حسن طالع الملك العادل أن نيران الحملة الصليبية الرابعة لم يمتد لهيبها ولم يتطاير شررها فى تلك المرة إلى البلاد الاسلامية، بل اقتصرت على القسطنطينية فأحرقتها وجعلتها خرابا يبابا .

وفى عام (٦١٣ هـ — ٦١٤هـ) = (١٢١٦ — ١٢١٧ م) ، أثار البابا (اينوسانى) الثالث ، أوروبا كلها ، وتمخض عن هذه الاثارة « الحملة الصليبية الخامسة » التى كان من زعمائها ملك المجر ، وأمراء النمسا وبافاريا ، وسائر أمراء جنوبى المانيا ، وكان عدد جنود الحملة مائتين وخمسين ألفا معظمهم من الألمان . . . ويمم الجميع شطر السواحل الشامية عن طريق البحر حتى نزلوا فى (عكا) ، ونهبوا تلك المناطق دون تمييز لدرجة أن اشتبكوا فى القتال مع نصارى « سورية » أيضا ، ثم استقر رأيهم على أن يزحفوا جميعا صوب مصر فعادوا إلى ساحل البحر ، وأقلعوا بسفنهم نحو مصب النيل فى البحر الأبيض المتوسط ، وهنالك غادروا ظهور السفن وألقوا الحصار على ثغر (دمياط)

وكان الملك العادل - وقتذاك - فى شمالى سورية ، وهنالك بلغته الأنباء بمحاصرة الفرنجة لدمياط ، فأدرك أن الأمر جد خطير وأن الموقف حرج

دقيق ، فعادسريعا إلى دمشق الشام، وأخذ فى حشد الجنود، وتجييش الجيوش لمقابلة الصليبيين ، غير أن الأجل المحتوم قد وافاه فمات فى (علاكين) على مقربة من الشام فى جمادى الآخر عام ٦١٥ هـ (٣١ أغسطس سنة ١٢١٨م)

٢) « صفاته ومزاياه »

يقول السيد أمير على مؤلف (تاريخ الاسلام المصور) : كان الملك العادل سيف الدين (أبو بكر محمد) عارفا بالأمور ، مدبرا ، بعيد النظر ، حميد الخصال ، رابط الجأش ، ميالا للخير ، يحب العلماء وذوى الفضل ويتقرب منهم مثل أخيه صلاح الدين وقد كان شجاعا ، شديد الوطأة فى الحروب ، عاقلا ، حازما فى الادارة والسياسة ، وكان الساعد الأيمن لأخيه صلاح الدين قبل مماته ، كما أن له أيادى بيضاء فى الحرب مع الصليبيين سواء أفى عهد أخيه أم فى عهد حكومته .

وكانت تربطه بريشارد قلب الأسد ملك الانجليز صداقةوطيدة ، ولم يكن ريشارد يخاطبه فى المحادثات والمراسلات إلا بقوله « أخى العزيز » وتوكيدا لهذه الصداقة أدخل الملك العادل نجله الملك الكامل ضمن الفرسان (شواليه) وكان عنوانه الملكى على النقود لفظ (أبو الفداء) وقد استطاع طيلة أيامه المحافظة على مجد الدولة الاسلامية وكرامتها .

---

١)« سلطنة الملك الكامل »

الملك الكامل هو نجل الملك العادل وأسمه (محمد) ولقبه (ناصر الدين) وكنيته (أبو العالى) . ولد فى شهر ربيع الأول من عام (٥٧٦) للهجرة ، وتولى الملك فى مصر بعد وفاة والده العظيم ، حيث ألقى على كاهله عبئا ثقيلا ، ومهمة شاقة مضنية ألا وهى طرد الصليبيين الضاربين حول (دمياط) وإبعادهم عن

كافة الأراضى المصرية ، وكان الملك المعظم عيسى شرف الدين ـ وقتذاك ـ ملكا على البلاد الشامية ، والملك الأشرف موسى مظفر الدين يدير دفة شئون (حلب) ، وقد طال وقت الحصار على (دمياط) حيث كان الصليبيون يلحون ويمعنون فى التضييق على المحصورين مما أدى إلى موت الكثيرين من المحاصرين والمحصورين نتيجة تفشى الأمراض وانتشار الأوبئة والجوع، وقد سقطت (دمياط) ـ دون غيرها ـ فى أيدى الفرنجة بعد حصار دام عاما ونصف عام . وكان تعداد أهالى هذه المدينة وحاميتها حين هبت للدفاع ، سبعين ألفا ، فى حين أن هذا العدد قد نقص وانخفض إلى ثلاثة آلاف حين تسليم المدينة للفرنجة ، ولم يكتف المتعصبون من الفرنجة بهذا القدر من الضحايا بل تمادوا فى غيهم ، فأقاموا مذبحة عامة بعد تسلمهم المدينة وقضوا على الثلاثة آلاف الباقية ظلما وعدوانا . .

ثم توجه الجيش الصليبي إلى القاهرة بعد سقوط دمياط فى قبضتهم، ولكن جيش الملك الكامل المعد لمقابلة المغيرين ـ وإن كان قد عزز بجيوش وقوات من قبل اخوته الملوك ـ كان لا يزال دون قوات العدو عدة وعددا ، ولم يكن يعول عليه فى الهجوم والسبق، ولهذا آثر الملك الكامل الدخول فى مفاوضات مع قائد الصليبيين العام ، وعرض عليه الصلح ، على أساس أن ترد (دمياط) إلى المصريين وأن تعاد فلسطين إلى الصليبيين ، ولكن هذ الصلح كان نصيبه الرفض البات من قبل الصليبيين . . وقد كان لسقوط (دمياط) ثغر مصر الأوحد ، ولزحف الصليبيين على القاهرة حاضرة المملكة المصرية ، أكبر الأثر فى أوروبا ، فشدد ذلك من عزائم الصليبيين، وقوى سواعدهم، وتملكهم الجشع وتولاهم الطمع فى امتلاك « مصر » نهائيا ، وقد اضطر الملك الكامل ـ إزاء هذا ـ إلى التنازل عن القدس وفلسطين فى سبيل إنقاذ « مصر » وفى هذه الأثناء لعبت الطبيعة دورها حيث طغى نيل مصر وفاض، وكان الصليبيون

قد أبطأوا طويلا فى انجاز أعمالهم، فسنحت فرصة ذهبية للملك الكامل الذى عمد إلى إصدار الأمر بتحطيم جميع السدود، وهدم الجسور المقامة على النيل وإطلاقه فى أراضى الدلتا التى سرعان ما أغرقتها المياه عن آخرها، وبذلك قطع خط الرجعة على كافة المغيرين حيث تعذر إيصال المدد إليهم من البحر، مما أدى إلى تعرضهم إلى ألوان من البؤس والشقاء، فضلا عن العصابات الاسلامية التى كانت تتخطفهم من ذات اليمين وذات الشمال. مما اضطر الصليبيين إلى طلب الصلح وهم صاغرون، فأجيبوا إلى طلبهم، واشترطوا أن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم، وأن يصرح لحجاجهم بزيارة بيت المقدس. ولم يمض طويل وقت على إخفاق الحملة الصليبية السادسة فى مهمتها، حتى بدأ الشقاق يدب دبيبه، بين أنجال الملك العادل، وتفاقم النزاع، واشتدت وطأة التطاحن بينهم، إذ كان الملك المعظم عيسى حاكم (سورية) قد قلب ظهر المجن لأخيه طمعا فى ملكه، وكان يصبو إلى انتزاع مصر منه، وسعى لهذا الهدف سعيا حثيثا، وبذل محاولات جدية للاتفاق مع (جلال الدين خوارزمشاه) لتحقيق هذا الغرض.

ولما بلغت أنباء هذه المساعى مسامع الملك الكامل أعرب عن غضبه وشديد استيائه. وفى تلك الاثناء كان «فردريك الثانى» امبراطور ألمانيا ميمما نحو مصر بجيش لجب، فأظلمت الدنيا فى وجه الملك الكامل حتى اضطر الى مفاوضة الامبراطور ليعقد معه الصلح، وفى خلال المفاوضات مات الملك المعظم حاكم سورية، وكان ذلك فى ذى القعدة من عام (٦٢٤ هـ) تاركا بلاده لابنه الملك «الناصر داود» فانتهز الملك الكامل هذه الفرصة، وزحف على رأس جيشه الى الشام

وقد فكر الملك الاشرف فى بادىء الامر فى أن يمد يد المساعدة للملك الناصر ويشد أزره ثم عاد فعدل عن هذه الفكرة وتفاهم مع الملك الكامل، وما لبثا أن استوليا سويا على الشام التى أقطعها الملك الكامل للملك الأشرف عام (٦٢٦ هـ)

فى مقابل بعض البلاد الجزرية ،كما عوض الملك الناصر عمافقده بقلعتى الكرك والشوبك(١) ثم قام الملك الكامل بتنظيم شئون (سورية) وبعدئذ توجه إلى الجزيرة حيث أصلح الكثير من أمورها ، واتخذ فيها من التدابير ما يكفل منع تدفق سيول الخوارزميين والمغول ، وبعد ذلك استولى على بعض القلاع هنا وهناك ، ثم أقطع « حصن الأكراد » ملكا خاصا لنجله الكبير (نجم الدين أيوب) ،وعينه حاكما على الجزيرة .. وبعدحقبة من الزمن سمح له بأن يجرد حملة عسكرية تقوم بالقاء القبض على فلول جيش (خوارزمشاه) المبعثرة ، حتى يتمكن بذلك من إيقاف سيول المغول المتدفقة .

وفى عام(٦٢٩) للهجرة (١٣٢٩ م) وصل « فردريك » إمبراطور ألمانيا إلى (سورية) وكانت مفاوضات الصلح قد انتهت بينه وبين الملك الكامل ، وكانت شروط هذا الصلح تقضى بخضوع القدس والناصرة ، وما حوالیهما ، وجزء من الساحل الممتد من « عكا » حتى « يافا » لحكم الامبراطور بصفة مؤقتة ، على أن تكون هنالك هدنة يقف فيها القتال لمدة عشر سنوات وستة أشهر وعشرة أيام ، وكان هنالك شرط آخر يقضى بأن يقوم الامبراطور بمساعدة الملك الكامل ضد أعدائه أيا كانوا . ومع ذلك لم ترض هذه الشروط المسلمين والنصارى على السواء . . . وقد غادر الامبراطور فلسطين وسافر إلى المانيا .

وبعد هذا الصلح ، تعقدت الأمور ، وتفاقم الشر بين الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف،وبين سلطان سلاجقة الروم، فبعث السلطان كيقباد السلجوقى بحملة عسكرية على شمالى الجزيرة فى عام (٦٣١ هـ) واشتبك فى القتال مع

---

(١) يقول تاريخ الاسلام المصور انه قد عوض بقلاع الحران والرها والرقة ولكن الوقائع التالية لا تؤيد ذلك المؤلف

الايوبيين ، وكانت الغلبة للسلجوقيين فى بادىء الامر اذ استولوا على بعض املاك الأيوبيين ، بيد أنهم لم يستطيعوا المحافظة عليها والاحتفاظ بها ، ووقف القتال بين الفريقين بوفاة السلطان (كيقباد) حيث اضطر الجيش السلجوقى إلى الجلاء عن البلاد التى احتلها فى عام (٦٣٣ هـ) .

ولم يدم الوئام والوفاق طويلا بين الملك الكامل والملك الأشرف. حيث اتفق الملك الأشرف ـ لمناهضة أخيه ـ مع بقية ملوك الأسرة الأيوبية وأمرائها وما أن ترامى هذا النبأ إلى مسامع الملك الكامل ، حتى عمد إلى إعداد جيش زحف على رأسه إلى الشام ، وقبل أن يلتحم فى القتال مع جيوش الأشرف وحلفائه توفى أخوه الملك الأشرف إلى رحمة الله بدمشق الشام فى الرابع من شهر المحرم عام (٦٣٥) للهجرة ، وهكذا سقطت « دمشق » فى قبضة الملك الكامل دون حرب أو قتال ، وعوض الملك صالح اسماعيل ـ أخو الملك الأشرف ـ عن ذلك بقلعتى (بعلبك) و (بصرى) .

وبعد ذلك ببضعة شهور لقى الملك الكامل ربه فى دمشق الشام فى اليوم الواحد بعد العشرين من شهر رجب من عام (٦٣٥ هـ ـ ٨مارس عام ١٢٣٨م)

٢) « صفاته ومزاياه »

لاريب أن الملك الكامل ، كان على جانب عظيم من المقدرة والكياسة فقد أظهر صفات نادرة ، ومهارة فائقة فى ميدان السياسة والقتال ، وتعتبر وفاته نذيرا بتدهور الحكم الأيوبى . وكان يحمل لقب (فارس) قدمه له الملك (ريشارد) قلب الأسد ، وكان خير خلف لوالده الكبير وعمه العظيم فى حب العلم ، ونشر العرفان ، والاهتمام بحركة التجديد والعمران وتعميمها فى البلاد وله فى هذا الميدان آثار خالدة فى البلاد ، كما أن له أيادى بيضا على نظام الرى فى مصر ، حيث بذل جهودا مشكورة فى هذا المجال .

ومن أعماله الأخرى التى تمت فى عهـده ، إتمام تحصينات قلعة القاهرة الشهيرة ، وفى الحق أن بعض أعمـاله الأخرى كتسليمه القدس ، وبعض الأماكن الأخرى فى فلسطين لإمبراطور ألمانيا وإن كانت عرضة . فى الظاهر على الأقل ، للوم والعتب ، إلا أن المرء لا ينبغى له فى مثل هذه المواقف أن يصدر حكما قاطعا إلا بعد أن يمعن النظر ويدرس بحذر وإمعـان، الظروف والملابسات الداخلية التى كانت محيطةبه ؛ وذلك إلى جانب ما كان بين الأخوة من غيرة وحسد . وهذا فضلا عن الظروف السياسية الخارجية للدولة .

« الملك العادل الثانى »

على أثر وفاة الملك الـكامل ، نادى أمراء الأسرة الأيوبية وأعضاؤها بنجله (الملك العادل الثانى) سلطانا . وكان أصغر أنجال الملك الـكامل سنا ولم يكن لدى هذا الملك الجديد أدنى قابلية أو استعداد لتولى زمام الحـكم لصغر سنه . وضعف رأيه ، وميله إلى البطالة . فكان الحق إذن فى جانب أخيه الأكبر الملك (نجم الدين) الذى كان ـ وقتـذاك حاكما على الجزيرة وملقيا الحصار عل قلعة (الرها) وما أن ترامى إلى مسامعه نبـأ نعى والده حتى عمد إلى رفع الحصار عن الرها أملا فى العودة سريعا إلى (سورية) ، بيد أن الخوارزميين فى جيشه قد تألبوا عليه وتمادوا فى غيهم وحاولوا إلقاء القبض عليه ولـكنه استطاع التخلص منهم بأعجوبه ولجأ إلى قلعة (سنجار) وما أن علم (بدر الدين لؤلؤ) صاحب الموصل وأشد خصوم الملك نجم الدين حينذاك بهذا النبأ ، حتى عول على اغتنام هذه الفرصة للقضاء على خصمه والتخلص منه فجاء على رأس جيش عرمرم لالقاء الحصار على سنجار ومن حسن الحظ أن كان للملك نجم الدين وزير وقاض راجح العقل . قد أحسن تصريف الأمور ، وتمكن من خلق جو للتفاهم وازالة الجفوة بين سيده وبين

الخوارزميين المتألبين العصاة ، وبهذا تكتل الجميع وألحقوا بالعدو هزيمة منكرة فرجع بدر الدين لؤلؤ مع فلول جيشه القهقرى مدحورا يجر أذيال الهزيمة . ثم توجه الجيش الظافر صوب (ديار بكر) وألحق هزيمة أخرى بسلطان الروم الذى كان ملقيا الحصار على هذه القلعة . وهكذا عادت البلاد الجزرية كلها مرة أخرى لحكم الملك (نجم الدين) .

وفى عام (٦٣٦ هـ) عرض (الملك الجواد يونس) حاكم الشام ، على الملك نجم الدين أن يسلمه الشام نظير إقطاعه مدن (سنجار) و (والرقة) و (العانة) من البلاد الجزرية ، فلم يدع الملك نجم الدين هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده ، فتقبل العرض على الفور فرحا مسرورا . وما لبث أن ترك ابنه (تورانشاه) فى منصب حاكم الجزيرة وأقطع بعض البلاد منها لأمراء وقواد خوارزميين ، ثم توجه هو على رأس جيش عرمرم صوب البلاد الشامية وتسلم « دمشق » حسب الاتفاق . وكان الاتفاق قد تم وقتذاك بين « الملك العادل الثانى » وابن عمه (الملك داود) حاكم الكرك على أن يهاجما سويا (الملك نجم الدين أيوب) وقد لجأ حينذاك بعض القواد والضباط من أمراء جيش الملك العادل الذين كانوا ساخطين عليه لسوء معاملته لهم إلى صفوف جيش الملك نجم الدين كما ابدى الملك داود هو الآخر رغبته فى الانضمام الى الملك (نجم الدين) على شريطة أن تسلم له (دمشق) بيد أن هذا الطلب قد رفض رفضا باتا فاضطر للبقاء إلى جانب الملك العادل لتنفيذ الخطة التى تم الاتفاق بينهما على تنفيذها

وفى عام (٦٣٧ هـ) تحرك الملك نجم الدين أيوب على رأس جيش من خمسة آلاف مقاتل من الشام وهدفه الزحف على مصر والاستيلاء عليها ، فوصل نابلس ولبث فيها مدة ليتعرف مدى صداقة عمه (الملك اسماعيل) ومدى تعضيده له فى هذه المهمة إذ أن عمه هذا كان يظهر له الكثير من علائم المودة والمحبة بألفاظ معسولة وأقوال خلابة . فى حين أنه كان يبطن لابن

أخيه خلاف ما يظهر ويضمر له فى نفسه الشر والخيانه والغدر ويحيك له المكائد ، فكان يتفاوض سرا مع أمير (حمص) لاتخاذ تدابير مشتركة لاثارة جيش نجم الدين ضده . وقد توصلا إلى غرضهما بخداع واغراء قواد جيش الملك نجم الدين بوعود كاذبة وأمانى خلابة وباطلة ، فانفض جيشه وكذا أنصاره من حوله وبقى هو وحيدا لا سند له فى قلعة نابلس . وما أن علم الملك (داود) حاكم الكرك بذلك حتى زحف بجيش على نابلس . وأسر الملك نجم الدين وبعث به إلى قلعة الكرك رغم طلب الملك العادل إرساله اليه فى مصر .

وفى هذه الفترة انتهت مدة المعاهدة المعقودة بين الملك الكامل والامبراطور فردريك ولكن الافرنج كانوا غير راغبين فى تسليم القدس إلى المسلمين حسب الشروط المتفق عليها فزحف الأمير (داود) على القدس واستولى عليها بعد حصار دام واحدا وعشرين يوما وكان ذلك فى جمادى الأولى من عام (٦٣٧ هـ) وأزال جميع التحصينات التى كان الافرنج قد أقاموها حول المدينة .

ثم بدأ الحظ يبسم من جديد للملك (نجم الدين أيوب) حيث فشلت المفاوضات بين الأمير (داود) والأمير (اسماعيل) والملك (العادل) لعقد اتفاق دائم بينهم ، فبذل أمير (حماه) وساطته لعقد أواصر الاتفاق وإيجاد التفاهم بين الملك (نجم الدين أيوب) والأمير (داود) اللذين سرعان ماعقد بينهما اجتماع فى القدس وأبرما معاهدة ثنائية بينهما تقضى بأعطاء مصر للملك نجم الدين ، وبقاء البلاد الشامية ، وغيرها من البلاد الشرقية فى قبضة الملك (داود) .

ولقد أثار هذا الاتفاق مخاوف الملك العادل ، وساوره قلق شديد على ملكه ، فأصدر أمره على الفور لعمه الملك (اسماعيل) بأن يبادر بالزحف على

موقعي هذا الاتفاق، فتحرك عمه على رأس جيشه . وعسكر بمدينة (بلبيس) ليعد العدة ، ويتخذ الأهبة للزحف إلى فلسطين ، وكان فريق كبير من جيشه من جماعة المماليك وهم المدعوون بالآشرفية نسبة إلى الملك الأشرف أخي (الملك الكامل) ساخطين على سيدهم الملك (العادل) ومتذمرين منه ، فانتهزوا الفرصة وانفجروا ثائرين في المعسكر ، وألقوا القبض عليه ، وخلعوه عن العرش وانتزعوا منه السلطنة ، وبعثوا به إلى « قلعة القاهرة » وزجوا به سجينا في غياهبها (١) .

وبعد بضعة أيام ولوا سلطنة مصر للملك نجم الدين أيوب .

---

١)« الملك الصالح نجم الدين أيوب »

هو أكبر أولاد الملك الكامل ، ولد بمصر في عام(٦٠٣هـ) وعينه والده وليا للعهد في عام (٦٢٥ هـ) إلا أنه فقد ثقة والده فيه أخيرا فأبعد عن مصر نتيجة دسائس حاكتها والدة الملك « العادل الثاني » ضده لدى زوجها فأوغرت صدره من ابنه وقد عانى الملك الصالح الكثير من الويلات والمشاق كما ذكرنا كي يصل إلى هذا المركز السامي، إلى أن ساعده الحظ على حساب الملك العادل الذي أفضى فشله الذريع في تصريف الأمور ، وإدارة دفة شئون الدولة إلى خلعه والألقاء به في غياهب السجن ودعوة الملك الصالح نجم الدين الى مصر والمناداة به سلطانا عليها في عام ٦٣٧ للهجره (١٢٤٠م) . ولم يمض على إعلان السلطنة طويل وقت ، حتى جاء نبأ موافقة الخليفة ببغداد على هذا الأجراء . وهكذا استتب الأمن ودانت الأمور للملك الصالح بمصر دون قتال

---

(١) وقد بقي الملك العادل أبو بكر حبيسا في هذا السجن حتى عام(٦٤٥) للهجرة ، حيث نفذ فيه حكم الاعدام في هذه القلعة المؤلف

أو نزاع ، كما كانت البلاد الشرقية (كردستان) أيضا خاضعة لإدارة ولده (تورانشاه) الحازمة ، ما عدا البلاد الشامية التى كان الحكم فيها مضطربا ، بسبب تطاحن الأمراء الأيوبيين والولاة على اعتلاء أريكة الحكم ، ولولا هذا لأمكن القول دون تردد بأن عهد (صلاح الدين) الذهبى قد بعث من جديد ، وإن الشىء الوحيد الذى كان يقض مضاجع الملك الصالح « نجم الدين أيوب » لهو إيجاد وسيلة يتذرع بها للتنصل من معاهدة القدس المعقودة بينه وبين الأمير (داود) بشأن تملك الأخير لسورية ، تلك المعاهدة التى عقدت فى ظل من الضغط والإكراه مما لا يجعل لإستمرار سريانها أية قيمة قانونية أو أخلاقية . وهذا ما حدا بالملك الصالح إلى المبادرة بإعلان سقوط هذه المعاهدة مع الوعد فى الظاهر بتنصيب الأمير (داود) واليا على دمشق من قبله

ولقد أمضى الملك الصالح العام التالى لحكمه فى تنظيم أمور مصر وشئونها الداخلية فضرب بيد من حديد على أيدى المجرمين الذين عاثوا فى أنحاء المملكة فسادا وجرد حملة عسكرية على عرب مصر العليا (الصعيد) فنكل بهم أفظع تنكيل ، وألقى القبض على الزعماء منهم والرؤساء ، ثم عمد إلى تقسيم أراضيهم وتوزيعها بين مماليكه . ثم أنشأ لنفسه فى جزيرة الروضة المحاطة بالنيل قصرا ، وثكنة لمماليكه الخاصة .

وفى السنة نفسها حدث صدام بين الملك نجم الدين وبين خصومه الداخليين من أعضاء الأسرة ، حيث كان يدرك الأمير (داود) تمام الادراك ماينطوى عليه إلغاء المعاهدة السابق ذكرها من أن السلطان لا يترك له مجالا لتوسيع نفوذه ، كما أن الأمير (نجم الدين اسماعيل) عم السلطان كان يعرف حق المعرفة أن السلطان لايمكن أن يترك له الشام لقمة سائغة . ومن أجل ذلك كان بادى القلق دائم الاضطراب ، ومن ناحية أخرى كان (بدر الدين لؤلؤ)

صاحب الموصل قد وسع من دائرة نفوذه فى الجزيرة وفى سائر البلاد الشرقية إذ استولى على مدينة (آمد) من (تورانشاه) نجل السلطان الذى لم يكن باقيا فى حوزته وتحت حكمه سوى قلعتى (حصن كيف) و (الهائم).

فازاء هذه التطورات والأحوال المتلاحقة، اتفق الأمير (داود) والأمير (اسماعيل) صاحب دمشق مع الأفرنج بفلسطين ضد السلطان نظير إعطائهم بلاد (الطبرية) و (سقيف آرنون) و (صفد) وهى من البلدان التى كان قد فتحها السلطان (صلاح الدين) سابقا، وفضلا عن ذلك، فقد سمحوا للأفرنج بشراء السلاح فى دمشق.

وخلاصة القول إن اتفاقا هاما قد تم بين هؤلاء الأمراء الأيوبيين الذين أضلهم الطمع، وبين الأفرنج الذين أعماهم التعصب، للقضاء على الملك (نجم الدين أيوب) وأخذوا فى إعداد العدة لتنفيذ هذه الخطة المرسومة، وكان الأمير (نجم الدين اسماعيل) عم السلطان هو الرأس المدبر للحركة، وصاحب الرأى فيها، وكان هو نفسه قد دبر مكيدة وحاك دسيسة أخرى فى وقت ما، لانتزاع «دمشق» من قبضة (الملك الجواد يونس) الذى هرع إلى صفوف الأفرنج فرارا منه، فاستغل الأمير اسماعيل الاتفاق المعقود مع الأفرنج، وأرسل للأفرنج مبلغا من المال وتسلمهم منه الأمير «الجواد» وقضى على حياته ظلما وبهتانا.

وصفوة القول ان الأميرين «داود» و «اسماعيل» قد وصل بهما الأمر إلى درجة قصوى من الخسة والدناءة لكى يهدما صرح السلطنة الأيوبية من أساسه، فأخبرا الأفرنج سرا بأن الأسرى المسلمين الذين لديهم فى (شقيف آرنون) سيقومون بالثورة، وما أن علم الأفرنج المتعصبون بهذا النبأ حتى بادروا سراعا بنقل أولئك الأسرى إلى «عكا» وهنالك قتلوهم عن بكرة أبيهم

وبعد حقبة من الزمن زحف جيش المتحالفين المعبأ من الأفرنج وجنود

الأميرين (داود) و (اسماعيل) ، واشتبك بجيش السلطان (نجم الدين)فيما بين (غزة) و (عسقلان) . ودارت بين الفريقين رحى معركة طاحنة انحاز خلالها الجيش الاسـلامى الذى كان يقوده الأمير (اسماعيل) إلى جانب السلطان، مما أسرع بالمعركة إلى نهايتها ، فأسفرت عن اندحار جيوش المتحالفين اندحارا ذريعا ، وأسر الكثيرين من الأفرنج ، فاضطروا إلى الاذعان وعقد الصلح مع السلطان الذى عاد بجيشه إلى مصر بعد توقيع شروط الصلح ، وفى السنة التالية قام الأفرنج ومعهم الأمير (داود) ببعض مناوشات ومصادمات دموية فى سوريه منتهزا فرصة ابتعاد جيوش السلطان عنها .

وفى عام (٦٤١هـ) جرت مفاوضات للصلح بين الملك (نجم الدين أيوب) والأمير (اسماعيل) على أساس إطلاق سراح الملك (غيات الدين (١)) ابن الملك نجم الدين الذى كان أسيرا لدى الأمير (اسماعيل) وأن يعترف به ملكا وتلقى بإسمه الخطب على المنابر ، ولـكن حدث أن ترامت أنباء إلى الأمير (اسماعيل) بأن هنالك مخابرات سرية بين الملك (نجم الدين) والخوارزميين ولذلك قطع المفاوضات الجارية مع الملك نجم الدين أيوب .

وفى أواخر هذا العام عقد كل من (داود) و (اسماعيل) اتفاقا نهائيا مع الأفرنج ، ووقعاه فعلا ، وأخذا فى تنفيذ نصوصه التى تقضى بترك الجزء الأكبر من فلسطين بما فيه القدس الشريف ، وبعض مراكز اسلامية مقدسة أخرى فى تلك البقاع إلى الأفرنج ، فى عام (٦٤١هـ) كما اضطر الأمير (داود) الذى كان من ألد خصوم الافرنج إلى تسليم الصخرة المقدسة وركاب البراق فى المسجد الأقصى .

---

(١) كان هذا الأمير قد وقع أسيرا فى قبضة الأمير اسماعيل أثناء ذهاب الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى نابلس ووقوعه أسيرا . المؤلف

ولم يجد الملك (نجم الدين) مناصا إزاء هذه الحالة الحرجة من الاستنجاد بالخوارزميين الذين استجابوا لطلبه ولبوا نداءه فى عام (٦٤٢هـ) وأغاروا على الطرق والمنافذ المؤدية واستولوا عليها ، كما أعملوا فى تلك الجهات الكثير من أعمال التخريب والتدمير . وفى نفس الوقت أرسل الملك (نجم الدين) من مصر جيشا لشد أزر الخوارزميين ، كما أن الأمير (اسماعيل) أرسل جيشا لمساعدة الأفرنج ، فاشتبك الجمعان ودار بينهما القتال فى أطراف (غزة) وأسفرت هذه المعركة الدامية عن اندحار ذريع للأفرنج وحلفائهم ، وعن غلبة الجيش المصرى والخوارزميين الذين نهبوا البلاد نهبا تاما ، واسترد الجيش الاسلامى المصرى القدس وبقية بلاد فلسطين فى عام (٦٤٢ هـ) ، وبقيت هذه البلاد فى قبضة المسلمين إبتداء من هذا التاريخ حتى عام (١٣٣٦ هـ — ١٩١٨ م)(١) . واستطاع الأمير (داود) أن يحتفظ بالكرك والسلط وعجلون (فى مملكة شرق الاردن الآن) .

وقد واصل الجيش المصرى زحفه حتى طرق أبواب الشام وألقى عليها الحصار ، ولما طال أمد الحصار اضطر صاحبها الأمير (اسماعيل) للتسليم فى عام (٦٤٣) مقابل تسلمه قلعتى (بعلبك) و (بصرى) .

وقد بعثت هذه الانتصارات الباهرة الطمع فى نفوس الخوارزميين فازدادوا طغيانا وعتوا ، ولم يقنعوا بما أقطع لهم من الأراضى وما وزع عليهم من الأموال ، بل انضموا إلى صفوف جيش الأمير (اسماعيل) الذى أمرهم

---

(١) كانت القدس فى قبضة السلجوقيين أيام ضعف العباسيين ، فاستولى عليها عام (٤٣٩ هـ) الخليفة الفاطمى المستنصر بالله . وفى عام (٤٩٢) استولى عليها الأفرنج وأباحوا فيها القتل سبعة أيام حيث حشدوا فى المسجد الأقصى تسعين ألفا وقتلوهم عن آخرهم . . وفى عام (٥٨٣) استردها السلطان (صلاح الدين) المؤلف

بحصار (دمشق الشام) والاستيلاء عليها ، ولكن قائدا أيوبيا ظل مستميتا فى الدفاع عنها حتى أوائل عام (٦٤٤ هـ) حيث نهض أمير (حلب) و (حماه) الذى قعد عن تقديم أية مساعدة حتى وقتذاك للملك (نجم الدين) نهض لمقاومة الخوارزميين واستئصال شأفتهم قطعا لدابر فسادهم الذى عم البلاد ، وسرعان ما زحف بجيشه للاشتباك بهم ، ـ فاضطر هؤلاء الخوارزميون لرفع الحصار عن دمشق والمبادرة إلى التحرك للقاء الجيش الزاحف عليهم من (حلب) ، وما لبث أن التقى الجمعان فى القصب (لعله القصير) ودار بينهما قتال عنيف أسفر عن اندحار الخوارزميين وخذلانهم ، وقتل أحد قوادهم ، وهروب آخر ولجأ الأمير (اسماعيل) نفسه إلى (حلب) حيث شمله أميرها (يوسف الثانى) برعايته ، ولكنه فقد (بعلبك) إذ استولى عليها الملك (نجم الدين أيوب) وأسر أولاده ونساءه وذهب بهم إلى القاهرة ، كما فقد الامير (داود) هو الآخر جميع ممتلكاته ماعدا (الكرك) تاركا فيها نجلا له صغيرا جدا ، ولجأ هو أيضا إلى (حلب) .

وقد أبدى أمير حلب عظيم استيائه من الملك نجم الدين ، ودفاعا عن ملكه عزم على أن ينتزع « حمص » من الملك « نجم الدين » فأرسل جيشا ضرب عليها حصارا قويا قرابة شهرين تمكن بعدهما من انتزاعهما من قبضة الامير الاشرف ، فى عام (٦٤٦) وهذا ما استثار حفيظة الملك (نجم الدين) وأثار غضبه ، ولم يقف مكتوف اليدين ، بل حضر بنفسه إلى الشام لمنازلة « الناصر يوسف الثانى » وبعث بقائد من قواده على رأس جيش آخر لاسترداد « حمص » وما أن ترامى إلى مسامع الملك (نجم الدين) بعد وصوله إلى الشام أن الحملة الصليبية السابعة التى كان يقودها « لويس السابع » ملك فرنسا ، متجهة صوب (دمياط) حتى اضطر إلى عقد صلح عاجل مع (الناصر يوسف) بعد أن توسط بينهما خليفة بغداد ، ثم عاد سريعا إلى مصر لاعداد العدة

وتهيئة وسائل الدفاع عن البلاد . ورغم ما أصابه من مرض شديد فقد انتقل إلى معسكره بأشمـونين بناقلة المرضى ، ومع ذلك فلم يستطع طرد الصليبيين واسترداد (دمياط) من بين براثنهم ، لانتشار الفوضى واختلال النظام بين جنوده خلال فترة مرضه ، وعدم تمكنه وقتذاك من الاشراف عليهم ، كما أن البدو من قبيلة الكنانة الذين كانوا مكلفين بحراسة بعض النواحى القريبة من ميدان القتال فقد كانوا يعيثون فى الارض فسادا ، ويعتبرون تلك الانحاء التى خلت من جند السلطان الموكول إليهم أمر حراستها ، كلأ مباحا لهم ،ومرعى خصيبا ، يتصرفون فيه حسبما يتراءى لهم .

هذا ، وقد نظر الملك (نجم الدين) قبيل وفاته، إلى أولاد الامير (داود) نظرة عطف وشملهم برعايته ، وفى الواقع أن ولده الكبير حين رأى أن والده سبق أن عهد إلى إبنه الصغير إلى قلعة الكرك ، سارع بالزحف صوب هذه القلعة فاستولى عليها وأسر أخاه فيها ، ثم جاء على عجل للقاء الملك نجم الدين وقدم اليه القلعة نظير إعطائه جهة أخرى ، فما كان من الملك نجم الدين إلا أن سارع إلى إرسال قائد من قواده على رأس قوة عسكرية لتسلم القلعة المذكورة وقد توفى الملك (نجم الدين) ولحق بالرفيق الاعلى فى اليوم الخامس عشر من شعبان سنة (٦٤٧) (٢٣ تشرين ثانى (نوفمبر) سنة ١٢٤٩ م) .

٢) « أهدافه وآثاره »

كان الهدف الاسمى لهذا السلطان هو تأسيس دولة قوية ذات شوكة وسلطان على نسق حكومتى (صلاح الدين) ووالده الملك الكامل ، حيث كانت تبسط سلطانها على مصر وفلسطين وسورية والجزيرة ، وقد تحقق هذا الهدف مع وجود فارق قليل فى أواخر أيام حكمه ، يستثنى من ذلك إمارتا حلب والموصل المستقلتين . وقد أعد الملك (نجم الدين) قوة عسكرية خاصة

من مماليكه (١) لإظهار قوته وماله من عظيم السطوة والبأس ، والواقع أن هذه القوة قد أفادته كثيرا طيلة عهده لحسن نظامها وقوة مراسها ولكنها وهى قوة أجنبية عن الاسرة الحاكمة وعن البلاد . قد انقلبت أخيرا شأنها فى ذلك شأن غيرها من القوات الغريبة، إلى معول هدام أدى فى النهاية إلى اضمحلال الحكومة الايوبية بمصر ثم فى الشام .

وقد كان الملك (نجم الدين أيوب) قوى السلطة، مهابا من قواده وموظفيه شديد الوطأة عليهم ، لا يجرؤ أيهم على أن ينبس أمامه ببنت شفة أو يسأله عن شىء . كما وجه الملك اهتمامه وكامل عنايته بأعمال الإنشاء والتعمير ، فشيد القصور ، وأنشأ المدارس . وما قصرا الروضة والكبش بمصر إلا شاهدان على ما نقول ، بل يعتبران من آثاره الخالدة على مر السنين وكر الاعوام ، وزيادة على ذلك فقد خطط مدينة الصالحية كى تكون مدينة دفاعية محصنة على الحدود الشرقية .

---

(١) هؤلاء المماليك يطلق عليهم لقب (المماليك البحرية) وكانوا حرسا خاصا للسلطان ، أرقاء من الجركس والكرج اشتروا بالمال وكانوا يقيمون فى ثكنة عسكرية بجزيرة الروضة وسط النيل . . وقد نشأت طائفة أخرى من هؤلاء المماليك فى عهد السلطان قلاوون أشهر سلاطين المماليك ، كان يطلق عليهم لقب « المماليك البرجية » لأنهم كانوا يقيمون عادة فى الأبراج الداخلية لقلعة القاهرة ـ فالطائفة الأولى من المماليك قضت على حكومة الأيوبيين بوادى النيل ودام سلطانهم فى مصر وسورية من (٦٤٨ ـ ٧٩٢ هـ) ... وأما الطائفة الثانية منهم فقضت على حكومة الطائفة الأولى فى سنة (٧٨٤ هـ) ودام سلطانها حتى دخول السلطان سليم الأول العثمانى مصر فى سنة (٩٢٢ هـ) حيث قضى على هؤلاء الآخرين . المؤلف

« عهد سلطنة تورانشاه »

كان (تورانشاه) وهو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب حين وفاة والده حاكما على اقليمى الجزيرة وكردستان ، وكان قد اكتسب خبرة واسعة، ومرن على سياسة الحروب والقتال خلال حروب والده ضد (بدر الدين لؤلؤ) صاحب الموصل ، وضد سلطان سلاجقة الروم ، حيث كان يتولى اعباء القيادة ويشرف بنفسه على شئون الجيش والدفاع عن الحدود ، وقد نال شهرة رائعة فى ميادين القتال وإدارة شئونها . فلما جاءته الأنباء بوفاة والده العظيم سافر إلى مصر على عجل ، فوجد أن زوج والده «شجرة الدر» التى كانت على جانب كبير من رجاحة العقل وحسن التدبير ـ قد أخفت نبأ وفاة والده عن الناس فبايعه الأمراء والقواد وسائر رجال الدولة وأولياء الأمور ، ونادوا به ملكا على البلاد خلفا لوالده . وفى خلال هذه الفترة كان جيش الصليبيين بقيادة (سن لوئيس) قد اتخذ من (دمياط) مقرا وقاعدة لحركاته العسكرية ، ثم قام الصليبيون منها بحملة عسكرية كبيرة على عاصمة مصر بعد أن تدفق عليهم الكثير من الأمدادات والمعونة من قبل الانجليز والفرنسيس . وقد كانت مدينة المنصورة أول هدف للصليبيين . . . وما أن وصل (تورانشاه) إلى القاهرة حتى عمد إلى إعداد العدة وتهيئة وسائل الدفاع عنها ، وحشد الجيوش لصد المغيرين ، ولما كان الصليبيون قد تباطأوا كثيرا فى الوصول من (دمياط) إلى (المنصورة) حيث لم يصلوا إلى ضواحيها إلا بعد نحو من شهر ، فقد استفاد (تورانشاه) من هذا التباطؤ واستغله فى حشد جيش للدفاع عنها بعد أن أقام التحصينات اللازمة حولها . . .

وفى هذا الوقت وصل جيش آخر للصليبيين وهو ألمانى ، وضرب حصارا قويا حول المدينة ، دون مبالاة بما أعد من وسائل الدفاع عن هذه المدينة التى تحيط بها الترع والجداول المتفرعة من النيل ، الذى كان لفيضانه الفضل فى

قلب خطط (سن لوئيس) رأسا على عقب . هذا فضلا عن هدم الجسور والمعابر الواقعة على النيل وفروعه بين المنصورة والقاهرة بأمر من الملك (توراتشاه) مما أفضى إلى تدفق السيول وإحاطتها بجيش الصليبيين إحاطة السوار بالمعصم ، وقطع خط الرجعة عليهم من كل جانب .

وفى هذا الظرف المواتى شن (تورانشاه) هجوما عنيفا على الصليبيين من جميع الجهات ، وضيق عليهم الخناق ، وبهذا قطع الطريق بينهم وبين دمياط ، فتفشى بينهم المرض ، وحل بهم الجوع ، وذاقوا ألوانا من البؤس والشقاء . ولم يكتف (تورانشاه) بهذا فقط ، بل أقدم على عمل آخر جرىء يرمى به إلى تطويق دمياط ، ومنع الصليبيين من القيام بأية محاولة للهروب من أى جانب « وذلك بأن عمد إلى نقل قطع من السفن على ظهور الجمال إلى ساحل البحر ، وإنزالها إلى البحر الأبيض بعد تركيبها وتجهيزها وتزويدها بالمقاتلين ، ثم أرسلها إلى مياه دمياط » وهكذا قطع طريق البحر أيضا على الصليبيين فوقعوا فى حيص وبيص . والخلاصة ، أن قائد الصليبيين وجيوشهم قد اضطروا ـ أمام هذه الظروف العصيبة ـ إلى التقهقر والانسحاب دون نظام ولكن الجيش المصرى الذى كان لهم بالمرصاد ، لم يهيىء لهم فرصة للنجاة بل أسر منهم الكثير الأغلب ثم شتت شمل الآخرين فى عام (٦٤٧ هـ)، ووقع (سن لوئيس) نفسه أسيرا فى يد الملك (تورانشاه) ومعه ذلك العلم المقدس الذى كان قد أخذه من دير (سان دنيس) تبركا به ، وأسر معه الكثيرون من القواد والزعماء ، وذوى الرأى منهم ، ولم ينج الملك (لوئيس) من ذل الأسر ومرارة الاعتقال إلا بعد أن أمضى اتفاقية تعهد فيها بتسليم (دمياط) ، ودفع فدية عن نفسه وعن قواد جيشه وسائر رجاله قدرت ـ وقتذاك ـ بثمانمائة ألف دينار من الذهب، وبمغادرته للقطر المصرى على الفور على ألا يعود إليه قط . وبعد أن نفذ هذه الشروط غادر مصر إلى سورية ولبث هنالك ثلاث

سنين . وقد قدرت خسائر الصليبيين فى هذه المعركة بأكثر من ثلاثين ألف نسمة من المقاتلين . اهـ. (معالم تاريخ العصور الوسطى) .

وبعد انتهاء مشكلة الصليبيين ، تفرغ الملك (تورانشاه) لتوطيد النظام بين جنوده المماليك ، إذ كان القسم المسمى منهم « بالمماليك البحرية » ، وهم مماليك والده العظيم ، عتاة ، طغاة لا يخضعون لنظام ولا لعرف . وكان (تورانشاه) يعتز بجيش الجزيرة ضد هؤلاء المماليك العتاة ، وكان يحاول جاهدا إخضاعهم بقوة هؤلاء الجزريين ؛ وقد فطن الجنود المماليك إلى هذا الخطر المحدق بهم ، فخرجوا عن طاعة السلطان ، وقلبوا له ظهر المجن ، فدبروا له مؤامرة أسفرت عن اغتياله ، وكان ذلك فى عام (٦٤٨) للهجرة .

ويقول بعض المؤرخين ان لشجرة الدر ـ امرأة والد تورانشاه ـ يداً فى هذه المؤامرة الدنيئة ، ويظهر أن لهذا القول نصيباً من الصحة ، لأن هذه المرأة الطموحة الذكية كانت طامعة فى الملك ، وبصفتها زوجة أب وليست أما ، كانت تكره (تورانشاه) ، فضلا عن أنها كانت على اتصال بمدبرى المكيدة والذين حاكوا أطراف المؤامرة من المماليك البحرية ، وليس أدل على ذلك من زواجها برئيس هؤلاء المماليك الذين اغتالوا (تورانشاه) وهو المدعو (أيبك) . ومن هنا لا يبعد أن تكون (شجرة الدر) مطلعة على نوايا المتآمرين قبل وقوع الجناية . وعلى كل فأنه لمن سوء طالع المملكة الأيوبية أن تحرم من ملك قاهر ، وقائد محنك مغوار ، مثل (تورانشاه) الذى كان آخر سلطان أيوبى يجمع بين صفات الجندى الماهر ، والادارى الحازم ، والقائد المحنك . إذ كان المأمول أن تنهض المملكة الأيوبية وتتقدم على يديه تقدما عظيما محسوساً لولا أن عاجلته المنية واختطفته يد المنون ، حيث ذهب ضحية جناية أثيمة قام بها غلمانه وغلمان والده من الجند الأجنبى قبل أن ينفذ برنامجه الاصلاحى .

ولقد شهد التاريخ بأن الملك (تورانشاه) ذلك القائد الداهية الجرىء هو أول ملك يعمد إلى إنشاء سفن وينقل قطعها على ظهور الجمال إلى البحار حيث يكون منها أسطولا عظيما ينازل به خصمه فيصرعه. وقد أتى بعد بقرنين وأربع سنوات السلطان التركى (محمد الفاتح) ، وقام بمثل هذا العمل تماما أمام أسوار القسطنطينية ، ولا شك فى أنه قد اقتدى فى ذلك بتورانشاه . والفضل للسابق كما يقولون .

وعلاوة على ذلك ، فقد كفاه فخراً أنه هو الذى أباد الصليبيين ، وطردهم من الديار المصرية ، وأوقع « سن لويس » ملك فرنسا فى الأسر .

« نهاية حكومة الأيوبيين بمصر »

بعد أن أقدمت جماعة المماليك البحرية العصاة على ارتكاب جريمتهم الشنعاء . وهى اغتيال (تورانشاه) ، عمدوا إلى تولية (شجرة الدر) ـ زوجة أبيه ـ مكانه على عرش مصر ، وألقوا الخطب على المنابر وسكوا العملة باسمها الذى اصطلحوا عليه وهو (المستعصمية الصالحة ملكة المسلمين أم الملك المنصور خليل) ولقد بادرت الملكة إلى تعيين (معز الدين أيبك) رئيس جماعة المماليك البحرية قائداً عاما لجيوش مصر . بيد أن سلطنة (شجرة الدر) لم تعمر طويلا لمعارضة الأمراء والقواد بمصر لها ، وإصرارهم على تعيين ملك من أسرة بنى أيوب حتى تمكنوا فى النهاية من تنصيب الملك (الأشرف موسى) ابن بنت الملك الكامل وابن آخر أمير أيوبى فى اليمن مكان (شجرة الدر) وكان ذلك فى عام (٦٤٨ هـ) (٥ أغسطس سنة ١٢٥٠ م) ، ولكن الحكم والنفوذ فى الحقيقة كان يتركز فى يد القائد العام (معز الدين أيبك [1]) .

---

(١) يقول السيد أمير على مؤلف (تاريخ الاسلام المصور) ان (آيبك) محرف (أغابك) والأقرب إلى الذهن (آى بك) بمعنى الأمير قمر . المؤلف

وبعد عام توترت العلاقات بين مصر وبين الملك الناصر يوسف حاكم حلب ، واحتدم وطيس القتال بين قوات الفريقين ، ودام بينهما النزاع ثلاث سنوات ، وأخيراً عقد صلح بين الملك الناصر وبين معز الدين أيبك عام (٦٥٢هـ) وذلك بفضل تدخل خليفة بغداد لحسم النزاع ووضع حد لسفك الدماء .

وفي عام (٦٥٣هـ) أعلن معز الدين أيبك استقلاله التام في حكم مصر ، بعد أن خلع الملك الأشرف ، وبعث به إلى أقربائه في اليمن . وهكذا انتقلت السلطنة الأيوبية العتيدة بوادي النيل إلى أيدي غلمانهم المماليك . وتكررت تلك الغلطة بل تلك المأساة السياسية والعسكرية حين أودى بسلطنة العباسيين وقضى عليها ، أولئك الذين جيء بهم لتأييدها والدفاع عنها . فكان الواجب يحتم على الملك الكامل الأيوبي ـ قبل أن يجند الجند من هؤلاء المماليك العتاة أن يلقى نظرة على تاريخ العباسيين وخلافتهم ليتخذ عبرة بما آل اليه أمرهم بسبب إكثارهم من الجند المماليك .

٢ – الحكومة الأيوبية بحلب (٥٧٩ – ٦٨٥ هـ)

أقطع السلطان صلاح الدين بلاد حلب هذه ـ لأول مرة ـ لابنه الملك الظاهر « غازى » وله من العمر وقتذاك ، أحد عشر عاما . وبعد بضعة أشهر ألقى عبء إدارتها على عاتق أخيه الملك العادل . وفى عام (٥٨٢هـ) شرع يقسم البلاد الخاضعة لسلطنته العريضة من جديد ، فنصب أخاه الملك العادل أتابكا (قيما) لابنه الملك العزيز بمصر ، وأعاد (حلب) إلى حكم الملك الظاهر غازى وزوجه (ضيفة خاتون)[1] ابنة الملك العادل .

ولقد أخلص الملك الظاهر كل الاخلاص لوالده طيلة عهده الزاهر إذا اشترك وساهم كتابع له ، فى حروبه الكثيرة وتضحياته الكبيرة أثناء نضاله واشتباكه مع الصليبيين، وقد ظل حريصاً على الظهور بهذا المظهر أيضاً مع عمه الملك العادل بعد وفاة والده . وكان الهدف الأسمى لهذا الملك هو ضمان إيجاد توازن بين ملوك وأمراء الأسرة الأيوبية ليتمكن بذلك من الدفاع عن البلاد الاسلامية التى كان يحيق بها الشر ويتهددها الخطر من كافة النواحى ، فلا غرو أن يبادر إلى تحصين قلعة حلب حتى أضحت على جانب عظيم من قوة المناعة والاحكام .

وقبل وفاته فى عام (٦١٣ هـ) ، كان قد أوصى بالملك من بعده لابنه الصغير الملك العزيز « محمود » الذى أنجبه من ابنة عمه الملك العادل .

وكان يرمى من وراء ذلك إلى الاستفادة من نفوذ الملك العادل والحصول

---

(١) المشهور أن اسمها صفية خاتون . المترجم

على معونته لتوطيد حكم أسرته فى حلب ، فتولى الملك الأشرف موسى - نجل الملك العادل — قيادة جيوش حلب ، ودافع عن هذه القلعة العاتية دفاع الأبطال ضد غارة السلطان كيكاوس السلجوقى ، وكان يتولى عبء تصريف الأمور الأدارية كل من « طغرل » نائب الملك الظاهر ، والقاضى بهاء الدين ابن شداد الشهير . واستمر الحال على هذا المنوال فى عهد الملك العادل والملك الكامل وابنه من حيث الاعتراف بسلطنة الملك العزيز الذى باشر سلطاته الملكية فى عام (٦٢٨) والذى ملأ المناصب الهامة من بين رجالاته وأخصائه واستولى على قلعة « الشيزر » بمعونة خاله الملك الكامل وبفضل تعضيده له كما أن قلعة « البيرة » القائمة على نهر الفرات قد آلت اليه من ميراث عمه الملك الزاهر « داود » ولقد نهضت مدينة حلب ، وتقدمت تقدما محسوساً فى عهد والده وطيلة أيامه هو فى النواحى العمرانية والتجارية وغيرها ، كما اتسعت رقعة بلاده فى حدود الشام والجزيرة كثيراً .

وفى عام (٦٣٤) ، توفى الملك العزيز فصعدت روحه إلى بارئها وهو لا يزال فى عنفوان شبابه ، تاركا ملكه وعرشه لابنه الملك « الناصر يوسف » البالغ من العمر - حينذاك - سبع سنوات فقط [1] .

ولقد تولت (ضيفة خاتون) - جدة الملك الناصر يوسف - مقاليد الأمور إثر أزمة سياسية عصيبة ، وصارت نائبة الملك . فلما توترت العلاقات بينها وبين الملك الكامل ، اتفقت مع الملك الأشرف حاكم الشام الذى تمكن من الدفاع عن بلادها حين أغارت الجيوش المصرية عليها . وقد نهض قائد جيشها « الملك المعظم » - نجل السلطان صلاح الدين - برد الاعداء على أعقابهم ، وألحق بهم خسائر جسيمة .

---

(١) الملك الناصر هذا قد ولد له من زوجته فاطمة خاتون ابنة الملك الكامل .
المؤلف

وعلاوة على ذلك ، فقد اتحدت مع السلطان « كيخسرو السلجوقى » جهارا ، تعزيزاً لنفوذها ، وتوطيداً لمركزها ، وقبلته متبوعا لها حيث جعلت الخطبة وسكت العملة باسمه فى بلادها ، وأعلنت خطبة حفيدها الملك الناصر يوسف على أخت هذا السلطان ، وفى خلال هذه الفترة كانت نكبة قاصمة تزحف نحو بلاد الشام على غرة ، وهى انقضاض جميع المقاتلين والعناصر الفتاكة من الخوارزميين الذين فروا هاربين أمام غارات التتر والمغل من رجال (جنكيز) على البلاد الاسلامية مبتدئين ببحر قزوين حتى حدود البلاد الشامية ، وأخذوا يعيثون بأرض الجزيرة فساداً من تدمير القرى إلى إحراق المساكن ، إلى فتك بالاطفال والنساء ، واستولوا عنوة على كافة بلاد الملك الصالح ابن الملك الكامل فى بلاد الجزيرة.

ومن دواعى الأسف أن عوامل الشقاق والتنافس بين أمراء بنى أيوب قد وقفت حجرة عثرة وحائلا دون اتحادهم ووقوفهم صفا واحدا وجبهة متراصة حيال الخطر المحدق بهم والزاحف عليهم من الشمال أو التوفيق بين مصالحهم ومصالح القادمين من الشمال للصمود أمام أعدائهم الآخرين فى الغرب والجنوب وأخير انحدر جيش حلب ، وغلب على أمره أمام قوات الخوارزميين الجارفة ووقع القائد العام وهو الملك المعظم أسيرا فى قبضة الخوارزميين ، ووقعت أحمال الجيش الاسلامى وأثقاله فى أيدى الأعداء غنيمة باردة وهكذا سقطت جميع البلاد السورية حتى (حماه) فى أيدى الخوارزميين فى عام (٦٣٨ هـ).

ثم عزز الجيش الاسلامى الحلبى المنهزم بعد ذلك بجيش ملك « حمص » وبقوات من البدو الذين أجلاهم الخوارزميون عن أماكنهم ، وبهذا أضحى جيشا قوى المراس ، شديد البأس ، فى مكنته منازلة الخوارزميين الغالبين ، مرة أخرى وما لبث أن اشتبك الفريقان فى القتال ، واسفرت المعركة عن اندحار الخوارزميين وخذلانهم ، فولوا الأدبار حتى وصلوا إلى « الرحبة »،

وهنالك كف المسلمون عن مطاردتهم وتركوهم وشأنهم. ولكن الخوارزميين المهزومين لم يستقر لهم قرار فى بلد من البلدان ابتداء من (حران) إلى (العانة) التى أوغلوا منها فى البلاد الخاضعة للخليفة العباسى. وهكذا تم استرداد كافة البلاد الجزرية التى كان الخوارزميون قد استولوا عليها، وأطلق سراح جميع الأسرى المسلمين الذين كانوا معتقلين فى (حران) من قبل الخوارزميين. وفى عام (٦٤٠ هـ) أيضا، ألحق الجيش الحلبى هزيمة نكراء بالخوارزميين وإن هى إلا بضعة أشهر حتى توفيت (ضيفة خاتون) إلى رحمة الله.. فتولى الملك الناصر يوسف، مقاليد الأمور. وبسط سلطانه على معظم (سورية) مبتدئا بالعريش حتى ضفاف الفرات، ومنحه خليفة بغداد لقب (السلطان)؟ بيد أن القدر لم يمهله طويلا ليتمتع بما نال من مجد وأبهة وسؤدد وسلطان، إذ سرعان ما ظهر شبح الخطر المغولى على البلاد الاسلامية جمعاء، لأن (هلاكو) إمبراطور المغل قد زحف بجحافله خلال عام (٦٥٨ هـ)، إلى حلب التى طال انتظار حاكمها الملك «الناصر يوسف» لوصول المدد من مصر اليه دون جدوى، مما اضطره بعد دفاع مجيد ومحاولات يائسة لصد المغل، الى مغادرة حلب، والتوجه الى دمشق الشام. ومع ذلك فلم تقدر له النجاة، اذ وقع أسيرا فى يد (هلاكو)، فقضى عليه وعلى الحكومة الايوبية فى حلب ـ بالتالى ـ قضاء نهائيا ومبرما.

٣ — «الحكومة الايوبية في الشام»

ذكرنا سابقا أن السلطان صلاح الدين قد قام بتقسيم بلاده قبل مماته على أنجاله، وكانت البلاد الشامية من نصيب نجله الأكبر الملك الأفضل، ولم يمض على وفاته طويل وقت حتى دب الخلاف. وتحركت عوامل الشقاق بين الاخوين: الملك الأفضل على، والملك العزيز عثمان حاكم مصر، وأخيرا

تدخل عمهما الملك العادل فى الخلاف الذى طال أمده وحوصرت دمشق مركز حكومة الملك الأفضل مرارا والخلاف لا يزال ينشب أظفاره ، كما ظلت الأمور مضطربة وغير مستقرة فى الشام وسورية حتى وفاة الملك العزيز وانحدار الملك الافضل ، ودخول هذه البلاد تحت حكم الملك العادل . وفى عهد الملك المعظم عيسى ـ نجل الملك العادل ـ اضطربت الأمور مره أخرى فى هذه البلاد كنتيجة حتمية لغارات الفرنجة المتواصلة عليها . وبعد وفاة الملك المعظم ، تولى نجله الملك الناصر أمور البلاد إلا أن الملك الكامل قد أبى أن يترك له الفرصة ، فهاجمه بجيش جرار ، وقد انضم الملك الاشرف موسى ـ أخو الملك الكامل ـ إلى جانبه فى بادىء الامر » ولكنه عاد وانحاز إلى جانب أخيه أخيرا ، مما أدى الى سقوط (دمشق) فى يده » وصار الملك الاشرف موسى حاكما على دمشق فى عام (٦٢٦) للهجرة .

وبعد فترة من الزمن أضطر الملك الاشرف إلى الاتفاق مع سلطان الروم (كيقباد السلجوقى) لصد خطر الخوارزميين سويا عن بلادهما .

وقد أرسل ـ لهذا الغرض ـ جيشا عرمرما من جيوشه تحت قيادة الامير « عز الدين عمر الحكارى » ، للاشتراك مع حليفه (السلطان علاء الدين كيقباد) فى قتال ومناوأة الخوارزميين (الجلاليين) . فألحقت جحافل الحليفين هزيمة منكرة بعدوهما المشترك على مقربة من (أرزنجان) . فى اليوم الثامن بعد العشرين من رمضان عام (٦٢٧) الهجرة . وبعد حقبة من الزمن تفاقم الخلاف بين الملكين الأشرف والكامل وبين حليفهما السلطان علاء الدين كيقباد الذى زحف على بلاد الجزيرة واستولى على شطر منها ، ولم يرتد عنها إلا بعد عامين أى فى عام (٦٣٣) للهجرة .

وفى أخريات حياة الملك الأشرف قد دب دبيب الخلاف وتوترت العلاقات بينه وبين الملك الكامل الذى أمر الجيش المصرى بالزحف إلى

الشام . وبعد قليل توفى الملك الأشرف . فأخذت علائم الشقاق والخلاف تنشب أظفارها بين أمراء وملوك بنى أيوب فى عهد الملك العادل الثانى ، واتفق الملك الصالح إسماعيل حاكم الشام مع الفرنجة لمناهضة الصالح أيوب حاكم مصر الذى شمر عن ساعد الجد ، واستطاع التغلب على خصومه المتحالفين ضده فى معركة (غزة) ، وذلك بفضل مساعدة الخوارزميين له ، وكان ذلك فى عام (٦٣٤) للهجرة و (١٢٤٤ م) ، وهكذا تمكن من بسط سلطانه على (سورية) من جديد ، وتوحيدها مع مصر .

وبعد وفاة الملك المعظم تورانشاه نجل الملك الصالح أيوب ، بادر الملك الناصر يوسف حاكم حلب الى الاستيلاء على دمشق الشام فكان هذا الملك آخر ملك أيوبى على الشام . وفى الحق قد ازدهرت المدن والقرى السورية فى عهد الأيوبيين ازدهارا كبيرا ، ولا غرو فقد كان الأمراء والأميرات والزعماء ، والقواد يتسابقون ـ فى هذا العهد ـ فى انشاء الدور العامة . والقصور والمدارس ، ولاسيما فى دمشق الشام التى تقدمت ونهضت نهضة عظيمة حيث أضحت مجمع العلماء والفضلاء ومركز العلم والعرفان ، يؤمها الناس من كل صوب وفج عميق .

ويقول الرحالة الشهير (ابن جبير) ـ الذى كان معاصرا للسلطان صلاح الدين والذى زار هذه المدينة فى عهده ـ انه كان فى الشام ما يقرب من عشرين مدرسة علمية ، ولم يمض على هذا طويل وقت حتى بلغ عدة المدارس المثلين .

٤ — « الحكومة الايوبية بحماة »

بعد دخول (حماة) تحت حكم الايوبيين ، أعطاها السلطان صلاح الدين لنجل أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر ، وظل أحفاد هذا الأمير يحكمونها

كابرا عن كابر ، منتهجين فى حكمها سياسة الود والتفاهم ؛ وتقديم فروض الولاء والطاعة لكبار أمراء وملوك أسرة أيوب الى حدما . هذا ولما انقض جيش (هلاكو) المدمر على البلاد ، فلم يقووا بطبيعة الحال على الصمود والثبات أمام سيولهم الجارفة ، وآل مصيرهم الى التبعية لدولة المماليك ، بمصر وذلك بعد اندحار جيوش التتر ، وانسحابهم من البلاد السورية ، حيث انقرضت هذه الأسرة نهائيا فى عام (٦٩٨) للهجرة .

وكان المؤرخ الكبير والعالم والعلامة الشهير (الأمير أبو الفداء اسماعيل) ابن أخى آخر ملك على حماة محبوبا من السلطان محمد الناصر قلاوون ، حيث شاركه ، وشد أزره ، فى جميع حروبه وفى أيام جهاده ضد الفرنجة ، فغمره بفيض من عطفه ، ومنحه لقب السلطان ، وحقوق السلطنة . ولقد نهضت مدينة (حماه) وتقدمت فى عهده تقدما عظيما ، وازدهرت فيها العلوم والفنون .

والمعروف أنه مات ودفن فى هذه المدينة . هذا وقد خلف السلطان أبا الفداء ، إبنه الملك الأفضل محمد فى تسنم عرش حماه غير أنه لم يحافظ على ثقة ملك مصر فقبض عليه وزج به فى السجن بقلعة الشام وهكذا انقرضت حكومة الأيوبيين .

٥ — « الامارة الأيوبية فى حمص »

استولى السلطان صلاح فى عام (٥٧٩) للهجرة ، على بلاد حمص ، وبعد أربع سنوات من استيلائه عليها منحها للامير محمد ولد عمه شيركوه . وفى عام (٦٤٦ هـ) ، استولى الملك الناصر يوسف الثانى حاكم حلب على هذه البلاد ولبث يحكمها فترة من الزمن ، ولكن حكمه هذا لم يعمر طويلا إذ انتقل إلى أحفاد (شيركوه) الذين ظلوا يحكمون البلاد حتى عام (٦٦١) حين انقضت

جيوش التتر بقيادة (هلاكو) على البلاد السورية ، واضطرار هؤلاء الحكام إلى الكف عن المقاومة ، وفتح أبواب قلعة (حمص) لهم ، وهكذا انقرضت أسرة (شيركوه) من حمص .

« الأمارة الايوبية باليمن »

من المعلوم لدينا أن الملك المعظم « تورانشاه » أخو السلطان صلاح الدين قد غزا اليمن وفتحها فى عام (٥٦٩) للهجرة[1] ، وترأس حكومتها مدة عامين

---

(١) ورد فى (مرأة الزمان ج — ٣ ، ماملخصه) ان شمس الدولة تورانشاه الذى توجه إلى فتح اليمن مرفى طريقه بمكة المكرمة ودخلها وما كان من أميرها إلا أن أغلق باب الكعبة وانسحب الى جبل أبى قبيس متحفزا وأما تورانساه فقد دخل الحرم المكى وصلى به فتقدم نحو الكعبة قاصدا الطواف حولها وما أن رأى الكعبة مقفلة الأن رفع يديه الى الله تعالى مناجيا آلهي اذا كنت قاصدا هذا المكان بنية حسنة فافتح على هذا الباب . قال هذا وشد القفل وفتح الباب باذن الله تعالى فدخل الكعبة وصلى بها أيضا . ولما بلغ نبأ هذا الى أمير مكة المقيم بجبل أبى قبيس نزل من عليائه وذهب الى شمس الدولة تورانشاه واعتذر اليه . فقبل عذره وخلع عليه خلعاسنية وأبقى فى منصبه . ثم واصل تورانشاه السير بالعسكر حتى دخل اليمن واصطدم بقوات عبد النبي بن المهدى فكسره شركسرة . وكان هذا المتغلب على اليمن فى غاية من الظلم والجور فعدت أعماله الجائرة الصبيانية حد المعقول حيث كان قد بنى قبر والده وقبة ضريحه من الذهب الابريز وأجبر الأهالى لان يحجوا إلى هذا الضريح بدل الكعبة المعظمة . وقد تمكن الملك المعظم تورانشاه من القبض على هذا الطاغية وقتله والاستيلاء على أمواله وأموال قبة والده من الذهب والمجوهرات . المؤلف

باسم أخيه صلاح الدين ، ثم عاد إلى مصر تاركا على أريكة حكمها نائباً عنه ولما توفى « تورانشاه » أسندت حكومة اليمن إلى أخيه الملك العزيز طغتكين فى عام (٥٧٩هـ) ، ولبث هذا الأمير فى اليمن حتى توفاه الله إلى رحمته فى اليوم السادس عشر من شوال من عام (٥٩٢) ، حيث خلفه فى منصبه ابنه المعز اسماعيل الذى لقى حتفه مقتولا فى عام (٥٩٨) ، نخلفه أخوه الناصر أيوب الذى قضى نحبه هو الآخر فى اليوم الثانى عشر من المحرم من عام (٦١١) . وبذلك انتقل الملك إلى « المسعود صلاح الدين يوسف ابن الملك الكامل » الذى سار إلى اليمن على رأس قوة عسكرية كبيرة . وفى اليوم الثانى من شهر المحرم من عام (٦١٢) وصل (زبيد) عاصمة اليمن ، وما أن تم له الاستيلاء على الثغر ، واستتب له الأمر فيها ، حتى أعاد (سليمان ابن تقى الدين عمر بن شنهشاه) إلى مصر ، واشتبك هو فى القتال مع إمام اليمن . وفى اليوم الثامن من جمادى الآخرة من عام (٦١٤) ، استولى على (صنعاء) . وفى عام(٦١٩) قفل راجعاً إلى مصر بعد أن سلم مقاليد الحكم ، وزمام الأمور فيها إلى أبناء الرسولى (الرسولية) اتباع الأيوبيين، وفى رجب من عام (٦٢٤) للهجرة أضطر إلى العودة إلى اليمن حيث ألقى القبض على أولاد الرسولى ، وزج بهم فى أعماق السجن ثم عاد فأطلق سراحهم فى نفس اليوم . وعاد إلى مصر فى نفس العام بعد أن عهد بشئون الحكم إلى (نور الدين عمر بن على الرسولى) الذى مالبث أن أعلن استقلاله بالحكم بعد فترة وجيزة . وهكذا وضع أساس الحكومة الرسولية باليمن .

٧ — « الحكومة الابوبية بالجزيرة »

قامت هذه الحكومة منذ اليوم الذى تأسست فيه حتى عام (٦٤٣)

للهجرة فى مركزها بمدينة (ميافارقين (١)) . وقد استولى المغل على بعض البلاد التابعة لهذه الحكومة فى عهد (المظفر غازى) . فزالت على أثر ذلك هيبة الحكومة ، وتضاءل نفوذها ، ورغم ذلك بقيت بعض البلاد ذات الأهمية الثانوية فى الجزيرة وكردستان فى أيدى من تبقى من الأيوبيين ومنهم أمراء (حصن كيف (٢)) الذين عمروا حتى القرن العاشر الهجرى باسم (الملكان = الملوك) .

« نظرة عامة »

إن السلطنة الأيوبية التى أقيمت دعائمها على أنقاض دولة الفاطميين فى « مصر » والأتابكية فى « سورية » ، كانت على جانب عظيم من القوة والنفوذ وعلو الشأن وحسن الادارة والنظام ، وذلك على الرغم من هجمات الصليبيين المتتالية عليها خلال عهود السلطان صلاح الدين والملك العادل والملك الكامل . وقد اعتراها حقيقة فى بعض الأحايين شىء من الوهن والضعف ، وساءت إدارتها فى بعض الظروف ولا سيما فى عهد الملك « العادل الثانى » ، ولكن الملك الصالح (نجم الدين أيوب) قد استطاع التغلب بثاقب فكره ، وقوة شكيمته على أهواء الأمراء المستبدين ، ولم يتركهم فى طغيانهم يعمهون ،

---

(١) الآن تسمى (سليوان) نسبة الى العشيرة الكردية الكبرى الشهيرة بالسليوانية المحرفة عن السليمانية لان الكراد ينطقون باسم (سليمان) هكذا (سليوان = سليفان)وماورد فى الخرائط الزكية (سبلوان)تصحيف وغلط

(٢) الآن تسمى (شرناخ) ولا تزال بجورها عشيرة كردية عريقة فى القدم تدعى (ملكان) المترجم .

فوضع حداً لسوء الادارة التى كانت تسود مصالح الدولة ، وبذلك أعاد للدولة مجدها السابق التليد. وهكذا فعل ابنه (تورانشاه) الذى لولا شدته التى أثارت عليه مماليكه الخاصة ، لـكان من المنتظر جداً أن يقوم بدور خطير لرفع شأن الحكومة الأيوبية ، إذ كان قائداً محنكا ممتازاً ، وإداريا حازما .

هذا ولم يكن نشاط السلاطين والملوك الأيوبيين قاصراً على ميدانى السياسة والحكم فقط ، بل سجل لهم التاريخ جولات محمودة وآثارا ناطقة فى ميادين العلم والمعرفة والاقتصاد أيضا . كما عنوا بالزراعة وتحسين سبلها ووسائل تقدمها ورقيها من حفر الترع إلى إقامة الجسور وتنظيم وسائل الرى وإلى غير ذلك . كما بذلوا جهوداً مشكورة لتنشيط التجارة فى الداخل والخارج ، وليس أدل على ذلك من تلك المعاهدات التجارية الكثيرة التى عقدوها مع الدول الأوربية .

أما الجيش الأيوبى فكان فريقين : أحدهما يتألف من الحرس الخاص وهم المماليك ، وثانيهما كان من الجنود المرتزقة التابعين للأمراء والقواد الخاضعين لسلطان الملوك . ومثل هذه التشكيلات كانت ذات نفع وفائدة حيث كانت تتفق وموارد الحكومة العامة التى كانت تخضع للظروف والملابسات فى تلك العهود البائدة . وكان الجيش المملوكى مشكلا من عبيد اشتروا وتربوا تربية عسكرية خاصة فى كنف الملوك وتحت إشرافهم ،وكان مماليك هذا الجيش فى بادىء الأمر على جانب عظيم من الدربة ، وحسن النظام ، ومخلصين فى تحقيق الغاية التى وجدوا من أجلها ، مثلهم فى ذلك كمثل أتراك العباسيين ، وانكشارية العثمانيين ، ولـكنهم مالبثوا أن ضعف شأنهم ، واختل نظامهم ، وكثر شغبهم . وانتهزوا فرصة ضعف الحكومات وانحلالها . فانقلبوا إلى شر مستطير ، وأضحوا بلاء على الحكومات ، والملوك الذين كانوا يعتمدون عليهم .

ولا غرو أن الدولة الأيوبية ، تلك السلطنة الإسلامية الكبرى قد وضعت أساس تقدم عظيم ، ونهضة كبرى للعالم الإسلامى . حتى أضحت تلك السلطنة كعبة العلماء والفضلاء يحجون اليها من كل صوب حيث كان هؤلاء العلماء يلقون لدى ملوكها وأمرائها كل تشجيع وكل عناية مما شجعهم على خدمة العلم والفنون كما أدخلوا تحسينات كبيرة وواسعة على نظم الإدارة وعلى طرق الجباية ونظموا كثيرا من أصول ومراسم المكاتبات السلطانية ، والألقاب والعناوين الحكومية . وتقدمت نظم الاقطاعات فى المملكة الأيوبية تقدما كبيرا ، وقد انتقلت هذه النظم الأقطاعية مع الصليبيين إلى أوربا حيث تأصلت وسادت فيها ؛ شأنها شأن غيرها من عادات وتقاليد فرسان القرون الوسطى بأوروبا ، تلك العادات والتقاليد المقتبس معظمها من أصول وعادات العهد الأيوبى فى الشرق ، مثال ذلك شعار الملوك وأسرهم .

١١ – « حكومة بنى أردلان » (٦١٧ – ١٢٨٤ هـ)

جاء فى كتابى (شرفنامه) و (الأربعة القرون الأخيرة للعراق) . أن هذه الحكومة كانت على جانب عظيم من القوة وعظم الشأن . كما يروى لنا أهالى منطقة (أردلان) أن تاريخ هذه الحكومة قديم جدا يرجع إلى أوائل أيام العباسيين بل إلى عهد الساسانيين . ولكن ليس هنالك أية وثيقة يعتمد بها نستدل منها على صحة الشق الأخير من هذه الرواية . ومهما يكن من أمر فالذى لا شك فيه أن هذه الحكومة قد تأسست فى أواخر عهد العباسيين حسبما يؤخذ من رواية (ميجر لونجريك) من أن (جنكيزخان) كان قد اعترف بهذه الحكومة ومن قول الدكتور (فريج) من أن جنكيزخان قد عين مؤسس هذه الحكومة واليا على تلك المنطقة فى بادىء الأمر . ولما كان المغول قد استولوا على إيران فى عام (٦١٧هـ) فى خلافة الناصر لدين الله فمعنى هذا أن هذه الحكومة الأردلانية قد عمرت أكثر من ستة قرون ونصف قرن، مستقلة تارة ، وتابعة لدول كبيرة تارة أخرى ، لأنها زالت نهائيا من عالم الوجود سنة (١٢٨٤هـ). ولنستعرض الآن بالتفصيل نشأة هذه الحكومة فنقول « إن التاريخ لا يذكر شيئا قاطعا فى هذا الصدد ، اللهم إلا ما جاء فى (شرفنامه) من القول بان (بابا أردلان) وهو من أسرة (أحمد بن مروان) مؤسس الحكومة المروانية الكردية فى كردستان المركزى — قد قدم من (ديار بكر) وحط الرحال بين أحضان عشيرة (كوران ـ جوران) وأقام بينها (١) ، ثم

---

(١) انقرضت الحكومة المروانية فى أواخر القرن الخامس الهجرى، ومن المحتمل جدا ان « بابا اردلان » قد فر فى هذا الوقت من ظلم وعسف لوزير ابى جهير الذى كان له يد فى القضاء على هذه الحكومة الكردية . المؤلف

انضم إلى جيش المغول حينما استولى (جنكيزخان) على إيران ، فعينه حاكما على اقليم (شهرزور) .

وفى هـــذه النقطة فقط تتفق رواية صاحب كتاب (الأربعة القرون الأخيرة للعراق) مع رواية (شرفنامه) بهذ الخصوص ولـكنها تزيد وتقول إن (بابا أردلان) من أسرة قديمة نبيلة من (ديار بكر) قد هاجر إلى عشيرة (كوران) وعلا شأنه بينهم ، ولم يمض على مقامه بين ظهرانيهم طويل وقت حتى تمـكن من بسط نفوذه عـلى عشائر (شهرزور) وعـلى سكان الوديان الشرقية لأقليم (هاورامان) فأخضعهم لسلطانه تماما ، مما حمل (جنكيزخان) على الاعتراف بحكومته تلك، حين قدم إلى هذه الجهات . هذا ويقول الرحالة المشتشرق الانجليزى الشهير (ريج) ان الأسرة الأردلانية كورانية أصلا ومن فرقة (ماموئى) ولا شك فى أن بحوث هذا المستشرق ، وما وصل إليه من النتائج ، أقرب إلى العقل والصواب ، إذ من المعقول بل من المستساغ أنه وصل إلى السـيادة وبسط نفوذه على عشائر تلك الجهات كلها بفضـل تأييد عشيرته الـكورانية وتعضيدها له ، وهكذا تمـكن من وضع أسـاس حكومة وطنية عمرت عصورا طويلة رغم الحوادث العاصفة ووقائع التاريخ (١) .

وإن (شرفنامه) ليفتقر إلى معلومات عن (بابا أردلان) وبضعـة من ذراريه ، ولـكن (ميجرلونجريك) يقول إن (كلول بك ابن بابا أردلان) قد أخضع بنفسه (أربل) لحكمه أيضا ، وان عهد أميرين من أمراء هذه الأسرة وهما (خضر بك ابن كاول بك) و (إلياس بك ابن خضر بك) قد انقضى بسلام دون قتال أو نزاع مما زادهما قوة وبأسا .

---

(١) يذكر الدكتور « فريج » وهو المعروف بتعصبه الظاهر للترك ، فى كتابه « كردلر » أصل بابا أردلان بطريقة تخالف ما جاء هنا كل . المؤلف

ولقدصادف ظهور الحكومة الجلايرية فى العراق فى القرن الثامن الهجرى عهد أمير ضعيف من الأردلانيين يلوح أنه (خضر بك بن إلياس بك) ، حيث استولى الجلايريون على القسمين الشمالى والغربى من البلاد فى عهد هذا الأمير ، بل وبذلوا الكثير من المحاولات للاستيلاء على البقية الباقية من البلاد ولكن استماتة الأمير الجديد وهو (حسن بك بن خضر بك) فى المقاومة ، وما اتخذه من التدابير الفعالة قد حال كل ذلك دون تحقيق أهداف المغيرين ثم حدث أخيرا وفى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وفى عهدحكومة(مأمون بك(١)) القوية أن استردت تلك البلدان الشمالية والغربية من مغتصبيها الجلائريين ، وبذلك صار نهر الزاب الكبير (زى بادينان) حدا شماليا لحكومة أردلان التى بادرت فوضعت حامية عسكرية فى قلعة (رواندز) .

ولا شك فى أنه لم تظهر قط حكومة قوية ذات شأن بين الحكومات المجاورة للعراق فى تلك الأيام مثل هذه الحكومة الكردية الباقية آثارها تطاول الدهر فى غربى ايران.

وفى هذا العهد كانت تقيم فى ولاية (شهرزور) نفس القبائل والعشائر والأسر القديمة التى تسكنها الآن ، ولم يكن قد جاءها بعد من إيران عشائر « الزنكنه والهماوند والجاف » أما الأسرات الأخرى مثل « الشيخان والطالبانى والجبارى » فلم تكن قد تكاثرت بعد حتى تستحق أن يطلق عليها

---

(١) إن مأمون بك هو ابن « منذر بك بن حسن بك » الذى قاوم الحكومة الجلايرية فى العراق مقاومة عنيفة بكل شجاعة وثبات ... وذكر المؤرخ «على أكبر» أن حكم « مأمون بك»قد عمر من عام(٨٦٢) حتى عام (٩٠٠) للهجرة ، أعنى ثمانية وثلاثين عاما اهـ « دائرة المعارف الاسلامية » المؤلف

أسماء العشـائر ، وقد كانت الوديان الواقعة فى شرق (كركوك) فى أيدى القروبين والفلاحين الأكراد المختلطين بغيرهم ، ولم تكن توجدهنالك حينذاك حياةمدنية بالمعنى الحديث إلا بقدر معلوم، وكانت البلدان التالية قلاعاومراكز لحكومات وطنية صغيرة وهى (درنه، بنجوين ـ ونقعان الآن على الحدود العراقية والايرانية ـ وكذا : كوى . حرير . رواندز . عقره) .

وهنالك فى شمال الزاب الـكبير كانت تقع أملاك إمارة العمادية ويتبعها كل من العقرة والدير ودهوك وأحيانا زاخو . وقد خضعت هذه الامارة لحـكومة (أردلان) قرابة مائتى عام ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى حتى الرابع عشر الميلادى ، حيت دخلت فى حوزة الحـكومة الجلايرية .وقد قامت فى هذه البـلاد إبتداء من القرن الرابع الميلادى أسرة مالـكة تدعى (بادينان ـــ بهادينان) حيث كان سـكان الامارة من العشائر الهكارية . كما كانت بلاد (مكرى) هى الأخرى خاضعة لحـكومة أردلان .

وكان لمأمون بك ثلاثة أبناء ذكور،هم (بيكه بك ، سرخاب بك ، محمود بك) فلما أدركته الوفاة وصعدت روحه إلى بارئها ، خلفه فى الحكم ابنه الـكبير (بيكه بك) الذى لم يتمكن من بسط نفوذه على جميع أرجاء المملكة،الأمر الذى أدى الى استقلال كل من أخويه بناحية من البلاد . أما البلاد التى بقيت خاضعة لبيكه بك فهى (قلعة زلم ، تغه سو، شميران ، هاوار، سيان ، داودان أوراودان ، كلعنبر) . والظاهر أنه لم يقع ما يستحق الذكر من الوقائع الهامة فى عهد (بيكه بك) ، وإذا كان شىء قد حدث فإننا نجهله تماما .

وإذا نظرنا إلى تاريخ توليه الامارة عام (٩٠٠) للهجرة ، لأدركنا أنه كان معاصرا للسلطان (سليم الأول) العثمانى ، حيث يقول (الميجرلونجريك) ان إمارة (أردلان) قد خضعت ـ مثل الأمارات الـكردية الأخرى ـ لسلطان الدولة العثمانية ، بعد انتصار العثمانيين على الايرانيين فى معركة

(چالديران) . . . ولكنى أرى أن هذا من الأمور المشكوك فيها جدا ، لأن مولانا حكيم الدين (إدريس البدليسى) لا يذكر شيئا عن هذا فى حملة كردستان . ثم خلف (بيكه بك) نجله (مأمون بك) الذى كان معاصرا للسلطان سليمان القانونى (٩٢٦ - ٩٧٤ هـ) ، وقد كان تابعا سياسيا للحكومة الإيرانية الصفوية ، الأمر الذى ساعده على بسط نفوذه وسلطانه وتوسيع حدوده الجغرافية حتى امتدت إلى (زى كويه = الزاب الصغير) ، فشملت هاورامان ، شهرزور ، قرەداغ ، وسهل كرميان (عبر جبال قرەداغ وطريق كفرى - كركوك) .

ولا شك فى أن هذا التوسع قد أثار ثائرة الحكومة العثمانية وقلقها ، فأخذت فى بادىء الأمر تعمل على الوقوف فى سبيل هذا التوسع بأن وضعت قوة من الانكشارية فى (كركوك) ، وجردت حملة عسكرية كبير بقيادة (حسين باشا) فى عام (٩٤٥ هـ) على (مأمون بك) بحجة تأمين الطريق إلى (بغداد) ، وقطع دابر فساد عشائر (شهرزور) التى كانت تتعرض دائما للمارين فى هذا الطريق . وكان معظم جنود هذه الحملة من جند الأمراء الكرد الذين كان من بينهم (سلطان حسين) أمير العمادية . ولكن الغرض الحقيقى لهذه الحملة لم يكن سوى الاستيلاء على (مريوان = مهروان) و (سنه = سنندج) وإذا لم يتم ذلك فلا أقل من انتزاع أقليم (شهرزور) . ولقد استمات (مأمون بك) فى مقاومة هذا الجيش ، ودافع دفاع الأبطال عن البلاد إلى أن أضطر أخيرا إلى الاعتصام بقلعة (زلم) التى ضيق عليها العثمانيون الحصار ، ولما رأى (مأمون بك) أنه لا قبل له بمواصلة الدفاع ، إنسل خفية من القلعة وذهب إلى استانبول (١) مستنجدا بالسلطان ، ولكنهم زجوا به هنالك فى

---

(١) تقول رواية أخرى ان مأمون بك وقع اسيرا واخذإلى(اسلامبول) على هذا النحو (كوردلر ص ١٧٢) .

أعماق السجون . أما جيش (حسين باشا) فقد عاد من حيث أتى بعد أن خرب البلاد وأعمل فيها يد النهب والسلب .

ولما تولى (سرخاب بك) عم (مأمون بك) زمام الأمور استؤنفت العلاقات الطيبة بينه وبين (طهماسب) شاه ايران ، واستولى على بلاد ابن أخيه بسهولة . فما كان من السلطان سليمان إلا أن أطلق سراح (مأمون بك) فى استانبول وأسند اليه لواء (الحله) ؛ كما أسند الى أخيه (اسماعيل بك) سنجق (سروجك) . ولكن (سرخاب بك) كان قد تملك ناصية البلاد وأعد العدة كاملة للدفاع ، مما أدى الى فشل محاولات الأخوين لانتزاع البلاد من قبضة عمهما .

وفى عام (٩٤٨) للهجرة وقع القاص ميرزا ـ أخو الشاه طهماسب ـ فى أيدى الجنود الكرد فأخذوه الى (سرخاب بك) . ولكن لم يمض طويل وقت حتى زحف (اسماعيل ميرزا) بجيش ايرانى من القزلباشية حاصر به (سرخاب بك) مع(القاص ميرزا) فى قلعة (مريوان) فاضطر (سرخاب بك) . الى تسليم (القاص ميرزا) اليه ؛ وبذلك صان بلاده وحفظها من تخريب القزلباشية لها (١)

ولما رفع (على باشا) والى بغداد أنباء هذه الحوادث الى الباب العالى فى استانبول ، غضب الباب العالى وحمل حملة شعواء على ضعف (على باشا) وتقصيره فى اتخاذ التدابير الكافية ، وبادر إلى عزله من منصبه ، وعين بدله (محمد باشا البلطه جى) الشهير واليا على بغداد ، وكان ذلك عام(٩٥٦) للهجرة (١٥٤٩ م) . وقد عهد هذا الوالى الجديد الى (عثمان باشا) استرداد اقليم (شهر زور) وأصحبه بجيش كبير معززاً بالطوبجية وبقوات كردية كبيرة ،

---

(١) (عالم آراى عباسى) .

فسار على رأسه إلى قلعة (زلم) التي كان (سرخاب بك) معتصما بها ، فألقى الحصار عليها وطال أمد الحصار حتى اضطر البلطه جي إلى الحضور بنفسه حيث تسلم بنفسه القيادة . وعالج الموقف بحكمته ، فاتبع سياسة الدهاء والملاينة مما حمل (سرخاب بك) على ترك القلعة والانسحاب منها دون سفك دماء من غير طائل . وهكذا اسقطت قلعة (زلم) فى قبضة البلطه جى باشا الذى بادر إلى وضع قوة عسكرية كافية بقيادة (ولى بك) فيها لحمايتها . ومنذ عام (٩٦١) للهجرة انتظمت تلك البلاد فى نطاق الادارة العثمانية .

هذا ، وليس فى الروايات الشائعة فى بلدة (سنه) شىء له علاقة بهذا الخصوص، ومما لا شك فيه أن (سرخاب بك) بعدخروجه من قلعة(زلم) والتجائه إلى الحكومة الايرانية قد عاد إليها ثانية بمعاونة تلك الحكومة حيث تمكن من بسط سلطانه على مقاطعتى (أردلان) و (شهرزور) مع الاحتفاظ بمكانته فى البلاط الشاهانى الايرانى . وكان نجله (بارام = بهرام بك) حاكما لرواندز فلبث فيها طويلا . ويقول الدكتور (فريج) ان (سرخاب بك) أعلن استقلاله التام بعد فترة من الزمن عن الايرانيين رافضا حمايتهم له ، ونجح فى حكم البلاد ، وقطع دابر الفتن ، ومنع نشوب القتال ، وقد كان دون شك من أهم حكام هذه الأسرة الكردية .

وقدنوه صاحب (شرفنامه) أيضا برجاحة عقل هذا الأمير ، وحزمه فى الادارة ، وعدله المطلق فى الحكم ويقول إنه قد خلف أحدعشر ولدا من بعده

وفى الوقت الذى كان فيه (سرخاب بك) متفقا مع الايرانيين ، ظهر على المسرح (محمد بك بن مأمون بك) واستولى على سنجق الحله وسروجك(١)

---

(١) من المشكوك فيه وجود علاقة بين الحله وسروجك ، والظاهر أن شرفنامه الذى ورد فيه اسم الحلة هذا فيه تحريف أو خطأ . المؤلف

وأخذ فى بسط سلطانه شيئا فشيئا على بلاد (قره داغ ، شاربازير ، دمهران = دلجوران) ، وطلب إلى السلطان سليمان إسناد إدارة هذه البلاد كلها إليه بصفته الوارث الشرعى لأبيه وعمه ، ويظهر أن طلب (محمود بك) هذا قد أحدث رد فعل فى الآستانة، بدليل أنه لم يمض طويل وقت عليه حتى عمدت الآستانة إلى تجريد حملة كبيرة بقيادة الصدر الأعظم (رستم باشا) و (عثمان باشا) ميرميران (بغداد) وغيرهما من حكام كردستان وأمرائه للاستيلاء على إمارة (أردلان) فتحركت تلك الحملة وألقت الحصار على قلعة (زلم) وظل الحصار قائما عامين كاملين توفى خلالهما (محمد بك) وكان الشاه (طهماسب) يساعد حماة القلعة مساعدة فعالة ، مما اضطر (رستم باشا) إلى العدول عن فتحها والتوجه إلى شهرزور حيث توفى فى هذا الأثناء وقد عين بدله مرة أخرى (محمد باشا البلطه جى) ، فتوجه على رأس جيش عرمرم صوب (شهرزور) فاحتلها ، وكان (سرخاب بك) فى هذه الأثناء متفقا مع الايرانيين . وبعد وفاة (سرخاب بك) خلفه فى الحكم إبنه (سلطان على) الذى مات بعد سنة واحدة من اعتلائه الحكم، فقام نزاع بين أخيه (بساط بك) وإبنه (تيمورخان) حول الاستئثار بالحكم ، وقد انتهى هذا النزاع بوصول (بساط بك) إلى الحكم مكان أخيه .

ولكن (تيمورخان) لم يترك له فرصة يستريح فيها بل واصل الكفاح والنزال - تعضده الحكومة العثمانية - حتى دحر عمه ، وتم له الاستيلاء على الإمارة بأكملها . ثم أنعم عليه السلطان مراد الثالث بلقب ميرميران وبرتبة الباشوية وأسند إليه إدارة مقاطعة (شهرزور) أيضا مع تعيين أنجاله الأربعة أمراء سناجق (٩٨٨ هـ = ١٥٨٠ م) .

وجاء فى (شرفنامه) عن أنجال (تيمور باشا) وسناجقهم ما يلى :

(١) سلطان على، كان أمير سنجق (سنه = سنندج) وحسن آباد وقلعة قزلجه

(٢) بوداق بك، كان أمير سنجق قره داغ .
(٣) مراد بك، كان أمير سنجق (مهروان = مريوان) .
(٤) بدرخان بك، كان أمير سنجق (شاربازير) .

ويقول الدكتور (فريج) ان عهد (تيمورخان باشا) كان نكبة على كردستان لأنه كان تواقا للنهب والسلب وميالا لسفك الدماء لدرجة أن أثارت ثائرة (عمر بك) و (شاهويردى بك) أميرا (لرستان) فتآمرا ضده وقبضا عليه للتخلص من شروره وآثامه ، بيد أنه أفلت من بين براثنهما أخيرا وأخذ يمعن فى الإغارة على بلادهما وبلاد جيرانه ، وسلب أموال الناس بالباطل حتى وقع قتيلا فى إحدى غاراته عام (٩٩٨ هـ) .

وبعد وفاة (تيمور خان باشا) تولى الحكم من بعده أخوه (هلوخان) الذى كان على عكس أخيه يمقت أعمال السلب والنهب ويستنكرها ، ولكنه لم يكن فى مكنته وقتذاك الحيلولة دون قيام القبائل والعشائر بالسلب والنهب بين حين وآخر حسبما تعودت على ذلك . وكان تعلقه بالبلاط العثمانى ظاهرا جليا فى عهد السلطان مراد الثالث .

ويذكر (شرفنامه) معلومات مفصلة عن هذه الإمارة حتى عام (١٠٠٥) للهجرة ، ولكن (دائرة المعارف الاسلامية) وكتاب (الأربعة قرون للعراق) لايذكران إلا القليل عن أحوالها بعد هذا التاريخ

والظاهر أن حكم هذه الامارة آل بعد (هلو خان) إلى الخان (أحمد خان) فى عام (١٠١٤ هـ و ١٦٠٥ م) حيث كانت علاقاته بالشاه (عباس) طيبة وطيدة جدا ، ولهذا أتبع إمارته لسلطان ايران ، وكان يعتز بحماية الشاه له فيتسلط على العشائر الكردية والامارات المحلية الخاضعة للدولة العثمانية . وكان أول عمل قام به بعد أن سلك هذا المسلك وتخير لنفسه اتباع هذه السياسة — الهجوم على العشائر المكرية فاجتاحها ، وبعد بضع سنين تمكن من الاستيلاء

على قلعتى (راوندز) و (العمادية) ونصب عليهما نوابا عنه ، كما أنه أخضع كلا من (كوى) و (حرير) غير أن التسلط على هذه البلاد وبسط سلطانه عليها لم يعمر طويلا . ومع ذلك فمن المعترف به أن العشرين سنة الأولى لحكم أحمد خان لامارة أردلان كانت بحق عهد ازدهار وتقدم ونهضة محسوسة للبلاد ، حافظ أحمد خان طيلة هذه المدة على حدود الامارة القديمة ، ولقى خلالها عطفا سابغا من لدن الشاه عباس الذى تعطف عليه وزوجه من أخته (١)

ومما يدل على بعد نظر هذا الخان أنه قصر إغارته وحروبه على الجهات الغير خاضعة مباشرة لسلطان العثمانيين ، أعنى أنه وجه همه نحو الامارات الكردية المحلية ، ولعله كان يرمى من وراء ذلك إلى تحقيق الوحدة الادارية فى البلاد الكردية ، بيد أن هذا الخان كان هو وجيش أردلان ، مع الشاه عباس فى إغارته على بغداد عام (١٠٣٤ هـ) حيث زحف بجيشه إلى كركوك (كركويه) ، وبعد قتال قصير الأمد استولى على هذه القلعة وعلى منطقة (شهرزور) كلها (٢) وبذلك امتد سلطان أحمد خان ونفوذه من غربى العمادية حتى حدود كرماشان وهمذان ، ومن لرستان حتى بحيرة أورمية. حيث خضعت امارة السهران كلها لسلطان أردلان .

ولم يدم عهد القوة والسلطان لهذه الامارة بعد وفاة الشاه عباس عام (١٠٣٧) للهجرة وفى عام (١٠٣٩) للهجرة، قد وصل خسرو باشا الصدر الأعظم إلى الموصل لاسترداد بغداد من الايرانيين، وهنالك قدم له كل من (سيدى خان) حاكم العمادية ، و (ميره بك) أمير السهران وبضعة أمراء من الكرد، النصح والمشورة بوجوب الاستيلاء على (أردلان) فتوجهوا صوبها جميعا . وظل الخان (أحمد خان) حفيظا على صداقته للحكومة الايرانية وتعلقه بها . وقد

---

(١) تاريخ نعيما .
(٢) تاريخ عالم آراى عباسى .

تأيد ذلك فى مواقع كثيرة ولا سيما حين غزو الشاه عباس الأخير لبغداد ، ولكن الكثيرين من رجال جيشه البارزين كانوا يبدون ميلا نحو العثمانيين لكونهم سنيين ، وكانوا يتحينون الفرصة للانضمام إلى جيش (خسرو باشا) عند اقترابه من الحدود ، وعلى أثر تحرك الجيش العثمانى من (كركوك) جاء لفيف من قواد (أردلان) ورجالها مع عشرين أميرا من أمراء كردستان إلى الصدر الأعظم (١) ووضعوا أنفسهم فى خدمة الجيش العثمانى الذى واصل السير حتى عسكر فى ناحية (كلعنبر) ولبث يصلح فى قلعتها خمسين يوما .

وبعد ذلك أرسل الصدر الأعظم قوة عسكرية استولت على قلعة (مهربان = مريوان) وفى الوقت الذى كان الجيش العثمانى ما يزال فى الموصل كان القائد الايرانى العام (زينل خان) وبصحبته الخان (أحمد خان) قد قد تحرك من همذان على رأس جيش قوامه أربعون ألف مقاتل دون أن يتخذ الحيطة ويقطع خط الرجعة على جناح العدو الرابض بمهربان واشتبك مع هذه القوة ، وبينما كان القتال على أشده بين الفريقين وصلت قوات الصدر الأعظم إلى ساحه الوغى فقررت مصير المعركة ، وألحقت الهزيمة بالجيش الايرانى ، وقتل فى المعركة بضعة ألوف من الجند وأعدم (زينل خان) من قبل الشاه ، وعين بدله (رستم خان) قائدا عاما للجيش الأيرانى ، وتحرك الشاه بنفسه على رأس جيش لجب من (أصفهان) إلى ميدان القتال .

وبعد هذه الغلبة الساحقة توجه الصدر الأعظم (خسرو باشا) إلى قلعة

---

(١) جاء فى (تاريخ نعيما) أن (أحمدخان) حينما اجتاز نهر الزاب الأسفل سارع بتقديم فروض الطاعة للصدر الأعظم ، ورضى عنه السلطان (عثمان) وأقطعه فى الموصل مكانا ... اهـ واعتقد أن هذا غير صحيح . نعم ! لقد جاء وقت كان فيه (أحمدخان) مستاء من الأيرانيين بسبب سمل عينى ابنه بأمر الشاه صفى . المؤلف

(حسن آباد) حيث كان مقر الخان (أحمد خان) فدمرها تدميرا وجعلها خرابايبابا ، ثم واصل السير حتى قرع أبواب (همذان) فى سنة (١٠٤٠)للهجرة (١٦٣٠ م) فدمرها ، ثم عرج على بلدة (دركزين) وقتل من أهليهـــا الـكثيرين ، ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد وحاصرها أربعين يوما ، ولـكنه لم ينل منها شيئا ، فقفل راجعا إلى الوراء عن طريق الموصل فى عام (١٠٤١ هـ) (١٦٣١ م) . وقبل أن يغادر الصدر الأعظم الموصل زحف (احمد خان) الى إلى ولاية (شهرزور)واستردها من الجيش العثمانى .

هذا ولم نعثر على معلومات واضحة عن أواخر عهد أحمد خان وخلفائه وكل ما نعرفه أن أحمد خان قد استاء فى وقت ما من الشاه (صفى) لسبب مبعثه الظلم ولجأ إلى الحـكومة العثمانية فى الموصل (١) وفى خلال ذلك تولى امارة أردلان (سليمان خان) وهو من نفس الأسرة . ويظهر أن (سليمان بك به به) قد أغار فى سنة(١٦٩٤ م) أى فى عهـد سليمان خان على إمارة أردلان ، وكانت هذه الاغارة فى عهد حكومة ضعيفة لا تملك حولا ولا طولا، مما أدى إلى وقوع شطر كبير من البلاد الأردلانية فى قبضة(باباسليمان بك) ولـكن الأردلانيين تمكنوا بعد ذلك بعام واحد من استرداد مافقدوه من بلاد بفضل تعضيد الحـكومة الايرانية لهم .

---

(١) يقول الفون هامر صاحب تاريخ الدولة العثمانية فى هذا الصــدد ما خلاصته : ان الخان احمد خان قد استاء استياءا شديدا من معاملة الشاه صفى له لأن خلف الشاه عباس هذا قد بلغ به الظلم والغدر إلى أن يعمد إلى ابن احمد خان فيسمل عينيه مما اضطر أمير أردلان الابى بأن يغادر ايران ويلجأ إلى الحــكومة العثمانية فى الموصل . وما كان من كوجك احمد باشا هنالك إلا أن كتب إلى الباب العالى فى استانبول واتى له بالخلع السنية ورتبة بكلربكى وما يستتبعها من الشارات ثم سافر مع احمد باشا على راس جيش عرمرم

وفى عام (١١٤٣) للهجرة غزا حسين باشا والى بغداد اقليم همذان ، وكان الحاكم الشرعى الوراثى لأردلان وقتذاك هو (على قلى خان) الذى انصاع للعثمانيين بمحض اختياره ودون قتال ، لأنه كان معزولا عن الحكم بسبب تدخل الايرانيين ، فكان يعلق آمالا كبارا على مساعدة (حسن باشا) له. وقد ترتب على ذلك استيلاء (خانه باشا) البابانى على (أردلان) بأمر من حسن باشا بفضل إطاعة (على قلى خان) وكثير من رجاله واستسلامهم له .

هذا ، وبعد حروب (شرفخان الأفغانى) والسردار (أحمد باشا) فى شهر كانون أول (ديسمبر) سنة (١٧٢٦ م) آل إلى (خان باشا) أمر إمارة (أردلان) لأنه كان سببا فى إنكسار الجيش العثمانى ، ودام ذلك أربع سنوات حتى عهد نادرشاه . ولما دانت الأمور فى إيران لطهماسب قلى (نادرشاه) وأخرج الجيش العثمانى من إيران أعطى أقليم (أردلان) لسبحان ويردى خان وبذلك قضى على حكم البابانيين فى (أردلان) .

= إلى ايران واصطدما فى سهل مهربان بالايرانيين ودام القتال يومين واسفر عن اندحار جيشى الكرد والعثمانيين ومقتل احمد باشا ورجوع احمد خان الى الموصل حزينا اشد الحزن .

وقد اثرت هذه الهزيمة تأثيرا بالغا فى هذا الأمير الشجاع الغيور حفيد السلطان صلاح الدين الايوبى الاسد الهصور فمات سنة (١٠٤٦ هـ)

هذا ولما كانت الابيات الفارسية الآتية تشتمل على تواريخ ميلاد ووفاة وحياة هذا الامير نثبتها فيما يلى نقلا عن صحيفة زين الكردية .

خان اكراد يعنى خان احمد	سال بخت (١٠٠٢) امداز عدم بيرون
سال كج بخت (١٠٢٣) يافت حكم وجلوس	درغلط (١٠٣٩) كشت واله ومجنون
باز صحبت يافت اندرغم (١٠٤٠)	يافت حكمى زبيشتر افزون
سال غمها (١٠٤٦) هزيمتش دادند	رفت بيرون ازاين زمانه دون

المؤلف

وفى عام (١٧٩٣) للميلاد استولى سليمان باشا البابانى على شطر كبير من بلاد أردلان بعد انتصاره للمرة الثانية على عمه سليم باشا فى (قزلجه) ، غير أنه لم يمض على ذلك طويل وقت حتى قاومه ، فصده عن البلاد (سبحان ويردى خان) أمير أردلان ، وفى السنة التالية زحف سليمان باشا البابانى تنفيذا لإشارة صدرت إليه من (كريمخان الزند) إلى أردلان غازيا ، واستولى على (سنه) . وكان يشد أزره جيش كريمخان الزند . وبعد عام قتل سليمان باشا فخلفه نجله (على بك) فى إمارة أردلان ، وكان أخوه محمد باشا حاكما على قلعة (جوالان) . وكان بنو أردلان على اتفاق مع (أقا محمد خان القجرى)الذى كان من ألد أعداء الأسرة الزندية على العمل سويا ، ولهذا كان (كريمخان) يحمى البابانيين ويمنحهم تأييده . وكانت هذه الظاهرة سببا فى اقتحام الجيش الايرانى ـ فى كثير من الأحيان ـ لبلاد أردلان وشهرزور والتدخل فى شئونهما وهكذا كان الحال مع جيش والى بغداد الذى كان يتدخل هو الآخر فى شئون تلك البلاد الفينة بعد الفينة .

وفى عام (١١٦٨ — ١٢١٤هـ) انتقلت إمارة أردلان إلى خسروخان الكبير [1] من بعد (سبحان ويردى خان) . وفى عام (١١٦٠ هـ) زحف « أحمد باشا » والى بغداد إلى كرماه نشاه ، كما زحف « محمد باشا البابانى » إلى « سنه » فاعترض سبيله جيش أردلانى فسحقه سحقا ، واستولى على « بانه » ثم اشتبك فى قتال مع خسروخان فهزمه هو الآخر ، ولكن كريمخان الزند بعث بقوة كبيرة يقودها « كلب على خان » لنجدة جيش أردلان طاردت « محمد باشا البابانى » حتى « كركوك » .

وخلاصة القول ان أردلان قد اجتيحت مرارا ، ودمرت تدميرا فى عهد

---

(١) يقول الميجرسون ان (خسروخان) خطب ابنة الشاه فتح على . ولكن الظاهر ان الذى فعل ذلك هو خسروخان الأول . المؤلف

حكومة البابانيين . وفى عام « ١٢١٤ هـ » خلف « أمان الله خان » والده « خسروخان الكبير » ودام حكمه حتى سنة « ١٢٤٠ هـ » . والواقع أن هذا الأمير كان محبا للعلم والعلماء ، وعاملا فى نشر المعارف وبث روح العمران فى أنحاء البلاد، فتقدمت أسباب النهضة الأدبيةوالعمرانية فى مدينة « سنه » تقدما محسوسا وأصبح بلاطه كعبة القصاد من الشعراء والأدباء والعلماء من أنحاء كردستان وإيران ، وقد حظى السرجون مالكولم ، والمسيو ريج « ريتز » بمقابلته أثناء سياحتهما فى إيران . ولذلك فهما يكيلان له الكثير من آيات المديح والثناء ويطريان حسن إدارته للبلاد وعظيم خدماته فى سبيل إسعادها. وقد خلفه ابنه « خسروخان » الذى حكم البلاد عشر سنوات، والذى كان له القدح المعلى فى الشعر والأدب .وكانت « ماه شرف خانم » الشاعرة الشهيرة والأديبة الفاضلة زوجا لهذا الوالى . وبعد وفاته وفى عهد خلفه وهو ابنه « رضا قلى خان »(١) اندلع لهيب الفتن ونشبت حروب بين أمراء هذه الأسرة أدت إلى حبس الوالى البالغ من العمر وقتذاك ستة عشر عاما فى طهران ، ولم يطلق سراحه من السجن إلا بعد وفاة « محمد شاه » . أما « أمان الله خان » الذى حكم أردلان من سنة « ١٢٦٥ »حتى سنة « ١٢٨٤هـ » فهو أخوه ، وآخر حاكم لأردلان . إذ الثابت أن الحكومة الايرانية قد بدأت تتحرش بحكومة هذه البلاد إبتداء من عام(١٢٦٨ هـ) . حتى تمكن « ناصر الدين شاه » فى عام « ١٢٨٤ » من القضاء على الأسرة الأردلانية نهائيا وتعيين عمه الأمير « فرهاد ميرزا ، حاكما على أردلان . نعم إنه لا يزال هنالك رجال بارزون من هذه الأسرة ولكنهم يفتقرون إلى الجاه والنفوذ . ولقد سبق القول بأن هذه

---

(١) يقول الميجرسون ان اسم هذا الحاكم هو (غلام شاه خان) . (من تقرير عن السليمانية طبع كلكتا سنة ١٩١٨) . المؤلف

الحكومة كانت من أهم الحكومات الكردية التى قامت فى إيران . ويقول « شرفنامه » انها تمتعت بالاستقلال التام فترة من الزمن، وضربت باسم حكامها السكة ، وألقيت باسمهم الخطب . ويظهر أن فترة الاستقلال التام هذه قد عمرت منذ أوائل القرن السابع الهجرى أى من أواخر عهد الحكومة الأيلخانية حتى أوائل عهد الحكومة الصفوية « بداية القرن العاشر الهجرى» أى قرنين كاملين .

ثم تلا ذلك عهدالخضوع السياسى للايرانيين تارة، وللعثمانيين تارة أخرى تبعا للظروف حتى زوال حكم الخان « أحمد خان » ثم بدأ نفوذ إيران يزداد فى البلاد رويدا رويداحتى قضى عليها نهائيا وأسدل عليها الستار فى عام (١٢٨٤هـ) ودفن هذا التراث التاريخى أيضا فى مقبرة التاريخ(١) .

---

(١) ألحق المؤلف المفضال بآخر هذا المبحث شجرة نسب احفاد (بنى أردلان) الذين اشتهروا اخيراً فى ايران بأسرة والى زاده نقلا من كتاب انجليزى يدعى (عشائر ورجال ايران الغربى) طبع سنة (١٩١٨) . فلم نتمكن من ترجمتها ودرجا الآن وارجئناها الى ان تسنح الفرصة لعمل مجموعة انساب لسائر الاسر والحكومات المترجم

١٢ — حكومة ملوك الكرد = الكرت (٦٤٣ — ٧٨٥هـ)

يرى (كرزن) أن هذه الحكومة أسستها عشيرة (كوردكه‌لى = طائفة الكرد) بسجستان فدامت أيامها من عام (٦٤٣هـ = ١٢٤٥م) الى (٧٨٥ = ١٣٨٣) ومن دواعى الاسف ان ليس لدينا معلومات مفصلة وكافية عن احوال هذه الحكومة. وكل ما نعرف عنها ان هذه الاسرة أو الطائفة القوية نزحت او اجليت من (كردستان) فى وقت غير معلوم. وهذه المعلومات قد اقتبسها كرزن من كتاب (راولنسون) القيم (ج — ١ ص ٢٢٨ هامش)

هذا وقد تعرض كتاب (قاموس الاعلام) التركى لذكر هذه الحكومة فقال، ان هذه الحكومة قامت حوالى القرن السابع والثامن فى بلاد هراة والغور وغرجستان وسيستان فى عهد الايلخانيين حيث خلف مؤسسها شمس الدين محمد سنة (٦٤٣ هـ) جده لامه فى حكم الغور. وفى عهد الامبراطور منكوقا آن الايلخانى صدر مرسوم سلطانى بالتصديق على حكمه باسناد امارة هراة اليه. فدامت امارته ٣٣ سنة حيث توفى الى رحمة الله سنة (٦٧٦هـ) فى عهد الامبراطور ابقاخان الايلخانى. وكان الامير اداريا حازما وشاعرا مطبوعا، وقد استمر الحكم فى اعقابه فترة من الزمن حيث توالى على الحكم من نسله ستة اشخاص. ولما جاء دور الشخص السابع وهو (الملك معز الدين أبو الحسين محمد) اغتنم الفرصة السانحة من انقراض الامبراطورية الايلخانية فى ايران فوسع حدود مملكته واعلن استقلاله التام، وقد تولى الحكم بعد هذا الامير ابنه (غياث الدين) بالاستقلال حتى عهد (تيمور) الذى حاصره فى هراة حيث قضى عليه وعلى سائر اعضاء اسرته وانتهت أيامه فى سنة (٧٨٣ هـ)

وتفصيل ذلك هو انه بعد ان انتقل شمس الدين محمد المؤسس الأول لهذه الاسرة تولى الحكم ابنه ركن الدين ودام حكمه من سنة (٦٧٦ حتى سنة ٦٩٤هـ)

ثم خلفه ابنه (فخر الدين) الذى كان سجينا سبع سنوات فى عهد والده ، ثم اطلق سراحه بناء على تدخل ورجاء (الامير نوروز) حيث ذهب بعده لاجئا الى ساحة (غازان خان) وقد وصل الى الحكم بفضل وهمة الامير نوروز الذى جوزى من فخر الدين هذا جزاءا سنمار حينما لجأ اليه فراراً من الأمير قتلغ حيث سلمه الى خصمه ، وقد شق عصا الطاعة فترة من الزمن للامبراطور (غازان خان) ثم قاتل أخاه اولجايتوخان ايضا ، وهكذا امضى ايام حكمه فى قتال ونضال مع خصومه وجيرانه مدة اثنى عشرة عاما، منها عشرة اعوام فى حياة والده وعامان بعد وفاته ، حيث ارتحل الى دار الاخرة سنة (٧٠٦هـ) فخلفه اخوه (غياث الدين) وقد جاءه المرسوم الايلخانى بتولية الحكم بالغور وخراسان ، وفى سنة (٧٢١ هـ) حج الى بيت الله الحرام ، وفى عودته توجه الى السلطانية (عاصمة الدولة الايلخانية) وتشرف بمقابلة السلطان ابى سعيد والامير چوبان . ولما توترت العلاقات بين السلطان ابى سعيد وبين الامير جوبان الذى لجأ من جراء ذلك الى غياث الدين هذا ؛ لم يحافظ غياث الدين على علاقات الصداقة التى كانت بينه وبين الامير جوبان، بل خانه هو وابنه هلوخان بان قتلهما وارسل جثيتهما الى السلطان ابى سعيد . وهكذا انقضت أيامه بعد أن حكم (٢٢) عاما واعتلى منصة الحكم بعده ابنه (شمس الدين) الذى كان لاهيا غير ملتفت لشوؤن الامارة فلم تدم أيامه اكثر من عشرة شهور حيث قضى نحبه فى سنة (٧٣٠ هـ) فخلفه اخوه (حافظ) فحكم البلاد عامين كاملين . وفى خلال سنة (٧٣٢) تولى الحكم اخوه (معز الدين) الذى هو من اعظم ملوك الكرت . وقد اعلن استقلال امارته التام فى سنة (٧٣٦هـ) حينما ارتحل السلطان ابو سعيد الى دار البقاء فخطب وسك العملة باسمه بخراسان وبلاد الغور . وفى سنة (٧٤٣) حارب السر بداريين وكسر جيوشهم فزاد شأنه وارتفع قدره ، وهكذا حكم البلاد بجلالة قدر وبحزم وادارة عادلة الى أن توفى الى رحمة الله سنة (٧٧١ هـ) وكان العلامة سعد الدين التفتازانى قد ألف كتابه (المطول) الشهير فى البلاغة باسم هذا الملك .

هذا وقد تسنم العرش بعد معز الدين هذا ابنه (غياث الدين بير على) فصار ثامن الملوك وآخرهم من آل كرت المشهورين بخراسان والغور، حكم مدة اثنى عشرة عاما حيث زحف اليه تيمور بجحافله وحاصره فى قلعة هراة ودام الحصار مدة واشتد القتال ودافع دفاع المستميت واخيرا انتهى امره فوقع فى يد تيمور فقتله هو وأقرباءه جميعا وهكذا انتهت حكومة جماعة الكرد بخراسان ايضا . اهـ[1] .

---

(١) هذه الحكومة التى تسميها بعض المصادر الحديثة بحكومة جماعة الكرد بخراسان وسيستان ، هى المشهورة فى كتب التاريخ القديمة بملوك كرت او (بنى كرت) نسبة الى لقب مؤسسها (شمس الدين محمد كرت) الذى لقب بكرت لقطعه صفوف الخوارزميين عند قتاله لهم لان الكرت بالخوارزمية بمعنى القطع او الشق وقال بعضهم انه بمعنى العظيم والمكرم . والمؤرخون مختلفون ايضا فى ضبط اسم « كرت » هل هو بفتح الاول ام بضمه والمشهور هو الاول كما ان الاختلاف كبير بين المؤرخين فى جنسية هذه الاسرة هل هى ايرانية (فارسية او كردية او تاجكية) ام تركية وتركمانية . انظر (جامع الدول) لمنجم باشى (وجهان آرا) لغفارى (ومرآة الادوار ومرقاة الاخبار) للارى .
المترجم

١٣ ـ الحكومة الزندية (١١٦٧ — ١٢٠٢ هـ)

إن الفترة الواقعة فى تاريخ إيران بين مقتل « نادر شاه » وبين تأسيس الحكومة القجارية تلك الفترة التى قاربت نصف قرن كانت مسرحا للفوضى والاضطراب ، اللهم إذا استثنينا منها عهد « كريم خان » .

ولاستعراض الحالة الداخلية فى إيران قبل ظهور (كريم خان) يجدر بنا أن نذكر انه فى الوقت الذى عين فيه (احمد خان) رئيسا للحملة المنوط بها إعادة الأمن والطمأنينة واستئصال بذور الفتنة والاضطرابات فى إقليم خراسان ، كان (محمد حسين خان) رئيس عشيرة القجر التركمانية ، قد وطد مركزه فى (استر آباد) وأخضع لسلطانه ونفوذه كافة بلاد (مازندران) أيضا . وكان (نادر شاه) قد عمد إلى قتل (فتح على خان) والد (محمد حسين خان) وهذا ما أوغر صدور أبناء العشيرة القجرية وجعلهم يصبون جام غضبهم ونقمتهم على أحفاد (نادر شاه) وأتباعه . وقد جرد (أحمد خان) حملة عسكرية ـ عبأها من الأفغانيين ـ على (مازندران) خشية أن يسبقه (محمد حسين خان) فيفسد عليه الأمر ، بيد أن هذه الحملة قد حاق بها الفشل الذريع والخسران المبين ، وهكذا اتسع نفوذ رئيس قبيلة القجر ، وعلا شأنه وبزغت مقدرته الفائقة واضحة لكل ذى عينين .

وكانت ولاية (آذربيجان) فى هذه الآونة ، يحكمها (أسد خان) الأفغانى، وكان يبسط سلطانه على ولاية (كيلان) أحد الرؤساء المحليين المدعو (هدايت خان) الذى أعلن استقلاله التام ، وهكذا كان الحال فى (كرجستان) التى كانت خاضعة لجنرال مسيحى من جنرالات (نادر شاه) وكان يدعى (هراقليوس) . ويبدو أن هذا هو الآخر كان طامعا فى الاستقلال .

وفى هذا الوقت الذى كان فيه شمالى ايران يغلى كالمرجل ، وتكتنفه

الاضطرابات والقلاقل من كل جانب، كان (على مردان خان) — وهو أحد رؤساء العشيرة البختيارية الكردية ـ قد زحف إلى (أصفهان) وانتزعها من واليها (أبو الفتح خان) الذى كان واليا عليها من قبل شاهرخ . ونصب عليها واليا من سلالة الصفويين لاجتذاب قلوب الأهالى فى هذه العاصمة الكبيرة ، واستمالتهم اليه . إلا أن هذا الاجراء السياسى لم يكن كفيلا باتمام تلك المهمة الكبرى التى أقدم على تحقيقها دون أن يلقى تعضيدا فعالا أو مساعدة جدية من القواد والأمراء الآخرين من أمثال « كريم خان الزند » الذى لم يكن سليل أسرة كبيرة معروفة (١) ولا من القواد أو الأمراء فى جيش « نادر شاه » إلا أنه كان يتحلى بأخلاق فاضلة وبسالة نادرة .

ويقول المؤرخون ان « كريم خان » إنما كان على اتفاق مع « على مردان خان » منذ البداية، ولا سيما فيما يتعلق بمسأله تنصيب حاكم من سلالة نادرشاه على رأس الحكومة كما استقر بينهما الرأى وقتذاك ، على أن يكون أحدهما وزيرا إلى جانب الأمير الصفوى فى حين يصبح ثانيهما سردارا للجيش . وتقول بعض مصادر أخرى ان (كريم خان) لم يكن يفكر ، بل وما دار بخلده قط أن يكون على قدم المساواة مع « على مردان خان » فى النفوذ والسلطان بل كل ما كان يرنو إليه هو أن يكون خلفا له بعد وفاته حيث كان هذا الرئيس البختيارى طاعنا فى السن ولا ذرية له .

ولقد أمعن وتمادى « على مردان خان » بعد استيلائه على أصفهان . فى العسف والطغيان ، وانزال صنوف الظلم بالأهلين ، ولكن « كريم خان »

---

(١) ويؤخذ من الروايات الشائعة فى نواحى « خوى » ، أن كريم خان كان ابن شقى خطير من أشقياء تلك الجهات كان يدعى « إيماك » وما زال اسم جده مجهولا . المؤلف .

قد حال دون تسرب هذه المظالم وامتداد ذلك العسف إلى منطقة « جلفا » التى كان يحتلها هو شخصيا ، فدافع دفاعا مجيدا ، أكسبه احترام الجميع حيث أسرهم بعظيم نبله وكريم فضله ، وكان معظم القاطنين فى تلك المنطقة من المسيحيين الذين غمرهم « كريم خان » بعدله المطلق وأرضاهم بالابتعاد عن التعصب المذهبى والدينى ، ذلك الأمر الذى أفضى ـ بعد أمد وجيز ـ إلى حقد « على مردان خان » عليه ، والغيرة منه ، وتحرك عوامل الحسد والتنافس والبغضاء بينهما ، وقد بيت على مردان خان فى دخيلة نفسه أمرا وهو العمل على إبعاد « كريم خان » عن منطقته ، حتى يتسنى له اضطهاد الأهلين فى تلك الجهة » ولكن الأهالى كانوا على بينة من الأمر ، وعالمين بالنية المبيتة نحوهم وقد أقدم ـ من ناحية أخرى ـ على قتل والى « أصفهان » الذى كان قتله نذيرا بأن الجناية التالية لا بد وأن تكون مقتل (كريمخان) .

وقصارى القول ان الوساوس والأوهام التى سيطرت على أفكار « على مردان خان » وما تملكه من غيرة شديدة ممن حسبهم منافسين له قد أدت فى النهاية إلى امتشاق الحسام بين الصديقين المتآخيين ، فوقف كريمخان ومن معه من حلفاء وأنصار موقفا حازما ضد على مردان خان وأعلنوا عليه حربا لاهوادة فيها وحدثت مصادمات عديدة بين الفريقين لقى (على مردان خان) حتفه خلالها ، قتله قائد يدعى محمد خان ، وكان ذلك فى عام(١١٦٠) للهجرة (١٧٥٣ م) وهكذا خلت بلدان ايران الجنوبية من منافس عنيـــد شديد لكريم خان .

ومع ذلك فقد كان لزاما عليه ـــ قبل أن يحاول بسط نفوذه على هذه البلاد ـــ أن يستأصل شأفة عدة خصوم ألداء آخرين حتى يتمكن من انفاذ أمره فيها . وكان أغلبية جيش كريمخان تتألف من عشيرة (لك) التى كانت على كامل الاستعداد لحكم ايران بفضل بسالتها وقوةشكيمة رجالها . وكانت

(الزند) فرقة من هذه العشيرة . وأما أبناء المدن الايرانية وسكانها فكانوا يميلون أيضا إلى جانب « كريمخان » لما جبل عليه وما أترعنه من تحقيق العدالة والمساواة والحزم فى إدارة شئون البلاد دون محاباة ، وكانت العشائر العربية فى إيران هى الأخرى مع « كريمخان » قلبا وقالبا ، كما أن نفس العشائر التركية التى كانت تقف إلى جانب خصمه وتنتصر له ، قد كانت تنظر إلى أعمال كريمخان نظرة إعجاب ورضى .

(١) عهد كريمخان

سبق أن ذكرنا أنه بعد مقتل (مردان خان) لم يبق أمام (كريمخان) من ينافسه ويناصبه العداء ، اللهم إلا (أسد خان) الأفغانى و (محمد حسين خان القجرى) فعقد (كريمخان) العزم على التخلص من كليهما . وما لبث أن بدأ بالزحف على أسد خان ، واشتبك معه فى قتال عنيف على مقربة من قزوين ولكن الحظ قد تنكر له ، والنصر قد جانبه ، فمنى بهزيمة منكرة أرغمته على رفع الحصار عن أصفهان والتخلى عن شيراز كذلك . ثم انسحب مضطرا - بعد أن حاقت به الهزيمة - إلى الجبال الممتدة بين إقليم (فارس) وبين الخليج الفارسى على مقربة من وادى نهر (كرمسير) وأضحى فى موقف عصيب لا يحسد عليه .

ولكن (رستم سلطان) زعيم قرية خشت - كانت قرية صغيرة على حافة جبل مشرف على وادى نهر كرمسير - قد قام باسداء خدمة جليلة لكريمخان بأن انقض بغتة على « أسد خان » فى مضيق جبلى صعب المنال يطلق عليه كوماريج ، وشن عليه هجوما عنيفا ، وألحق به هزيمة منكرة فى الوقت الذى كان كريمخان قد تحفز فيه للقتال بجيشه الرابض فى وادى (كرمسير) السالف الذكر . وما لبث أن استقبل هذا الجيش المتعطش للقتال والنزال عدوه

المقهور الفار من وجه (رستم سلطان) بتسديد ضربات قاصمة إلى قلوب رجاله ثم دارت بين الفريقين رحى معركة طاحنة إلى جوار قرية خشت السالفة الذكر ، أسفرت عن هزيمة منكرة وخذلان مبين لأعداء (كريمخان) الذى أحرز نصرا مؤزرا لا مثيل له فى التاريخ ، ولقد أمعن فريق من الجيش المنتصر ورجال العشائر القاطنة فى تلك البقاع فى مطاردة فلول جيش العدو المقهور حتى أشرفوا على أبواب شيراز فدخلوها فاتحين. أما «أسد خان» فلم يجرؤ بعد ذلك على الظهور أمام خصمه أو التصدى له كما أنه قد لبس الهزيمة صاغرا ، وخذل خذلانا مبينا أمام خصمه الآخر (محمد حسين خان) فلاذ بالفرار ، ولجأ إلى بغداد فاستقبله واليها بحفاوة بالغة وأكرم وفادته ـ ولكنه لم يقدم اليه المساعدة التى كان يصبو اليها كى يسترد سيادته وسلطانه على بلاده التى افتقدها ، فلم يجد مندوحة من طرق باب آخر عله يجد ضالته ، و يعثر على من يحقق له أحلامه وأمانيه . فكان أن لجأ إلى الجنرال (هراقليوس) والى (كرجستان) وطلب مساعدته ولكنه لم يعره التفاتة ولم يجبه إلى طلبته، الأمر الذى اضطره أخيرا إلى الارتماء فى أحضان خصمه (كريمخان) الذى أكرم وفادته ، واحتفى به حفاوة بالغة . وسرعان ما أضحى موضع ثقة كريمخان وأخلص صديق له بين رجاله إذا أسند اليه أرفع مناصب الدولة وأسماها وهكذا انقلب ذلك العدو الشديد المراس إلى صديق حميم قوى الشكيمة .

بهذا لم يبق هنالك من أعداء يهددون كيان دولة (كريمخان) إلا عدو واحد شديد البأس قوى المراس ، ألا وهو (محمد حسين خان) رئيس عشيرة القجر التركية التى أتى بها (تيمورلنك) من (سورية) وأنزلها بايران ، وهى إحدى العشائر السبع التى أوصلت الشاه (اسماعيل الأول) إلى كرسى الحكم.

ولما دانت الأمور لكريمخان ، واستقرت الأحوال فى فارس، وخضعت له كافة البلدان ، وبعد أن أفاد من الحروب التى نشبت بين (محمد حسين خان)

وبين (أسدخان) ، لم يكتف ببسط سلطانه على بلاد فارس وحـدها بل مد نفوذه إلى بلاد (أصفهان) وشطر من إقليم العراق العجمى ؛ بيد أنه لم يمض على ذلك طويل وقت حتى وجد (كريمخان) نفسه مضطرا إلى التخلى عن أكثر هذه البلدان التى كان قد بسط سلطانه عليها . وسبب ذلك أن (محمـد حسين خان) بعد أن هزم (أسدخان) ، وضم بلاد (آذربيجان) إلى بلاده توجه بجيش كبير لم يتحرك جيش يماثله منذ عهد (نادرشاه) صوب (أصفهان) فحاول (كريمخان) ـ دون جدوى ـ رد هذا الجيش عن (أصفهان) ... ولما رأى أن محاولاته اليائسة التى بذلها ذهبت أدراج الرياح وأن جميع جهوده قد ضاعت سدى ، أضطر إلى التخلى عن (أصفهان) والعودة إلى (شيراز) حيث اتخذها قاعدة للدفاع .

أما (محمد حسين خان) فبعد أن اتخذ أهبته وأعد العدة للنزال والقتال ، تقدم بجيش عرمرم قوامه ثمانية وثلاثون ألف مقاتل نحو (شيراز) لألقاء الحصار عليها تاركا فى (أصفهان) فريقا من هذا الجيش قوامه ثمانية آلاف مقاتل ، وقد وصل إلى حدود (شيراز) فى وقت كانت فيه كل العوامل متوافرة والظروف مواتية للمهاجمين ؛ غير أنه قد فوجىء بهجوم عنيف فى سنة (١١٧٠ هـ ١٧٥٧ م) وذلك قبل أن يحط رحاله ويثبت مدافعه على قواعدها ؛ إذ قام (شيخ على خان) الذى كان أحد رؤساء عشيرة الزند ، بهجوم مفاجىء على مؤخرة جيشه وأصاب عتاده ، ولقد شد أزره فى هذا الهجوم المباغت أهالى تلك المنطقة الذين كانوا قد نقلوا أطفالهم ونساءهم إلى الجبال المحيطة بهم . وأدى هذا الهجوم المباغت إلى انتشار الذعر والاضطراب وتفشى الفوضى بين صفوف جيش (محمد حسين خان) فضلا عن انقطاع الميرة عنه ، أضف إلى ذلك أن مدة الحصار قد استطالت ، وأن الجيش كان جنوده مزيجا غريبا من عناصر متباينة لا انسجام بينها ، وكانت سلطة رؤساء الجيش لا تستند إلا على مجرد القوة ؛ فضلا عن أن فريقا من هذا الجيش كان حديث العهد بالتدريب العسكرى

فى حين كان فريق آخر منه من فلول جيش (أسدخان) الذين كانوا منذ بضعة أشهر فى قتال مع جيش (محمد حسين خان) .

وفى تلك الأثناء كان الجنود الكرج والسبكار، وهم طائفة من جنود (كريمخان) يلحون ويمعنون فى مضايقة المحاصرين ، ولم يكن كل همهم موجها نحو الدفاع عن المدينة فحسب بل كانوا يهرعون إلى خارجها حيث ينقضون على المحاصرين انقضاض الصاعقة فيشتتون شملهم ، ويلقون الرعب والذعر بين صفوفهم ، وما تركوا فرصة لمناوأة المحاصرين تمر إلا وقد انتهزوها . وسرعان ماساءت الحال وتحرجت فى جيش (محمد حسين خان) وأخذ رجاله فى التفرق شذر مذر ، مما اضطر رئيس القجر إلى العدول عن حصار المدينة ، وفعلا أقلع عن (شيراز) ، وعاد سرا إلى (أصفهان) تاركا بعض القوات حول (شيراز) لمواصلة الحصار ؛ غير أن رجال هذه القوات سرعان ماتفرق شملهم ، ولم يستطع (محمد حسين خان) الصمود فى (أصفهان) فعاد منها إلى (مازندران) على رأس جيش متخاذل ، خائر القوى ، محطم الروح المعنوية لا يربو على اثنى عشرة الف مقاتل .

وفى عام (١١٧٠) للهجرة (١٧٥٦ م) زحف (كريمخان) على (أصفهان) بعد أن أعد العدة والعتاد ، وبعد أن نظم شئونه ووطد مركزه فى بلاد فارس فقوبل من أهالى أصفهان بكل حفاوة وترحاب ، وأكرموا وفادته ، وعمهم السرور وابتهجوا بلقائه ، وهكذا قوبل فى أغلب مدن العراق العجمى بالترحاب .

وكان (كريمخان) فى حاجة قصوى إلى ضرورة إحراز انتصارات حاسمة كى يستعيد نفوذه ، ويسترد شوكته . حقا إنه قد أحرز النصر فى بعض الحروب التى خاض غمارها ، ولكنه منى بفشل ذريع فى البعض الآخر ولم يكن الفوز يحالفه فى حومة الوغى إلا ما ندر ، غير أن احترام الأهالى

لاسيما سكان، المدن واستقبالهم الرائع له قد خلق فيه من الضعف قوة، وأدى به إلى النجاح والفوز فى تحقيق غايته النبيلة، ألا وهى إقامة حكومة عادلة تشعر بشعور الناس، وتتعرف مطالبهم وحاجياتهم. ولقد انصرف كريمخان بادىء ذى بدء إلى توطيد النظام وتنظيم شئون البلاد التى انضمت إلى حوزته طواعية وبمحض إرادتها ثم أخذ بعد ذلك يعد العدة لتجريد حملة عسكرية ألفها من صفوة رجاله وأسند قيادتها إلى (شيخ على خان) وكان هدف هذه التجريدة بلاد (مازندران) لتكره (محمد حسين خان) على المبادرة بالتسليم نهائيا وتقديم فروض الولاء والطاعة له.. ولكى يتحقق هذا الهدف كان لا بد من بذر بذور الشقاق والفرقة بين صفوف العشيرة القجرية. إذ كانت هذه العشيرة الباسلة متفرعة إلى ثلاث أقسام كبيرة: يقيم القسم الأول منها فى نواحى بلاد (كنجه) ويقطن الثانى فى أطراف (المرو) فى حدود خراسان لصد عادية الأزبك من بلاد إيران، فى حين كان يسكن القسم الثالث بلاد (استرأباد) على أن هذه الثلاثة أقسام كانت تخضع كلها عادة لأسرتين كبيرتين وقد انفردت إحداهما إلى حين ببسط سلطانها ونفوذها على هذه الأقسام الأمر الذى أدى إلى بذر بذور الشقاق واشتداد لهيب التنافس بين الأسرتين وقد اتسعت هوة الشقاق على أثر تدخل كريمخان فى الأمر وتشجيعه الأسرة الثانية على استرداد نفوذها على العشيرة ومنازلة خصمه (محمد حسين خان) رئيس العشيرة. ومن المصادفات العجيبة أن أحد قسمى هذه العشيرة كان يرأسه رجل يدعى (محمدحسين خان) أيضا. وكان هذا القسم يسمى (يوخارى باش ـــ الرأس الأعلى). وقد أدى التنافس المستمر بين هذين الخصمين (محمد حسين خان) رئيس العشيرة و (محمد حسين خان) رئيس أحد أقسام العشيرة إلى انضمام الأخير إلى صفوف جيش (شيخ على خان). فتسرب الضعف إلى نفس خصم كريمخان، ومع ذلك فقد اضطر لمنازلة (شيخ على

خان) بقوة متخاذلة قليلة العدد ، وسرعان ما تألب عليه فريق من هذه القوة فترك الميدان ، ثم ما لبث أن وقع هو بنفسه أسيرا . (١) وقد نتج عن هذا الانتصار الباهر فى مازندران دخول كيلان ومعظم بلاد آذربيجان فى حوزة كريمخان . غير أن بلاد آذربيجان هذه لم تبق فى حوزته إلا فترة وجيزة إذ استولى عليها (فتح على خان) رئيس عشيرة الأفشار الذى كان ديدنه الوقوف إلى جانب أعداء كريمخان فى معظم الأحوال ، ولكنه فى هذه المرة قد أعلن الحرب جهارا على كريمخان ، واشتبك معه فى قتال عنيف فى مكان يقال له (قره جيمن) جنوبى (تبريز) حيث حاقت به هزيمة منكرة لجأ على أثرها إلى قلعة (أرمية)(٢) وألقى عليها الحصار بضعة أشهر ، ولما أيقن أنه ليس فى مقدوره الثبات على قدميه ومداومة الحصار لجأ إلى كريمخان فعفا عنه فى سنة (١١٧٣ هـ ١٧٦٠ م) .

هذا . وكان (فتح على خان) قد اتصل قبل التسليم ببعض القوادوالزعماء من رجال (كريمخان) ليشجعهم على خيانة سيدهم ومولاهم .

ولما أكتشف أسرار هذه المؤامرة الدنيئة لاقى (فتح على خان) جزاءه وأبعد عدد من الزعماء والقواد الذين حامت حولهم الشبهات عن مناصبهم . ويقول المؤرخون الأيرانيون ان القائد الشهير (شيخ على خان) قد أعدم بسبب هذه المؤامرة ولكن هذا القول مازال يفتقر إلى التأييد .

---

(١) وقد توجه أولاد (محمد حسين خان) هذا إلى تركستان ، ثم عادوا بعد أربعة أعوام إلى بلاط كريمخان فأكرم وفادتهم وأسند اليهم مناصب عالية وكان (أقا محمد خان) وهو اكبر أبنائه سبب انقراض أسرة (كريمخان) الزندية فيما بعد .

(٢) يطلق (استرابو) على هذه المدينة اسم (ثه بارما Theparma) ويظن أن زرادشت ولد فيها . المؤلف

ولقد لقى (كريمخان) فى جميع حروبه ومعاركه فى سبيل الحكم والسلطان تعضيداً ملموساً ومساعدة تامة من العشائر العربية الضاربة حول الخليج الفارسى لدرجة أن بعض القوات العربيه قد صحبته ولازمته حتى بلاد (أصفهان) . فلاغرو أن كانت الصلة بينه وبين تلك العشائر متينة ، كما كانت علاقته بها على أحسن مايرام ، ولم يحدث أن جرد عليهم حملات تأديبية ، اللهم إلا فى أحوال نادرة كحالة الامتناع عن دفع المال ، أو رفع راية العصيان ، كما حدث من قبل الأمير (موحانا) أمير بندر (ريغ)[1] الذى أقدم على قطع الطريق بين (شيراز) وبين بندر (بوشهر) . إذ كان كريمخان شديد الوطأة على مثل هؤلاء . ولما حدث مثل هذا من قبل شيخ عشيرة الكعب المدعو الشيخ سليمان اضطر كريمخان إلى الزحف عليه بجيش جرار لتأديبه وإيقافه عند حده ، فما كان من هذا التأثر إلا أن لاذ بالفرار ، ولجأ على ظهر سفينة إلى إحدى الجزر القريبة.

هذا ، وقد كان (زكى خان)[2] مصدر قلق لحكومة (كريمخان) فى معظم الأوقات لما جبل عليه من القسوة المريرة والشدة المتناهية فى الحروب والقتال مما لا يتسق ولا يتفق وسياسة (كريمخان) الرشيدة ، وكان هذا هو السر فى حدوث التصادم والتشاحن بينهما فى أغلب الأحيان . وقد حدث ذات مرة أن شق (زكى خان) هذا ، عصا الطاعة على أخيه ، فقصد وفى معيته بعض الأمراء والقواد إلى عشيرة الفيلي ليستعين بها ، ولتشد أزره على إثارة الفتن والقلاقل وإشعال نيران الثورات ضد أخيه . ولكن محاولاته هذه قد باءت

---

(١) يقع بندر « ريغ » هذا على مسافة نصف درجة من شمال غربى بندر (بوشهر) .

(٢) الشائع المظنون أنه أخو كريمخان . وفى الحق أنه كان ابن عمه واخاه لامه وكان له ماعدا زكى خان أخ لامه يدعى اسكندر خان واخت لامه . اى كانوا جميعهم من ام واحدة وليسوا من أب واحد . المؤلف

بالفشل وضاعت سدى ، الأمر الذى اضطره إلى أن يعود ويرتمى تحت قدمى أخيه ، يطلب الصفح ويلتمس المغفرة على مافرط منه ، فعفا عنه أخوه،وأسند اليه منصبا ملائما . ثم مالبث أن أوفده إلى (دامغان)(١) لتأديب جيش(قلى خان القجرى) الذى كان يعيث بين أرجائها فسادا ، وقدتسنى لهبسرعةالبرق القضاء على الفتنة فى مهدها ، وإطفاء لهيب ثورة هذاالعاصى القوى الشكيمة . واضطره إلى الفرار حيث لجأ إلى التركمان واحتمى بهم . وفى الواقع كان استخدام القسوة واتباع الشدة من قبل (زكى خان) فى اخماد الثورات خدمة كبرى للأمن العام فى أغلب الظروف ، لأن حلم (كريمخان) وعدله كانا قد شجعا بعض الرؤساء والقواد على إشعال نيران الثورات دون مبالاة بالعواقب لما يعلمونه من أن العفو والحلم والمغفرة من شيم كريمخان ، ولـكن الناس قد اقتنعوا وأيقنوا أخيرا أن إخماد لهيب الثورات لايمكن أن يعالج بحلم كريمخان وليونته بل يعالج بقسوة (زكى خان) وغلظته . وليت الثورات كانت قاصرة على بلاد دامغان فقط ، بل اندلعت نيرانها فى مازندران، وفى عدة جهات أخرى ولـكنها سرعان ما أخمدت جميعها بقسوة بالغة ، لدرجة أن جماعات الثوار كانت تلوذ بالفرار قبل وصول الحملات التأديبية .

وهكذا استطاع زكى خان بفضل شدته المتناهية وادارته العسكرية الحازمة تطهير إيران من العصاة الطغاة ، وهيأ لها حياة سلمية مطمئنة ظلت ترتع فى ظلالها طيلة أيام كريمخان الأخيرة . ولقد قنع كريمخان واكتفى بلقب وكيل الشاه ، ولم يطمع فى مركز الشاه اسماعيل بن أخت الشاه حسين الصفوى ، البالغ من العمر وقتذاك تسع سنوات . وقد ولى شاها من قبل على مردان خان . وأكثر من ذلك فقد حافظ على مركز هذا الشاه الصبى متخذا شيراز عاصمة للبلاد

---

(١) موطن الاسرة البارثية (اشكان) — المؤلف

وأقام فيها إلى جانب الشادتاركا قيادة الجند وإدارة دفة الشئون العامة للقواد والأمراء من رجاله . وما لبث أن حشد جيشا جرارا ، وأسند قيادته إلى أخيه (صادق خان) . وبعث به لألقاء الحصار على (البصرة) . ومن المحتمل أنه قد أقدم على هذا العمل اقتداء منه بسائر الحكومات الإيرانية السابقة ، لمجرد تأمين السلام ونشر لوائه فى داخلية البلاد بشغلها بالحروب الخارجية ضد الترك الذين لاشك فى أن قتالهم كان لابد أن يستثير نخوة الأهالى وحميتهم ،ويستميلهم نحوه ،ويجتذب قلوبهم إليه ؛ إذ كان يعلم تمام العلم بأن ليس هنالك من عوامل وأسباب تحمل الشيعيين وترغمهم على تجنب المنازعات الداخلية وطرحها جانبا وتجمعهم حول فكرة واحدة سوى العمل على استرداد الأماكن المقدسة الشيعية التى كان الترك يسيطرون عليها . ولهذا كان الاستيلاء على (العراق العربى) هو الهدف الأسمى لكريمخان ، وقد بدأ يمهد لتحقيق هذا الهدف بأن تعمد اتهام (عمر باشا) وإلى بغداد لدى حكومته بأسطنبول ورماه بالتحامل على الإيرانيين ، بدليل فرضه رسوما مالية على الزوار الإيرانيين للاماكن المقدسة الإيرانية ، وكانت الحكومة العثمانية قد رفضت دعوى الإيرانيين هذه ، ولم تعرها التفاتة ولا آذانا صاغية ، فما كان من الحكومة الإيرانية إلا أن أصدرت أوامرها إلى (صادق خان) بالزحف صوب البصرة ، فسار إليها عن طريق ساحل الخليج الفارسى على رأس جيش قوامه خمسون ألف مقاتل، وأسطول من ثلاثين سفينة خفيفة كانت قد أعدت فى ميناءى (بوشهر) و (ريغ) للعمل إلى جانب الجيش . وكان للدولة العثمانية بعض سفن حربية راسية فى ميناء البصرة ، ولكنها كانت قديمة بالية قد تسرب إليها العطب ، لا تصلح للعمل ، ولا قبل لها بمقاومة أسطول (صادق خان) القوى

وبمجرد أن سيطر جيش (صادق خان) على شط العرب ، بادر إلى إقامة جسر من الأرماث والأطواف على هذا النهر ، وبذلك تمكن هو وجيشه من الانتقال إلى الضفة اليمنى للنهر بعبور هذا الجسر ، وشرع فى إلقاء الحصار

على البصرة .... وكانت (البصرة) مدينة كبرى ، تشتمل على حدائق واسعة غناء ، ويسكنها زهاء خمسين ألفا من السكان ، وكان عدد رجال الحامية يفوق ربع عدد السكان . وكان (سليمان أغا) حاكم المدينة رجلا عسكريا ماهرا ، ومحبوبا من جنوده ومن مرءوسيه . وكانت أسوار المدينة عالية ومرتفعة ، إلا أنها لم تكن محكمة تمام الاحكام ، وكان خط الدفاع لا يعدو عدة حصون نصب عليها ما يقرب من مائة مدفع .

بدأ إلقاء الحصار على البصرة فى شتاء سنة (١١٨٩ هـ — ١٧٧٥ م) . وتقدم الجيش الإيرانى إلى الأمام فأمرت الحكومة العثمانية ولاة (وان) و (الموصل) و (ديار بكر) و (حلب) و (الشام) — بتعبئة جيوشهم ، والاحتشاد فى (بغداد) .

وكان هؤلاء الولاة يضمرون خلاف ما يظهرون ، فقد تظاهروا بأن القصد من ذهابهم إلى بغداد إن هو إلا القيام مع واليها وجيشها بنجدة الحامية العثمانية فى البصرة ، ولكنهم ما كادوا يصلون إلى بغداد حتى اغتالوا واليها (عمر باشا) إرضاء لملك إيران ، وعلى أثر اغتياله أوفدوا هيئة رسمية إلى (شيراز) لتعرض على مسامع (كريمخان) الرغبة الصادقة فى الكف عن القتال ، ووضع حد لهذه الحرب المستعرة ، ما دام الباعث على قيامها واندلاع لهيبها هو الوالى (عمر باشا) قد قتل ، وتحققت بذلك رغبة الشاه ، ولكن الشاه قد قلب لهم ظهر المجن ، ولم يجبهم إلى طلبتهم ، بل أراد أن يستغل هذا الضعف العثمانى ، وظل يحارب حتى اضطر حاكم البصرة العثمانى إلى المبادرة بالتسليم دون قيد أو شرط بعد حصار دام ثلاثة عشر شهرا ، نفد خلالها الزاد والذخيرة ، وانتشر البؤس والشقاء بين الأهلين وبين جنود الحامية . وكان ذلك فى شهر يونيو سنة(١١٩٠ هـ - ١٧٧٦ م) .

وقدأرسل الحاكم وأقطاب معيته إلى (شيراز) مشيعين بكل تجلة واحترام وأحسن (صادق خان) معاملة أهالى البصرة ، وأسبغ عليهم من مزيد كرمه

وفضله، ونصب أحد رجاله المدعو (على محمود خان) حاكما عسكريا عليها ، ثم عاد هو بعد ذلك إلى (شيراز) .

وحدث أن اندلع لهيب فتنة بين عشيرتين من عشائر (البصرة) فسارع (على محمود خان) بالتدخل بينهما دون أن يعد للموقف عدته فحاقت به هزيمة منكرة ، وعرض نفسه لخسارة جسيمة ، وذهب القائد الايرانى ضحية هذه الفتنة الجامحة . وما أن طرقت هذه الأنباء المفجعة المثيرة مسامع (صادق خان) حتى بادر بالحضور إلى البصرة وعالج الأمر بالحسنى والسياسة والحكمة، بفضل ما جبل عليه من دماثة الخلق ، وحسن المعاملة ، وسرعان ما عادت الأمور سيرتها الأولى ، ورفرف السلام والوئام على ربوع المدينة ، وظل الأمن مستتبا حتى وفاة (كريمخان) . ثم غادر (صادق خان) البصرة بسبب عوامل شخصية فانتهز والى (بغداد) هذه الفرصة الذهبية ، وسارع بالزحف على البصرة حيث استردها بكل سهولة .

كانت أوروبا لا توجه أهمية تذكر لتجارة ايران قبل حكم (كريمخان) بسبب اضطراب الأمور الداخلية وتزعزع الأمن وانتشار القلاقل والفتن فى أرجائها . فلما ولى (كريمخان) الحكم وقضى على هذا الاضطراب قضاء مبرما ، واستأصل شأفة مثيرى الفتن والقلاقل ، سادت الطمأنينة ورفرفت على أنحاء البلاد ، فتقدمت التجارة الداخلية وكذا الزراعة ، إذ كان هذا الملك الهمام لا يألو جهدا فى تشجيع أرباب الصناعات - حتى الأرمن منهم - فى بلاده وحثهم على تحسين صناعاتهم والعمل على ترقيتها ، كما عمل على حماية التجارة ، فعم الرخاء ، وانتشر لواء السلام والطمأنينة فى أواخر أيام حكمه العادل فى كافة أنحاء ايران ، وكان الممولون من أصحاب الأملاك والزراع لا يمدون الحكومة إلا بقسط ضئيل، ولكنهم كانوا يقدمون عن طيب خاطر ما يطلب إليهم دفعه أكثر من ذلك . وكانت طبقة ذوى الأملاك هذه تكاد

أن تكون مستقلة فى كل شئونها وأمورها ، وكانت ترفل فى حلل من السعادة والهناءة فى ظل حكم (كريمخان) العادل الذى كان يؤثر هذه الطبقة بالتعضيد والمساعدة .

ولقد شملت هذه النهضة المباركة جميع مدن إيران فى عهدهذا المجدد ، إلا أن شيراز قد نالت من هذه النهضة نصيب الأسد ، ويلوح أن كريمخان قد اتخذ هذه المدينة عاصمة لملكه لأنها كانت على مقربة من مواطن عشيرته ، فضلا عن تعلق أهاليها به . ولقد بذل جهودا جبارة فى تحصينهاوتزيينها وذلك باقامة الطوابى ، وتشييد القلاع حولها ، وبناء القصور ، والدور العامة بها ، وغرس الأشجار والزهور ، وانشاء الحدائق الغناء حولها ، وكل هذا الى جانب عمله المتواصل على تأمين الأهالى وتوفير أسباب السعادة والرفاهة لهم .

وقد صور لنا مؤرخ ايرانى [1] هذه الأيام الذهبية الوضاءة من أيام كريمخان فقال : (إن النور الباهر الذى أوجده كريمخان قد أضاء جميع بلاد ايران إلا أن قوة اشعاعه كانت محسوسة فى (شيراز) أكثر من غيرها ، ولهذا كان سكان هذه المدينة المحظوظة فى بحبوحة من الطمأنينة والسلام ، وفى فيض من السعادة والرفاهة ، والناس يمضون أوقاتهم فى هناء دائم وصفاء مقيم بين بنات حسان كالأقمار ، وغلمان كاللؤلؤ والمرجان ، فكان هاتف الذوق والشوق والحب والعشق يطوف على رءوس الجميع ، كل على قدره من الحياة ، ونصيبه ومركزه فى المجتمع) .

وقد توفى كريمخان الى رحمة الله فى اليوم الثالث عشر من شهر صفر من عام ١١٩٣ للهجرة (١٧٧٩ م) [2] عن ثمانين عاما ، فقد حكم ايران ثمانية

---

(١) هو « على رضا » صاحب تاريخ الأسرة الزندية . المؤلف

(٢) ذكر فى « تاريخ السر جون ملكولم » أنه دفن فى شيراز وأنه بعد قيام الحكومة القجرية عمد أقا محمود خان السفاك إلى استخراج عظامه =

وعشرين عاما مستقلا تمام الاستقلال دون منازع، ولا سيما فى العشرين سنة الأخيرة من حكمه التى كان خلالها منفردا بالحكم والسلطان فى ايران بأجمعها (١) .

« أخلاقه وسجاياه »

ليس من السهل تصوير سجايا هذا الملك الفذ ، وما جبل عليه من حميد الخصال إذ كان يجمع بين صفات الملك المستبد، وخصال الملك العادل الذى يقدس الشورى ويؤمن بها ، فلم يكن حليما لدرجة الضعف والانقياد الأعمى لمن حوله ، ولا بالشديد الصلب لدرجة الطغيان وفرض إرادته وأهوائه على الغير . بل كان معتدلا فى غير إفراط، ومتسامحا فى غير تفريط ، وكان صائب الرأى ، حكيما فى تصرفاته . وقد لازمه كل ذلك فى جميع أدوار حياته مما جعله يحتفظ بوقاره ويصون عليه كرامته وذكراه العاطرة لدى الجميع . وهذا لا يمنع من أنه كان فى بعض الأحيان يصدر أمره بتوقيع عقوبات صارمة على من يستحقها ، شأنه فى ذلك شأن كل الحكام . ولكنه كان يكل إلى الآخرين تنفيذ تلك العقوبات الصارمة التى تخالف طبعه ، وهكذا كان يوقع الرعب والهلع فى قلوب خصومه من الأعداء ومن الثوار العصاة ، بيد أن رحمته

= من القبر ، وكذا عظام نادر شاه ، أحضرها من المشهد ودفنها جميعها فى عتبة باب سرايه ليطأها بقدميه كل يوم ذهابا وايابا . المؤلف

(١) يقول البعض انه توفى عن خمسة وسبعين عاما ، وقال آخرون عن ستة وثمانين عاما ، ولكن الراجح هو ما ورد فى المتن ، غير أنه من المحتمل جدا أن كريمخان نفسه كان لا يعرف تاريخ ميلاده إذ لم تجر العادة وقتذاك بتسجيل المواليد بين العشائر . المؤلف

كانت تطغى دائما على قسوته ، حين يلجأ إلى رحابه أعدى أعدائه فما يلبث أن يمنحه عفوه بلا تردد .

ومن أبرز صفاته الحميدة أنه كان طيب السريرة عاطر السيرة ، وإن تاريخ حياته لسجل عامر ومليء بالحوادث الطريفة ، والقصص العجيبة المسلية، فكان مثلا يحتذى في الشهامة والجرأة ، يبادر إلى العفو والتسامح فى غير ما تردد ، يعتمد على أولئك الذين يمنحهم عفوه ، الاعتماد كله ويجعلهم أسرى إحسانه فيغدق عليهم من فيض كرمه وسابغ عطفه دون فارق أو تمييز . وكان متمسكا بقواعد الدين وأوامره غاية التمسك ولكن فى غير ما تعصب ، وكان هاشا باشا بهى الطلعة ، ممتعا بمباهج الحياة الدنيا وطيباتها فى اعتدال ووقار واحتشام تلك الطيبات التى يجب أن يتمتع بها الناس جميعا ولكن فى غير ما إسراف . ولم تؤثر هذه المتعة فى مركزه كحاكم عادل وإدارى حازم .

وكان كريمخان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، إذ يلوح أنه لم يذهب إلى الكتاب لا فى طفولته ولا فى شرخ شبابه، بل وما رغب أيضا فى الذهاب إليه حين كبر سنه . وهو ابن رئيس عشيرة جبلية(١) لا تعرف من نواميس الحياة ومجرياتها وتطوراتها سوى ما يمسها ويتفق والبيئة الجبلية النائية عن العمران فكان من الطبعى أن يعزف كريمخان عن الدرس وعن تلقى العلم والارتشاف من مناهله ، وأن ينهج نهج سائر أبناء رجال القبائل فى الولوع بالفروسية والألعاب الرياضية وأعمال الجندية والتدرب على القتال والكر والفر .

وعلى الرغم من أنه كان أميا، فقد كان يستحث الناس ويشجعهم على تلقى العلم والاغتراف من مناهله..وكان مجلسه العالى مجمع العلماء والفضلاء الذين

---

(١) كانت عشائر (لك) بما فيها قبيلة الزند وغيرها فى غاية من الجهل والتأخر كسائر العشائر والقبائل الايرانية . المؤلف

هرعوا اليه من كل حدب وصوب . وقد جدد ضريحى الشاعرين الشهيرين (الشيخ سعدى) و(حافظ) المدفونين فى ضواحى (شيراز)، وأوقف عليهما الكثير من العقارات والكروم والحدائق الغناء ، وأقام الموظفين والحراس اللازمين لإدارة هذه الأوقاف . ولقد كانت هذه المأثرة من أبرز مآثر كريمخان وأعماله المجيدة وكان له أحسن وقع وأجمله فى نفوس أهالى شيراز الذين كانوا يكنون فى قلوبهم شديد إعجابهم وعظيم فخرهم وكامل تقديرهم وإعزازهم لهذين الشاعرين وكان حريصا ساهرا على نشر لواء العدل بين رعاياه ، وقد أثر عنه أنه كان يجلس كل يوم بضع ساعات لسماع شكاوى المظلومين والفصل فى شكاواهم ، ورد مظالم الناس ، وتعرف مطالب الأهلين .

وكان من شيمته الحلم . وليس أدل على مبلغ حلمه من تلك القصة التالية التى رواها (مالكولم) .

« يقال إنه ذات يوم بعد أن أتم أمور مجلس العدل ، هم بالعودة إلى بيته وهو شاعر بتعب من جراء العمل والنظر فى أمور الرعايا وإذا برجل مشمر عن ساقيه يعدو عدوا شديدا يتقدم اليه مقتحما موكبه وصارخا (العدل! العدل) فيسأله كريمخان بقوله :

— من أنت ؟

الرجل : تاجر وقد سرق جميع ما امتلكه .

كريمخان : كيف كان ذلك . وأين وقعت الحادثة ؟

الرجل : كنت نائما .

كريمخان : لماذا نمت (قال هذا فى غضب وشدة)

الرجل : غلطت ، وقد كنت أظن أنك صاح وغير نائم .

وقد أزالت هذه الاجابة السديدة ما تولى كريمخان من الغضب والامتعاض

وأعجب بجسارة الرجل وصراحته ، ولهذا لم يتأثر منه ، بالرغم مما فى جوابه من عتب لاذع .

وقد أمر وزيره بأن يدفع للرجل قيمة ماله المسروق من الخزانة العامة ، قائلا انه يجب بذل الجهود للعثور على هذا المال المسروق » .

هذا وإن الطريق الذى سلكه كريمخان فى تأسيس وتدعيم أركان دولته لاشك فى أنه الطريق المعنوى السوى فى المحافظة على التقاليد ، وأسس الأخلاق القويمة والخصال الحميدة . إذ لم يسلك قط سبيل التعسف والخسف مع رعيته كى يخضع الجيش لنفوذه ، وما أقدم قط على اتباع سياسة خرقاء تجر وراءها ذيل الفشل والدمار والخذلان على البلاد، فى سبيل مجد عسكرى زائل ، أو انتصار مدنى ظاهره براق . وكانت حياته الخاصة يغلب عليها طابع التواضع ، ودماثة الخلق ، وسهولة الطبع والبساطة فى المأكل والملبس والمشرب ، وفى شتى مظاهر الحياة .

وكانت أوامره للرؤساء والموظفين صارمة لانقض فيها عـــلى عكس الحال مع رعاياه الذين كان يبادلهم حبا بحب ، ويتودد اليهم ، ويلاطفهم ، ويقابلهم بوجه بشوش ، ويستمع إلى مطالبهم ، ويتعرف حاجاتهم . وكانت تتوافر لديه قدرة كافية لأن يجمع فى وسط يخيم عليه ظلام التأخر ، بين ما يقتضيه ويتطلبه الحرص على تنفيذ القانون واحقاق الحق من اتباع مبدأ الشدة والصرامة، وبين ماتوجبه الانسانية والعواطف البشرية النبيلة من اتباع مبدأ التسامح والشفقة . فلا غرابة بعد كل ما ذكرنا أن عاش كريمخان بين الايرانيين لا كملك فقط ، بل كأب رحيم بار بهم ، وساهر على مصالحهم

وقد كانت وفاته نكبة قاصمة للبلاد أحدثت هلعا وحزنا وكمدا بين كافة الايرانيين الذين كانوا يجلون ويقدسون اسم هذا الملك الهمام اعترافا بما قام به من جليل الخدمات ومجيد الأعمال ، وما بذله من الجهود الجبارة حتى نجح

فى اقامة حكومة ايرانية بحتة ، فى وقت كانت فيه عوامل الشقاق وأسباب الخلاف والفرقة تمزق أوصال البلاد ، وتسير بالجمهور على غير هدى نحو الهاوية ويذكره الايرانيون دائما بالخير ، ويكيلون له المديح والثناء ؛ ويقولون (انه وإن لم يكن من الملوك العظام من حيث العظمة المادية، فلم يقتن قصورا فخمة ولا حاشية ضخمة ، ولم يحرز فتوحات واسعة ، ولكن من الواجب أن نعترف بأنه كان حاكما عادلا الى أسمى طبقات العدل ، وأنه لا مثيل له بين ملوك ايران (١))

« الحالة بعد وفاة كريمخان »

تعتبر وفاة كريمخان بداية لظهور القلاقل ، وتحرك الفتن وتزعزع أركان دولة الزند ، واضطراب الأحوال فى جميع بلاد ايران ، ولقد أنجب كريمخان خمسة ذكور (٢) ، مات أحدهم قبل وفاته ، وعاش الأربعة الآخرون الذين عرضهم

---

(١) يقول (سر مالكولم) نقلا عن تاريخ « كدخدا » إنى سمعت هذا من أفواه الكثيرين من رجال الدولة القجرية المتأخرين .

ويقول (بيننج) فى الجزء الثانى من كتابه (ص ٢٦٧) . لايوجد فى جميع قوائم أسماء ملوك ايران مثيل وند لكريمخان فى تعلق الشعب به وحبه اياه لدرجة التقديس ، وكان لايذكر اسمه دائما إلا مقرونا بالتجلة والاحترام.

(٢) كان أكبر هؤلاء الأبناء (صلاح خان) الذى سمل ابن عمه اكبر خان عينيه قبل أن يصل الى الحكم ، والثانى (أبو الفتح خان) الذى أعماه عمه صادق خان بعد أن أعلن حكمه ظاهرا ، وانفرد هو نفسه بالحكم والثالث (محمد على خان) الذى أعماه اكبر خان ايضا ، والرابع (محمد رحيم خان) الذى توفى قبل وفاة ابيه ونجا مما وقع فيه اخوته من شباك ، والخامس (ابراهيم خان) الذى قطع اكبر خان لسانه . المؤلف

القدر لضروب من الخيانة والغدر اكتووا بنارها من قبل رؤساء أسرتهم بعد وفاة أبيهم . وقد قبض (زكى خان) على زمام الأمور،واستبد بالحكم بعد وفاة كريم خان مباشرة ، وحاول جاهدا بشتى الوسائل الممكنة وبكافة الأساليب توطيد مركزه فى الحكم .

وكان بعض زعماء عشيرة الزند لا يأمنون جانبه ويخشون غدره وبطشه بهم . ولهذا سارعوا إلى الاستيلاء على القلعة الداخلية لمدينة (شيراز) واستعدوا وتأهبوا للدفاع ، وفى نفس الوقت أعلنوا تأييدهم للامير (أبى الفتح) نجل كريمخان ولكن (زكى خان) قد أفسد عليهم تدبيرهم إذ بادر فأعلن ولاية عهد كل من أبى الفتح خان وأخيه محمد على خان (١) لعرش والدهما ، فحال هذا الاجراء الجهنمى دون تظاهر الأهالى وتعضيدهم لهؤلاء الزعماء ... والحق أن وليى العهد كانا حاكمين إسما لافعلا . إذ أنه قد استبد بالأمر وانفرد بالحكم بحجة أنهما شابان تنقصهما الخبرة بشئون الحكم ويفتقران إلى الحنكة والتجارب وفهم الأمور على حقيقتها .

هذا وكان ساعده الأيمن فى تنفيذ خططه وتحقيق مآربه ابن أخته المدعو (على مرادخان) .

ولقد بذل (زكى خان) جهودا جبارة أملا فى الاستيلاء على القلعة الداخلية لشيراز، ولكن هذا العمل لم يكن باليسير الهين كما خيل إليه ، ولهذا اضطر إلى أن يسلك طريق المكر والخديعة مع حامية القلعة وأخذ يقطع لهم على نفسه العهود والمواثيق بالمحافظة على حياتهم ، ووعدهم وأغراهم بأنه سيسندالى رؤسائهم مناصب ملائمة من مناصب الدولة . فصدقه الرؤساء ، ووقعوا فى حبائله ، وسلموا أنفسهم إليه . ولكنه ما كاد يتمكن منهم بهذا الأسلوب

---

(١) كان صهراً لزكي خان . المؤلف

الدنىءحتى قضى عليهم جميعا قضاء مبرما، وعلى أبشع صورة حانثا بوعده الذى قطعه على نفسه . ولما سمع (صادق حان) بوفاة كريمخان غادر البصرة إلى (شيراز) وعلى مقربة منها نصب خيامه . وأقام معسكره إلى جوارها، وأرسل ابنه(جعفر خان) إلى المدينة لمقابلة(زكى خان) وليتعرف رأيه فى الشكل الذى تكون عليه الحكومة ، ومالبث أن عاد (جعفر خان) إلى والده حاملا إليه تأمينات (زكى خان) وكل ما يبعث فى نفسه الطمأنينة ، ولكنه لم يفته فى نفس الوقت أن يوصى والده بألا يعتمد على كلام (زكى خان) أو يثق فيه ، وبوجوب اتخاذ الحيطة والحذر منه ، لأنه ليس ببعيد أن يكون عرضة فى كل وقت للوقوع فى شباك (زكى خان) والأرتشاف من كأس غدره وخيانته الشائنة تلك الكأس التى شرب منها رؤساء الزند مرارا وتكرارا .

وكان لهذه التوصية أوقع الأثر فى نفس (صادق خان) الذى فقد الأمل فى الاتفاق مع (زكى خان) ، وقرر محاصرة (شيراز) ، وكان واثقا من نتيجة الحرب والقتال بقدر وثوقه من طاعة رجال جيشه ومحبتهم له . وقد أعد جيشه ، وعبأ جنده للقتال على أساس هذه العقيدة . ولما رأى (زكى خان) أنه لم ينجح فى اجتذاب خصمه (صادق خان) إلى داخل المدينة بالحيلة والدهاء عمد إلى إلقاء (أبى الفتح خان) فى غياهب السجن ، وإعلان أخيه (محمد على خان) الذى كان شريكه فى الحكم حتى ذلك الوقت حاكما مستقلا على إيران ، وألقى القبض على ثلاثة أولاد لصادق خان كانوا فى (شيراز) حينذاك . ثم أقفل أبواب المدينة وأعلن على الملأ أنه سوف يقوم باعدام أسر ضباط جيش (صادق خان) ورجاله كافة وعن بكرة أبيهم ، وقد فعل هذا التهديد وذلك الوعيد فعل السحر إذ حقق ما كان يرمى إليه (زكى خان) لأنهم كانوا يعتقدون أن قتل أطفالهم ، وإعدام نسائهم ، وإراقة دم الأبرياء منهم عمل هين لدى زكى خان . فكانت النتيجة أن بادر جميع الضباط والجنود من ذوى

الأسر ، وممن لهم أقرباء فى داخل (شيراز) إلى التسرب من معسكر (صادق خان) ولاذوا بالفرار إلى (شـــيراز) ، وقد أدى هذا إلى إفساد خطط (صادق خان) وتدابيره . وانهيار آماله فى الفوز . إذ لم يبق إلى جانبه من جنده إلا ثلاثمائة مقاتل من رجاله الأخصاء ، فاضطر إلى العودة بهم إلى طريق (كرمان) ، ولـكن زكى خان قد اقتفى أثره وأرسل قوة من الفرسان لمطاردته فأدركته على بعد أربعين ميلا من شرقى (شيراز) فى مكان يقال له (دربند أوريبنجان) حيث اشتبكت معه فى قتال عنيف أسفر عن قتل قائدها الذى بموته اندحرت القوة وباءت بفشل ذريع ، وولت الأدبار إلى أن وصلت إلى مدينة (شيراز) وبذلك تهيأت الفرصة لصادق خان كى يستأنف السير برجاله حتى وصلوا إلى كرمان واعتصموا بقلعتها الصغيرة .

ومن الأحـداث الهامة التى وقعت عقب وفاة كريمخان ، نجاة أغا محمد خان القجرى ، وهروبه من شيراز حيث كان سجينا بقلعتها منذ اليوم الذى وقع فيه أسيرا عام (١١٦٠ هـ - ١٧٤٧ م) ولم يكن يسمح له بالخروج من القلعة إلا أياما معدودات فى بحر السنة للصيد والقنص فقط .

وكان كريمخان يشمله بعطفه ، ويفيد من خبرته وتجاريبه فى شئون الحكم ويستشيره فى أمـور الدولة كما أن أغا محمد خان كان قد ربط مصـيره بوفاة كريمخان ولهذا كان ينتظر هذا اليوم ويتعجله بفارغ الصـبر ، لاسيما وأن أخته كانت زوجا لـكريمخان . وما أن صعدت روح كريمخان إلى بارئها حتى شاغل الحراس ورجال الحـكومة الذين وقعوا يومئذ فى حيص وبيص وخرج منسلا من المدينة مع بضعة من رجاله المكلفين بالقيام على خدمته ، وسار فى البيداء حتى وصل إلى بلاده ، وحط الرحال بين قومه وعشيرته . ثم أخذ فى حشد قوات كبيرة مكنته من إعلان نفسه ملكا على البلاد فى عام (١١٩٢) للهجرة (١٧٧٩ م) .

ولقد كان (زكى خان) واثقا تمام الثقة بأن رئيس القجر غير مكتف ولا قانع بأقليم (مازندران) وحده ، وأنه لابد زاحف إليه يوماً ما ، ولهذا أعد جيشا قويا بقيادة ابن أخته المدعو (على مراد خان) ، وأمره بالزحف إلى حيث رئيس القجر ليمنعه ويوقفه عن التقدم ، غير أن هذا التدبير قد جاء على خلاف ما كان يرومه ، إذ أن ابن أخته الشجاع الحريص كانت التجربة قد علمته أن أحوال بلاده لن تتيح لمثل (زكى خان) المجرد من القوة الذاتية والذى يفتقر إلى العصبية العشيرية ، النجاح فى تحقيق مطامعه الشخصية أو يأمن جانب أحد من الناس، ولهذا كان يترقب الفرص ويتحينها ليشق عصا الطاعة على (زكى خان) ذلك الحاكم الظالم المستبد المكروه من الناس والذى لا يؤمن جانبه قط .

سيطرت هذه الفكرة على عقل (مراد خان) وما لبث أن اتخذ من دعوة (صادق خان) واستنجاده حين انفصاله عن (شيراز) وسيلة ومبررا لإخراج فكرته إلى حيز العمل، فما أن وطئت قدماه أرض طهران حتى جمع أمراء جيشه وقواد جنده على الفور وقال لهم : « هل من الجائز مساعدة رئيس مثل (زكى خان) الذى أساء معاملة كل الناس ، وغدر بأنجال سيده وولى نعمته (كريمخان) عليه الرحمة والغفران ؟ » ولا شك فى أنه قد تمكن بهذا الأسلوب من اقناعهم برأيه دون عناء. ثم توجه صوب (أصفهان) وما أن اقترب منها ولمس بل ورأى بعينى رأسه أن الأهالى والرعايا جميعهم قد انحازوا إلى جانبه ، وأنهم يتمنون من صميم أفئدتهم الغلبة له على (زكى خان) - حتى عمد إلى عزل واليها المعين من قبل (زكى خان) ، ثم أعلن الملأ أن الغرض من حركته إن هو إلا إقامة نجل كريمخان ملكا على البلاد خلفا لوالده ، وأنه ليس هنالك من هدف آخر يتطلع إلى تحقيقه . . فسر الأهالى بما أعلن وازدادوا حبا له وتعلقا به ، وأبدوا استعدادا طيبا لتأييد الوضع الجديد واعزازه .

وما أن علم (زكى خان) بعصيان ابن أخته حتى طار لبه وفقد صوابه واختل توازنه ، فبادر على الفور الى حشد جيش، سار على رأسه إلى أصفهان وما درى بأن الانتقام الألهى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، إذ ما كاد يصل إلى ضواحى (يزد خواست) حتى ضيق الخناق على أهليها وطالبهم بتوريد الأموال التى كان فرضها عليهم قسرا ، وقد طلب اليه الأهالى إعفاءهم من دفع هذه الأموال فى تلك السنة ، لسوء حالتهم وفقرهم المدقع ، وأنزلوا من شباك القلعة وفدا من سراة القوم وأعيانه ليشرحوا له سوء الحالة وتعذر الدفع ، فما كان منه إلا أن أشاح عنهم بوجهه ، وأساء معاملتهم ، وأمعن فى اضطهادهم ولم يكتف بذلك بل استدرج سيد البلدة وهو رجل من الأشراف وأراد أن يفتك به ، ويذيقه سوء العذاب، لولا أن حامية القلعة قد حالت دون ذلك . وكان لهذه الحادثة أسوأ الأثر فى نفوس الأهلين ، فقست عليه قلوبهم وبيتوا له فى أنفسهم أمرا ، ألا وهو التخلص منه ، وما أمهلوه ولكن قتلوه على الفور وكان ذلك فى عام (١٧٧٩) للميلاد .

وبعد مقتل (زكى خان) على هذا الوضع ، أعلن (أبو الفتح خان) نجل كريمخان شاها على بلاد إيران ، وكان ذلك فى سنة (١٧٨٠) الميلاد .

وكان (أبو الفتح خان) رجلا شجاعا ، وملكا عادلا ، ذا خصال حميدة ومعتدلا فى كافة الأمور ، فليس هو بالحريص ولا بالطامع ، غير أنه لم يكن لميلاً بجدارة ذلك المركز السامى فى مثل هذه الظروف الدقيقة المحيطة بالبلاد ومع ذلك لم يكن هنالك من شخص آخر يمكنه أن يحول دون خروج الملك من أسرة كريمخان ، ويعيد الأمن إلى نصابه ، ويضع حداً لأطماع الطامعين فى الملك غير هذا الذى نودى به ملكا للبلاد .

ولما سمع (صادق خان) بما حاق بخصمه (زكى خان) نهض على الفور وتوجه صوب شيراز ودخلها، تحف به أبهة الملك وسطوته فى اليوم الثلاثين من شهر

جمادى الأولى من عام ١١٩٤ﻫ وكان هذا الأمير الزندى قائدا محنكا ، وجنديا باسلا ، واداريا حازما ، إلا أنه كان طموحا قوى الرغبة فى السلطان واعتلاء أريكة الحكم إذ كان من الصعب على نفسه أن يخضع لأوامر حاكم جاهل ضعيف الارادة. وقصارى القول كان ينعدم التفاهم والانسجام ـ كلية ـ بين العم وابن أخيه الأمر الذى أدى فى النهاية إلى أن يلقى صادق خان القبض على ابن أخيه . وليته اكتفى بهذا بل أمعن فى الغلظة والوحشية وسمل عينيه حسب العادة السائدة فى تلك العهود المظلمة ، وأعلن نفسه شاها مستقلا للبلاد فى عام (١١٩٤ﻫ) (١٧٨٠م) ولكنه ما كان يحلم قط بأن عرشا ينتزعه ويستولى عليه قسرا وبمثل هذه الوسيلة الوحشية سيكتب له الدوام والاستقرار .

والواقع أن خطر (على مراد خان) كان قد عم وازداد وقوى نفوذه واتسع فارسل (صادق خان) ابنه (جعفر خان) الى اصفهان ليرقب عن كثب حركات (على مراد خان) الذى كان قد تغلب على (ذى الفقار خان) خصمه الثائر فى بلاد قزوين وسلطانيه وزنجان ، واستولى على هذه البلاد وأرسل رأس الثائر إلى (شيراز) فى عهد (أبى الفتح) فازداد بذلك نفوذه . وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الحوادث وتتتابع كان (على مراد خان) فى طهران . فلما جاءته هذه الأنباء وترامت إلى مسامعه بادر على الفور إلى المناداة بنفسه ملكا للبلاد وتوجه على رأس جيش كبير نحو (أصفهان) ولما اقترب منها أرسل عليها واليا جديداً من قبله .

أما (صادق خان) فقد عمد إلى إعداد جيش قوامه عشرون الف مقاتل وأسند قيادته إلى ابنه (تقى خان) الذى شن هجوما على جيش (على مراد خان) ، وأوقفه عن التقدم الى الامام. ثم ما لبث أن ألحق به خسائر جسيمة إذ شتت شمل جيشه الذى سارع فريق كبير منه بالانحياز إلى جانبه واضطره هو نفسه إلى التقهقر والتراجع نحو (همذان) فى جماعة من أقربائه واخص رجاله للمحافظة على هذه البلاد .

وبعث (صادق خان) إلى نجله بكتاب يحثه فيه على استغلال هذا النصر

المبين، فيعمل جاهدا على التخلص من (على مراد خان) نهائيا ، ومطاردته حتى يقضى عليه قضاء مبرما . ولكن هذا الامير الغر الطائش الذى أسكرته نشوة النصر ، قد ركب رأسه ولم يعمل بنصيحة والده ، ودخل (أصفهان) ظافرا وقضى شهرا بين ربوعها ، دون أن يحسب حسابا لاستعداد خصمه الذى انتهز هذه الفرصة الذهبية فأعاد تنظيم شئونه وأصلح من أمره وأخذ يترقب مجريات الأحوال ويتربص حتى تسنح له الفرصة .

ثم غادر تقى خان(أصفهان) وتوجه نحو العراق أملا فى توسيع ميدان فتوحاته ، وكان بعض قواده ورؤساء جيشه قد قلبوا له ظهر المجن، وخرجوا عليه . وعلى مقربة من مدينة (همذان) فوجىء (تقى خان) بخصمه العنيد (على مراد خان) الذى اشتبك معه فى قتال عنيف أسفر عن اندحاره وخذلانه وما نجا من الموت المحقق أو من الوقوع فى الأسر إلا بأعجوبة . . . وسار (تقى خان) يجر أذيال الهزيمة حتى وصل إلى شيراز فى حالة يرثى لها .

ولما ترامت الأنباء إلى (صادق خان) بأن (على مراد خان) زاحف على عاصمة بلاده ، بادر على الفور إلى حشد جيش جله من المشاة وبعث به إلى خارج(شيراز) على مسافة خمسة وعشرين ميلا منها، ليحول دون تقدم العدو وتوغله ، ولكن هذا الجيش قد فوجىء بهجوم مباغت شنه عليه (على مراد خان) فى الوقت الذى كان الجنود منهمكين فى توزيع الطعام والذخيرة على القوات المختلفة ، فتشتت شمل هذا الجيش أيضا ، وتعقبه فرسان العدو وألحوا فى مطاردة فلوله حتى أوصلوها إلى أبواب « شيراز » وألقوا عليها الحصار .

وقد دام هذا الحصار ثمانية أشهر ، ولم يكلف المحاصرون أنفسهم مؤنة القتال والهجوم كى يتعجلوا سقوط المدينة بل اكتفوا بتشديد الحصار

وتضييق الخناق على المحصورين من الأهالى والمدافعين الذين كانوا قد ملوا القتال وسئموه وخارت قواهم من شدة الجوع وقسوته وتفشى الأمراض، وتوالى الويلات والنكبات ، فمال الكثيرون منهم إلى الثورة ومحاولة تسليم المدينة للاعداء ، وفعلا عمد بعض المدافعين ذات ليلة إلى الاستيلاء على أبواب المدينة ، ثم فتحوها على مصاريعها لجيش (على مراد خان) فدخلها فى هدوء وسلام دون سفك دماء ، وأحسن معاملة الأهالى جزاء لما قدموا له . ولكن (صادق خان) قد ركب رأسه ، وامتنع عن التسليم ولجأ بأسرته وكبار رجاله الى القلعة الداخلية حيث اعتصموا بها حقبة من الزمن ، ولكنه اضطر أخيرا الى التسليم ، ونفذ فيه وفى رجاله العظام حكم الأعدام شنقا ، وكان ذلك فى سنة (١١٨٦ م) ولم ينجو من الشنق سوى ابنه (جعفر خان) الذى كان قد انسجم مع (على مراد خان) قبل الاستيلاء على المدينة بزمن ليس بقصير .

هذا وكان (صادق خان) قد اشتهر فى عهد أخيه (كريمخان) بالعدل والحزم وحسن التدبير فى كافة أنحاء ايران ولاسيما بعد توفيقه فى فتح البصرة وضمها لرقعة الامبراطورية الزندية ، ولكن أعماله الشائنة الأخيرة مع بنى قومه وأقربائه الأدنين ، وطمعه فى الانفراد بالحكم ، قد أفقدته عطف الناس أجمعين ، وجعلت من المتعذر بل من المستحيل عليه الوصول الى الحكم .

إزاء هذه الحالة يقف المرء جامدا لا يسعفه المنطق كيف يفسر عمل (صادق خان) كى يحقق رغبته فى الوصول إلى الحكم مع وجود أنجال لكريمخان الذى كان مبعث الشهرة العريضة التى كانت تتفيأ الأسرة الزندية ظلالها .

وهكذا دانت الأمور لعلى مراد خان فصار ملكا على إيران ، ويؤخذ من سجل أعماله وانتصاراته أن البلاد لبثت بضع سنين مسرحا لدسائس القواد العسكريين ومنازعاتهم .

ولم يبرز أحد قط فى أثناء المحاصرة مثلما برز واشتهر (أكبرخان) ابن (زكى خان) ، ولكنه كان ظالما جبارا عتيا ، بقدر ما كان باسلا وشجاعا وقد وصلت به الجرأة والقسوة وحب الانتقام إلى أن يتولى بنفسه وبيديه المتلطختين قتل (صادق خان) وأبنائه الثلاثة . ولكن المنتقم الجبار الذى لايغفل ولا ينام قد أبى ـ جل شأنه ـ إلا أن تكون الجريمة التى ارتكبها هذا السفاك وسيلة لمصرعه هو بعد مدة وجيزة ، إذ ألصقت به تهمة تدبيرمؤامرة لقتل الشاه غيلة . ولم يكن من الصعب إقناع (على مراد خان) بصحة هذه التهمة . فأصدر أمره لجعفر خان بأن يهدر دم هذا السفاك الذى قتل أباه وأخوته وما زالت يداه ملطختين بدمائهم .

وبعد بضعة أشهر انتقل (على مراد خان) إلى أصفهان واتخذها عاصمة لحكومته . وكان يولى (جعفرخان) كامل ثقته ويعتمد عليه الاعتماد كله ، ولهذا نصبه واليا عليها من قبله . وكان نجله (شيخ ويس) قائدا عاما للجيش فعهد اليه المحافظة على الحدود الشمالية، ومراقبة حركات (أغا محمدخان القجرى) فكتب له الفوز فى بادىء الأمر وأحرز نصرا مبينا باستيلائه على (مازندران) وإلحاقه هزيمة منكرة برئيس القجر ، واضطره للفرار إلى (أستر آباد) ، ثم أرسل فى أعقابه قوة لمطاردته والقاء القبض عليه .

ولكن (محمد ظاهر خان) الذى كان يتولى قيادة هذه القوة المطاردة كان قصير النظر فلا عجب أن قطع على نفسه وعلى جيشه خط الرجعة إلى (مازندران) حيث أصيب بفشل ذريع ، ثم مالبث أن وقع صريعا فى ميدان الوغى . وتشتت شمل جيشه شذر مذر ، وسارع الذين نجوا من جنده إلى الانضمام إلى جيش (شيخ ويس) المعسكر فى مازندران والذى اضطر هو الآخر وعلى رأسه قائده إلى الجلاء عن (مازندران) واللجوء إلى (طهران) حيث وقف إلى جانب جيش (على مراد خان) وانتظم فى صفوفه . وكان ذلك فى عام ١١٩٩ هـ (١٧٨٤ م) .

كان (على مراد خان) فى هذه الآونة مريضا وقد اشتدت عليه وطأة المرض ، ومع ذلك كان يبدى نشاطا محسوسا فى معالجة الأمور وإعداد الجيوش التى كان من بينها ذلك الجيش الذى بعث به إلى (مازندران) ووطن النفس على أن يقوم هو نفسه بنجدته إذا اقتضى الأمر

وفى هذه الأثناء جاءته الأنباء تترى بأن (جعفر خان) قد شق عليه عصا الطاعة وأنه زحف صوب العاصمة ، فغلبه التأثر واشتد حزنه وبرح به الألم لدرجة أنه لم يطق صبرا ، ولم يتريث حتى يبرأ من علته بل سارع إلى الزحف نحو أصفهان معرضا نفسه لبرد الشتاء القارس رغم الحاح وزيره وطبيبه الخاص عليه بالاعتكاف . ولكن الأجل المحتوم قد وافاه فى عرض الطريق فصعدت روحه إلى بارئها ، وكان ذلك فى عام (١٧٨٥ م) فاضطر الزعماء والقواد وذوو الرأى إلى إخفاء نبأ موته عن الجيش حتى وصلوا العاصمة .

وما أن ترامى هذا النبأ إلى مسامع رجال الجيش حتى عمدوا إلى النهب والسلب وتفرقوا شيعا يعيثون فى البلاد فسادا .

ولقد أسهب الكثيرون فى الكلام عن أخلاق (على مرادخان) وسجاياه ويستخلص من رواياتهم أنه كان مثلا يحتذى فى الشجاعة والبسالة النادرة ، وليس أدل على ذلك من شهادة خصمه القوى الجبار (أقا محمد خان القجرى) له ، ذلك الخصم الذى قاسى الأمرين فى عهد هذا الشاه فى سبيل المحافظة على (مازندران) ، والذى كان يرد على الذين كانوا يستفزونه ويحثونه على شن الهجوم على العراق العجمى بقوله : (اصبروا حتى يقضى على هذا الأعمى (١) المحترم ، وحينذاك فقط يمكننا أن نعمل شيئا) .

---

(١) كان (أقا محمد خان القجرى) يذكر (على مراد خان) دائما بهذا الوصف . والواقع أنه كان اعور لا اعمي . المؤلف

وقد وصل (جعفر خان) إلى (أصفهان) بعد وفاة على (مراد خان) بخمسة أيام فقط ، فألفى واليها المدعو (بكر خان)قد اغتصب الحكم واستأثر بلقب الوالى لنفسه خلال هذه الأيام القلائل ، فبادر إلى عزله. وأرسل اليه من يلقى القبض عليه، ويخلفه فى منصب الوالى ، وتم ذلك كله فى غاية من السهولة والسرعة وبذلك لم يبق هنالك من ينافس (جعفر خان) فى إدعاء الملك سوى « شيخ ويس » ولهذا رأى (جعفر خان) أنه من الحكمة وعين الصواب أن يسلك مع هذا الأمير مسلكا يتسم بطابع السياسة والملاينة حتى يتمكن منه ، فبعث إليه بكتاب ودى رقيق ، يستميله إليه ، ويستدرجه إلى مستقره ومقامه حتى نجح بالفعل فى استقدامه اليه ، وما أن تمكن منه حتى أقدم على تغيير سياسة اللين والحكمة وبدأ معه سياسة جديدة سداها الاضطهاد ولحمتها شتى ألوان التعذيب والتنكيل ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل لقد أمعن فى ايذائه وسمل عينيه كيلا يتمكن ابن الأخ فيما بعد من مناوأة عمه بطلب الحكم لنفسه.

هذا وقد آن الأوان لأن يفى (أقا محمد خان القجرى) بالوعد الذى قطعه على نفسه لأنصاره ، إذ سبق أن قال لهم : (سنقوم بزحف عام إلى العراق على أثر موت على مراد خان) فلم يكن هنالك إذن من مانع يحول بينه وبين البر بوعده . وما لبث أن تحرك على رأس قوة من الفرسان يتراوح عددها بين(٥٠٠ و ٦٠٠) فارس وعبر جبال (مازندران) إلى الجنوب ولما رأى فى الطريق أن عدد المنتظمين فى صفوف جيشه من الأنصار فى ازدياد مستمر ، عمد إلى الزحف إلى أصفهان مباشرة وذلك تشجيعا لجنوده على خوض المعارك .

وما كاد يمضى شهران على وفاة (على مراد خان)حتى كان الجيش القجرى يقتحم مدينة أصفهان ويدخلها غازيا فاتحا . وكان ذلك فى اليوم السادس من مايو سنة (١٧٨٨) للميلاد . وكان (جعفر خان) قد أخلى المدينة قبل وصول

القجرى اليها ، وذلك على أثر ثورة [١] أشعل لهيبها وقام بها العصاة ونهبوا كل ما يمتلكه (جعفر خان) من أموال ومقتنيات وأعملوا السلب فى أثقال الجيش ومرافق الدولة .

وفى الوقت الذى دخل القجرى فيه أصفهان على النحو الذى ذكرناه ، دخل (جعفر خان) شيراز ، ولكن صداقة حاكمها (سيد مرادخان)[٢] له لم تكن موضع ثقة كاملة ، إلا أن الأهالى قد سارعوا إلى تأييده والوقوف الى جانبه بفضل تشجيع أشراف البلدة وأعيانها له ، وكان أبرز هؤلاء الأعيان المدعو (حاجى ابراهيم) الذى كان يبدى نشاطا ملحوظا ومحسوسا لتأييد (جعفر خان) لكى يثبت قدميه ، ولهذا لم يفت جعفر خان أن يكافئه على حسن صنيعه إذ عينه واليا على فارس (كلانتر)

ولقد رأى (أقا محمد خان) ألا يدع الفرصة تضيع وتفلت سدى دون أن يقوم بعمل حاسم ، فاشتبك فى القتال مع البختياريين القاطنين فى فارس وحدثت بينهم مناوشات ولكن غير حاسمة ، فاضطر أخيرا الى العودة سريعا الى طهران فانتهز جعفر خان هذه الفرصة وزحف ثانية إلى اصفهان واستردها وقبض على (رحيم خان) الذى كان واليا عليها من قبل (أقا محمد خان) وأرداه قتيلا ولكنه سرعان ما أخلى أصفهان وجلا عنها حين بلغه زحف اقا محمد خان عليها ثانية ذلك الخصم الذى كان قويا عتيا لا ينضب معين امواله ورجاله والذى كان يبسط سلطانه ونفوذه على شمال ووسط ايران ولديه عزم على محاصرة (شيراز) والذى لم يكن لجعفر خان قبل به .

---

(١) يقال إن الذين اشعلوا نيران هذه الثورة ودبروها وأداروا دفتها هم بعض الرؤساء الذين كانوا قد نجوا من السجن ، وكان من بينهم (بكر خان) والى اصفهان السابق .

(٢) كان سيد مرادخان هذا ابن اخت (على مراد خان) . المؤلف

هكذا كان موقف جعفر خان أمام خصمه وهو كما نرى موقف ينم عن الضعف والعجز المتناهيين ، وكان هذا هو نفس موقفه إزاء الثورات الداخلية إذ حدث أن شق عليه والى همدان ـ من قبله ـ عصا الطاعة . ودحر الجيش الذى كان قد أرسله لتأديبه منتهزا فرصة ضعفه وتقاعسه ، وكان أيضا قد فقد مدينة (يزد) بعد أن تكبد خسارة جسيمة .

ولكن الحظ عاد فخالفه فى أواخر عهده إذ نجح ابنه (لطف على خان) فى الاستيلاء على (لار) وقد شجعه بعد الشقة بينه وبين (أقا محمد خان) على تجريد جيش آخر على (أصفهان) لاستردادها . وقد استطاع فى بادىء الأمر القضاء على حامية هذه المدينة ، غير أن هذا النصر المؤقت لم يدم طويلا ، حيث وردت الأنباء باقتراب رئيس القجر من المدينة ، فاضطر (جعفر خان) إلى الجلاء عنها مرة أخرى .

هذا وكان (جعفر خان) محبوبا لدى الأهالى والأجانب على السواء إذ كان يحسن معاملة الجميع ، وكان الكل أمامه سواسية كأسنان المشط ، وكان عادلا ، حليما ، يحترم حقوق الغير . . . وقد وكل مهام الادارة إلى وزير عاقل ذى شخصية محترمة ، عرف كيف يسوس أمور الدولة بحزم وعزم . ويتصرف فى معالجتها بحكمة (١) ولكن تصرفه السىء ضد قائد من أخلص قواده قد أفقده السمعة الطيبة التى كان يتفيأ ظلالها بل وأدى فى النهاية إلى تقويض دعائم حكومته وزوال دولته .

هذا ، وكان من بين أمراء وقواد جيش (جعفر خان) قائد يدعى (حاجى

---

(١) هو (ميرزا حسين) والد (ميرزا بزرك) وزير الأمير (عباس ميرزا) ولى عهد ايران الشرعى . وكان الوزير (ميرزا حسين) هذا محبوبا من الأهالى ويكنون له عظيم الاحترام . المؤلف

على قوليخان) الـكازرونى ، عهد اليه جعفر خان إخماد ثورة (كاشان) التى أشعل لهيبها ثائر يدعى (عرب محمد حسين خان) فنجح فى إخماد نيران الثورة أيما نجاح ، واضطر رئيس العصاة إلى التسليم مع آلاف من الأسرى ، وكان من بين هؤلاء الأسرى ألف وخمسمائة مقاتل من أهالى خراسان استسلموا بعد قتال عنيف ووافقو على التسليم بشرط واحد ألا وهو المحافظة على حياتهم وعلى كرامتهم ، ولـكن (جعفر خان) قد قلب لهم ظهر المجن وركب رأسه وأبى إلا أن ينقض الشروط ، ويحنث بالوعد الذى قطعه قائده (حاجى على قوليخان) على نفسه ، ويزج بهؤلاء الأسرى الخراسانيين فى أعماق السجن ، وقد أصم أذنيه ، وأشاح بوجهه عن الاستماع لأى رجاء من لدن قائده فى هذا الصدد ، فلم يجد هذا القائد الشريف ـ إزاء هذا ـ بدا من ترك خدمة مولاه والعودة إلى بلاده. وبعد ردح من الزمن أرسل جعفرخان قوة لاستحضار هذا القائد إلى (شيراز) ولـكنه رفض بإباء ما عرض عليـه من وعود وعهود لتأمينه ، فلم تجد القوة مندوحة حينذاك من إلقاء القبض عليه ، ونقلتـه إلى شيراز حيث زج به فى غياهب السجن . وهنالك وبين جدران السجن اتيحت الفرصة لحاجى قوليخـان لتدبير مؤامرة مع نزلاء السجن من العظماء ضد (جعفر خان) انتقاما منه لأنفسهم . وكان بين المتآمرين رجل له قيمته وله وزنه ، ذلك الرجل هو (سيد مراد خان [١]) الذى لعب دورا خطيرا كان له أكبر الأثر فى إنجاح هذه المؤامرة التى نفذت على الوجه التالى :

(قامت امرأة من الأسرى باخفاء مخدر معهـا . ونجحت فى دس هذا

---

(١) كان واليا على « شيراز » ، وكم قدم من مساعدات فعالة لجعفر خان ولـكن العلاقات قد ساءت بينهما أخيرا فألقى به « جعفر خان » فى غياهب السجن . المؤلف

المخدر فى طعام كان معدا لجعفر خان ، فما كاد يتذوق الطعام حتى أغمى عليه) . وفى تلك اللحظة الرهيبة تمكن أنصار المتآمرين من إطلاق سراحهم وما أن غادروا أبواب السجن حتى سارعوا إلى حيث يرقد خصمهم فانقضوا عليه كالصاعقة وأجهزوا عليه . وألقوا برأسه من القلعة الداخلية إلى باب المدينة ثم أعلنوا ونادوا بين الناس بأن (جعفر خان) قد انتهى أمره . وكان ذلك فى عام (١٧٨٩) للميلاد .

(٢) ـ عهد « لطف على خان »

كان (لطف على خان) نجل (جعفر خان) مقيما فى كرمان خلال هذه المدة ، وكان (سيد خان) زعيم الحركة الثورية قد نادى بنفسه شاها على إيران ، ولكن ما هى إلا بضعة أشهر حتى تداعت أركان حكومته وتزعزعت قوائم سلطانه الزائل ، إذ كان (حاجى إبراهيم) والى فارس العام وثيق الصلة بلطف على خان ، فاتفق مع بعض الزعماء ورؤساء العشائر والبيوتات الكبيرة على مقاومة هذا المغتصب . وما أن ترامى نبأ اغتيال (جعفر خان) إلى مسامع ولده (لطف على خان) حتى أخذ يفكر فى المطالبة بعرش أبيه ، ولكنه كان ضعيف الثقة فى جيشه ، ولهذا لم يكن فى مكنته المطالبة سريعا بهذا العرش ، ولهذا توجه على الفور إلى شيخ بلدة (أبى شهر) طالبا إليه مساعدته ، ولكن المنية قد عاجلت الشيخ قبل أن يتقدم له بالمساعدة الممكنة وإن كان الشيخ قد أوصى ابنه الشيخ ناصر بتعضيد لطف على خان وشد أزره ، فقام الشيخ ناصر بامداده بجيش صغير من لدنه ، فأرسله على (شيراز) فاشتبك فى القتال مع (حاجى هاشم) أخى (سيد خان) . ولكن للاسف دارت الدائرة على جيش النجدة وتشتت شمله .

وعلى أثر هذه الهزيمة بعث (حاجى إبراهيم) بجيش لمحاربة لطف على خان

وكان يقوده (على محمود خان) الذى كان يضمر العداء لحاجى إبراهيم ويتحين الفرصة لطعنه من الخلف طعنة نجلاء ، وفى الوقت نفسه كان يمالىء لطف على خان الذى اتفق معه بمجرد وصوله وأعلن تأييده له ، وقد علق (لطف على خان) آمالا كبارا على انضمام هذا القائد إلى جانبه ، وتوجه صوب العاصمة واستعان بالأصدقاء الذين كانوا قد هيأوا الرأى العام لقبوله حاكما عليهم خلفا لأبيه سنة (١٧٨٩م) . وكان (سيد خان) قد لجأ إلى القلعة الداخلية ولكنه ما لبث أن اضطر للتسليم فأعدم .

أما (حاجى على قوليخان) الذى كان من أكبر المحركين للثورة فقدقدم هو وبضعة من الزعماء الآخرين له الضمانات الكافية من قبل (حاجى إبراهيم خان) ، فقبلها (لطف على خان) بل وشمل هؤلاء الثوار بعطفه وأولاهم ثقته

كان للطف على خان وقتذاك من العمر عشرون ربيعا ، ولكنه تدرج فى شتى المناصب فى عهد والده وهو فى سن مبكرة ، وأبدى فيها نشاطا ملموسا ونجاحا أيما نجاح ، وكان يملأ كل منصب وليه بجدارة ،وقدرها له العدو قبل الصديق ، ولم يمض طويل وقت حتى كان يتبوأ عن جدارة أسمى المراكز وأرفعها، مما أثار إعجاب جميع الذين احتكوا به وعرفوه فى الحرب وفى السلم على السواء . وكان فارسا لا يشق له غبار وجنديا مهر فى شتى الفنون العسكرية ، وكانت كل أعماله وتصرفاته تتسم بطابع الجرأة البالغة والحكمة المتناهية ، غير أنه للأسف كانت تنقصه تلك الصفات اللازم توافرها فيمن يلى منصب السلطنة والحكم من دربة وحزم وسرعة بت وحسم للأمور التى كان يتباطأ فى تصريفها لدرجة الاستهتار والاهمال وذلك على خلاف ما طبع عليه من الجرأة والعزم فيما يتعلق بالمسائل العسكرية وشئون الحرب والميادين

ومما أخذ على (لطف على خان) أيضا أنه غير طباعه بعد تولية الحكم ، إذ كان قبل اعتلائه العرش حلو الشمائل ، رقيق الحاشية ، رءوفا ورحيما

بالضعفاء ، ثم انقلب إلى ذئب عقور يروق له استعمال الشدة والقسوة، وليس أدل على ذلك من تنكره لحاجى إبراهيم خان الذى كان له اليد الطولى فى إيصاله إلى أريكة الحكم والاحتفاظ له بعرش أبيه ، ولكنه انقلب عليه وعامله بالقسوة وانتزع منه الثقة ، وناصبه العداء والخصومة ، بل الأدهى من ذلك وأمر، أنه كان ينظر إلى قوة وسلطان هذا الرجل الذى وضع التاج على مفرقيه نظرة حقد وحسد وغيرة . وقد فوجىء (لطف على خان) فى أوائل عهده بزحف خصمه (أقا محمد خان) نحو (شيراز) فما كان من هذا الحاكم الطائش إلا أن جازف وخرج لمقابلة العدو الزاحف واشتبك معه فى معركة دامية عند مكان يقال له (هزاربيزا) أسفرت عن اندحاره أمام قوات القجر الجارفة وعاد يجرر أذيال الهزيمة إلى (شيراز) واعتصم بقلعتها . وواصل (أقا محمد خان) الزحف ثملا بنشوة النصر حتى ألقى الحصار على (شيراز) غير أنه اضطر للعودة إلى (طهران) عاصمة ملكه بعد إلقاء الحصار بشهر واحد ، وبعد ذلك بعام كان لطف على خان قد أعد نفسه وأضحى على أتم استعداد للقاء خصمه حتى لا يؤخذ على غرة مرة أخرى ؛ بيد أن (أقا محمد خان) لم يزحف إلى شيراز لانشغاله فى (آذربيجان) ، فأراد لطف على خان ألا يقف الجيش الذى أعده للقتال عن العمل فتوجه على رأسه لمهاجمة (كرمان) واضطر واليها إلى الموافقة على تسليمها إليه مشترطا بضعة شروط قبلها (لطف على خان) فى بادىء الأمر تحت تأثير وضغط من مستشاريه الذين نصحوه بذلك لعدم ملاءمة الجو وقتذاك للكر والفر . ولما كان من أهم تلك الشروط صرف النظر عن الوالى وأتباعه عاد (لطف على خان) فرفض هذه الشروط بعد أن وافق عليها مبدئيا ، وظل الحصار قائما طيلة الشتاء القارس والبرد ، الأمر الذى أدى إلى فقدان الجيش المحاصر الكثير من رجاله ومن مواشيه وحيوانات نقله ، وزاد الطين بلة أن تساقطت الثلوج بغزارة فعطلت

الطرق واستحال جلب المؤن والذخائر مما أفضى إلى هياج الجند وانتشار روح التذمر بين صفوفهم . فاضطر (لطف على خان) إلى العودة إلى شيراز وهو فى حالة يرثى لها .

وقبل أن يتعرض لطف على خان لهذه النكبة العسكرية القاصمة كان قد اتخذ من التدابير الادارية والسياسية مايحول دون خيانة رجاله وغدرهم به فى غيبته فعين أخاه الصغير - الذى كان مايزال طفلا - واليا عاما لفارس، وفى نفس الوقت عهد بحكمدارية (شيراز) وضواحيها إلى (حاجى ابراهيم خان) . وأسند قيادة الحامية العسكرية إلى (بختيار خان) أحد رؤساء عشيرة الزند ، كما أنه عهد بقيادة حامية القلعة الداخلية إلى زعيم آخر من زعماء العشيرة الزندية ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى توزيع السلطات والتفريق بين الهيئات حتى يحول دون اتحادها ضده وغدرها به . ولكنه عبثا حاول ، إذ أن (بختيار خان) كان رجلا ضعيف الرأى متكبرا بل ومغترا بمنصبه العسكرى ومزهوا باستقلاله الادارى لافى دائرة نفوذه فحسب، بل كان يحاول دائما التعدى على اختصاص (حاجى ابراهيم) والتحكم فيه والاستبداد بأموره وإذلاله بشتى الطرق ، ولم يكتف بهذا بل اخذ يحرض (لطف على خان) ضده ويوغر صدره منه حتى آتت هذه الدسائس أكلها لدى (لطف على خان) ولقيت منه آذانا صاغية ، فتزعزت ثقته فى وزيره ، وليس أدل على ذلك من معاملته السيئة لهذا الوزير بعد عودته من (كرمان) مخذولا مدحورا .

والواقع أن هنالك حادثة وقعت من قبل، بين (لطف على خان) وبين وزيره « حاجى ابراهيم » وكانت ذات أثر عميق فى تطور العلاقات بينهما ، وخلاصة وقائعها أن « لطف على خان » سبق أن عفا عن بعض المتهمين فى حادث اغتيال والده بناء على توصية ورجاء « حاجى ابراهيم » وكان من بين من شملهم العفو (ميرزا مهدى) الذى استخدمه (جعفر خان) من قبل فى وظيفة

(لشكر نويس ـــ محاسب الجيش) ، والذى قطعت أذناه وطرد من العمل حين ثبت اختلاسه لأموال الدولة. ولماقتل« جعفرخان» وعلقت رأسه على باب القلعة،ذهب (ميرزامهدى)هذاوقطع أذنيه ،ولكنه أنكر أخيراً أنه ارتكب هذه الفعلة الشنعاء . بيد أن (حاجى ابراهيم)أيضا كان يعتقد ببراءته من هذه التهمة ولهذاطلب العفو عنه من (لطف على خان) الذى وافق على منحه العفو حتى ولو كانت التهمة حقيقة ثابتة إزاء ماقطعه على نفسه من عهود ومواثيق .

حدث بعد ذلك أن قام (لطف على خان) بتوزيع خلع وإنعامات على رجال الدولة ومن بينهم (ميرزامهدى) ويقال إن والدة العاهل قد علمت بذلك فأسرعت فى طلبه وقالت له (أما يكفيك أن تمنح عفوك لقاتل والدك حتى تعود فتنعم عليه بالخلع والنياشين فتسىء بذلك إلى ذكريات والدك ؟) فتأثر (لطف على خان) من هذه الأقوال اللاذعة المقصود بها التقريع واللوم . وما أن عاد إلى قصره حتى دعا (ميرزا مهدى) لمقابلته وعاتبه عتابا قاسيا ثم أصدر أمرا بإحراقه على الفور . ولما علم (حاجى ابراهيم) بنبأ ذلك أسرع إلى القصر ورأى بعينى رأسه جثة (ميرزا) المحروقة ، فدهش لما رأى وبدأ منذ ذلك اليوم ـ كما قال هو بنفسه للسر مالكولم ـ يفتقد ثقته فى مولاه ولم يعد يطمئن إليه .

وقد ظهر للعيان ما كان يبدو بين الحاكم ووزيره ـ بعد هذا الحادث ـ من خلف وشك وعدم إنسجام ، فكان (لطف على خان) يحاول جاهدا القضاء على ذلك النظام الذى كان قد ارتضاه دستورا للعمل حتى ذلك الحين ، ولكنه لم يكن من الجسارة والقوة بحيث يستطيع العمل فى سبيل ذلك جهارا وفى وضح النهار. وذلك خوفا من نفوذ الوزير الذى كان فضلا عن تمسك أهالى (شيراز) وتعلقهم الشـــديد به ـ حائزا لثقة ولاة الأقاليم وزعماء العشائر والبيوتات، أولئك الذين كانوا يحبونه ويؤيدونه.

وكان أخوه قائد المشاة فى الجيش ، ولهذا رأى (لطف على خان) أنه من الحكمة عدم استعمال الشدة فى الظاهر ولكن استياءه كان واضحا جليا فى جميع المسائل التى كان يحتك فيها بالوزير ، مما أفضى فى نهاية الأمر إلى اتخاذ الوزير قرارا خطيرا فى قرارة نفسه. ألا وهو القضاء على (لطف على خان) خشية أن يقضى عليه هو أخيرا .

وفى هذه الأثناء كان «لطف على خان» يفكر فى الزحف على «أصفهان» فبادر إلى تفريق السلطات وتوزيع المناصب العليا كما فعل قبل سفره إلى كرمان فعين من أسرته قائدا لحامية « شيراز » ، وآخر محافظا للقلعة الداخلية ظنا منه بأن هذا التدبير سيقيه شر وزيره فيشل نفوذه كيلا يغدر به . وبعد أن غير قيادة حامية « شيراز » بصفة رسمية ، دعا اليه « حاجى ابراهيم » فى وقت تأهب فيه الجيش للسفر وطلب منه أن يرسل بنجله « ميرزا محمود » إلى المعسكر ، ولما كان هذا النجل صغيرا جدا لدرجة عدم صلاحيته لتولى أى عمل فى الجيش فقد تبين لحاجى ابرهيم بجلاء أن «لطف على خان» يقصد بذلك مجرد ابعاد الولد عن والده حتى لا يكون عضدا له ، فازداد قلقه وساورته المخاوف ولعبت برأسه الهواجس، مما بدا من سوء نية الحاكم ، فطرح عن نفسه فكرة التردد واستقر رأيه على تنفيذ ما أضمره فى نفسه ألا وهو تسليم بلدة « شيراز » للآقا محمد خان ، وتوحيد الحكم فى جميع بلاد ايران .

والواقع أن «حاجى ابرهيم» كان قد فقد نهائيا ثقته فى مولاه ولاح له أنه محاط بأعداء ذوى بأس وأنه لابد له من تقديم خدمة كبرى إلى ملك ذى قوة وسلطان ليضمن حمايته له . وكانت لديه القدرة الكافية على تقديم هذه الخدمة من كافة الوجوه ، الا أن الألم كان يحز فى نفسه ويشعر بعذاب وجدانى حينما كان يفكر فى عاقبة الاقدام على القضاء على أسرة نبيلة كانت سبب

سلطانه واتساع نفوذه (١) .

وما أن بعد « لطف على خان » عن (شيراز) ببضعة مراحل حتى بادر « حاجى ابرهيم » إلى الاستيلاء على القلعة الداخلية وأسر محافظ المدينة وقائد الحامية بكل سهولة وذلك بفضل بسالة الجيش الذى أعده من أهالى البلدة وقاده ابن أخيه الصغير (محمد حسين خان) .

ثم طير هذا النبأ إلى أخيه الذى كان مع جيش (لطف على خان) المعسكر على مسافه خمسة فراسخ فى قرية (كومه ريشا) ، وكان جيش القجاريين بقيادة (بابا خان) ابن أخت (أقا محمدخان) يتقدم وقتذاك صوب

---

(١) كان (حاجى ابراهيم) إبنا لحاجى هاشم الذى كان من أشراف شيراز والذى مات وهو متقدم فى السن، تاركا من ورائه أسرة فى شدة من العوز والفاقة ، إلا أنه لم يمض طويل وقت حتى تلألأ نجم ابنه فى الهيئة الاجتماعية وأصبح ذا مكانة رفيعة بين الأشراف بفضل ذكائه المتوقد وسجاياه النادرة، فأحله « كريمخان » ـ كما سبق ـ محل أبيه ، كما أسند إليه (على مرادخان) الرياسة العامة لجميع أعيان الحيدرى الذى يؤلف نصف أهالى شيراز. وحينما خرج جعفر خان من أصفهان وزحف إلى شيراز سلم (حاجي ابراهيم) المدينة له بكل سهولة، ولهذا عينه جعفرخان والياعاما على فارس، وبفضل هذا المنصب الكبير اكتسب مكانة سامية وسلطانا عظيما ، فما كان منه إلا أن قابل عطف جعفرخان عليه بتقديم المساعدة لابنه وإيصاله إلى الحكم .

ويقول السر مالكولم « إننى تكلمت مع حاجي ابرهيم بنفسى بخصوص تسليمه البلد إلى (أقا محمدخان) فقال إنه ما أقدم على هذا الصنيع إلا ورائده خير البلاد ووحدتها السياسية ، وأنه رأى أن القلاقل والاضطرابات حول الوصول إلى الحكم لا تنتهى . وأن الأمر سواء أتم للزنديين أم انتقل إلى غيرهم فليس هنالك من يمنع الجيش من السلب والنهب والتعدى على الرعية ، فايثارا للوحدة السياسية وتوفيرا للهدوء والسكينة فى البلاد أقدم على عمله هذا » . المؤلف

هذه الجهات حتى أضحى على مسافة عشرين ميلا من معسكر (لطف علي خان) وفى هـذا الوقت أيضاً كان أخو (حاجى ابراهيم) ومن معه من القواد والضباط يستعدون للخيانة، واستقر رأيهم على أن يقوموا فى جنح الظلام بحركة مفتعلة وضجة هائلة يهاجمون خلالها مقر « لطف على خان » باطلاق الرصاص وشهر السيوف وذلك للدلالة على اجتماع أنصار (حاجى ابراهيم) فى صعيد واحد . وفعلا نفذوا قرارهم ذات مساء ، وفوجىء «لطف على خان » بهذه الحركة فأخذته الدهشة وتملكته الحيرة وأرسل بعض رجاله يستجلون الحقيقة وما لبثوا أن رجعوا إليه يقولون (عليك بالركوب فأن جيشك قد انقلب عليك وصار من ألد أعدائك) . فاستمع لقولهم وركب فما تبعه من رجاله وجنده سوى (طهماسب قلى خان الفيلى) ومعه سبعون فارسا وتخلف الباقون عن هذا الحاكم المنكود الحظ . فتوجه نحو عاصمة ملكه سنة (١٧٩١م) على زعم أن قواده وعساكره فيها ما زالوا محتفظين بها ، ولـكنه سرعان ما اصطدم بالحقيقة المرة بعد يومين من تركه لمعسكره ؛ حيث علم بما جرى فى (شيراز) ؛ وكان قد انضم إليه ثلاثمائة فارس ، ومع ذلك فقد أرسل بمجرد وصوله إلى أبواب (شيراز) فى طلب (حاجى ابراهيم خان) كى يسأله عن سبب انتقاضه وانقلابه عليه . فقيل للرسول الموفد من قبله ما يأتى : (إنى عالم بما يضمره لى لطف على خان ، فلكى أضمن المحافظة على حياتى لابد لى من أن أتخذ التدابير لتجريده من القوة العسكرية وإبعاده عن البلد ، فاذهب اليه وانصحه بأن يصرف النظر عن الاستيلاء على شيراز ، وأن ليس أمامه سبيل للنجاة بنفسه سوى الهروب والابتعاد عن هذه المدينة (١))

ولـكن هذا الحاكم الغر الجسور الذى لم يكن له قوة عسكرية يؤبه لها أو

---

(١) تاريخ حاجى ابراهيم . المؤلف

يعتد بها ، قد قابل هذه النصيحة بالرفض قائلا (ومهما يكن من أمر فهذا الخائن إن هو إلا رجل مدنى لا يجيد الحرب ولا يحسن الطعان ، كما أن جنوده الذين جمعهم من أهالى البلدة من أرباب الحرف والصناعات لن يمكنهم قط الثبات أمام جنودى المدربين) وعلى هذا الاعتبار تقدم نحو المدينة وعسكر بجنوده أمامها ، وأخذ فى إعداد وسائل القتال وكله ثقة فى نفسه وفى جنده .

ولما رأى (حاجى ابراهيم) جحافل خصمه عمد إلى حيلة جهنمية قلبت فكرة خصمه رأسا على عقب إذ أرسل إلى جنود (لطف على خان) ينذرهم ويتوعدهم بأن كل من له منهم أسرة أو صلة قرابة فى داخل البلدة سوف يعدم أفراد أسرته وذوى قرباه رمياً بالرصاص إذا لم يفارق (لطف على خان) ويعود إلى البلدة على الفور . وكان لهذا التهديد أكبر الأثر فى نفوس الجند الذين انسلوا من الجيش وتركوه زرافات ووحدانا حتى أنه لم يتبق مع (لطف على خان) المسكين سوى نفر قليل سار على رأسهم إلى بلدة (أبى شهر) ولكن آماله تحطمت حين وصلها ، إذ لم يجد من شيخها وقتذاك مثل ما كان يلقاه من شيخها السابق من ضروب العطف والتعضيد والتأييد ، وذلك لأن هذا الشيخ كان مثل سائر الزعماء والرؤساء من أنصار (حاجى ابراهيم) ولهذا اضطر إلى التوجه صوب (بندرريك) ، فقابله حاكمها بالترحاب والاجلال وأكرم وفادته ، وقدم له كل ما فى مكنته من مساعدة وتعضيد ، وبهذا تمكن من حشد قوة تمكنه من استرداد(شيراز)عندماتسنح له الفرصة. ومن عجب أنه لم يكن هنا لك من أثر ظاهر لقلة أنصار (لطف على خان) وضعف شأنهم وذلك بفضل شجاعته وإخلاص جنده الجدد له وثقتهم به .

وكان أول نصر أحرزه بهذه القوة الضئيلة انتصاره على قوات

(أبى شهر (١)) ثم أحرز نصراً آخر على حاكم (كازرون) وأسره وسمل عينيه(٢) الأمر الذى أدى إلى انعدام الثقة به ونفور انصاره منه وانفضاضهم من حوله والانضمام الى اعدائه من جراء عمله الطائش هذا .

ولقد شجعت هذه الانتصارات (لطف على خان) فأعاد الكرة على (شيراز) وألقى الحصار عليها ، ولكنه لم يكن حصاراً شديداً ولا منيعاً نظراً لقلة جنده من المشاة والمدفعية ومع ذلك كان يلتف حوله أنصار الثورة ضدالحكم القائم، أولئك الذين كانوا كلهم أملا فى أنه سيوفق فى انتزاع الحكم من أيدى خصومه والاستيلاء على (شيراز) ، ولكن الشجاعة التى أبداها والجهود الجبارة التى بذلها هذا الأمير الشاب الطائش قد قوبلت بأعمال وتدابير رجل متزن على جانب عظيم من الذكاء ورجاحة العقل قد لبس للحالة لبوسها وشعر بخطورتها . فأعد العدة للحادثات قبل وقوعها ، وما كانت تفارقه قط رباطة جأشه فى أدق المواقف وأحرج الظروف ، هذا فضلا عن قوة انتباهه ويقظته ومراقبته الدقيقة عن كثب لأحوال أنصاره ومريديه ، فكان لهذه الصفات الفريدة والخصال الحميدة أكبر الأثر فى تاريخ حياة هذا الرجل العجيب .

وبعد انفصال (لطف على خان) عن رجال جيشه العصاة فى واقعة (أصفهان) ، عاد ذلك الجيش الثائر إلى (شيراز) فى حالة يرثى لها من

---

(١) حدث هذا القتال فى قرية (تنكستان) حيث فارقت الخيالة التى كانت مع (رضا قولى خان) قائد (أبى شهر) المعسكر وانضمت إلى (لطف على خان) مما أدى إلى اندحار المشاة وهروبهم . المؤلف

(٢) هذا الحاكم هو (حاجي على خان) الذى كان لطف علي خان قد منحه عفوه ، ولكنه لم يثق فيه فذهب إلى (أقا محمد خان) . كما أن أخاه الذى كان حاكم كازرون قد تعرض فى يوم ما لجيش (لطف على خان) حين عودته من شيراز فنهبه وأخذ الكثير من الغنائم . المؤلف

الاضطراب والتنابذ . ومع ذلك فإن عودة هـذه القوة قد زاد من بأس عشائر فارس المسلحة ومن خطرها حيث ارتفع عددها إلى اثنى عشرة ألف مقاتل كلهم فرسان . أما المشاة فكانوا خمس الفرسان عددا ، وكانوا مجندين من بين سكان المدينة ، وكان (حاجى ابرهيم) يعتمد عليهم ويعتز بهم دون الفرسان ، لأن الفرسان ـــ وهم أبناء العشائر ـــ كان مستقبلهم ودوام سعادتهم متوقفا على بقاء حكومة الزند ، فلم يكن من المعقول إذن أن يوافقوا على رأى (حاجى ابرهيم) ، ويؤيدوا خططه التى تهدف إلى نقل الحكم والنفوذ إلى رؤساء القجر ، فى حين أن (حاجى ابرهيم) كان مقتنعا تماما بأن هذه القوة العشيرية تحول دون تنفيذ خططه المبيتة . ولهذا عمد إلى حيلة جهنمية. ألا وهى تجريد تلك القوة من سلاحها ثم تشتيت شملها ، وقد نفذها بكل حيطة وحذر وعلى عجل ، فبعث إليهم يدعوهم إلى دخول المدينة فى ساعة حددهـا لهم ليوزع عليهم الخلع والنياشين ، فلبوا دعوته ، ولما اكتمل عقدهم تمكن من إنفـاذ غرضه حيث جردهم من سلاحهم دون إراقة قطرة دم واحـدة ، وشتتهم فى القرى ، فانضم بعضهم فيما بعد إلى جانب أنصار (لطفعلى خان) فى حين انتظر الباقون مصيرهم المحتوم .

وكان (حاجى ابرهيم) قد حدد لآقا محمد خان موعداً لتسليمه (شيراز) فبادر رئيس القجر بارسال قوة عسكرية يقودها (مصطفى خان) لنجدته ، وفى هذه الأثناء كان (لطف على خان) قد أعد العدة لمهاجمة خصومه ، فانتهز فرصة قدوم النجدة القجرية فانقض عليها كالصاعقة ، وبعد قتال عنيف ألحق بهـا الفشل الذريع وتمكن من تشتيتها شذر مذر . ولما ترامى نبأ ذلك إلى مسامع (أقا محمد خان) أعلن الحرب وحشد قوة كبيرة أسند قيادتها إلى كل من (جان محمد خان) و (رضا قوليخان) ، وكانت هذه القوة الضخمة تبدو كافية لتقرير المصير بالقضاء على البقية الباقية من فلول الزنديين .

وبمجرد أن اتصلت هذه القوة الهائلة بالقوة التى كانت فى شيراز توجهت

نحو معسكر (لطف على خان) الذى كانت قواته لا تعدو عشر القوات المهاجمة له ، ومع ذلك رأى هذا الأمير الجسور والقائد الباسل أنه ليس من اللائق الفرار من الميدان خوفا من عدوه ، فقر قراره على مقاومة العدو مهما كانت النتيجة ، ثم سبق العدو وأسرع فى احتلال بعض الغابات والأحراش القريبة منه واعتصم بها بعد تحصينها .

ثم اشتبك الجمعان وحمى وطيس القتال وانتصر العدو فى بادىء الأمر بسبب تقهقر فريق من جنود (لطف على خان) وتركهم مراكزهم . ثم انصرف جيش العدو إلى النهب والسلب وانغمس فى جمع الغنائم . فانتهز (لطف على خان) الفرصة حين رأى معسكر العدو خالياً من الحراس وانقض بمن معه من الفرسان القلائل كالصاعقة على المعسكر ، وما أن رأى جنوده العصاة ذلك حتى ثابوا إلى رشدهم وتأثروا من شجاعة قائدهم الفائقة وجرأته النادرة ، فجمعوا أشتاتهم وطوقوا العدو من جميع الجهات وشنوها عليه حربا لا هوادة فيها حتى انقلبت هزيمتهم نصرا . وهكذا كسب (لطف على خان) الجولة الثانية وربح هذه المعركة أيضاً حيث أسر وقتل الكثيرين ، وكان من بين الأسرى (رضا قوليخان) أحد قائدى الجيش القجرى .

ولما كان (حاجى ابرهيم) يعلم علم اليقين أن هذا النصر المبين الذى أحرزه (لطف على خان) للمرة الثانية سيعلى شأنه ويدفع بالأهالى والعشائر إلى الالتفاف حوله، الأمر الذى سيكون وبالا عليه — بادر على الفور إلى إرسال الوفود إلى (أقا محمد خان) يدعوه للقدوم إلى (شيراز) كى يتولى الأمور بنفسه ، ولما علم هذا العاهل أن الموقف جد خطير زحف سريعا إلى (شيراز) بقوة تتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألفا من الجنود المدربين. وكانت نسبة هذه القوة الى قوة (لطف على خان) كنسبة المائة للواحد . وهذا دليل أيما دليل على أن (أقا محمد خان) كان قد اتخذ تدابير هائلة واضعا

نصب عينيه شجاعة خصمه وجرأته النادرة. وكان محقا فى ذلك ولاشك ... ولما وصل (أقا محمد خان) بطليعة جيشه الى قرية (ميان) على مقربة من اصطخر (برسبوليس) وأقام معسكره هنالك — باغته (لطف على خان) بهجوم رائع لا يقوى على القيام به إلا الأبطال الذين عركهم الدهر وأصبح ميدان الحرب والنزال أمامهم بمثابة مجلس الشرب واللهو ؛ هذا فضلا عن أن هذا النضال كان نضالا فى سبيل الاستيلاء على عرش إيران والانفراد بالحكم وأسفر هذا الهجوم عن خذلان مبين لطليعة جيش (أقامحمدخان) واندحار جنودها حيث ولوا الأدبار لا يلوون على شىء . وحمل (لطف على خان) ببضع مئات من الفرسان حملة شعواء دون خوف أو وجل على جيش يتراوح عدده بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألف مقاتل ، ولكن جدت بضعة عوامل أفضت إلى هزيمة هذا الجيش العرمرم شر هزيمة ، وهذه العوامل لم تكن سوى ظلام الليل الحالك ، وانتشار الذعر والخوف بين صفوف الجيش بسبب فرار وهزيمة الطليعة ، أضف إلى ذلك ما أحدثته جرأة لطف على خان الخارقة من الدهشة والذعر فى قلوب أعدائه .

كل هذه العوامل مجتمعة أفضت إلى تشتيت شمل جنود جيش القجر والفت فى عضدهم ، وكان هذا بشيراً بانتصار (لطف على خان) انتصاراً باهرا (١) . إذ كان جيش (أقا محمد خان) قد تفرق شمله ووصل سيل المهاجمين إلى معسكر (أقا محمد خان) وفى هذه اللحظة أشار أحد قواد (لطف على خان) عليه بأن يأمر بوقف القتال على اعتقاد بأن (أقا محمد خان) ترك معسكره ولاذ بالفرار مع فلوله المهزومة ، وأن من المصلحة الحيلولة دون نهب الجيش

---

(١) ولقد قتل (لطف عل خان) بيده ابرهيم خان رئيس القجر وأتباعه الذين كانوا متربصين للأمير الباسل فى مضيق جبلى بين (ميانه) و(ابرز) . المؤلف

للأموال الشاهانية وخزائن الدولة التى جمعت بكل مشقة من عرق جبين الأمة (١) .

ومما يؤسف له أن الأمير قد آمن بصدق هذه النصيحة ، فأمر على الفور بوقف القتال والامتناع عن دخول المعسكر ونهبه ، فصدع الجيش لأمره وكف عن المطاردة ، وانهمك فى جمع الغنائم والأسلاب التى خلفها المنهزمون .

وفى اليوم التالى وقبيل الفجر حدثت مفاجأة للأمير المنتصر إذ طرق أذنيه صوت المؤذن يجلجل فى معسكر العدو فعلم من ذلك هو والباقون فى معسكر العدو من الجنود أن أقا محمد خان لا يزال موجوداً فى المعسكر (٢) ولم يبرحه قط . ولقد دهش (لطف على خان) لذلك أشد الدهشة . والواقع أن (أقا محمد خان) حين رأى سوء حال جيشه واختلال نظامه واضطرابه وخذلانه ، وأنه يتعذر عليه معالجة هذه الحالة — فقد لبث فى معسكره محاطا بحرسه الخاص يشاهد عن كثب حركات خصومه وفائق شجاعتهم وبسالتهم النادرة ودقة نظامهم العسكرى .

هنا لك علم (لطف على خان) بأن الزمام قد أفلت من يديه ، وأيقن أن الظفر النهائى قد أصبح منه بعيدا ، وأنه لا محالة واقع فى الأسر إذا تريث طويلا ، ولهذا استقر رأيه على النجاة بنفسه والانسحاب من الميدان بأقصى سرعة .

وفى هذا الصدد نقول أنه لا يجوز اعتبار هذه المحاولة الجريئة لاسترداد الحكم

---

(١) هذا القائد الناصح هو (ميرزا فتح الله الأردلانى) ، ويقول بعض المؤرخين ان هذه النصيحة قد أبديت بحسن نية بينما يقول آخرون أن الرجل كان جاسوسا لأقا محمد خان وكانت نصيحته بسوء نية متعمدة . المؤلف

(٢) كانت العادة الاعلان عن وجود الشاه فى المعسكر بالأذان . المؤلف

والاستحواذ على النفوذ حركة يائسة لا طائل من ورائها . لأن (لطف على خان) كان قد ثبت له من تجاريبه الخاصة أن جيشا كالجيش الذى كان يناضله وقد دبت فيه روح التذمر والتخاذل ، وسرت فى شرايينه عوامل الاضطراب وسوء النظام — لا يمكنه أن يعود إلى تماسكه وانسجامه ، يضاف إلى ذلك أنه كان يعلم تمام العلم أن كثيرين من رؤساء العشائر والزعماء ما يزالون مترددين بينه وبين خصمه (أقا محمد خان) ، ولا يصدرون فى حركاتهم وفى أعمالهم إلا ما تمليه عليهم ظروفهم الخاصة حسب الزمان والمكان ، وما كان من شك فى أن أحدهم إذا اختار الانصياع لأحد الطرفين تبعه أنصاره وأتباعه كذلك . أضف إلى ذلك أن (لطف على خان) كان على حق فى أن يأمل الخير كل الخير من وراء هـذا الانتصار المنقطع النظير ، لأنه كان قد هيأ كافة الوسائل ، ومهد كل السبل لهزيمة العدو النهائية بوساطة وبمساعدة هؤلاء الرؤساء والزعماء .

يتضح من هذا الوصف أن خطة الأمير الباسل كانت خطة سليمة حيث أدت لأول وهلة إلى انتصاره انتصارا أوليا ، وإلى اندحار طليعة العـدو وتشتيت شملها . ولا شك أن هذا كان أوضح دليل على استعداد الأمير الخارق للعادة ، وعلى جرأته النادرة .

ولـكن الظفر النهائى الحاسم لم يحالفه بل أفلت من يده لسبب من تلك الأسباب التى تحدث غالبا فى أدق الظروف وأحرج الساعات فى الحروب التى من شأنها عادة إسقاط الدول وقيامها .

وكما أن (لطف على خان) كان جديراً بالانتصار والظفر النهائى ، كان (أقا محمد خان) هو الآخر حريا بأن يضع على رأسه التاج الشاهانى الذى صار خالصا له منذ ذلك اليوم . إذ لم تخن هذا العاهل رباطة جأشه قط حينما هزم جيشه وولى عنه واضطرب الأمر ، مما يدل على شجاعته النادرة ، وكان لا يفتأ يفكر فى هذا الحادث الفذ الذى كان دائما عالقا بذهنه .

والواقع أن تاريخ إيران الأخير يحتوى على ثلاثة أشياء جديرة بأن تلقش للأجيال التالية ألا وهى :

(١) قوة (حاجى ابراهيم) (١) ومقدرته الفائقة التى مكنته من المحافظة على (شيراز) بضعة أشهر بشرذمة من الأهالى المدنيين من بقالين إلى تجار إلى أصحاب المهن إلى غير ذلك ، ويدفع عنها إشر المعتدين من جنود العشائر المحاربين الذين طبعوا وجبلوا على حب القتال .

(٢) بسالة (لطف على خان) وبطولته الرائعة التى حدت به إلى أن يحمل ببضع مئات من جنوده على جيش قوامه ثلاثون ألفا أو يزيدون .

(٣) رباطة جأش (أقا محمد خان) حين أدلهم الخطب ، وعظم الأمر ، وهرب كل من معه ما عداه هو وأتباعه ، فلبث فى معسكره ، وما غادره قط ، محتفظا بوقاره وثبات جنانه . وأشعر أصدقاءه وأعداءه بوجوده فى مستقره ومقامه وأنه لم يفر كما زعموا - بأن طلب إلى المؤذن أن يؤذن فى المعسكر . وبهذا أثبت أن تلك الهزائم والاضطرابات لم تنل منه ولم يتأثر لها ولا بها .

* * *

سبق أن ذكرنا أن (لطف على خان) حين شعر بالخطر المحدق به غادر ساحة الوغى على عجل وسار لايلوى على شىء حتى وصل (كرمان) ، وهنالك شرع فى حشد القوى وتجيش الجيوش ... أما (أقا محمد خان) فقد توجه بجيشه نحو (شيراز) وجهز جيشا آخر (١) لمطاردة (لطف على خان) ، فلما ترامى نبأ ذلك إلى مسامع هؤلاء الجنود القلائل الذين كانوا قد انضموا للأمير الباسل ، تفرقوا أيدى سبا ، مما اضطر الأمير إلى التوجه نحو خراسان فى

---

(١) كان قائد الفرسان فى هذه القوة (ولى محمد خان) ، وقائد المشاه (عبد الرحيم خان) أخى حاجى ابراهيم . المؤلف

عام ١٢٠٧ للهجرة ، وكان يحكم هذه البلاد حكام محليون مستقلون منذ وفاة (نادرشاه) حتى ذلك الحين . وكان (ميرحسن) وهو أحد زعماء هذه المنطقة يحكم منطقة (توبوس) ومدينتها فعرض خدماته على الأمير وزوده بقوة عسكرية من مائة فارس توجه بها الأمير وبمن كان معه من رجاله المخلصين الذين لازموه ولم ينفضوا من حوله ، إلى ناحية (يزد) ، فأرسل حاكمها قوة لتقطع الطريق على الأمير ورجاله ، ولكن الأمير الباسل بادر بالهجوم على تلك القوة فكسر شوكتها وشتت شملها ، ثم واصل السير إلى بلدة (أبركوه) الواقعة عند الحدود الفارسية فخضعت له هذه المدينة وقدمت له فروض الطاعة فاتخذها قاعدة لأعماله ومستقرا له وأخذ يراسل منها أنصاره المنبثين فى الجهات بأن يستعدوا للنضال ، وكان له أنصار غير قليلين ولكنهم مختفون فى جهات عدة فلما سمعوا بانتصاره الأخير خرجوا على الفور من مكانهم وأظهروا تأييدهم له ، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى بلغ عدد الملتفين حوله من الجنود ألفا وخمسمائة كلهم من الفرسان .

وفى عام ١٢٠٨ للهجرة سار على رأس هذه القوة وحاصر مدينة (دارابجرد) التى كانت محتفظة بأهميتها وعامرة بسكانها البالغ عددهم خمسة عشر ألف نسمة أو يزيدون .

ولهذا كان من الضرورى، بل ومن الأهمية بمكان أن يستولى عليها (لطف على خان) ، فلا عجب إذن أن رأيناه سيبذل فى سبيل ذلك مجهودات جبارة.

ولما سرى نبأ تحرك (لطف على خان) من جديد فى أنحاء المملكة الايرانية أعد جيش عرمرم فى (طهران) ليزحف عليه ، كما بعث (حاجى ابراهيم خان) بقوة من المشاة بقيادة أخيه الصغير إلى (دارابجرد) لتعزيز حاميتهما ، فاضطر الأمير إلى رفع الحصار والابتعاد عن تلك المدينة ، ثم حاول الصمود فى قرية (رونيز) المحصنة ، وبعد قتال دام بضعة أيام اضطر للقيام بهجوم جرىء

لعل حسن الطالع يلازمه ويواتيه ، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة والجسارة وتمكن هو من النجاة والوصول إلى (توبوس) مرة أخرى فقابله حاكمها بالاجلال والاكبار وأكرم وفادته ولكنه اعتذر عن مساعدته فى هذه المرة خوفا على مركزه ، وأشار عليه بأن يلجأ إلى (تيمورشاه) حاكم الأفغان بقندهار ويطلب منه المساعدة حيث أنه هو الشخص الوحيد الذى يمكنه إرجاعه إلى عرش آبائه وأجداده ، فاقتنع (لطف على خان) بفكرة مضيفه وعمل بنصيحته وتوجه إلى البلاط الأفغانى ، ولكنه سمع وهو ما يزال فى طريقه اليه بنبأ وفاة (تيمورشاه) فاستقر رأيه على البقاء فى إيران ووقف عن السير إلى الأفغان، وفى الذى كان فيه مترددا بين الاحجام والاقدام وصله خطاب من زعيمين لمنطقة (نرمانشير = شرقى كرمان) وهما (محمود خان) و (جهانكير خان) يشيران عليه فيه بعدم مبارحة البلاد ويتعهدان له بتقديم كل مساعدة ممكنة له إذا ما أقلع عن التفكير فى مغادرة البلاد .

ويقول مؤلف إيرانى بحق (ان بريقا ولو ضئيلا من الأمل قد ينقلب فى قلب المحارب الصنديد إلى شعلة موقدة كبيرة) وهكذا كان حال الأمير الذى تجدد لديه الأمل وقويت روحه المعنوية فقام لفوره وتوجه فى الحال نحو (نرمانشير) وذلك لمجرد حصوله على هذه الوعود والتأكيدات .

ولما رأى أن بضعة مئات من الجنود يجتمعون تحت رايته قوى أمله واستقر رأيه على الاستيلاء على (كرمان) . فاقترب منها بحركة خاطفة كالبرق ، وشطر قواته شطرين أرسل بأحدهما إلى ضواحى المدينة تحت قيادة عمه الجسور (عبد الله خان) الذى حاز شهرة فى كافة المعارك التى خاض غمارها (لطف على خان) - وذلك لمناوشة العدو ومشاغلته : وأبقى الشطر الثانى تحت قيادته لمراقبة الحالة عن كثب . ولما رأى أن العدو قد حصر كل جهوده لصد قوة (عبد الله خان) وأنه منهمك معه بكل قواه فى حرب ضروس ، تقدم إلى

الامام وهاجم المدينة من إحدى جهاتها الأخرى . وهكذا وقع العدو بين نارين وأخذت الحيرة قائده ، وقبل أن تشعر حامية القلعة بالخطر المحدق بها تمكن الأمير بقوته المهاجمة من تسلق أسوار المدينة والاشتباك بحامية القلعة التى اضطربت لأنها أخذت على غرة ، ورغم ذلك فقد استماتت فى المقاومة واستبسلت فى القتال ولكن ذلك لم يجدها نفعا ، ففقدت كل أمل وتخلت عن جميع مراكزها للمهاجمين. ثم اضطر رجالها للاعتصام بحصون القلعة وأبراجها الداخلية ... وبعد فترة وجيزة تمكن قائدا قلعة (كرمان) من الفرار من القلعة إلا أن أكثر جنودها قد أبيدوا عن آخرهم ، ووقعت كل أثقالهم وذخائرهم وأموالهم غنيمة باردة فى قبضة قوات الأمير المنتصر .

وقد أصبح (للطف على خان) بعد هذا النصر المبين مركز الحكام وسلطان الملوك فسك العملة باسمه تخليدا لذكرى هذا الانتصار الحاسم .

ويقول مؤرخو هذا العهد ان طالع هذا الأمير كان يشبه البرق الساطع الذى يشتد نوره ويقوى لمعانه وقت انطفائه .

هذا ، ولما علم (أقا محمد خان) بسقوط (كرمان) فى يد خصمه وكان ذلك فى عام (١٢١٠ هـ) بادر إلى الزحف بجميع قواته لمنازلة خصمه فيها . وكان (لطف على خان) لا يكترث لكثرة جنود عدوه لسببين. أولهما أن جنوده قد مرنوا على أساليب القتال وبرعوا فيها لكثرة ماخاضوا من حروب طاحنة وثانيهما اعتماده على صدق عزيمته وشجاعته النادرة وبطولته الرائعة . ولهذا أمكنه مقاومة عدوه القوى العتيد طويلا ودام الحصار شهرا قاسى خلاله المحاصرون الكثير من الويلات وصنوف العذاب ، وأخيرا سادت الفوضى وسرت روح التذمر بين بعض الوحدات ، وزاد الطين بلة أن أقدم بعض المشاة الذين كانوا يقومون بالدفاع عن بعض حصون القلعة ـ إلى تسليمها للعدو سرا .

وقبل أن يتعرف (لطف على خان) جلية الأمر تمكن بضعة آلاف من جنود العدو من دخول هذه الحصون التى سلمت لهم . وما أن علم بهذا النبأ المفجع حتى بادر بالهجوم على تلك الحصون. وهنا دارت رحى معركة عنيفة بين الفريقين اضطر العدو فى نهايتها إلى الانسحاب من الحصون التى دخلها.

وكان هذا آخر نصر أحرزه هذا الأمير المنكود الحظ ، إذ حدث بعد ذلك أن أقدم قائد من قواده الذين كان يأتمنهم ويثق فيهم تمام الثقة ، على خيانة سيده ، فقد كان هذا الضابط قائدا عاما لحامية القلعة الداخلية ، هذا فضلا عن أنه كان مشتركا فى الدفاع عن بعض أبراج القلعة الخارجية ، فانتهز الفرصة ذات ليلة وفتح الباب المقابل للعدو ، فاقتحمه (أقا محمد خان) وتسرب منه إلى المدينة بسهولة ومعه إثنا عشر ألفا من الجنود. وأبقى ماتبقى من قواته لتقديم المساعدة فى الوقت المناسب .

ولما علم (لطف على خان) بهذه الخيانة الثانية القاصمة انقض كالصاعقة على العدو ولكن دون جدوى لأن الموقف كان حرجا وجد خطير ، إذ فضلا عن كثرة العدد فى داخل المدينة كان خصمه يحتفظ بقوات أخرى كبيرة فى خارجها تحميها من كافة نواحيها .

فلما تبين هذه الحقيقة المرة للطف على خان ورأى أن صفوة جنوده قد أبيدوا عن آخرهم رجع القهقرى .

وكان كل اهتمام (أقا محمد خان) منصبا على عدم تمكين الأمير من الخروج من القلعة فتكتب له النجاة مرة أخرى، ولهذا بادر إلى تشديد الحصار على مدينة (كرمان) والاحاطة بها من كافة الجهات بوضع قوات كبيرة حول كل باب من أبوابها . ورغم كل هذه الاحتياطات التى اتخذت ، دافع الأمير الباسل عن نفسه دفاع الأبطال زهاء ثلاث ساعات داخل المدينة ، ولما جن الليل خرج من مكمنه سرا وعمد إلى جمع أنقاض جسر خشبى من مخلفات العدو

واستخدمها فى الخروج من القلعة . ثم بقيت أمامه بعد ذلك عقبة كأداء ألا وهى اقتحام صفوف الأعداء المحيطين بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ، ولكنه استطاع بشجاعته الفائقة أن يتخطى هذه العقبة ويقتحم هذه الصفوف المتراصة كالبنيان واخترقها ومعه ثلاثة من رجاله كالبرق الخاطف ، ونجا من هذا المأزق الحرج ، واستطاع الوصول إلى منطقة (نرمانشير) بسلام .

أما (أقا محمد خان) فقد أباح فى المدنية بعد أن تسلمها القتل ثلاثة أيام كاملة ، فحصد الأهالى حصدا ولم ينج من مقصلاته سوى النساء والأطفال الذين سلمهم هم الآخرين لعساكره القساة القلوب والغلاظ الأكباد . وكان يهدف من وراء هذه الأعمال الوحشية إلى إرهاب المدن الايرانية الأخرى حتى لاتقدم على مساعدة الأمير الباسل مرة أخرى .

وقد قوبل (لطف على خان) بكل حفاوة وإجلال من حاكم (نرمانشير) فى بادىء الأمر ، ولكن الحال ما لبث أن تغير ، إذ حدث ذات يوم أن أسر أخو الحاكم — الذى كان قد اصطحب فى وقت ما (لطف على خان) إلى كرمان — إلى أخيه بأن هذه الحماية التى يتمتع بها هذا الأمير اللاجىء ستجر عليه أضراراً بليغة فى المستقبل القريب ، إذ أنها ستعرضه لغضب (أقا محمد خان) . وما أن فكر الحاكم فى العواقب ورأى أنها ستكون وخيمة، حتى نسى أو تناسى العهد الذى قطعه على نفسه بحماية الأمير بل سولت له نفسه أمرا أنكى وأشد. ألا وهو إلقاء القبض عليه وتسليمه لخصمه (أقا محمد خان) اكتسابا لعطفه عليه وتأمينا لمستقبله لديه .

وعلى الرغم من أن أصدقاء (لطف على خان) ورفاقه قد شعروا بهذا الغدر قبل أن يصير حقيقة واقعة ، ونبهوا الأمير إلى الخطر المحدق به ، فقد أصم أذنيه ولم يستمع لقولهم ، بل تمادى فى الغفلة حتى أنه لم يعد يعبأ بانفضاض رجاله الذين لازموه فى جميع حركاته ، من حوله الواحد تلو الآخر .

ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى فوجىء بجمع غفير من الجنود المدججين بالسلاح يحيطون به. عندئذ وعندئذ فقط أدركته اليقظة ورجع إلى نفسه وأيقن أن ما تنبأ به صحابته كان عين الحقيقة والصواب ، ولكنه لم يقف مكتوف اليدين بل سارع إلى سيفه البتار وهاجم بلا هوادة أولئك الذين كانوا يرومون القبض عليه ، وبعد قتال عنيف تمكن الأمير من الوصول إلى فرسه (١) فامتطى صهوتها ؛ وفى تلك اللحظة أدركه أحد المهاجمين فضرب ذيل فرسه فبتره ، وسقط الأمير هو وفرسه أرضا ، فتألب عليه المهاجمون ولكنه تمكن من النهوض ، ونشب القتال من جديد بينه وبينهم وكان أعنف من ذى قبل ؛ وقد أسفر هذا القتال عن إصابة الأمير بجرحين بالغين فى رأسه وذراعه ، فخارت قواه وسقط على الأرض مغشيا عليه ؛ فحملوه بحالته تلك ، وذهبوا به إلى (أقا محمد خان) الذى نهض على الفور — حين رآه — وفقأ عينيه بيديه ، ثم أرسله إلى طهران ، حيث ألحقوا به هنا لك من ضروب الاهانة ألوانا ، وعمدوا إلى التشهير به فى شوارعها .

ولم يكتف (أقا محمد خان) بذلك بل أمر بالقضاء على الأمير الشاب (٢) الذى كان يقض مضاجع عدوه القوى البأس البصير بالعواقب وهو منكوب

---

(١) كان هذا الفرس واسمه (كوررند) من الخيول العربية الأصيلة ومولود بايران ، ولهذا كان يضرب به المثل فى أنحاء إيران بسرعة الركض والجرى ، وكم أنقذ الأمير من ورطات، بسرعته الخارقة للعادة ولهذا كان الأمير يحبه حبا جما. المؤلف

(٢) يقول السرجون مالكولم، ان لطف على خان حينما أحضر بين يدى أقا محمد خان، عومل من الأخير معاملة وحشية لا يتصورها عقل بشر . وكل من يقرأ هذه الصفحات من الكتاب المذكور يشتد امتعاضه من هذه الأعمال الوحشية . المؤلف

وفى حالة يرثى لها ، وكان ذلك فى عام ١٧٩٤ م (١) . اختفى إذن (لطف على خان) من مسرح الحياة وأسدل عليه الستار قبل أن يكتمل الخامسة بعد العشرين من عمره ، بعد حياة حافلة بأمور جسيمة وحوادث خارقة للعادة . ويقول السر مالكولم : « ان جانباً من سجل حياة هذا الأمير وسيرته يستحق الرثاء بل والاشفاق، فى حين أن الجانب الآخر منها جدير بكل ثناء وإعجاب، فاذا نظرت إلى أعماله وحركاته الحربية فلن تجد سوى المهارة العسكرية والشجاعة الشخصية النادرة أما إذا نظرت إلى الظروف والأحوال التى كانت سائدة فى عهده فستجد أن جميع صفاته ومميزاته — إذا استثنينا منها الشجاعة الشخصية — كانت كلها عليه لا له على خط مستقيم . وكان الأمير قد ولد وشب وترعرع فى عهد كانت فيه إطاعة الحاكم إطاعة عمياء فضيلة من الفضائل يقدسها الجميع ، وربما كانت مزايا هذا الأمير لا تقل عن مزايا وسجايا (جنكيز) و (تيمورلنك) ، غير أن ظروفه والحالة الاجتماعية التى كانت سائدة حينذاك ولا سيما حين اعتلى أريكة الحكم كانت لا تتفق ولا تواءم صفاته وآرائه كحاكم يعتمد على شعبه بغض النظر عن صفاته الشخصية ومزاياه الخاصة ، إذ لم يكن على شىء من حسن التبصر فى العواقب والتروى فى الأمور ، ولم يكن لذكائه الخارق أثر فعال فى فعاله وحركاته وذلك لطموحه الشديد وأمانيه السياسية الواسعة . وكان يتملكه الغرور وشدة الاعتزاز بنفسه

---

(١) كان (أقا محمد خان) يكن لجميع أفراد الأسرة الزندية الحقد والبغضاء ولا سيما لهذا الأمير المنكود الحظ الذى كان ينفر منه أشد النفور ، ولكنه كان رغم ذلك يقدر صفاته الشخصية حق قدرها . ويحكى أنه حين بلغه أن ابن أخته وولى عهده (فتح على خان) قد ولد له عدة أولاد فى ليلة واحدة — وكان ذلك قبل استيلائه على (كرمان) قال ليت أحد هؤلاء المواليد يكون مثل (لطف على خان) فى البسالة والبطولة . المؤلف

حتى انه أثناء توليه الحكم لم يكن يتنزل ويتفاهم مع ذوى القوة والنفوذ فى البلد ، وكاد حان المزاج ، صلب الرأى ، وما توجه لغزو أو لفتح إلا وقد استعمل أقسى ضروب الشدة والغلظة . وكان الظفر يمشى فى ركابه أينما توجه ، ولهذا كان يستعمل الشدة بشكل لا يصح أن يقدم عليه إلا حاكم استقرت أموره لا من كان مثله فى حاجة إلى اصطناع المعروف لكسب رجال وأنصار بالتغاضى عن الهفوات والتجمل بالأناة والصبر والتسامح فى أعماله وأقواله . ولكنه على العكس من ذلك كان بعمله هذا يكثر من أعدائه من بين رجال أقوياء يصارعون مثله الحوادث الجسام وتصارعهم حوادث الدهر وتقلباته الصارمة .

ومع ذلك فانه لمن الخطأ البين والنقص المعيب أن يهمل مؤرخو العصر الصفات العالية والمزايا الفذة والفريدة التي كان يتمتع بها آخر أمراء الأسرة الزندية .

ولقد حكم ملوك الأسرة الزندية فى قسم كبير من إيران قرابة نصف قرن ، ولكن حكم هؤلاء الملوك لم يتوطد تماما فى البلاد بعد وفاة مؤسس الأسرة وذلك لسببين : أولهما الخلافات الداخلية بين أعضاء الأسرة ، وثانيهما ذكاء خصمه (أقا محمد خان) ودهائه ، فقد كان هذا العاهل منذ اليوم الذى تمكن فيه من إخراج الأمير من (شيراز) ، يسعى سعيا حثيثا آناء الليل وأطراف النهار للقضاء عليه أينما كان ، فما نامت عيناه عنه قط وما استخف مطلقا به . وهكذا حقق أغراضه لا بقواته العسكرية ومعاركة الحربية ولكن بثباته ورباطة جأشه وإصراره على التخلص منه .

ولقد قام (أقا محمد خان) بواجبه كما ينبغى بقضائه على جميع(١) الذين

---

(١) يقول السر مالكولم: إنه لم ينج وقتذاك من التنكيل ـ على ما أعرف ـ إلا عبد الله خان عم لطف على خان ذ إ كان صهر الحاجى على خان الكازرونى ، فتوسط له لدى « أقا محمد خان » الذى كان يجله كل الاجلال . المؤلف

يظن مقاومتهم لسلطان الحكومة إما بالقتل أو بسمل عيونهم ، ولم يكن الأمر قاصرا على رؤساء العشيرة الزندية بل تعدى ذلك إلى كل عشيرة ساعدت أو آزرت الأسرة الزندية ، إذ أجلاهم عن فارس إلى الأقاليم النائية ، وأسكن مكانهم القبائل الفارسية الأصل(١) .

وقد تمت معظم هذه الاضطهادات والمظالم على يدى (حاجى ابراهيم خان) الخائن. وفى هذا يقول صاحب كتاب (المآثر السلطانية) أعنى تاريخ القجاريين ان (حاجى ابراهيم خان) قد ارتكب هذه الأعمال الشنيعة وأقدم على هذه الخيانة أملا فى الاستقلال بشيراز ، ولكنه لم يكن ليبوح بذلك أو يظهره خوفا من (أقا محمد خان) ، بدليل أنه سلم إليه قلعة (شيراز) متظاهرا بالاخلاص ، فنصبه (أقا محمد خان) واليا على فارس ، غير أن أحدا لم يكن ليشك فى خيانة (حاجى ابراهيم) فى الوقت الذى كان يتفنن فيه هذا الخائن الدنىء وذوو قرباه فى إنزال أنواع المظالم وصنوف العذاب بالزنديين ، فكانوا يجمعون شباب الزنديين ويذيقونهم العذاب ألوانا بوخزهم بالأبر والمسلات فى أكبادهم ، وظلت هذه المأساة تتكرر فصولها إلى أن انتقم الله بعدله المطلق من هؤلاء الشياطين، حيث سلط عليهم بعد وفاة (أقا محمد خان) بقليل ، الشاه (فتح على خان) الذى أمر بسمل عينى (حاجى ابراهيم خان) وعيون أبنائه ونسائه ، وأصدر أمرا آخر بالقضاء نهائيا على إخوته وسائر

---

(١) بحث (الحكومة الزندية) هذا مأخوذ معظمه من تاريخ الميجور جنرال (سرجون مالكولم) الذى جاء إلى فارس بنفسه واجتمع فى (شيراز) بحاجى ابراهيم وبأشخاص آخرين اشتركوا فى وقائع الزنديين وذلك بعد انقراض الدولة المذكورة . المؤلف

أقاربه ، ثم نفاه وأسرته إلى (قزوين) حيث قضى هنالك أخريات أيامه مع أفراد أسرته المحرومين جميعا من نعمة الابصار .

وفى عهد (فتح على خان) هذا ، انتقض عليه (محمد خان) نجل (زكى خان) مطالبا بالاستقلال بالحكم والسلطة ، واستولى على بعض البلاد الايرانية حتى (أصفهان) ، غير أنه لم يتمكن من المحافظة عليها ففر هاربا ولجأ إلى الحكومة العثمانية .

ولم تحدث - بعد هذا الحادث - أية محاولة أخرى لاسترداد الحكم ، وهكذا تم الأمر للقجاريين ودالت دولة الزنديين نهائيا .

نظرة عامة في أحوال هذه الحكومة

يقولون إن التاريخ يعيد نفسه ، فما أصدق هذا القول ، إذ كثيراً ما رأينا حكومات تأسست وقامت فى البداية فى ظل ظروف ملائمة ومشابهة، ثم ذهبت وتلاشت فى ظروف سيئة... ولنلق هنا نظرة عابرة على الحكومات التيمورية والجلايرية والقرهقوينلية ، والآق قوينلية ، والصفوية ، والأفغانية ، والنادرية، لنرى كيف أنها قامت فى ظروف مشابهة وحسنة فى بادىء الأمر ، وكيف أنها انتهت فى ظروف سيئة إلى خاتمة أليمة .

ولاريب فى أن مؤسسى هذه الحكومات ، علاوة على مزاياهم الشخصية كان الحظ السعيد يلازمهم وحسن الطالع يسير فى ركابهم ، فى حين أن أحفادهم كانوا إما يفتقرون إلى تلك المزايا الشخصية العالية ، وإما أن الحظ كان يتنكر لهم والظروف تتجهم لهم .

وهكذا خضعت الحكومة الزندية لهذه القاعدة الأزلية ولم تشذ عنها ، فمثلا نرى أن (كريمخان) قد تمكن بفضل مزاياه الشخصية العالية من حزم وبسالة فائقة وظروف مواتية، من إنشاء دولة من العدم، ولكن خلفاءه لم يبرز

من بينهم من يصلح للحكم والادارة ، اللهم إلا (على مراد خان) و (لطف على خان) ، غير أن الأجل المحتوم لم يمهل أولهما كى يقوم بعمل حاسم ينقذ به إيران كلها من الوهدة التى تردت فيها نتيجة لفوضى المنافسين ويضمن لأسرته البقاء طويلا ، إذ أصيب بداء الاستسقاء وسرعان ما برحت به العلة فقضى نحبه وهو ما يزال فى ربيع حياته.

أما (لطف على خان) فهو كما يقول سرمالكولم كان حائزا لجميع الصفات التى كان يتحلى بها كل من (جنكيز خان) و (تيمور لنك) وكانت مبعث شهرتهما . وليس أدل على ذلك من أن ألد أعدائه وهو (أقا محمد خان) كان يعترف له بالبطولة والبسالة . ولكنه وياللاسف كان مبتلى بوزير خائن دنىء الطبع مثل (حاجى ابراهيم خان) الذى حاول كثيراً أمام(سرمالكولم)تبرئة نفسه من الفعال الشنيعة والتصرفات الظالمة التى بدرت منه نحو ولى نعمته وأحفاده ، لأن كريمخان كان قد قرب والده منه وأغدق عليه من سابغ نعمه كما أن (جعفر خان) كان قد أسند اليه منصبا ساميا وهو حكومة فارس . وهكذا أصبح فى مصاف رجالات الدولة الزندية . ولكن ولد هذا الذئب قد غلبت عليه خسة طبعه ودناءة أصله ، فاقترف ما اقترف دون تحرج ضد أولياء نعمته ، وصدق عليه قول الحكيم والشاعر الفارسى المرحوم سعدى (عاقبت كرك زاده كرك شود) أعنى أن الولد سر أبيه ، فابن الذئب يكون ذئبا لا محالة .

ويقول مؤلف تاريخ القجار وهو (عبد الرزاق بن نجف قلى) - بكل نزاهة وصراحة - ان (حاجى ابراهيم خان) كان يدبر المكائد ويحيك الدسائس منذ سنوات عدة وانه ولا شك فى أن الذئب الصغير إذا كبر أول ما يبطش يبطش بمربيه ، ولو كان لدى (لطف على خان) بعد نظر جده (كريمخان) وأناته لأمكنه استمالة قلوب أهل شيراز اليه ولسهل عليه حينذاك البطش

بحاجى ابراهيم والقضاء عليه قبل أن يتمكن من تدبير مكائده ، ولـكن هكذا شاء القدر فكان ما كان ·

نعم ! إن أعمال (أقا محمدخان) الوحشية مع (لطف على خان) لتستحق لعنة التـاريخ إلى الأبد ، وتنفر النفوس الحية منها أشد النفور ، لان هذا الزعيم الجبار فى الوقت الذى كان يظهر فيه إعجابه بجرأة خصمه وشهامته فى الحروب والمعارك ـ تقدم منهبنفسه، حين أحضر بين يديه مجروحا ومقيدا . ومد أظافره القذرة إلى هاتين العينين الشهلاوين فسملهما ، ثم عامله معاملة يندى لها جبين الانسان على مدى الدهر ويخجل التاريخ من تسجيلها وترديد أسطورتها على صفحاته الخالدة ، كما يقول سرجون مالـكولم ·

الفصل الرابع عشر

١٤ ـ حكومة الامارة البراخوئية (١١٧٢ هـ — ١٣٠٠ هـ)

ذكرنا فى المجلد الأول من هذا الكتاب نبذة عن هذه العشيرة البراخوئيه ولكننا لم نعط تفصيلات وافية عن أصل هذه العشيرة ونسبها وعن إدارتها قديما . فيؤخذ من بحوث (دائرة المعارف الاسلامية) عن البراخوئية ، أن هنالك بعض عشائر كردية اتجهت من الغرب إلى شرقى إيران وإلى كرمان عقب زوال سلطان المغول عن البلاد ، والظاهر أن عشائر الكوج(١) أى الكرد كانت من بين هذه العشائر حيث استقر بها المقام مع العشائر البلوجية فى جبال كرمان .

يتضح من هذا أن (دائرة المعارف الاسلامية) لا تعرف متى وكيف جاءت هذه العشائر الكردية الى بلاد كرمان ... ولعل بحوث المؤرخين التى ستظهر فيما بعد تلقى قبسا من النور على هذا الموضوع الغامض. ويقول المستر كورزن فى كتابه(٢) انه كان يقيم بأقليم (سيستان=سجستان) عشيرة كردية من العشائر النازحة من كردستان ، فى وقت نجهله لأسباب غير معروفة وتدعى الآن هذه العشيرة باسم (كردكلى) ، وقد وفقت فى تأسيس حكومة مستقلة فى بلاد

---

(١) فى كتب الجغرافيا العربية والتاريخ الاسلامى هم القفص والبلوج...

(٢) أنظر حاشية المترجم فى آخر الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب .

المترجم

الغور باسم (ملك كرد (١) = مملكة الكرد) . وقد عمرت هذه الحكومة من ١٢٤٥ حتى سنة ١٣٨٠ للميلاد أي ثمانية وثلاثين عاما بعد المائة

ولما كانت لغة عشيرة البراخوى مشهورة باسم (كردكه ل = كردكلى) فليس ببعيد أن تكون عشيرة (سجستان) هي الأخرى فرعا من تلك العشيرة البراخوئية لاسيما وأن أقليمى سجستان وبلوجستان متجاوران ومتداخلان.

ثم تسهب (دائرة المعارف الاسلامية) في سرد التفاصيل فتقول إنه مادامت عشائر البراخوى ليست من قبيلة الدراويدا الهندية فهي على مايظهر من تلك العشائر الكوجية = القفصية أي الكردية التي نزحت إلى كرمان ثم الى مكران بعد إغارة المغول ، ثم اختلطت بها بعض العشائر البلوجية والأفغانية ، ونشأت منها (عشائر براخوى) ببلوخستان الحالية . وقد تم هذا الاختلاط وذلك الاندماج - على مايظهر - رويدا رويدا ، بدليل أنهم أدخلوا فى لهجاتهم بعض الألفاظ الدراويدية ، مما يدل على أن هؤلاء البراخوئيين عاشوا فترة من الزمن مع الدراويديين حتى أخرجوهم من بلادهم إلى الشرق مثلما دفعوا بأكثر العشائر البلوجية إلى النزوح إلى الهند فرارا من وجه (البراخوئيين) . ويظهر أن البراخوئيين قد ساعدوا (نادرشاه) حين دخل الهند مجتاحا ، وقدموا له جليل الخدمات ، فكافأهم على ذلك باقطاعهم أرض (كاهورا) الهندية . وقد حارب (عبد الله خان(٢)) زعيم العشـــيرة البراخوئية ومعه نجله (محبت خان)

(١) هم ملوك كرت المشهورون فى التاريخ .التبست عليهم الكلمة. المترجم

(٢) الظاهر أنه حفيد قنبرخان وكان رئيس عشيرة البراخوئية أثناء انقراض الدولة الصفوية الايرانية فى أواسط القرن السابع عشر الميلادى وقد بسط حمايته على راجا من راجوات الهند ضد الجيش الأفغانى ويظهر أنه أخذ زمام الأمور بيده في مقاطعة ذلك الأمير الهندى ، ولا نعلم شيئا آخر عن مصير هذا الأمير البراخوئى. اهمن (كتاب عشرة آلاف ميل أو ثمان سنوات فى ايران) لمؤلفه الميجر برسى مولسورث Sykes لندن ١٩٠٢ م   المؤلف

بلوج(داراجات) واستوليا على اراضيهم . وبعد قليل حارب (عبد الله خان) عشائر الكلهورا ولـكنه قتل فى إحدى المعارك ، وكان (محبت خان) ونجله (ناصر خان) رهينين لدى (نادرشـاه) . ولقد وقـع (محبت خان) فى النهاية أسـيرا فى قبضة(أحمد شاه الدورانى) حاكم الأفغان ومات فى سجنه ؛ فأخذ (ناصر خان) فى تصريف شئون البراخوى فى شـكل حكومة تابعة للأفغان ، فأنشأ إدارة منظمة للبراخوى فى (مـكران) و (كهِج) ؛ وكان (أحمـد شاه) قد أضاف منطقة (شال) و (موستانك) إلى (لاس بيللا) وامتد نفوذه إلى (كراجى) حيث انتزع بضعة بلدان هندية أخرى حتى شمل نفوذه من الغرب. مدينة (بامبور) الواقعة على مسافة ماية وعشرين ميلا من جنوب شرقى كرمان ، كما فى كتاب (عشرة آلاف ميل من السياحة فى إيران)

يتضح من كل ذلك أن أعظم عمل قام به (ناصر خان) هو تنظيم أمور البراخوى وإدارة دفة شئونهم بحكمة وحزم . وكانت هذه العشيرة تنقسم إلى قسمين : سراوان وجاهلاوان ، فعين رئيس عشيرة (رايزانى) زعيما للقسم الأول، وعين رئيس عشيرة (زهرى) زعيما للقسم الثانى . وكانت الاعتبارات العسكرية وحدها هى التى أملت هذا التقسيم ، لأنه كان يهدف من ورائه إلى الحصول على جيش مجهز من طرف كل من الزعيمين . إذا جد الجد ودق ناقوس الخطر . ولما توافرت القوة لناصر خان وتحقق له السلطان والنفوذ على هذا الوجه ، لم يعد يعترف لأحمدشاه بالتبعية؟ مما أدى إلى غضب أحمدشاه وتجريده حملة عنيفة عليه فى سنة (١١٧٢هـ) وألحق به هزيمة منكرة فى بلدة (موستانك) وظل يطارده حتى قلعة (كلات) وحاصره فيها أربعين يوما ولـكنه لم يتمكن منه فاضطر إلى الصلح على شريطـة أن يعترف له (ناصر خان) بالسيادة . وقد استمر (ناصر خان) مستقلا بشئون إمارته يديرها حسبما تشاء وكيفما يريد ، ولـكنه كان يلبى النداء ويسـارع إلى النجدة متى طلب إليه أحمد شاه

وذلك إذا اشتبك مع غيره فى حروب . وهكذا أصبح (ناصر خان) له اليد الطولى فى انتصارات أحمد شاه الكثيرة . ولاشك فى أن(ناصر خان) أعظم الأمراء البراخوئيين حزما وعزما وشجاعة وحسن تدبير وتدبر فى ميادين الحرب والسياسة .

وقد توفى ناصر خان فى عام ١٢١٠هـ (١٧٩٥م) ، وكان ابنه (محمود خان) ما يزال طفلا ولكنه خلف والده ، فركب (بهرام خان بن محبت خان) متن الشطط وأخذ يثير الفتن ويشن الثورات ضد هذا الأمير الطفل ولكن عبثا حاول ومن غير طائل ، ورغم ذلك لم يستطع الأمـــير (محمود خان) المحافظة على كل البلاد . إذ خرج من يده قسم منها مثل (كراجى) وغيرها . ثم انقضت أيامه ودالت دولته فى سنة ١٨٢١ م ، فخلفه ابنه (مهربان خان) الذى أظهر استعدادا فى إدارة دفة شئون الحكم أكثر من والده . وذات يوم التقى به خصمه (أحمد يارخان بن بهرام خان) واشتبك فى قتال أسفر عن القبض عليه وإعدامه فى قلعة (كلات) . وهكذا ولت أيام هذا الأمير نتيجة للثورات والقلاقل . ولقد فقدت الدولة منطقة (هارانه) و (داحيلى) بسبب انفصال بعض عشائر (جاهلاوان) البراخوئية عن بعضها من جراء (داود محمد الكلزائى) . كما أن حماية (الشاه شجاع الملك) أدت إلى تعكير صفو العلاقات مع الحكومة الدورانية الأفغانية فى عام ١٢٥٠ للهجرة ، كما أفضى سوء أدارة (داود محمد السردار) ومن بعده خلفه (محمد حسين) وقلة تبصرهما بعواقب الأمور إلى توتر العلاقات أيضا مع الانجليز الذين جردوا قوة عسكرية على (محراب خان) فحاصرت قلعة (كلات) واستولت عليها . وبعد أن قتل (محراب خان) فى هذه المعارك ضمت بعض أملاك البراخوى إلى الحكام الدورانيين ، وعين (شاهنواز خان) حفيد (محبت خان) أميرا للبراخوئيين ، وعلى أثر ذلك استنجد ابن محراب خان بعشائر (نوشيروانى)

ضد أعدائه ، فأقبلت تلك العشائر وبصحبتها بضع من السروانية وهاجموا جميعا قلعة (كلات) واستردوها ، وظلت الأمور تتطورر حتى أدت إلى عزل (شاهنواز خان) وتنصيب ابن محراب خان أميرا على البلاد باسم (ناصر خان الثانى) ،وكان قائد الحملة الانجليزية قدوقع أسيرا ، فأحسنوا معاملته ثم أعادوه إلى بلاده عام ١٨٤٠ للميلاد وبعد عام من هذا التاريخ اعترفت الحكومة الانجليزية رسميا بامارة (ناصر خان الثاني). وفى سنة ١٨٤٣ قطع الأمير علاقاته بحكومة الأفغان وأعلن تبعيته للحكومة الهندية ولاتزال هذه التبعية مستمرة إلى يومنا هذا .

وقد توفى ناصر خان الثانى عام ١٢٧٤ ﻫ (١٨٥٧م) ، وخلفه فى منصبه أخوه (خدادادخان) الذى اعتزل الحكم فى سنة ١٨٩٣ وخلفه (مير محمد خان) فى الامارة وهو الآن قائم بإدارة دفة شئون البلاد . (دائرة المعارف الاسلامية جزء أول) .

الباب الثانى

فى «الامارات الكردية فى العهد الاسلامى» (1)

كل من أمعن النظر فى أحوال الشعب الكردى وظروفه الغابرة ، يعرف على وجه التحقيق أن هذا الشعب قديما وحديثا ، أولا وآخراً ، كان متمتعا بحريته الداخلية ، وحريصا على التشبث باستقلاله فى كافة شئونه . فحافظ على هذا الحق الطبعى حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى بفوارق بسيطة فى مدى هذا الاستقلال . وقد حالفه الحظ أحيانا فى القرون الوسطى فتيسر له الحصول على قسط وافر من استقلاله الخارجى ولو فى بضع أنحاء من وطنه الخالد . ولكن هذه الحالة لم تدم طويلا نتيجة لعوامل داخلية وخارجية ، وأسباب اجتماعية وسياسية ، إلى غير ذلك من الأحوال العامة التى سلبته الاستقلال الخارجى فى كثير من الأوقات ، وأرغمته على الاكتفاء بحريته الداخلية والتفرغ لشئون الدفاع عن هذا الحق الطبعى طيلة العصور الغابرة ضد القوات المحتلة لبلاده العزيزة . ومن دواعى الأسف أننا نفتقر إلى معلومات عن مدى استقلاله فى شئونه الداخلية فى العصور العريقة فى القدم اللهم إلا بعض وقائع تاريخيه قديمة قد تلقى قبسا من الضوء على هذا الموضوع وتعطينا فكرة ما عن مدى ذلك . مثال ذلك أن النضال الذى نراه بين ملوك آشور مع الشعب اللوللوى والجوتى والنايرى ، وحروب (فرهاد الرابع) ملك البارث مع ميدية الصغرى ، وكذا الثورات والحروب التى خاض غمارها الوطن الكردى فى مختلف عصور التاريخ الإسلامى ضد المغيرين والحكام الأجانب، لأسطع برهان على تفانى الأمة الكردية فى الدفاع عن حريتها والتمسك

---

(1) وهى خمس وثلاثون إمارة أوشبهها فى سبع مجموعات . المترجم

بكيانها واستقلالها الداخلي منتهزة كل فرصة تواتيها وكل انقلاب ينتاب البلاد فتدلى فيه بدلوها فتنال من الغاصبين وهم ينالون منها ... ولما كانت هذه الحوادث التاريخية التفصيلية ليس لها تاريخ مستقل أفرده لها المؤلفون . فليس إذن فى متناول أيدينا معلومات مسهبة عن مجريات الحوادث فى تلك الامارات الوطنية المجاهدة فى سبيل الوطن الأكبر ، اللهم إلا نتف من الأخبار والمعلومات الأستطرادية المبعثرة هنا وهناك .. نعم إن الأمير شرف الدين البدليسى صاحب تاريخ (شرفنامه) قد كتب الكثير عن تلك الامارات الوطنية ولكن كتابته قد وقفت عند القرن السابع (١) الهجرى وبعضها مقتبس من روايات وأقوال أخذت من أفواه البعيدين عن مواطن الحوادث ولذلك لا يعول عليها كثيراً ، وفى الوقت نفسه ليس فى مكنتنا أن نستغنى عنها وعن آراء بعض مؤرخين آخرين مادام الحصول على معلومات أدق وأصدق من أية جهة أخرى متعذرا .

وقد قسم المستشرق الكبير والمؤرخ الجليل المسيو (مينورسكى) هذه الإمارات الى مجموعات عدة وأفرد لكل منها خلاصة موجزة شافية وسنحذو هنا حذوه وننهج نهجه . إلا أننا سنعنى باعطاء معلومات أكثر تفصيلا عن إمارات البهادينان والسهران والبابان .

(ا) — « إمارات ما بين الجزيرة ودرسم » (١ — ٩)

١ — امارة الجزيرة :

جاء فى تاريخ (شرفنامه) أن نسب أمراء هذه الامارة يرجع إلى الاسرة الاموية (٢) ، إذ أن هؤلاء الامراء من ذرية سيدنا (خالد بن الوليد) . ولكن التاريخ الإسلامى العام لم يذكر شيئا عن وجود (خالد) أو عن وجود ابن

---

(١) كذا فى الأصل والصحيح القرن السابع العشر الميلادى أو القرن الحادى عشر الهجرى .

(٢) ليس فى شرفنامه نص على ذلك المترجم

له يدعى (سليمان) فى كردستان ، كما أنه من المعروف على وجه التحقيق أن ذرية هذا البطل العربى والقائد الاسلامى قد انقرضت فى صدر الإسلام ، ولهذا كان من العسير الاخذ بمثل هذه الرواية (١) .

وقصارى القول ان (شرفنامه) يجعل من (سليمان بن خالد) جدا لامراء الجزيرة ، ويقول ان هذه الامارة قامت وأسست فى عهد الامويين . والظاهر أن الدكتور (فريج) قد اتخذ من هذه الرواية أساسا لتقولاته دون أن يفطن

---

(١) وعلى حسب الروايات الشائعة فى جهات (سعرد) و (جزره) أن خالد ابن الوليد مدفون فى (سعرد) . فى حين أن أخبار التاريخ الصحيح تقول : إنه توفى فى (حمص) ودفن فيها . وأعتقد أن انتشار هذه الرواية فى كردستان يرجع إلى محبة الشعب الكردى لخالد بن الوليد وإعجابه ببسالة الأبطال وشجاعة الشجعان، لأن التاريخ ينص على انقطاع ذرية (خالد) فى صدر الاسلام. والمتواتر أن له أنجالا ثلاثة سليمان وعبد الرحمن ومهاجر وكان أولهم مع على رضى الله عنه وقتل فى حرب صفين ، وكان الثانى واليا على حمص فدس له السم فى دواء بأمر من معاوية (تاريخ خالد بن الوليد لأبى يزيد شبلى ص ٢٠٨)
ويقول مؤلف (أسد الغابة ج ـ ٢ ص ١٠٤) انه لم يبق أحد من ذرية خالد إذ قضى الطاعون فى الشام على أكثر من أربعين من ذريته فورث (أيوب بن سلمة بن عبدالله) أملاكه فى المدينة . ويؤيد صاحب (نهاية الأرب) هذه الرواية حيث يقول (فلم يبق منهم أحد شرقا ولا غربا وأن من انتمى إليهم فهو مبطل فى انتمائه ، وكل من ادعى ذلك فقد كذب) ج ـ ٢ ص ٣٥٦ .
هذا ومن المحتمل جداً أن تكون عشائر الجزيرة وحواليها منحدرة من الشعب (الخلدى = الكلدى) التاريخى القديم الذى سيطر على (أوارتو) مدة طويلة ثم تشتت نتيجة لاستيلاء الكمريين على البلاد ولاسيما أن بعض المستشرقين يعتبر اسم الخلدى أو الكلدى من بين الأسماء المشتركة التى تطلق على الشعب الكلدى تبعا للظروف والأحوال ، فكانت هذه الحالة الاجتماعية والتاريخية سببا فى ادعاء الخالدية فى تلك الجهات . المؤلف

إلى أنها فى حاجة ماسة إلى التمحيص والتحقيق والرجوع إلى مصادر ومراجع أخرى فى هذا الصدد، ولهذا أورد أحكاما خاطئة وبعيدة عن الصواب، لأن رواية (شرفنامه) وحكم الدكتور (فريج) الشاذ الذى بناه عليها لا يتفق كلاهما قطعا وما أجمع عليه علماء التاريخ والباحثون من عدم صحة الرواية من أساسها.

ثم يوغل (شرفنامة) فى سرد روايته تلك فيقول انه بعد وفاة (سليمان ابن خالد) تولى الحكم من بعده أولاده الثلاثة (ميرعبد العزيز) و (ميرحاجى بدر) و (مير عبدال) وقسموا البلاد بينهم فتكونت من ذلك أسر ثلاث هى العزيزية والبدرية والعبدالية. وتولت (العزيزية) شؤن بلاد الجزيرة وأطرافها بعد انقراض السلجوقيين وقيام دويلات محلية فى البلاد. وليس لدينا معلومات نذكرها عن (مير عبدالعزيز) وأولاده وأحفاده حتى البطن الرابع

وقد كان «تيمور لنك» الفاتح العالمى يعاصر (ميرعز الدين بن بدر الدين ابن عيسى بن مجد الدين بن مير عبد العزيز)؛ وكان مير عز الدين يخشى غزوه لبلاده ولهذا فقد ذهب لمقابلته فى (ماردين) إذ ذاك وعرض عليه فروض الطاعة وبذلك جنب بلاده ويلات الحرب.

ولكنه لم يلبث بعد ردح من الزمن أن شق عصا الطاعة على ابن تيمور فنشب القتال بينهما وأسفر هذا القتال عن احتلال التيموريين للبلاد، ولم ينج (مير عز الدين) من القتل إلا بشق الأنفس. ولما زال عهد التيموريين من البلاد استعاد أبناء الأمير عزيز مجدهم وأحيوا إمارتهم الموروثة التى عمرت منذ ذاك الوقت حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى، ثم اختفت من عالم الوجود إثر ثورة (بدرخان بك العزيزى)(١) فى عام ١٨٤٧ للميلاد.

أما الأسرة (البدرية) فقد نشأت فى منطقة (گوركيل = جردقيل) وبقيت

---

(١) هو المشهور ببدرخان باشا جد البدرخانيين، الأسرة الكردية المثقفة الشهيرة فى الشام وكردستان وتركيا. المترجم

حتى عهد (شرفخان البدليسى) أى إلى عام ١٠٠٠ للهجرة . وكان أميرها هو أحمد ابن الأمير محمد . والمصادر التاريخية خلو من أخبارهم بعد ذلك . وكانت الأسرة (العبدالية) قائمة فى منطقة (فنيك) وظلت معمرة حتى عهد السلطان سليمان القانونى ثم ضمت إلى إمارة الجزيرة .

٢ — امارة خيزانه :

يقول (شرفنامه) ان نسب حكام هذه الامارة إنما يرجع إلى أسرة من (خنس) حيث كان أخوة ثلاثة وهم (دل بك ، بل بك ، بلنيج بك) أمراء فى (خيزان = هزان)(١) و (مكس) و (اسبايرد) . ويظهر أن هذه الامارات الثلاث نشأت فى أواخر عهد السلاجقة ، وكانت (نميران) أقوى العشائر فى تلك البلاد . وعمرت هذه الامارات مدة طويلة حتى عهد العثمانيين . وفى الوقت الذى كان يجرى فيه تأليف (شرفنامه) فى عام (١٠٠٥ هـ ١٥٩٧ م) كان (ميرحسن) هو أمير (خيزان) وكان (ميرأحمد) أمير (مكس) فى حين كان قسم من (اسبايرد) مخصصا لأبناء الأمير شرف .

٣ — امارة شيروانه :

يقول (شرفنامه) انه حين انقرضت حكومة الأيوبيين فى سوريا وزال حكمهم منها فى عام (٦٦٢ هـ) ، جاء أمير من أمراء تلك الأسرة الملكية الكردية إلى بلدة (حصن كيفا) وأسس على مدى الأيام إمارة (ملكان = الملوك) ، وأن آباء أمراء (شيروان)(٢) وأجدادهم كانوا وزراء فى إمارة هؤلاء الملكانيين الايوبيين بحصن كيفا ومن أسرتهم ، ويقال إن إخوة ثلاثا من هؤلاء النبلاء أبناء الوزراء وهم (عز الدين ، بدر الدين ، عماد الدين) جاءوا فى وقت ما إلى بلدة (كفرا — شيروان) ، ووضعوا أساس إمارة محلية فى تلك

---

(١) كان قضاء فى لواء بدليس بتركيا .

(٢) اسم منطقة فى ولاية (وان) القديمة مركزها مدينة كفرى المؤلف

المنطقة بتعضيد من أهلها ومؤازرة حكومتها القائمة بالأمر فيها. وكان (مير حسن ابن ابراهيم) أول أمراء هذه الاسرة، وقد قسم بلاد إمارته بين أبنائه فى حياته وقبل مماته، على أن يكونوا جميعهم تابعين لأمير (كفرى) . وكانت هذه الامارة وفروعها (شبستان، ايرون، آويل، كفرا) قائمة فى أوائل العهد العثمانى وظلت قائمة خلال هذا العهد مدة طويلة.

٤ ـ امارة بدليس (بيتليس) :

كان مؤلف (شرفنامة) من أمراء هذه الامارة ومن سلالتهم التى توارثت الملك كابراً عن كابر ببدليس. ولهذا تمكن من جمع الكثير من المعلومات الشيقة والحقائق التاريخية عن هذه الامارة، سطرها وسجلها على صفحات كتابه القيم.

ولقد أرجع نسب هذه الأسرة إلى الساسانيين ملوك إيران القدماء، ولكن الدكتور (فريج) لا يعترف بهذا القول ويظهر أنه على حق فى عدم اعترافه به، لأن (شرفنامه) يذكر فى هذا الصدد تفاصيل محشوة بأسماء ووقائع لا تتفق مع التاريخ الصحيح. ثم يقول الدكتور (فرويخ) « ان أول أمير لبدليس حسب المعلومات التاريخية الصحيحة هو الملك الأشرف الذى كان قبل ذلك قائداً من قواد الأيوبيين فى سوريا، وأنه حين وصول جلال الدين خوارزمشاه إلى هذه الأنحاء بسط حمايته للخوارزميين، وقام بأجل الخدمات لتوفير الراحة للسلطان جلال الدين، ولكنه أضطر أخيرا لأخراجه من بلاده تحت ضغط المغول الذين كانوا يتعقبون السلطان ويطاردونه من بلد إلى بلد ... » ولكنى أرى أن رأى الدكتور (فريخ) هذا أيضا رأى ناقص إذ أن ظهور جلال الدين خوارزمشاه يصادف عهد الملك الأشرف ابن الملك العادل الأيوبى حاكم سوريا وقتذاك. وأن هذا الملك هو الذى تحالف مع السلطان علاء الدين كيقباد من سلاجقة الروم ضد جلال الدين

خوارزمشاه ، فأرسل جيشا يقوده الأمير (عز الدين عمر الحكارى) نازل به جلال الدين وألحق به هزيمة منكرة على مقربة من (أرزنجان) ، وكان ذلك فى عام ٦٢٧ هـ ، فيؤخذ من هذا أن الأمير عز الدين عمر الحكارى الذى كان قائدا من قواد الأيوبيين بسوريا هو أول حاكم على بدليس . هذا وكان أمير (بدليس) فى عهد تيمورلنك هو (حاجى شرف بك) فقدم له فروض الطاعة ، فأقطعه تيمورلنك إقطاعات واسعة مثل (پاسين) و (ملازكرد) فضمها إلى أملاكه الموروثة . بيد أن هذا المجد لم يدم طويلا إذ مالبث أن قلب له الدهر ظهر المجن وسلط عليه (آيق صوفى) وكيل تيمورلنك وعامله فى تلك الجهات فقبض عليه وألقى به فى غياهب السجن ثم قضى عليه ، فلجأ ابنه الأمير (شمس الدين) مع زعماء العشيرة الروجكية الى إيران . ويقول (شرفنامة) ان أمير شمس الدين تولى الامارة بعد والده (حاجى شرف بك) ، وفى عهده لجأ (قره يوسف) القره قوينلى إلى (بدليس) فأكرم أميرها وفادته ، ثم ما لبث أن زوج ابنته من هذا الامير ، فتوثقت بهذه الزيجة الروابط بينهما وعلا شأن (قره يوسف) بفضل المساعدات التى كان الامير يقدمها له وتمكن من إحياء الدولة القره قوينلية مرة أخرى وعمرت هذه الامارة حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى تتخللها فترات متقطعة حيث انتزعتها الحكومة العثمانية سنة (١٨٣٦ م) من يد (شرف بك) الذى كان آخر أمرائها .

ومن أبرز حوادث هذه الامارة إلتجاء والد (شرف خان المؤلف) إلى إيران ثم عودته إلى بدليس واعتراف الحكومة العثمانية بامارته عليها حسب الاصول والعادات الموروثة . وفى عام ١٠٦٦ للهجرة تذرع (ملك أحمد باشا) والى (وان) العثمانى ببعض الاسباب وزحف على (عبد الخان) أمير بدليس حينذاك بجيش لجب ، الكثرة فيه من الاكراد المجاورين لهذه الامارة ، وظل يقاتله حتى اضطره إلى الفرار ، وأعمل يد النهب والسلب فى البلاد حتى قضى على الامارة .

٥ — امارة صاصونه :

كانت الأسرة الحاكمة فى هذه الامارة من سلالة (مير عز الدين) أخى (مير ضياء الدين) أمير (بدليس) أعنى كانوا أبناء عمومة ، وكانت تعرف باسم (عزى) نسبة إلى (عز الدين) . وتأتى هذه العشيرة الصاصونية فى المرتبة الثانية بالنسبة لعشيرة (روزيكى = روزكى = روجكى)(١)البدليسية، وكانت تتألف من فرق أربع وهى (شيراوى ، بابوسى ، سوسانى، طاموقى)، وبعد أن ضمت منطقة (أرزن — غرزان) لامارة (صاصون) خضعت العشائر الخالدية والديرمغانية والعزيزية أيضا لأمراء صاصون . ويقول مؤلف (شرفنامه) ان مؤسس هذه الامارة هو الأمير (أبو بكر) الذى وضع أساس إمارته فى عهد حكومة الآق قوينلية . ثم خضع أمراء (صاصون) لسلطان الشاه (اسماعيل) الصفوى حتى حدثت معركة (جالديران) الشهيرة بين الايرانيين والعثمانيين فانضم (محمود بك) الصاصونى للعثمانيين ، وضمت إليه قلعة (أرزن) التى جرت حولها فيما بعد معارك دامية بينه وبين الملك (خليل) حاكم (حصن كيفا) . وعمرت هذه الاماره مثل الامارات الأخرى فترة كبيرة من الزمن فى عهد العثمانيين .(حيث كانت مشهورة باسم حزو = حظو. المترجم)

٦ — امارة السويدية :

يقول مؤلف (شرفنامه) ان أمراء هذه الامارة هم أحفاد البرامكة .

---

(١) كانت هذه العشيرة تتألف من أربع وعشرين فرقة فى قسمين(عباسى وكواليسى) ، فكانت فرق أربع منها تسكن منذ البداية في أطراف بدليس ثم انضمت إليها عشرون فرقة أخرى . وفى رواية أخرى انها تمكنت من انتزاع قلعة بدليس من ملك الكرج (داويد) فيما بعد .   المؤلف

وجاء فى رواية اخرى له، أن العشيرة السويدية جاءت إلى كردستان من بلدة تدعى (سويد)(١) على بعد فرسخين من المدينة المنورة من ناحية الشمال. وذكرت الروايات المختلفة أن هذه الامارة قد أسست قبل الآق قوينلية بزمن طويل حيث ان خامس أمراء هذه الأسرة كان يدعى (مير فخر الدين) فالتجأ أخوه إلى (حسن الطويل) سلطان الآق قوينلية فأقطعه السلطان قلعتى (خانچوك) و (جباقجور). وكانت بلدة (گنج) مركزا للامارة أصلا. وفى عهد (شرفخان) كان سليمان بك أمير السويدى وكانت الدولة العثمانية تجله اجلالا تاما. وقد دامت هذه الامارة أيضا كالامارات الأخرى فى عهد العثمانيين مدة طويلة.

٧ — امارة البازوكيين :

جاء فى رواية أن عشيرة البازوكى إيرانية (٢)، وجاء فى أخرى أن أمراء هذه الامارة كانوا من العشيرة السويدية. وتنقسم العشيرة البازوكية إلى قسمين هما (خالد بكلو) و (شكر بكلو)، وكان القسم الأول حاكما ومستوطنا بمنطقة (خنس وملازكرد وقسم من موش). أما القسم الثانى فكان خاضعا لحكم أمير بدليس.

وليس لدينا معلومات عن التاريخ القديم لهذه الامارة، اللهم إلا اسم مؤسس القسم الأول وهو (حسين على بك). وكان (خالد بن شهسوار بك بن حسين على بك) فى معية الشاه اسماعيل، وقد نال شهرة بحروبه العديدة

---

(١) الأقرب الى الصحة والعقل، أنها قدمت من قلعة السويداء الواقعة بين آمد والرها والمعروفة الآن بين الكرد بـ (سوراك) وفى لغة الترك (سيوەرك) ولا معنى لسويه المدينة المنورة ولا لغيرها هاهنا. المترجم

(٢) أى من اكراد ايران بدليل ذكر (شرفنامه) لهذه الامارة ضمن الامارات التى أسستها الأكراد فى ايران ولكن المؤلف راعى الموقع الجغرافى للامارة فذكرها فى البلاد العثمانية (تركيا) الحالية. المترجم

وبطولته الرائعة حتى أنه فقد إحدى ذراعيه فى إحدى المعارك فاشتهر بخالد ذى اليد الواحدة وأعطاه الشاه لقاء أعماله الباسلة بلدتى (خنس)و (ملازكرد) وناحية (أوخكان(١)) ، ولكنه شق عصا الطاعة على الشاه فيما بعد ، وأعلن استقلاله عنه ، ثم التجأ إلى السلطان (سليم ياوز) ولكنه ما لبث أن شق عليه الطاعة أيضا ، فأمر السلطان بالقبض عليه وقتله . وقد عمرت إمارة هذه الأسرة مدة طويلة . وفى عهد إمارة (قلبج بك) هاجر قسم من هذه العشيرة إلى مناطق عشيرة الدنبلية (دوملى) واندمجت فيها .وهكذا خضعت لسلطان الدولة العثمانية .

٨ - امارة مرداسى (مرداسى = مرديسى)

يقول (شرفنامه) ان نسب هذه الآسرة يرتقى إلى العباسيين ، وان مؤسس هذه الامارة شيخ يدعى (پير منصور) قدم من حكارى إلى قلعة (أكيل) وأقام بها حتى علا شأنه . ولما مات، خلفه ابنه (بير موسى) : ولما مات (بير موسى) خلفه ابنه (بدر) الذى مالبث أن ازداد نفوذه وقويت شوكته فاحتل قلعة (أكيل) نهائيا ، وقد سميت هذه الامارة بالمرداسية نتيجة تعضيد العشيرة المرداسية لهذا الشيخ فى تأسيسها • وبعد فترةمن الزمن استولى السلجوقيون على قلعة (اكيل) فلجأ (بيربدر) مضطرا إلى (ميافارقين) حيث لقى حتفه فى ساحة الوغى أثناء هجوم (آلب أرسلان) على هذه المدينة وبعد ردح من الزمن ، وضع(بولدق) ابن (بيربدر) أساس أسرة(أكيل) التى تشعبت منها فيما بعد أسرتا (پالو) و (جرموك = جرميك = جرموق) وظلت هذه الأسرة تتوارث الامارة حتى ضمت فى عهد الشـــاه اسماعيل الصفوى إلى العثمانيين .

---

(١) كذا فى الأصل وفي(شرفنامه)طبعة روسيا (أو حكان موش)وطبعة القاهرة (أو جكان موش) فليحرر. المترجم

٩ — امارة جمشكزك :

جاء فى رواية أن الأسرة التى أسست هذه الامارة هى من أحفاد العباسيين . وفى رواية أخرى أنها من سـلالة السلجوقيين . والمعروف لنا أن تأسيس هذه الامارة إنما يرجع إلى (ملك محمد) ووالده ، فقد حارب ملك شاه ابن ملك محمد ، السلاجقة فى عام (٥٩٦) ليستقل عنهم . ولكنه قتل فى المعركة وسقطت البلاد غنيمة باردة فى قبضة السلاجقة . وبعد فترة من الزمن قام ابنه « ملك محمد » باحياء الإمارة من جديد ، فاستولى على اثنتين وثلاثين قلعة وست عشرة ناحية من أمهات بلاد الامارة . وقد اشتهرت عشيرته باسم (ملكشاهى) ، وفى اللهجة الكردية باسم (ملكيشى) ؛ وقد علا شأن هذه العشيرة وامتد سلطانها على سائر البلاد . وأصبحت كلمة (جمشكزك) علما على كردستان بأكمله . وحافظت هذه الامارة على نفوذها وسلطانها فى عهود المغول والتيموريين والقره قوينلية ، ولكن نفوذها أخذ يتضاءل فى عهد الآق قوينلية وبدأت تفقد سلطانها بسبب عشيرة تركية قوية قد زجت بنفسها وتداخلت بين عشيرة (ملكيشى) على الرغم من مقاومة (بير حسين) للعشيرة الدخيلة وإخراجها من البلاد مرارا ، ورغم إطاعته أيضا للشاه اسماعيل وخضوعه له . ولكن كل ذلك لم يجده فتيلا فسقطت البلاد فى أيدى القزل باش من رجال الشاه اسماعيل الصفوى الذين كانوا من التركمان المتعصبين للشيعة . وبعد فترة من الزمن أعاد السلطان سليم إمارة جمشكزك إلى الأمير (بير حسين) الذى أثارت بسالته وبطولته إعجاب السلطان سليم وتقديره له . وقد هاجم هذا الأمير الهمام ، (نور على) حاكم جمشكزك الايرانى وقتله واسترد إمارته ، وبعد وفاة الأمير (بير حسين) تشعبت إمارته إلى ثلاث شعب (مجنكرد وپرتك وسقمان) واستمرت تلك الشعب حتى أواسط عهد العثمانيين . وكان للأمير (بير حسين) عدا زعماء الثلاث المقاطعات من الأنجال . تسعة أنجال كانوا حكاما للمقاطعات المختلفة من البلاد العثمانية على سبيل التملك .

﴿ب﴾ «الامارات الكردية فيما بين الجزيرة وكلس» (١٠ — ١٣)

١٠ — امارة حصن كيف :

يقول (شرفنامه) ان ملوك هذه الامارة من أحفاد السلالة الايوبية ، وان أول حاكم من هذه الأسرة هو الملك (سليمان) الذى كان ملكا فى عهد الجنكيزيين. وعلى هذا يكون عام (٧٣٦) للهجرة ، هو العام الذى قامت خلاله هذه الامارة . وكانت العلاقات ودية وطيبة للغاية بين الملك محمد بن الملك سليمان وبين المغول والايرانيين. وفى عهد التيموريين كان يحكم الامارة حفيد الملك محمد المدعو الملك الأشرف فقابل (تيمورلنك) فى (ماردين) وقدم له فروض الطاعة . ثم سلك ابنه الملك خليل مسلكه فى تقديم فروض الطاعة للتيموريين. ولقد كان الملك خلف (أبو سيفين) ابن الملك خليل، على جانب عظيم من البسالة والجرأة . فاستمات فى الدفاع عن (حصن كيف = حسنكيف) ضد هجوم الآق قوينلية ، ولكن أحد قواده قدخانه ، فادت خيانته إلى سقوط القلعة وزوال سلطان هذه الأسرة إلى حين .

وقد لجأ أمير من أمراء هذه الأسرة ويدعى (الملك خليل) إلى مدينة (حماه) فى الوقت الذى كان يتطاحن فيه رجال الآق قوينلية ويتقاتلون جريا وراء السلطان والنفوذ ، فانتهز فرصة تطاحنهم وعاد إلى كردستان ، وهنالك آزرته العشائر الكردية ومدت إليه يد المساعدة . وبهذا تمكن من الاستيلاء على (سعرد) وعلا شأنه وما لبث أن استرد (حصن كيف) وأعاد بناء إمارته من جديد .

وعلى الرغم من أن الملك خليل قد حسن علاقاته بالصفويين وصاهرهم حين استيلائهم على البلاد ، إلا أن ذلك لم يحل دون غدر الشاه اسماعيل به

إذ ألقى القبض عليه وسجنه فى سجون (تبريز) الرهيبة ، ولبث فيها حتى نشبت معركة (جالديران) الشهيرة بين الشاه اسماعيل وبين السلطان سليم ، فنجا السجين وعاد إلى إمارته . ورضى عنه السلطان سليم وحماه ، وقد ظلت هذه الحماية قائمة فترة من الزمن فى عهد أحفاده وخلفائه أيام العثمانيين الذين قضوا على هذه الامارة فيما بعد .

١١ — امارة سليمانى = سليفانى .

يرجع (شرفنامه) نسب أمراء هذه الأسرة إلى إخوة ثلاثة كانوا أبناء (مروان بن محمد) آخر خلفاء بنى أمية ، ويقول إن هؤلاء الاخوة قد وفدوا إلى منطقة (قولب(١)) بعد زوال السلطان عن بنى أمية . وقد علا شأنهم وقويت شكيمتهم بفضل المساعدة التى قدمت إليهم من عشيرة (بانوكى = بانه كى) الكردية ، وما لبثوا أن امتد سلطانهم حتى البلاد الواقعة على نهر دجلة حيث انتزعوا بضعة قلاع ومدن من الأرمن والكرج الذين كانوا مستولين عليها وضموها إلى تلك المنطقة التى وفدوا إليها وبهذا وضعوا أساس حكومة قوية .

وكانت غالبية الثمانية عشائر الكبرى التى كانت سكان هذه الامارة ، من الرحل السنيين واليزيديين . وكانت عشيرة (سليمانى(٢))من بين هذه العشائر. ويرى (شرفنامه) أيضا أن مؤسس هذه الامارة كان يدعى (مروان) وأنه فى عهد (ديادين بن ابراهيم بن عز الدين بن بهاء الدين بن مروان) خامس أمير بعد هذا الأمير الأول ، ظهر الشاه اسماعيل الصفوى ، وقد أحسن الأمير (ديادين) علاقاته مع والى (دياربكر) من قبل الصفويين

---

(١) قضاء فى ولاية بدليس القديمة ولواء كنج بتركيا الحالية المؤلف

(٢) هى (سليفانى =سليوانى)الحالى القاطنة فى اطراف ميافارقين. المترجم

ووفق إلى مصاهرته . وبعد وفاة هذا الأمير انتقلت شئون الحكم إلى أيدى أبناء أخيه فنشأ من ذلك أسرتان .

(١) ـ أسرة كليب = كلاب (قولب) وبطمان . (٢) ـ أسرة ميافارقين . وقد دامتا حتى أوائل القرن العشرين الميلادى محتفظتين بالسلطان والنفوذ إلى حد ما .

(دائرة المعارف الاسلامية ج٣ ص١٦١)

١٢ — امارة زراكى (زريكى = زرقى)

يقول (شرفخان البدليسى) ان لفظ (أزرقى) هو أصل هذه التسمية وان مؤسس هذه الامارة(الشيخ حسن) قدم من سوريا إلى ماردين ، وهنالك اشتهر بالصلاح والتقوى والورع ، وكان يرتدى ثوبا أزرق باستمرار ومن هنا سمى بالأزرقى ثم خفف هذا اللفظ إلى زرقى. زركى ، زراكى زيريكى .

هذا وبعد قليل، قبض حاكم (ماردين)الذى يحتمل جدا أن يكون من الآق قوينلية ، على هذا الشيخ وألقى به فى غياهب السجن ، ولكن الشيخ أظهر كرامة بخروجه من السجن بعد فترة قصيرة ومصاهرته لحاكم (ماردين) ، وبذلك عاد للشيخ سلطانه ونفوذه . وبعد وفاة هذا الحاكم انفرد الشيخ بالسلطان والحكم فى (ماردين) . ثم ظهر من سلالته أسر أربع مالكة (١) درزينى (٢) كردكان . (٣) عتاق . (٤) ترجيل. وقد أسس الأولى(هابل بن الشيخ) فى قلعه (ديرزير) . . . وأسس الثانية حفيد هابل فى قلعة (كردكان) بين ديار بكر وميافارقين . . . وأسس الثالثة أمير زرقى فى قلعة (عتاق) ... أما الفرع الرابع فقد قام فى قلعة (ترجيل) على مقربة من ديار بكر . . . وعمرت هذه الأسرات الأربع، وقتا ليس بقصير فى عهد العثمانيين .

١٣ــ امارة كلس و أعزاز :

تقول (دائرة المعارف الإسلامية) انه لاشك فى أن نسب أمراء هذه الإمارة إنما ينحدر من أسرتى إمارتى حكارى والعمادية .

ويقول (شرفنامه) ان أصل هذه الأسر الثلاث ينحدر من العباسيين حيث كان هنالك اخوة ثلاثة أحدهم (شمس الدين) وكان جدا للأمراء الحكاريين، ثانيهما يدعى (بهاء الدين) وكان جدا للأمراء البهدينانين ، وكان ثالثهم وهو (منتشا) جدا لأمراء كلس ، ثم حدث تحريف فى أسمائهم تبعا للجهة الكرمانج فصاروا (شمدين ، بهدين ، مند) . وقد أعد أحدهم وهو (منتشا = مند) قوة كردية واصطحبها معه إلى الشام حيث دخل فى خدمة الأيوبيين . وقد أقطعه أحد السلاطين الأيوبيين ناحية (القصير) على مقربة من أنطاكية بسوريا، مما أدى إلى علو شأنه فى تلك الجهات حيث التفت حوله أيضا أكراد (جوم) و (كليس)من السنيين واليزيدية على السواء. وقد جد فى خدمة الأيوبيين وأخلص لهم حتى كافأوه أخيرا باسناد منصب أمير أمراء أكراد الشام وحلب إليه عن جدارة واستحقاق . وفى عهد السلاطين المماليك خلفاء الأيوبيين انشغل (مند) كثيرا باليزيديين ، كما دخل الأمير قاسم فى عراك شديد مع (شيخ عز الدين) رئيس اليزيدية فى عهد العثمانيين الذين بسطوا حمايتهم لليزيديين بفضل سياسة (قرهجه أحمد باشا) والى حلب الذى قبض على (قاسم بك) وقتله ، وبعث بابنه الصغير (جانبولاد =جانبلاط) بك إلى أستانبول وهنالك أدخلوه السراى السلطانى ليتلقى تربيته العسكرية فيه مع أبناء الملوك وهكذا آل منصب أمير أمراء الكرد بحلب والشام إلى(شيخ عز الدين).

وفى عهد السلطان (سليمان) عادت الأمور سيرتها الأولى ،فاسند منصب الامارة إلى (جانبلاط) ، وظل الحكم يتوارثه أحفاده حتى عهد السلطان أحمد العثمانى .

وأخيراً رفع الأمير (على) راية العصيان على الدولة العثمانية وأعلن استقلاله عنها في (حلب) ، ولكن ذلك لم يدم طويلا إذ جردت عليه الدولة العثمانية جيشا لجبا بقيادة الصدر الأعظم (قويوجى مراد باشا) هزمه هزيمة شنعاء وبذلك أسدل الستار على هذه الامارة هى الأخرى وكان ذلك فى عام ١٠١٦ للهجرة

« ومما يذكر بهذه المناسبة أنه بعد التجاء الأمير على (على باشا) الى استانبول سنة (١٦٠٧ م) قد تمكن بعض من أعضاء أسرته الجانبلاطية من النجاة من شر (قويوجى مراد باشا) والاختفاء فى جهات حلب وكلس . فنى سنة (١٦٣٠م) أتيح لسعيد بك جنبلاط زاده مع ابنه (رباح) الذهاب الى بيروت والالتحاق بأسرة المعنيين (آل معن) أمراء لبنان ، لما كان بين الأسرتين من الود والصلات القديمة فأقبل عليه رجال لبنان وعظماؤه وأكرموا وفادته ودعوه إلى الاقامة فى الجبل . وفعلا أقام سعيد بك فى (مزرعة الشوف) وسر امير الجبل حينئذ وهو الأمير (فخر الدين) من لقائه فأدخله ضمن رجاله الأخصاء . وفى سنة(١٦٤٠) أرسل الأمير سعيد بك، الى قلعة (شقيف أرنون) محافظا لها ومعه خمسون رجلا من جنوده . غير أن سعيد بك توفى إلى رحمة الله فى نفس السنة ، كما أن ابنه (رباح) لم يعش بعده إلا بضع سنين معدودة تاركا وراءه ثلاثة من الأمراء (على ، فارس ، شرف الدين) فتزوج على ابنة الشيخ قبلان من كبار شيوخ الشوف حيث صار فيما بعد شيخا ورئيسا للشوف بدل حميه الذى توفى سنة (١٧١٢) وهكذا أتيحت له الفرصة لأن يظهر مواهبه فى حسن الإدارة والعدل فى المعاملة والحزم فى الأمور ، مما أكسبه محبة الأهالى وتقدير الشهابيين له لإخلاصه وتفانيه فى الخدمة . وقد توفى إلى رحمة الله فى سنة ١٧٧٨ فى بلدة (بعذران) تاركا على صفحة الوجود ستة من الأنجال ، تولى منهم (قاسم) مكان أبيه الأمر ، فأحسن السيرة فى عهد أحمد باشا الجزار الذى كان راضيا

عنه . غير أن ابنا له يدعى (بشير) قد شق عصا الطاعة على سلطة أحمد باشا الجزار لظلم عساكره الأهالى وعيثهم فى البلاد الفساد ، مما حمل الأهالى على أن يلتفوا حول هذا الشاب الذى لم يكن قد بلغ أكثر من أربعة عشر عاما من عمره ، فقد هزم جنود أحمد باشا الجزار مراراً ، وساقهم حتى مدينة صيدا منهزمين واستولى على كثير من الغنائم والأسلاب . ولما توفى والده فى الشام انتقلت الرئاسة اليه رسميا ، وتوترت العلاقات بينه وبين الشهابيين فترة من الزمن فاضطر من جرائها إلى اللجوء الى منطقة الحوران بالشام . وفى سنة (١٧٦٥) تمكن الجزار من إلقاء القبض عليه وعلى اثنين من الشهابيين فى بيروت وارسالهم الى عكا وزجهم فى أعماق السجون . وقد أطلق سراحه بعد أن أمضى أربع سنين فى غياهب السجن . ثم تلقى كتاب شكر من قداسة البابا لمعاونته للمارونيين فى بعض الملمات . ومن آثاره فى جبل لبنان فتحه قناة من (الباروك) إلى (المختارة) فى سنة (١٨٠٠) وتكبده فى سبيل ذلك نفقات كبيرة . وفى سنة ١٨١٠ م اشترك فى الحملة التى تألفت بأمر من (سليمان باشا) والى عكا للزحف إلى الشام لضرب (يوسف باشا الكردى) والى الشام ، حيث اجتمع هو والأمير بشير بسليمان باشا المذكور فى طبرية وزحفوا جميعا إلى الشام فوقعت معركة حامية فى (قطنة) بينهم وبين والى الشام المذكور الذى اندحر وهرب إلى مصر ودخل سليمان باشا مع الشيخ بشير دمشق الشام . وزاد قدر الشيخ بشير جانبلاط فى نظر الناس وعلا شأنه فى جبل لبنان علواً كبيرا . وفى سنة (١٨١١) بسط حمايته على الدروز فى جبل لبنان ضد والى حلب الذى كان يريد السوء بهم فنقلهم بموافقة رأى الأمير بشير إلى (زحله) وأسكنهم فى مقاطعات تلك المنطقة . وفى سنة (١١٨٨) أنشأ جامعا فخما فى المختارة كما أنه وهب أراضى كثيرة وتبرعات كبيرة إلى المارونيين فى البلدة المذكورة لإنشاء كنائس لهم . وفى سنة ١٨٤٠ حل الوئام والوفاق بينه وبين الأمراء العماديين حيث اتحد معهم فى جميع الشؤون التى جدت فى الجبل .

وأخيراً تمكن والى الشام من جلب الشيخ بشير هذا، مع رجاله وقواده الى الشام بحيلة غريبة وحبسهم جميعا بها. وبعد مدة أطلق سراحه إلا أنه بناء على طلب والى عكا قد أعدمه مع الشيخ أمين العمادى وهو يبلغ من العمر خمسين سنة. وكان رحمه الله عادلا شجاعا كريما يحب الخير للجميع حتى أطلق عليه لقب «عمود السخاء» وأنشا كثيراً من الطرق والجسور والجوامع وساد الأمن والرفاهية أنحاء الجبل والتجأ اليه كثير من المضطهدين والفقراء.

ومن دواعى الأسف أن الأمير بشير الشهابى أخذ يضطهد أسرة جانبلاط بعد وفاة هذا الرجل العظيم على المنوال السابق، فهدم كثيراً من بيوتهم ومنازلهم حتى الجامع الذى كان بناه فى المختارة، ونهب أموالهم وممتلكات عشيرتهم. الأمر الذى أثار حمية والى عكا وتدخل فى الأمر بان نقلهم إلى صفد وأسكنهم بها وأجرى عليهم المرتبات والمخصصات.

وفى سنة (١٨٣٢) حينما أغار ابراهيم باشا على رأس جيش مصرى على البلاد الشامية التزم أمراء أسرة جانبلاط هذه، جانب الدولة العثمانية والتحقوا جميعا بوالى الشام حتى وقعت معركة حمص بين الجيشين المصرى والعثمانى التى أسفرت عن اندحار العثمانيين فالتجأ من الجانبلاطيين الأمير سعيد والأمير اسماعيل إلى الجبل. وأما الباقون منهم فذهبوا مع الجيش العثمانى المتقهقر إلى حلب فقدرهم الصدر الأعظم (محمد رشيد باشا) حق قدرهم، وبالرغم من انكسار جيش الصدر الأعظم وأسره هو أخيراً، فان الجانبلاطيين لم يتخلوا عن العثمانيين الذين كافأوهم دائما. وبعد انهاء المسئلة المصرية والتركية جاء إلى الجبل من الجنبلاطيين الأميران حسن وحسين. إلا أن الأمير بشير كان مترصدا لهم فتمكن من إلقاء القبض على الأمير حسن وقتله واختفى الأمير حسين عن الأعين.

وأما الأميران سعيد واسماعيل أبنا الشيخ بشير من الجانبلاطيين اللذان كانا قد اعتصما بالجبل، فقد لجآ إلى الأمير بشير بضرورة الحال، فارسلهما الأمير إلى

ابراهيم باشا الذى بادر إلى نفيهم إلى مصر، غير أن سعيدا تمكن من اظهار اخلاصه فدخل فى الجيش المصرى ضابطا. وفى سنة (١٨٣٨) رقاه ابراهيم باشا إلى رتبة اليوزباشى وبعد ذلك إلى رتبة البكباشى. كما أن أخا له يدعى (نعمان) كان فى استانبول تمكن من الذهاب إلى مصر ودخل الجيش المصرى برتبة أميرآلاى.

ولقد تمكن (سعيد بك) أخيراً من الفرار مع الشوام من مصر إلى الجبل حيث كان أخوه (اسماعيل بك) قد عين من قبل الدولة حاكما على الجبل (شيخ المشايخ) بدلا من والده الشيخ بشير. وكان نعمان بك أيضا قد تمكن من الانفصال من الحيش المصرى والعودة إلى الجبل وصار حاكما عليه بدل أبيه».

ملخص من كتاب (أخبار الاعيان فى جبل لبنان)

﴿ج﴾ — إمارات ما بين الجزيرة وخوى (١٤ – ٢٠)

١٤ — امارة الحكارية = والهكارية :

ليست هنالك معلومات صحيحة غير نتف مشوشة عن أصل هذه الأسرة. وإن كان (شرفنامه) يقول إن جد هذه الأسرة كان يدعى شمس الدين (١)، ثم يعود فيقول إن إحياء هذه الامارة للمرة الثانية كان على يد (أسد الدين كلابى) الذى اشتهر فيما بعد باسم (زرين جنك) أى ذو الذراع الذهبى، وذلك بفضل التماس الأشوريين الذين كانوا حسب عادتهم بمصر ومؤازرتهم له بها ثم يأتى الدكتور (فريج) فيصب كل اعتماده على هذه الأقوال، وعلى اسم (شمو = شه‌مبو) ويقول بما أن (شنبه) اسم ليوم من أيام الأسبوع لدى الأشوريين. فلا بد وأن يكون هذا الأمير من الأشوريين.. الخ ولا شك فى عدم صحة هذا الرأى

---

(١) أنظر مبحث أمراء كلس فى هذا الكتاب وفى شرفنامه. المؤلف

الخاطىء لأن اسم (شمو) كردى ، وإذا كان لنا أن نجارى تشابه الألفاظ فنحن فى حل من أن نقول ان (شمبو) كان كرديا ولا ريب .

فيستخلص من هذا أن (شمس الدين) لا بد وأن يكون جدا لهذه الأسرة التى اشتهرت فيما بعد باسم (شه مبو) وهذا هو ما قال به (شرفنامه) فى مبحث أمراء كابس . وبعد وفاة (أسد الدين) قام بأعباء الامارة من بعده (الملك عز الدين شير = يزدان شير) الذى دام حكمه ستين سنة كاملة . وقد خلفه ابنه (زاهد بك) الذى قبل حماية الشاه إسماعيل لامارته ، ويظهر أن ولديه (ملك بك) و(سيد محمد بك) قد حكما من بعده فى قسم من أقسام (حكارى = هكارى) و (شمدينان) . وقد بقيت ذرية هذه الأسرة تحكم البلاد حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، إذ كانت هذه الامارة من أكبر إماوات كردستان الأوسط ؛ وكان زكريا بك وابراهيم بك حاكمين فى (جوله مرك) و(ألباق) فى عهد شرفخان البدليسى فى عام (١٠٠٥ هـ)

هذا وقد أثنى (أولياجلبى) الرحالة التركى الشهير على هذه الامارة ثناء مستطابا حيث يقول : « إن أميرها كان يحتفظ دائما بعشرة آلاف من الجنود حاملى البنادق فى السلم، وأما فى الحرب فكان فى مكنته حشد جيش قوامه خمسون ألف مقاتل » ، وكان « نور الله بك حاكم البختان » آخر حكام هذه الأسرة. وقد فقد إمارته إثر ثورة بدرخان بك الشهير ، كما أن (حليمه خانم) سلمت باش قلعة[1] للترك سنة ١٨٤٠ م ، وبذلك ولت أيام هذه الامارة . ويذكر المؤرخ الكبير هامر فى المجلد التاسع من تاريخه للدولة العثمانية اسم أمير من أمراء الحكارى كان يدعى (مير عماد الدين) قتله الصدر الأعظم فى الديوان سنة (١٠٤٩)هـ .

---

(١) قلعة (الباق) القديمة فى ولاية وان الحالية بتركيا . المترجم

١٥ — امارة المحمودى:

هناك روايات شتى عن أصل أمراء المحمودى . ولكن الدكتور (فريج) يقول إن مؤسس هذه الإمارة إن هو إلا (بهلول بك) السليمانى = السليفانى من سلالة (مروان بن محمد) آخر خلفاء بنى أمية .

ويقول (شرفنامه) ان مؤسسها يدعى (شيخ محمود) الذى قدم من الشام فى رواية ، وفى رواية أخرى من مدينة الجزيرة ، قدم مع عشيرته ورجال قومه إلى بلاط (قره يوسف) مؤسس القرد قوينليه ، فأقطعه هذا السلطان منطقة (آشوت = آشيت) موطنا لرجاله وعشيرته وألحقه هو بمعيته الخاصة . ولما توسم فيه مخايل الشجاعة وعلائم البسالة فى الحروب التى خاض غمارها ، أسند إليه إمارة (آشوت) و (خوشاب) . وسميت عشيرته باسم هذا الأمير «محمودى» .

ولقد رفع الأمير «حسن» ابن الشيخ محمود هذا من شأن الامارة ووسع حدودها بعد أن حارب « عز الدين شير الحكارى . وهزمه وانتزع منه ناحية (١) (تنبو) . ولكن أمير بدليس قد آزر أخيراً (عز الدين شير) فاستؤنف القتال بين الفريقين على نهر (مير أحمد) (٢) وأسفر عن مقتل الأمير حسن . ثم انقسمت هذه الامارة إلى فرعين ، وفى أواخر القرن العاشر الهجرى قد تفرع منهما فرع ثالث ، ودام عهد هذه الامارة بفروعها الثلاثة حتى أواسط عهد العثمانيين .

ولقد أطنب (أوليا جلبى) الرحالة العثمانى الشهير فى الاشادة بقوة هذه

---

(١) لعله تصحيف من كلمة (شنبو) حيث وردت فى عبارة شرفنامه هكذا ، انتزع منه ولاية شنبو ... المترجم

(٢) هو (نهر خوشاب) كما فى شرفنامه . المترجم

الامارةوعلو شأنها ، ويقول إنها تقع فى الجانب الشرقى من ولاية (وان) ، وأنها كانت تتألف من نحو ماية عشيرة قوية الشكيمة ، وأنها كانت تحتفظ فى وقت السلم بستة آلاف من الفرسان . ويقول هامر فى المجلد السادس من تاريخه ان الصدر الأعظم قره مصطفى باشا اغتال على باشا حاكم (أشيت = آشوت) سنة ١٠٤٩.

١٦ – امارة بنيانيش

لاتذكر (دائرة المعارف الإسلامية) شيئا عن هذه الامارة، فى حين أنها كانت مشهورة بين الامارات الكردية الكبيرة فى العهد العثمانى . كما أنها كانت جارة لامارة المحمودى . ويقول (أوليا جلبى) ان قوتها العسكرية كانت تبلغ على الدوام ستة آلاف مقاتل.

١٧ – امارة الدنبلى = الدنابلة

لم يذكر الدكتور (فريج) فى كتابه (كردلر) إلا القليل عن هذه الامارة ، فى حين أن كتاب (آثار الشيعة الامامية) قد افرد بحثا مسهبا واهتم بالتفاصيل التى جاءت فى (شرفنامة) (١) عن هذه الحكومة ثم نقل عن تاريخ الدنابلة (٢) وقد جاء فيه أن أول حاكم من هذه الأسرة هو (طاهر بن الأمير عيسى بن الأمير موسى) حاكم الشام الذى كان – كما تقول الروايات –

---

(١) يرى (شرفنامة) أن أصح الروايات فى هذا الصدد هى أن العشائر الدنبلية قد نزحت من (حكارى) إلى أذربيجان ، وأما الأمير عيسى والد الملك طاهر فقد هاجر من بلدة الجزيرة

(٢) ألف هذا الكتاب (عبد الرزاق بن نجفقلى الدنبلى) باسم (رياض الجنة) باللغة الفارسية . وتوجد نسخة منه فى المكتبة الشاهانية بطهران. وفضلا عن هذا فان هنالك كتابا آخر باسم (هفت اقليم) ألفه بالفارسية أيضا (أمين احمد الرازى) فى تاريخ امراء الدنابلة. المؤلف

نجلا ليحي البرمكي وزير الخليفة هرون الرشيد. أما كتاب (أنساب الأكراد)[1] فيرى أن أصل هذه الأسرة إنما يرجع إلى البرامكة

وقد تفرعت عن هذه العشيرة شعب عديدة أهمها وأشهرها (دنبلية يحيى) أحفاد الأمير يحي ، و (شمسكى) أحفاد شمس الملك جعفر . «وعيسى بكلو» أحفاد الأمير عيسى ، و « بكزاده » أحفاد الأمير (فريدون) وأيوبخانى ... إلى غير ذلك . وقد جاءت هذه الشعب وليدة إبعاد هذه العشيرة ونفيها بأمر من الخلفاء والملوك أمثال الخليفة المأمون وتيمورلنك والسلطان سليم إلى بلاد كشان ، خراسان ، خبوشان ، شيروان ، كنجه ، قره باغ ، قره جه داغ . وقد وفق أمراء هذه الاسرة والعشائر فى تأسيس إدارة مستقلة فى كردستان وآذربيجان ابتداء من القرن الرابع الهجرى حتى نشوء دولة الشيخ حيدر الصفوى، حيث قدم آخر أمرائها المدعو (بهلولى الدنبلى) فروض الطاعة للشيخ حيدر . وهكذا صارت إمارته تابعة للحكومة الصفوية .

ولنلخص فيما يلى أحوال حكام هذه الامارة الكردية وأسماءهم تاركين التفاصيل لكتابنا (كوردانى به ناوبانك ـــ مشاهير الأكراد) :

مـــير محمد : هو رابع أمراء هذه الأسرة ، وكان حاكما فى الشام ، وقد استولى على بعض القلاع فى بلاد الحكارية ، وله مؤلفات فى العلوم والفنون وآثار عمرانية. من بينها قلعة (باى) الشهيرة التى دفن فيها عام ٣٨٧ للهجرة .

مير سليمان : كان له بعض السلطان والنفوذ على بلاد كردستان وآذربيجان والشام ومن مآثره العظيمة ، القصر الذى أنشأه فى (سنجار) وأسماه (سراى سليمانى) والذى جلب العمال ومهرة الصناع من إيران لأنشائه

---

(١) لمؤلفه العالم الشهير والمؤرخ الكبير ابى حنيفة الدينورى صاحب كتاب «الأخبار الطوال » المؤلف

وتزيينه ، كما أنشأ المدارس والخوانق لتعليم أبناء الكرد العلوم والفنون ، وكان الشيخ رجب البرسي صاحب (مشارق الأنوار) من خاصة رجال هذا الأمير النابه وقد توفى سنة ٤١٠ هـ .

ميرجعفر الثاني : لقد اكتشف فى عهد هذا الأمير معدن الذهب وقد اشتهر باسم الذهب الجعفرى فى جبل (سنجران) الذى يقع على مقربة من قلعة (دنبل) ، وقد توفى عام ٤٤١ هـ .

مير يحيى : يقول (شرفنامه) ان ثلاثين ألف أسرة من الرعايا المسيحيين كانت تتبع هذا الأمير وكان له مآثر كثيرة حيث بلغ عدد التكايا التى أنشأها فى جبال كردستان وآذربيجان والشام ألفا ومائتين وقد أدركته المنية فى عام ٤٧٧ هـ .

مير عيسى الشهير بصلاح الدين الكردى : نقل هذا الأمير نحو مائة ألف أسرة من الأكراد من فرع اليزدانية إلى آذربيجان وإلى (كوهستان = قهستان) وكان يمضى أغلب أيامه فى تبريز .

مير جعفر الشهير بشمس الملك : كان معاصرا لمنوجهر من ملوك شيروان توفى إلى رحمة الله عام ٥٣٠ للهجرة ، وقد أطنب الشاعر البليغ (خاقانى) الشيروانى فى مدحه

أمير بك : كانت العلاقات وطيدة بينه وبين السلطان سنجر السلجوني ، وقد خلف آثارا عمرانية عظيمة فى مدينة (خوى)، وتوفى عام (٥٩٠) .

مير أحمد : كان هذا الأمير يقدر العلم ويمجد العلماء، وكان مولانا جلال الدين الرومى صاحب المثنوى الشهير من أخص رجال هذا الأمير .

مير ابراهيم : كان يقيم فى (تبريز) فوطد علاقته مع (جنكيزخان) وبهذا أنقذ بلاده مما عسى أن يحيق بها من تدمير المغول وتخريبهم ، وقد توفى عام (٦٩٢ هـ) .

مير جمشيد : اشتبك فى القتـال مع المغول فبعث إليه (غازان خان) عام (٧٢٥ هـ) بجيش لجب ألحق به هزيمة منـكرة ، بل إنه ما لبث أن وقع صريعا فى المعركة فى جبل (جله خانه)

أمير بهلول : هو ابن الأمير جمشيد ، وقد توفى عام (٧٦٠ هـ)

شاه منصور : هو ابن الأمير بهلول ؛ توفى عام (٧٩٥ هـ)

مير محمود : كان ابنا للأمير شاه منصور ، وقد احتل مكانة سامية وحظوة لدى السلطان بايزيد العثمانى ، وهو الذى أنشأ مدينة (محمودى) بكردستان وتوفى ودفن بها عام (٨٢٠ هـ)

أمير ولى : كان يقيم بمدينة (خوى) .

حاجى بك : هو ابن الأمير ولى ، وتوفى عام (٨٢٢ هـ)

سلطان على : هو نجل حاجى بك . وتوفى عام (٨٢٥هـ)

أمير نظر : هو ابن سلطان على .

أمير فريدون : كان يعرف باسم (أميرقليج) . وجاء فى كتاب (جهانما) التركى أنه كان حاكما على جميع بلاد كردستان وآذربيجان وأرمينية ؛ وكان مركز إمارته مدينة (خوى) ، وتوفى عام (٨٦٠هـ)

أمير بهلول : صادف عهده ظهور الشيخ حيدر الصفوى ، وكان يحكم علاوة على ما كان تحت سيطرته قديما ـ مقاطعتى طبرستان وداغستان وقد قدم فروض الطاعة للشيخ حيدر طواعية ، ولكنه قتل فى المعارك التى نشبت فى عام (٨٨٠هـ) بين الصفويين وبين الشاه خليل الآق قونيلى .

أمير رستم : كان معروفا باسم (شاه ويردى بك) وتوفى عام (٨٩٨هـ)

أمير بهروز : كان يلقب بسليمان خليفة وظل أميرا حتى بلغ الخامسة

بعد التسعين من عمره ، وكان فى معية الشاه طهماسب حين اشتبك فى القتال مع العثمانيين ؛ وتوفى عام (٩٨٥ﻫ)

أيوب خان : هو حفيد الأمير بهروز أنعم عليه برتبة بكلربكى . وتولى منصب السهدار (القيادة العليا) وتوفى عام ٩٩٤ ﻫ .

شاهبندخان : . . . .

بهروزخان : كان من أخص رجال الشاه (عباس) وقد أثنى عليه (شرفنامه) ثناء مستطابا ووصفه بالشجاعة والروية . وتوفى سنة ١٠١٤ ﻫ

على خان : هو ابن (بهروزخان) وشهرته (صفى قلى خان) وقد كان فى معية الشاه (صفى) حين قدم السلطان مراد إلى آذربيجان . ولما هاجم فرهاد باشا بلاد كردستان تصدى له (على خان) فى جبال حكارى ودافع عن البلاد دفاع الأبطال ثم عقد صلحا مع أحمد باشا والى بغداد وانفض النزاع ، وكان يحكم آذربيجان وأرمينية .

مرتضى قلى خان : هو ابن (على خان) أيضا وكان ملازما لبلاط الشاة عباس الثانى فى أصفهان .

غياث بك : هو ابن (على خان) ، وكان من بين قواد الشاه عباس ولم يلازمه الفوز فى حروب (قندهار) ولهذا لم يجسر على العودة إلى خدمة الشاه وبقى هنالك مع بعض من عشائره . ومن بين أحفاد هذا الأمير الطائفة المعروفة الآن فى تلك الجهات باسم (خرابى) التى من ذريتها فتحعلى خان ملك الشعراء فى الدولة القجارية وابنه (محمود خان) .

شبهاز : هو ابن (مرتضى قلى حان) وقد حاصره عبد الله باشا فى قلعة (خوى) فاضطر إلى التسليم وتوفى فى عام (١١٤٤ﻫ)

أمير أحمد خان : كان يعاصر (نادرشاه) وظل يحكم بلاد آبائه وأجداده بمهارة وحزم ، خمسين عاما وستة أشهر ، وقد قتله أولاد شهبازخان حين

وجوده لدى كريمخان الزند .

نجفقلي خان : هو ابن (شهباز خان) ومن قواد نادرشاه وأمير أمراء تبريز في عهده وكان شاعرا وأديبا وتوفى عام (١١٩٦) هـ .

أمير خداداد خان: هو ابن نجفقلي خان .

أقا محمد خان :ابن نجفقلي خان

فتحعلي بك : هو ابن خداداد خان.

عبد الرزاق بك : ابن نجفقلي خان . وكان من فطاحل شعراء الأمير (عباس ميرزا) ومن رجاله البارزين ، وله مؤلفات أدبيه أشهرها كتابه عن تاريخ أسرته ، توجد منه نسخة في المكتبة الشاهانية بطهران . وتوفى عام ١٥٤٣ للهجرة .

بهاء الدين محمدأقا : هو ابن عبد الرزاق بك ، وكان عالما فاضلا وشاعرا مبدعا وله ديوان شعر رقيق .

كوجوك خان : هو ابن بهاء الدين أقا .

شهبازخان : هو ابن مرتضى قلي خان الثاني ، وقد وقع أسيرا في يد كريمخان الزند بشيراز .

محمود خان : وهو ابن شهباز خان ، وكان أمير أمراء أصفهان .

شهبازخان : هو ابن محمود خان ، وكان يعاصر عهد ناصر الدين شاه

الأمير حسين قلي خان : هو ابن أحمد خان .

محمد صادق خان : هو ابن حسين قلي خان ، وكان أمير أمراء آذربيجان

١٨ — امارة برادوست :

تنحدر هذه الأسرة من الأسرة الحسنوية القديمة حيث جاء أولاد هلال

ابن ناصر الدولة بدر ، الثلاثة بعد مقتله إلى (برادوست) . وتولى أحدهم ويدعى (طاهر) حكم (شهرزور) خلفا لأبيه . وكان الآخر رئيسا لعشيرة (آكور) ،أما ثالثهم فقددخل (سلماس) وأخضعها لحكمه. يقول (شرفنامه) إن (غازى قران بن سلطان أحمد) كان أشهر أمراء هذه الأسرة . وقد ناصب الشاه اسماعيل العداء فى بادىء الأمر ثم عادت العلاقات فتحسنت بينهما فمنحه الشاه لقب (غازى قران) ، وأقطعه نواحى (تركور = ترجفور) و (صوماى) و (دول) ، وظل هذا الأمير الشجاع مستقلا فى شئونه الداخلية حتى حدثت معركة (جالديران) الشهيرة التى خضع بعدها مع سائر الأمراء الكرد لسلطان العثمانيين،وكان السلطان العثمانى يقدره حق قدره فأقطعه نواحى كثيرة فى أيالات (أربل) و (بغداد) و (دياربكر) .

(ا) أسرة صوماى :

أسس هذه الامارة (شـــاه محمد بك بن غازى قران) وظل أحفاده يتوارثونها حتى انقرضت . وفى عام ١٠٠٥ هـ كان أمير (صوماى)من يدعى أوليا بك .

(ب)أسرة تركة ور (تركور) :

كان أمراء هذه الأسرة من نفس عشيرة (برادوست) . ويقول (شرفخان) ان (ناصر بك بن شيرين بك بن شيخ حسن) كان أميرا للبلاد فى عهده . هذا وكان(أمير خان يكدس) أشهر أمراء هذه الأسرة ، وقد دافع عن قلعة (دمدم) الشهيرة وكان أميرا فى أوائل عهد الشاه (عباس الأول) وما لبث أن شق عليه عصا الطاعة واعتصم بالقلعة وجرت وقائع دمويه حولها فى عام ١٠١٧ هـ .

١٩ — امارة مكرى (١):

يقول (شرفنامه) ان مؤسس هذه الامارة أمير صومائى يدعى (سيف الدين) فقد استولى هذا الأمير فى عهدحكومة التراكمة (القرن التاسع الهجرى) على ناحية (درباس) وانتزعها من عشيرة تركمانية ثم بسط سلطانه على بلاد (دولى باريك واختاجى وايلتمور وسلدوز) فعلا شأنه وقويت شوكته وأطلق اسم (مكرى) وهو صفته البارزة على إمارته وعشيرته. وقد خاض غمار حروب دامية مع الحكومات المجاورة أظهر فيها كثيرا من ضروب المكر والدهاء والبسالة وقوة الشكيمة. وقد خلفه بعد وفاته إبنه (صارم بك) الذى استولى (الشاه اسماعيل) فى عهده على جميع بلاد (كردستان)، وقد دحر فى بادىء الأمر جيوش الشاه، ثم الحق الهزيمة بجيش كبير آخر أغار عليه فى عام (٩١٢ هـ) ولكنه أضطر أخيرا كسائر الأمراء الأكراد إلى إلى طلب حماية العثمانيين فسافر إلى استانبول وتشرف بالزيارة السلطانية.

وقد انتقل الحكم بعد (صارم بك) إلى أبناء عمومته وهم (شيخ حيدر) و(مير نظر) و(مير خضر) أؤلئك الذين تخلوا عن العثمانيين وانحازوا إلى الأيرانيين فى عام (٩٤٨ هـ)، الأمر الذى أدى إلى اصدار السلطان سليمان أمرا إلى (سلطان حسين) أمير العماديه و(زينل بك) أمير الحكارى ورجال عشيرة البرادوست بالزحف على هؤلاء الأمراء المكريين الثلاثة وبعد أن تم القضاء عليهم بعد معارك حامية الوطيس أسند السلطان (سليمان) إمارة هذه العشيرة إلى (أميره بك بن حاجى عمر بك بن صارم بك) الذى

---

(١) فى رواية ان هذه الأسرة يمت نسبها الى أسرة البابانيين وانها فرع من فروعها. المؤلف

عمر فى الحكم ثلاثين عاما ، ثم انتقل منه الحكم الى (أميره بك بن شيخ حيدر) الذى فضل حماية الصفويين له على العثمانيين وبهذا خضعت البلاد مرة أخرى لحكم الايرانيين .

وفى عهد الشاه (محمد خدابنده) دخلت إمارة (مكرى) مرة أخرى مع امارتى لرستان وأردلان تحت حكم العثمانيين ، فانتهز (أميره بك) هذه الفرصة واستعاد ملك آبائه وأجداده مع ايالة (شهرزور) ولواء (الموصل)وذلك كله بموافقة السلطان مراد الذى أقطع (أربل)و (مراغه) أيضا لابن (أميره بك).

وبعد قليل أنعم السلطان على (أميره بك) برتبة الميرميران ولقب الباشا مكافأة له على جليل خدماته وبسالته النادرة ، ، وهكذا حكم (اميره باشا) البلاد ردحا من الزمن بجدارة وحزم بلا منازع ، الى أن دب دبيب الخلاف بينه وبين (جعفر باشا) والى تبريز العثمانى الذى انتزع منه بعض البلاد .ومع ذلك فقد ظلت هذه الامارة مستقلة مدة أخرى محافظة على كيانها ، وان كانت قد تعرضت مرتين للمذابح والقتل أيام (قبادبك) و(شيربك) فى عهد الشاه عباس الأول . وليس لدينا معلومات عن نهاية هذه الأماره وعما آل اليه أمرها .

٢٠ — إمارة استونى[1]

لم يذكر (شرفنامه) شيئا عن هذه الامارة ، ولكن يؤخذ مما جاء فى (دائرة المعارف الاسلامية) بهذا الصدد أن أسرة (شمدينان) القديمة انما تنحدر من سلالة العباسيين ، وقد خلفها فى الحكم أشراف وأسياد (نهرى = نيرى)

---

(١) تتعرض (دائرة المعارف الاسلامية) لذكر إمارتى (زرزا) و(ترزا) ايضا ولكنها لاتذكر تفصيل الاحوال الادارية والجغرافية قط   المؤلف

فيما بعد ، إذ كان سيد من هؤلاء الأسياد هو (الشيخ أبو بكر بن الشيخ عبد العزيز) يقيم بقرية (أستونى) ويقوم بوظيفة الوعظ والارشاد فعظم نفوذه بين الأهالى القاطنين تلك الجهات ، وقد استغل حفيده الشهير (الشيخ عبدالله النهرى) هذه المكانة السامية وهذا النفوذ العريض خير استغلال، فعمل على إذكاء نار الوطنية والاستقلال الوطنى للوصول إلى إنشاء حكومة كردية فى (شمدينان) و (مكرى) فى (١٨٨٠ — ١٨٨٣) ولكن جهوده فى هذا السبيل قد أخفقت وقبض عليه ونفى إلى استانبول ثم أبعد إلى الحجاز وهنالك توفى إلى رحمة الله .

« د » « المجموعة الحكارية الجنوبية » (٢١ — ٢٧)

٢١ — امارة البادينان (بهادينان) :

يطلق على هذه الإمارة اسم (بهاء الدينان) أيضا. ويقول (شرفنامه) إنها تأسست فى أواخر عهد العباسيين وأن مؤسسها كان من نسل العباسيين كما يزعمون وكان يدعى (بهاء الدين) فأطلق اسمه على أسرته ثم حدث تحريف فى الاسم تحت تأثير اللهجة الكرمانجية فصار (بهاء الدينان = بهادينان = بادينان) ويقول (شرفنامه[١]) أيضا أن العمادية كان يحكمها (تيمورلنك) وابنه (شاهرخ) من بعده ، وأن (شاهرخ) قد أمضى أيامه الأخيرة فى تلك البلدة وأنه أقطعها لابنه الأمير سيف الدين .

---

(١) راجع (شرفنامه) طبعة القاهرة تجد العبارة خلاف هذا . حيث يقول انه فى عهد تيمور وابنه شاهر فى كان امير العمادية من يدعي (زين الدين) فحكم البلاد بالعدل والحزم ثم تولى ابنه الأمير سيف الدين وبعده ابنه الأمير حسن .... المترجم

وقد تولى الأمير حسن بن الأمير سيف الدين شئون الإمارة بعد والده وقضى كل أيامه فى حروب وقتال مع الآق قوينلية ثم خضع فى النهاية للشاه اسماعيل الصفوى .

ثم تولى الإمارة بعد الأمير حسن ، ابنه الكبير (سلطان حسين) الذى خضع أخيرا للعثمانيين وصار واليا من ولاتهم لمدة ثلاثين عاما ، وقد سبق أنه أسدى خدمات جلى للدولة العثمانية بتجريد حملة على إمارة (مكرى) ومطاردة (القاص ميرزا) وحكم سنجق (الموصل) أيضا أربع سنوات علاوة على تدبير شئون إمارته .

وقد تولى (قباد بك) شؤون الإمارة بعد والده (سلطان حسين) ، وبعد قليل استغل أخوه (بارام بك = بهرام بك) ضعفه ودروشته فأثار عليه عشائر (بادينان) وانحاز هو بعدذلك إلى الشاه اسماعيل الثانى . ولكن (قباد بك) قد تمكن من إخماد فتنة العشائر أخيرا ثم عاد وفوجىء بعد قليل بقيام عشيرة (المزورى) القوية ضده وتنصيبها (سليمان بك) أحد الأمراء البادينانيين أميرا على البلاد فاضطر إزاء ذلك إلى الالتجاء الى الموصل ثم إلى (سنجار) حيث كتب إلى استانبول بما حدث له .

وفى خلال هذه الحوادث عاد (بهرام بك) إلى العمادية وأعلن إمارته على البلاد . وقد أقام (قباد بك) فترة من الزمن فى (زاخو) ثم سافر إلى استانبول وهنالك قابل الصدر الأعظم (سياوش باشا) الذى منحه فرمان إمارته على العمادية وبعث به ليتسلم زمام أمرها ، فوصل (قباد بك) إلى (دهوك) وأراد أن يقوم بعمل حاسم للقضاء على مثيرى الفتنة والعصاة ولكنه فوجىء بهجوم كل من (سليمان بك) و (مير ملك) رئيس المزورى على (دهوك) وتطويقها لها وانحياز أهالى البلدة اليهما وفتحهم أبواب المدينة لهما الأمر الذى أدى إلى سقوطها فى قبضة (سليمان بك) ، وقتل (قبادبك)

فى المعركة سنة ٩٨٤ ﻫ ، ولما ترامت تلك الأنباء إلى مسامع (بهرام بك) حمل عشيرة المزورى على الاعتراف بإمارته عليها .

ولجأ (سيدى خان) و (أبو سعيد) ابنى (قبادبك) إلى الدولة العثمانية وطلبا إليها الحصول على الامارة فأصدرت الدولة الأوامر والتعليمات إلى السردار (فرهاد باشا) بالقاء القبض على (بهرام بك) ، وكان السردار حينئذ متجها لفتح كرجستان فدعا إليه (بهرام بك) ووعده باسنادمنصب الاماره إليه بعد عودته غازيا من كرجستان، إذا ما انضم إلى صفوفه ورافقه فى المسير فاقتنع (بهرام بك) بهذا الوعد واسند وكالة الامارة فى غيبته إلى ابن أخيه (سيدى خان) ومشى فى معيةالسردار . ولشد ماكانت دهشته حين عمد السردار بعد العودة إلى إلقاء القبض عليه ثم إلصاقه تهمة ملفقة به . ألا وهى أنه سبق وقتل أخاه ظلما وعدوانا[١] فحكمت محكمة أرضروم بالاعدام ونفذ فيه الحكم على الفور . وبذلك انفرد (سيدى خان) بحكم الامارة فى سنة ٩٩٤ ﻫ ، وكان هذا الأمير معاصرا لصاحب (شرفنامه) وعمر فى الحكم طويلا .

والظاهر أن الذى تولى الحكم فى بلاد العمادية بعد (سيدى خان) هو (يوسف خان) الذى هاجمه (ملك أحمد باشا) والى ديار بكر فى عام ١٠٤٨ للهجرة وألقى القبض عليه وزج به فى سجون (دياربكر) وبقى فى غياهبها

---

(١) يقول صاحب (الأربعة العصور الأخيرة للعراق) انه بعد وصول (سيدى خان) واخيه إلى استانبول اصدر السلطان مراد الثالث امره باسناد منصب إمارة العمادية إلى (سيدى خان) وامرالسردار(فرهاد باشا)بمعاونة هذا الأمير بجيوش بغداد وكركوك وجنود الامارات الكردية ،فنفذفرهاد باشا امر السلطان واستولىعلى العماديةواقامسيدىخاناميراعليهاسنة١٥٨٥م (ص٤٢) .　　　　المؤلف

حتى أطلق سراحه بعد وفاة السلطان مراد وبعد أن دفع غرامات مالية فادحة لرجال الحكومة .

وانتقل الحكم من بعد (يوسف خان) إلى ابنه الذى علا فى عهده شأن الامارة وازداد نفوذها حتى بلغ عدد جنودها فى عام ١٠٧١ للهجرة قرابة عشرة آلاف من الفرسان ومثل هذا العدد أو أكثر من المشاة .

يذكر التاريخ العام أن (قباد باشا) كان أميرا للعمادية فى عام ١١١٢ ﻫ (١٧٠١م) وأنه رافق جيش الموصل وديار بكر وقنذاك فى حملته على جنوبى العراق لأخماد ثورة المنتفكيين بها .

وفى عام (١١٣٨) ولى الامارة (بارام باشا) الذى اشتهر ببهرام باشا الكبير (والظاهر أنه ابن قباد باشا) وقد عمت البلاد فى عهده موجة من التقدم فى شتى الميادين ، وحكم البلاد زهاء أربعين عاما ثم توفى إلى رحمة الله عام ١١٨١ ﻫ (١٧٦٧ م) وقد خلفه ابنه (اسماعيل باشا) الذى حكم الامارة فترة طويلة. وفى سنة ١٢٠١ ﻫ دب الخلاف بين الأمير اسماعيل باشا واخوته فأخرجهم اسماعيل باشا من العمادية فذهبوا إلى قلعة (زاخو) واستولوا عليها عنوة . واضطر اسماعيل باشا إلى ارسال حملة عسكرية بقيادة اخيه (على بك) إلى (زاخو) تمكنت من الاستيلاء عليها وطرد من فيها من اخوته المناوئين له

وبعد سنة مضت تصالح اسماعيل باشا مع أخوته هؤلاء وأقطعهم قلعة (عقرا)والظاهر أنهم لم يخلدوا إلى السكينه أيضا مما اضطر اسماعيل باشا الى أن يزحف عليهم مرة أخرى ويضطرهم إلى التسليم والخضوع .

---

(١) ٥١ · (اولياجابى) :

(٢) (كتاب اربعة العصور الأخير للعراق ص ٩٨) المؤلف

وفى سنه (١٢٠٣ هـ) اتفق اسماعيل باشا مع ابن أخيه (قبادبك) وزحفا معا إلى قلعة (عقرا) التى كان بها أخوته طيفور بك ولطف الله بك وحاجى خان بك وضربا نطاق الحصار على المدينة بعد أن تمكنوا من القبض على طائفة من سكانها وترحيلها إلى الموصل . وبعد فترة من الزمن انحسمت مادة النزاع ومالوا إلى التفاهم والوفاق فأعطاهم اسماعيل باشا ناحية (كنديز) بدلا من قلعة عقرا التى أعطاها لقباد بك جزاء عمله . ولكنه بعد سنة من ذلك أخذها منه وعين نجله (مراد خان) حاكما عليها . وما كان من قباد بك إلا أن ذهب إلى السليمانية لاجئا لأميرها عبد الرحمن باشا .

وفى سنة (١٢٠٥) زحف اسماعيل باشا إلى قرى الشيخان واشتبك مع اليزيديين فى القتال وقتل أميرهم (تيمور أغا) ورجاله وعين خنجر بك أميرا عليهم ثم عزله وسجنه فى سنة ١٢٠٦ هـ وعين بدله (حسن بك جولو) .

وفى سنة (١٢٠٩) ساد الوئام بين اسماعيل باشا وبين أخوته. وفى سنة (١٢١٣) اشتبك قبادبك أمير زاخو فى القتال مع الأمير محمد أمير البوتان = البختان من جراء نهب عدة قرى من بلاد البوتان . راحت ضحيتها كثير من الأنفس والأرواح . وفى هذه السنة نفسها توفى اسماعيل باشا إلى رحمة الله بعد حكم دام ثلاثين سنة وتولى الإمارة إبنه (مراد خان بك) ولكن أخاه محمد طيار بك وكذا قباد بك لم يخضعا له وتقاتلوا مدة من الزمن إلى أن توسط بينهم محمد باشا الجليلى والى الموصل فاصطلحوا . وفى سنة (١٢١٤) اشتبك قبادبك أمير زاخو مع حسن بك أمير اليزيدية بشيخان فى القتال ذهب ضحيته كثير من الناس .

وفى سنه (١٢١٥) أرسلت حملة عسكرية قوية إلى العمادية بقيادة ابراهيم باشا أمير السليمانية وبعد قتال شديد قصير أسفرت المعارك عن احتفاظ (على مراد خان) بإمارته فى العمادية وأعطيت قلعة (عقرا) لقباد بك وفى سنة (١٢١٨)

تولى قبادبك إمارة العماديةوصار لقبه(قباد باشا) . وكان على باشا والى بغداد قد أرسل محمد باشا حاكم كويسنجق بقوة عسكرية لمعاونة قباد باشا وتعضيده فى بسط نفوذه على بلاد الإماره التى خضعت كلها ماعدا العمادية وعقرا وقلعة القمر التى لم تستسلم له قط .

وفى سنه(١٢١٩) أغارت عشيرة المزورى القديمةعلى(قباد باشا)وألقت القبض عليه وزجته فى أعماق سجن العمادية ثم أطلقت يد النهب والسلب فى أمواله وممتلكاته وكذا ممتلكات وأموال(لطف الله بك) و(طيفور بك) و(حاجى بك) أنجال اسماعيل باشا المرحوم ولبث قبادباشافى سجن عمه عادل باشا أمير العمادية إلى ماشاء الله .

وفى نفس هذه السنة نزلت ويلات ومصائب كثيرة على بلاد الإمارة البادينانيةمن جراء ظلم الأمراء والحكام وفساد الادارة ، حيث كان(أحمد بك) أخو قبادبك قد التف حوله كثير من الأشرار يغيرون على القرى والدساكر ينهبون ويسلبون الناس أموالهم ، حتى أنهم حاصروا العماديةمدة من الزمن.

وفى سنة(١٢٢٠) أرسل على باشا والى بغداد إلى العمادية قوة عسكرية هائلة مكونة من قوات خالد باشا وعبد الرحمن باشا البابانيين ومحمد باشا السورانى حاكم كويسنجق ، غير أن الخلاف دب بين هذين الأخيرين ، فجر إلى احتدام القتال بين عبد الرحمن باشا وبين على باشا والى بغداد . حيث كسر عبد الرحمن باشا جيش الموصل الذى كان بقيادة أخيه خالد باشا فى نواحى (آلتون كوبرى) ونهب هذه البلدة نهبا كاملا . ولما وصل جيش على باشا والى بغداد إلى ساحة القتال ،قامت معركة حامية بين الطرفين على مقربة من (كركوك) حيث لحقت هزيمة منكرة بجيش عبد الرحمن باشا الذى انسحب إلى مضق بازيان الشهير .

وبعد هذا الانتصار أعطى (على باشا) إمارة العمادية لمحمد باشا الجليلي والى الموصل الذى أرسل الخلع والأنعامات الى (عادل باشا) أمير العمادية وأبقاه فى منصبه.

وفى سنة (١٢٢٣ هـ) توفى إلى رحمة الله (عادل باشا) وتولى مكانه أخوه (زبير باشا) بموافقة والى بغداد فأطلق سراح قباد باشا الذى كان سجينا فى العمادية ومنحه قلعة (زاخو) ولكنه لم يغادر العمادية وأقام فيها.

وأخيرا دب الخلاف والشقاق بين زبير باشا وبين نعمان باشا والى الموصل مدة من الزمن مما أدى الى تفاقم الحالة ونزول كوارث شديدة على أهالى الطرفين ورعاياهما. وهكذا تجددت تلك العداوة والبغضاء اللتان كانتا موجودتين من عهد بايرام باشا بين رحال ورؤساء الأسرة الجليلية فى الموصل(١)

وهذا وكان (سعيد باشا) أميرا للعمادية حين هاجمها (محمد باشا كوره) أمير السوران. ورغم استماتته فى الدفاع عنها تمكن (محمد باشا) من الاستيلاء عليها ونصب أخاه (رسول باشا) حاكما عليها.

وبعد انقضاء أيام (محمد باشا كوره(٢)) ظهر (اسماعيل باشا البادينانى) حاكم العقره السابق، على المسرح واسترد زمام الامارة، وتمكن من فرض سلطانه على جيرانه وأمعن فى مضايقة (اينجه بير قدار محمد باشا) متصرف الموصل ولم يتيح له فرصة التدخل فى شؤونه، ولكن لم يمض على ذلك طويل وقت حتى دهمه الصدر الأعظم (محمد رشيد باشا) بجيش عرمرم وحاصره فى العمادية وتمكن من إلقاء القبض عليه وأرساله الى بغداد وهنالك ألقى به فى

---

(١) ملخص من كتاب (غرائب الأثر فى حوادث ربع القرن الثالث عشر) لياسين العمرى، مطبوع فى الموصل سنة ١٩٤٠ — المؤلف

(٢) اى الأعمي: — المترجم

غياهب السجن حتى أدركته المنية فى عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) وهكذا أسدل الستار على هذه الامارة الوطنية أيضا .

٢٢ — امارة داسنى:

ترى (دائرة المعارف الاسلامية أن عشيرة (داسنى) هذه كانت قاطنة فى منطقة (دهوك) وأن المدينة التى تحمل هذا الاسم كانت تخضع لها وأخيرا انتزع أمير البادينان هذه المدينة من لواء (داسنى) وضمها الى البادينان ، وبعد ذلك لما توجه السلطان سليمان القانونى لفتح بغداد انتزع امارة (أربل) من الأمير (عزالدين السورانى) وأعطاها (حسين بك) رئيس العشيرة الداسنية ثم قتل الأمير عز الدين . وبعد فترة مات سليمان بك السورانى أخو عز الدين فانتقلت بوفاته جميع البلاد السورانية الى حوزة (حسين بك) الداسنى.

وفى تلك الأثناء كان الأمير (سيف الدين بن مير حسين) وهو من أحفاد وسلالة السورانيين مقيما فى جهة تدعى (صوما قلق) ، ولما جاءته الأنباء بانتقال الحكم فى السوران إلى أيد أجنبية بادر الى قتال (حسين بك) الداسنى، وبعد مصادمات عنيفة بينهما انهزم حسين بك الداسنى شر هزيمة . ثم استدعى الى استانبول فذهب اليها وهنالك أعدم لعدم محافظته على ما أقطعه اليه السلطان من البلاد .

امارة — (السوران = السهران)

يقول (شرفنامه) ان نسب أمراء هذه الأسرة السورانية يرجع الى

بغدادي يدعى (كولوس)[1] الذى كان ابنا لرجل من رجالات بغداد البارزين ثم ألقت به الظروف الى هذه الجهات النائية فدخل منطقة (أوان) وأقام بقرية (هوديان) محترفا الرعى .

ويقول الدكتور (فريج) ان لفظ (كه ولوس = كولوس) لا يشبه اسما من الاسماء العربية. بل هو لفظ كردى يطلقه أكراد تلك الجهة على الذى سقطت أنيابه أو يطلقه على الأحوال .

وفى الواقع ان ماذهب اليه الدكتور (فريج) أقرب الى الصواب والعقل. هذا وكان لكلوس ثلاثة أبناء هم (عيسى وابراهيم وشيخ ادريس) وكان عيسى كبيرهم وعلى جانب عظيم من البسالة والحزم وفصاحة اللسان وجودة الطبع فلا غرو أنه كان محبوبا لدى المتصلين به . وصادف أن أشاع بعض المفسدين القلق فى تلك الجهات فاضطر أهلوها الى اتخاذ (عيسى) هذا زعيما لهم للدفاع عنهم فحشد (عيسى) قوة يعتد بها فى فترة وجيزة تمكن بها من القاء الحصار على قلعة (آوان) (١) ، وأقام معسكره مع رجاله على صخرة حمراء تشرف على القلعة المذكورة ، وأخذ فى اعداد العدة للقتال والحرب حتى ألقى الرعب فى قلوب المعتصمين بالقلعة فأطلقوا عليه وعلى أنصاره لقب (أصحاب الصخرة الحمراء) ثم تتطور اللفظ الكردى الى (سوران) أى الحمر ، واشتهر سليل (عيسى)

---

(١) وفى شرفنامه (كلوس) ولعله محرف من (كه ولوس) بمعنى الذى سقطت باعيته العليا أو سنة منها . وذلك بلغة الاكراد فى تلك الجهات كما حققتها بنفسي في زيارتى لها فى خريف سنة ١٩٤٧ م. واما (اوان) فلا شك فى انها محرفة عن كلمة (روان) القلعة والمدينة الشهيرة الآن بـ (رواندز) بمعنى قلعة روان لأن (دز) بمعنى القلعة فى لهجة من اللهجات الكردية .
المترجم

بالسوران(١) . وأخيرا تم لعيسى الاستيلاء على القلعة ووضع بها أساس إمارة كردية، أدار دفة شئونها طويلا مستقلا تمام الاستقلال . وقد خلفه بعد وفاته إبنه (شاه على بك) الذى حكم مدة من الزمن. ثم قسم الإمارة بين أولاده (مير عيسى) و (مير بوداق) و (مير حسين) و (مير على) ، وانسحب هو إلى قلعة (حرير) التى كانت من نصيب (مير عيسى).

وقد تعرض الأمير عيسى أخيرا لهجوم أخيه (مير بوداق) فقضى عليه وتم الأمر لمير بوداق. فعلا شأنه وامتد سلطانه حتى شمل الأراضى الإيرانية حيث انتزع منهم ناحية (صوما قلق) .

وكان(شاه على بك (٢))- أخو الأمير عيسى وحاكم (شق آباد = شقا آباد)

---

(١) يقول كتاب(الأربعة العصور الأخيرة للعراق) ان سرخاب بك حاكم اردلان أرسل ابنه بهرام بك إلى رواندز واستولى عليها وصار حاكمها. فنشوء حكومة السوران يرجع الى (بهرام بك)وقد عاشت ثلاثة قرون إلخ. ويذكر الدكتور فريج كذلك ولدا (لسرخاب بك) يدعى «بهرام بك» ويقول ان سرخاب بك كان اميرأردلان فى عهد الشاه طهماسب. ويقول المؤرخ الشهير هامر فى مبحث زحف خسرو باشا إلى همذان ان أمير أردلان والسوران فى هذه الاثناء كان (خان أحمد خان). فيفهم من هذا ان امارة السوران كانت فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى فى حمايه الامارة الاردلانية .(ج—٩) .

(٢) يقول الدكتور فريج فى كتابه(كوردلر ص٢٦٠): إن الأمير السورانى الذى قتل بير بوادق، هو الأمير سيدى بن شاه على بك ،فى حين أن هذا المؤرخ نفسه يقول فى ص٢٥٠ من كتابه « إنه كان لشاه على بك السورانى أربعة أبناء هم مير عيسى ومير بوادق ومير حسين ومير على. ويقول فى الصفحة التى تليها ان الأمير على قتل(بير بوادق بك) فاذا كان الأمر كذلك يكون اسم مير سيدى خطأ. ولا شك فى ان هذه الحادثة وقعت فى عهد السلطان مراد الثالث (٩٨٢-١٠٠٣هـ) والظاهر أن شاه على هو ابن (مير عيسى) الذى كان له اخوان فقط وهما ابراهيم وشيخ ادريس .

المؤلف

أميرا على جانب كبير من الحزم والعزم والشجاعة والروية ، فوطن النفس على أن ينتقم لأخيه من (بير بوداق) فجاهره بالعداء واشتد الخلف ونشب النزاع بينهما إلى أن قتل (بير بوداق) وأخذ هو يستولى على البلاد شيئا فشيئا فانتزع (أربل) و (الموصل) و (كركوك) من القزلباشية (الإيرانيين) ووضع بذلك أساس إمارة كبيرة قامت فى تلك المناطق وكانت مستقلة فى شئونها تمام الاستقلال . ولما أدركته الوفاة ترك ثلاثة أبناء هم الأمير (سيف الدين) والأمير (عز الدين شير) و (سليمان بك) .

وبعد وفاة الأمير (سيف الدين) من غير عقب انتقل الحكم إلى أخيه الأمير (عز الدين شير) الذى اتخذ مدينة (أربل = هولير) مركزا لإمارته وحكم فيها ردحا من الزمن حتى مر بتلك الجهات ، السلطان سليمان القانونى وهو فى طريقه إلى بغداد لغزوها فألصق رجال السلطان به تهمة ملفقة أدت إلى إصدار السلطان أمرا بالقبض عليه وقتله فى عام ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) . وقد أقطع السلطان بعد ذلك (أربل) لحسين بك الداسنى(١) الذى نجح فى بسط سلطانه على كافة أجزاء الامارة السورانية ، بعد وفاة الأمير سليمان بن شاه على بك . وبعد فترة قصيرة تمكن الأمير سيف الدين ابن الامير حسين بن مير بوداق بن شاه على بك من انتزاع إمارة أجداده من هذا الأمير الداسنى الدخيل بعد حروب نشبت بينهما .

وقد أفضى هذا العمل من جانب الأمير (سيف الدين) إلى غضب الدولة العثمانية عليه واستيائها منه . فأصدرت أوامرها إلى (سلطان حسين) أمير العمادية وإلى أمراء آخرين من الأكراد بالزحف على الأمير (سيف الدين) فنفذوا أوامرها ولكنهم لم ينالوا منه شيئا . بيد أنه خدع أخيرا بنصيحة أحد الأمراء

---

(١) نسبة إلى العشيرة الداسنية = الطاسنية اليزيديه . المترجم

الأكراد وهو (غازى قران يوسف) أمير البرادوست. فذهب إلى استانبول ولجأ إلى بلاط السلطان سليمان، راجيا عفوه ولكن السلطان أبى عليه ذلك وأمر بقتله.

وبعد وفاة (مير سليمان بن شاه على بك) لجأ ابنه (قلى بك) إلى الشاه (طهماسب) بسبب استيلاء حسين الداسنى على إمارة السوران، كما سبق تفصيل ذلك؛ ونجح أخيرا (قلى بك) فى توطيد العلاقات مع استانبول فعينته حاكما على بلدة (السماوة). ولما رأى أهالى منطقة السوران أن الأمير سيف الدين قد أعدم فى استانبول التمسوا من السلطان تعيين (قلى بك) حاكم السماوة أميرا للسوران لأحقيته بذلك. وما لبث أن صدر المرسوم فعلا باسنادها إليه فقام بأعباء الحكم فيها إلى جانب إدارة دفة شئون جهة الحرير وقد عمر حكمه عشرين عاما كان خلالها مثال الحزم والعزم.

وقد خلفه فى الحكم إبنه (بوداق بك) فحكم سنتين دون ظهور قلاقل أو حدوث فتن. ثم قام فى وجهه أخوه (سليمان بك) ونازعه السلطان. فلم يقو (بوداق بك) على الصمود أمامه ولجأ إلى (سلطان حسين بك) أمير البادينان، طالبا مساعدته فأمده بنجدة. وفى عودته مع تلك النجدة إلى العقر أدركته الوفاة.

وهكذا تم الأمر لسليمان بك بلا منازع، وكان هذا الأمير عاقلا وحازما ومحبوباً من الأهالى، وقد جرد جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف فارس على عشيرة (الزرزا) وألحق بها هزيمة منكرة وأعمل فيها يد النهب والسلب فرفعت العشيرة شكايتها إلى استانبول، وأراد السلطان مراد أن يجرد حملة تأديبية على (سليمان بك) فى نفس الوقت الذى كان (سليمان بك) مغيرا فيه على الأراضى الإيرانية وغنم منها مغانم كثيرة، فقدم منها هدايا جزيلة لرجال السلطان، مما حمل السلطان على العدول عن تجريد الحملة التى كان قد فكر فى

تجريدها . وكان ذلك عام ٩٩٤ للهجرة ، حيث ذاعت شهرة (سليمان بك) فى شتى الأنحاء .

وبعد وفاة (سليمان بك) تولى الامارة من بعده ابنه (على بك) الذى كان معاصرا لشرفخان البدليسى صاحب كتاب (شرفنامه) الذى يذكر أمراء السوران حتى عهد هذا الأمير . وأما حالة أمراء هذه الأسرة بعد ذلك فلم تدرس بعد دراسة مستوفية .

ويقول صاحب كتاب (تاريخ نعيما) التركى انه فى عام (١٠٢٩هـ) حين قدم السردار خسرو باشا إلى الموصل ، بادر كل من (ميره بك السورانى) و (سيد خان العمادى) إلى معسكر السردار بصحبة جنودهما عارضين خدماتهما عليه فيؤخذ من هذا أن الذى تولى الامارة فى السوران بعد (على بك) هو (ميره بك) الذى يجهل التاريخ أحواله ومدة حكمه .

وقد ورد فى التقرير الإدارى الإنجليزى عن راوندز(١) أن مركز إمارة السوران هذه كان تارة فى (دوين) وتارة أخرى فى (حرير) أو فى (كاليفان) أو فى (راوندز) .

والظاهر أن قلعة (دوين) كانت مركزا لإمارة السوران فى القرن العاشر ودام ذلك حتى عام ١١٤٣هـ (١٧٣٠ م) حيث ضيقت الخناق عليها بعد ذلك ، الحكومة البابانية بالسليمانية واضطرت (شكه لى بك) أمير السوران

---

(١) هنالك تقرير انجليزى عن أحوال (راوندز) الاداريه وضع فى سنة ١٩٠٩ وطبع سنة ١٩٢٠ فى بغداد وهو يشتمل على خلاصة تاريخية عن السوران من عام (١٠٤٠ هـ ١٦٣٠ م) حتى العهود الأخيرة ، ويؤخذ من تلقيب أمراء السوران بلفظ (ميران بك) أو اسم ميره بك ـ وهو على مايظهر ابن سليمان بك ـ أصبح لقبا لأمراء هذه الأسرة ، ورغم عدم معرفتنا مصدر هذا التقرير ، إلا أننا مضطرون للأخذ بما جاء فيه عن أحوال أمراء السوران . المؤلف

إلى نقل مركز حكومته إلى (حرير) . ثم جاء إبنه (سليمان بك) فبنى قلعة حصينة فى (كلاسو) جبل (حرير) ، وله آثار أخرى علمية وعمرانية ، وكان الشيخ (حيدر ماورانى) شيخا للعلماء فى عهده . ومع كل ذلك لم ينج (سليمان بك) هذا من مضايقة البابانيين له ، وهو منزو فى قلعته بـ (حرير) . إذ كثيرا ما أقضوا مضاجعه وظلوا ممعنين فى مضايقته حتى توفى إلى رحمه الله عن سبعين عاما ودفن بقلعة (حرير) .

ويؤخذ من الروايات المحلية أن العلاقات قد ساءت بين هذا الأمير وبين حكومة بغداد، فترة من الزمن وقبض عليه لهذا السبب وسجن فى بغداد وظل بها سجينا حتى أدركته الوفاة .

وفى خلال ذلك كانت أخته (خانزاد) (١) تقوم بأعباء الامارة نيابة عن أخيها ، وقد خلفت آثارا خيرية عظيمة فى البلاد .

ولم يقو (على بك بن سليمان بك) على الصمود أمام البابانيين وهجماتهم المتواصلة ، فنقل مركز حكومته من (حرير) إلى قرية (كاليفان) فى وادى (آلانا) عند مدخل مضيق (رواندز) وذلك فى عام ١١٩٢ للهجرة (١٧٧٨ م) وقد اشتهر هذا المضيق فيما بعد باسم (كلى على بك) أى (مضيق على بك) نسبة إلى اسم هذا الأمير الذى حصن المضيق ببناء قلعتى (سردريا وسره شمه) فى الناحيتين المتقابلتين ، وقلعة أخرى فيما بين نهرى (راوندز) و بالكيان = باليكى) .

وقد خلف على بك هذا ابنه (أوغوز بك الكبير) فنقل مركز الحكومة إلى (راوندز) فى عام ١٢٠١ هـ ١٧٨٧ م

وأخذ سلطانه يمتد حتى وصل إلى (سيدكان) و(هوديان = هه وديان) وسهل

---

(١) يوجد الآن فندق من الطراز الحديث باسم هذه الأميرالكردية فى مصيف شقلاوه الشهير فى شمال العراق بنته الحكومة العراقية . المترجم

(ديانا)وإلى العشائر النصرانية التى أخضعها لحكمه نهائيا .

كما وسع ابنه (أحمد بك) حدود البلاد ، وسلك ابنه (أوغوز بك الصغير) مسلك أبيه فى إنهاض البلاد وتوسيع حدودها . وقد نشبت الحروب والقلاقل مرة أخرى بين البابانيين والسورانيين فى عهد (مصطفى بك بن أوغور بك الصغير) وأخذ المغيرون يهددون مركز الأمارة ردحا من الزمن، بيد أن مصطفى بك) انتصر أخيراً على خصومه وألحق بهم هزيمة منكرة وأمعن فى مطاردتهم حتى قتل الكثيرين منهم .

وبعد فترة عمد (مصطفى بك) إلى مصاهرة خصومه حسما للنزاع وقطعا لدابر الخلافات المستمرة فزوج ابنته (فاطمة هانم) لحسين بك بن محمود باشا البابانى . ثم شرع فى إصلاح شئون البلاد وتعميرها منتهزا فرصة هذا الصلح الذى حققته المصاهرة ، فعين أخاه (تيمور بك) حاكما على (هفديان = هوديان) ، وعين (يحى بك) على منطقة (سيدكان) و (برادوست) وأناب عنه ابنه (محمد بك) وتوفى هو فى سنة ١٢٤٩هـ .

حكومة (محمد باشا كوره = الباشا الأعمى) !

ألقى (محمد بك) القبض على كل من عميه . بعد وفاة أبيه مباشرة، ثم أخذ فى توسيع حدود الامارة فأخضع عشائر (شيروان) و (برادوست) مع عشائر (سورجى) لحكمه وطرد البابانين من حرير واستولى على مدينة (هولير = أربل) وأخضع عشيرة الدزهئى واستولى على بلاد(آلتون كوبرى) و(كوى) و (رانيه) واتخذ الزاب الصغير (زى كويه) حدا فاصلا بينه وبين البابانيين .

يقول المستر (بيللى فرزر)الذى قام بسياحة(١٨٣٤)الى (اشنو) ودرس عهد (محمد باشا) واستفاد من التقرير الذى وضعه الدكتور روس ـ ross الذى كان قدم من بغداد لمعالجة مصطفى بك والد محمدباشا ، يقول ما ملخصه ـ كان محمدباشا أميراو نذر يبسط سلطانه قبل هذا على منطقة صغيرة من كردستان مثل سائر الزعماء الكرد وكان ذكيا حاد الذكاء، يقال إنه ذات يوم سمع أن احد اخوته

الحبيب اليه قد دخل حديقة من غير اذن صاحبها وقطع تفاحة منها ، فما كان من الباشا إلا أن طلب إليه أخاه وقال له بأية يد قطعت التفاحة؟ فرد عليه أخوه : بيدى هذه ثم سأله بأى اصبع من أصابعك قبضت على التفاحه فقال : باصبعى هذا وعند ذلك يقول الأمير يجب أن يقطع اصبعك هذا وينفذه حالا . وفى الواقع أن حكاية مثل هذه تؤثر أيضا من (نادر شاه) شاه إيران العظيم.

هذا ويمكننا أن نذكر شيئا من المعلومات التاريخية عن عهد هذا الأمير ، نقلا عن الدكتور (روس) طبيب السفارة الانجليزية الذى كان فى بغداد حينذاك وطلبه الأمير محمد باشا اليه فى بلاد السوران. فيقول : إن محمد باشا كان قد جلب هذا الدكتور اليه لمعالجة عين والده (مصطفى بك) الذى كان قد أضر : ولم يكن قد ساح أحد من الأجانب فى تلك الربوع سوى هذا الدكتور والميرالاى (تايلور) . ولقد قام (روس) مع بايزيد بك عم محمد باشا من بغداد متوجهين إلى أربل فى (١٥ مايو سنة ١٨٣٣) حيث شاهد الحدود بين بلاد الامارة وبين عمال الترك فى غاية من الغرابة. إذ رأى بعينى رأسه وتحقق أن أهالى القرى الخاضعة لحكم رضا باشا والى بغداد فى حالة يرثى لها ، فقسم منهم هجروا قراهم وقسم اضطر للبقاء فيها تحت الضنك والإرهاب يضجون بالشكوى كلما رأوا إلى ذلك سبيلا . فاذا رأوا أحدا من عمال الحكومة قادما هربوا منه واختفوا عن الأعين ، فى حين أنهم قابلوا (بايزيد بك) من أول ما وصلا إلى بلدة (آلتون كوبرى) ، التى كان بينها وبين (اربل) قرى عامرة وسهول خصبة مكللة بالورود والزهور ولقد قوبلا فى اربل خاصة بحفاوة عظيمة ، وفى (١٩ مايو سنة ١٨٣٣) غادر روس اربل إلى (رواندز) التى كان على مقربة منها (مصطفى بك المسن) وبعد رحلة دامت بضع ساعات بين جبال مكسوة بالأشجار والغابات وعامرة بالقرى والبلاد وصل إلى قلعة (دمدم) مسكن ومقر (مصطفى بك) حيث كان ظاهرا منه (وادى رواندز) واستحكاماته الشهيرة التى كانت على مسافة ساعة منه . و (دمدم) هذه قلعة صغيرة مبنية على صخرة عالية

بناء محكما مطلة على قرية ذات ماية بيت ، وواقعة وراء تلك الصخرة العاتية ومستورة بالبساتين والحدائق الغناء، حيث كانت تظهر هنا مناظر مدينة (روانذر) التى كان يقدر عدد سكانها الفى بيت وأسرة ، وتحيط بها من كل الجهات طوابى واستحكامات وتقع على نهر ؟ (فما ذهب اليه (روس) من أنه الزاب الكبير غلط) وما سمح لروس الذهاب فيما بعد إلى رواندز والتجوال فى بلاد السوران، وفى النهاية يذكر الأزياء والقيافات. فيقول إن الأهالى كانوا فقراء وجهلاء يلبسون ملابس محلية بسيطة عبارة عن سروال وقميص من جوخ ولكن الأغنياء منهم كانوا يلبسون مثل أهالى بغداد وكان كل يوم يأكل فى منزل الأمير، أكثر من عشرة أنفار من القرويين .

هذا وكان (مصطفى بك) قد أصيب بالعمى الذى لا دواء له ، وكان سبب عماه هو أنه ذات يوم قائظ صعد جبلا فشعر حرا شديدا وبادر إلى وضع الثلج على رأسه ونام عليه أيضا .

كان لمحمد باشا أربعة اخوة هم تمورخان وسليمان بك اللذان كانا مقيدين بالسلاسل فى قلعة ، على مسافة خمس ساعات من رواندز وأحمد بك الذى كان حاكم اربل . ورسول بك كان فى الجيش مثله كمثل ولى العهد للامير.

وظاهر من كلام الدكتور (روس) أنه لم يكن راضيا عن هذه الرحلة إذ يشكو من قلة العناية والاحتفاء به ، حيث يقول إن الكرد أشداء شرسون لا يعجبهم ولا ينال رضاهم، غير الحرب والطعان. ويظهر أن هذا هو مقتضى حياتهم القاسية فى هذه البلاد حتى أن أطفالهم أيضا يعدون انفسهم للحرب والقتال ويقال إن جيش بغداد لا يمكنه الصمود أمامهم وأنهم استولوا على بلدة (آلتون كوبرى) فى ظرف ساعة ، ويقولون إن الغرض من أستيلائهم على هذه المدينة ومدينة (أربل) هو تأمينهم الحصول على الغلال اللازمة لتموين قراهم وإلا فليس لهم طمع فى بلاد الغير ولا سيما أن بلادهم من المناعة بمكان يستحيل معها على العدو اقتحامها .

ثم يقول ان الباشا قدخصص أطراف (أربل) لمعيشة مشايخ بلاده ، كما أن عشيرة (طى) العربيةخاضعة لحكم الباشا ، ولهذه العشيرة قوة عسكرية فى خدمة الباشا معسكرة حول العقرة .

ويحترم الناس كثيرا الباشا إما رغبة فى عدله أو رهبة منه لأن له إدارة حازمة وعدلا فى تنفيذ الأوامر ، مما قطع دابر الفساد واللصوصية فى أنحاء البلد واستتب الأمن فيها ، لدرجة أن الأهالى حتى فى القرى النائيه ينامون وبيوتهم أبوابها غير مغلقة طول الليل. ومن النوادر وقوع حوادث تستوجب حكم الإعدام . وحكم السارق قطع اليد ، كما أن حكم قطع الطريق قطع الرجل وعقوبة بعض الذنوب الأخرى سمل عين أو عينين اثنتين .

وحدث أن شيخا من شيوخ « طى » كان مع عشيرته قد لجأ إلى الباشا ، حدثته نفسه أن يقدم على ضرب قافلة تمر من البلاد وسلب أموالها ، فما كان من الباشا إلا أن أرسل عشرة من رجاله الأكراد الى هذا الشيخ غداة الحادثة لتقطع رأسه من غير ضجة ولا قتال .

كان الدكتور فى (أربل) ضيفا على حاكمها (أحمدبك) فيقول انه ورد عليه وهو هناك شخص من قواد الباشا يقال له (سلطان بك) فقال له أنه قد اتصل بجيش الباشا الذى يتراوح عدده بين ٢٠ ألفا و ١٥ ألف وكان معسكرا بالعقرة التى كان قد استولى عليها منذ مدة قليلة . حيث كان الباشا نفسه يقود الجيش المهاجم الذى تمكن من الاستيلاء فى مدة ثلاث ساعات ، الأمر الذى كان قد أثر فى نفوس أهالى العمادية وزعزع ثقتهم بأنفسهم وحملهم على أن يقرروا تسليم القلعة من غير قتال . ويقول الدكتور انه فى (٣٠ مايو) ورد خطاب من الباشا إلى حاكم أربل يأمره فيه انتظارى بها مع تقديم الاحترام اللازم .

وفى (٦ مايو) جاءت الأنباء بأن العمادية تم الاستيلاء عليها وأن سيدباشا (سعيد)

حرم من إمارة البهادينان وعين (موسى باشا) بدله حاكما على العمادية، كما أن سليم باشا عين حاكما على العقرة وهكذا خضعت جميع بلاد البادينان لحكومة (رواندز).

وأخيرا فى (٣ يونيو)، ورد أمر من الباشا بإرسال الدكتور (روس) إلى معسكره بالعقرة فيذهب الدكتور اليه ويجتمع به هنالك ثم يصفه ويقول، أنه يناهز الخمس والأربعين من عمره بهى الطلعة حلو الحديث أسمر اللون طويل اللحية أعور العين مربوط إحدى الساقين، لأن دابته كانت رفسته وخدشته وكان يتكلم بصوت خفيف بطىء. وسأل عن أصول التدريس والتعليم فى انجلترة وغيرها من المسائل العامة. ثم عطف على العلاقات بين الانجليز والروس وإيران وأظهر اهتمامه بها. وبعد ذلك استوضحنى عن الأعمال الطبية وأثرها حتى ذكر الطاعون والكوليرا فسألنى عن طريقة مكافحتهما ومعالجتهما ثم وقف فى مسألة البحث عن الأسلحة والبنادق. وكان ينام فى الليل متأخرا فلذا ما كان يصحو من النوم قبل الساعة التاسعة والعاشرة قبل الظهر.

ثم يقول الدكتور إن عدد جيش الباشا لم يكن أزيد عن عشرة آلاف لأن نصفه الثانى كان قد أرسله إلى الخارج بالسوران، على أن نخبة عساكره المنظمة كانوا ثلاثة آلاف من الجنود الحرس الأشداء، ضاربين خيامهم حول خيمة الباشا وكان الجنود المشاة منهم مسلحا بالبنادق والقربينات. والخيالة بالرماح والقربينات، وكان هذا الجيش مرتبا بطريقة خاصة يمكنه فى الوقت المناسب زيادة عدده إلى خمسة الاف. ولقد كان الجيش فى غاية النظام والدربة يسوده السكون والانتظام التام. لا يسمع لأحد صوت ولا جلبة فى المعسكر الكبير، بحيث كان الباشا فى مدة خمس دقائق يحرك هذا الجيش إلى الجهة التى يريدها. وكان يجتمع كل ليلة فى خيمة الباشا أكثر منماية ومايتين من رجال العشائر المختلفة ويأكلون الطعام بها. وكان الباشا قد أمر بشراء ما يلزم للجيش أثناء

الحرب من الذخائر والعتاد بضعف قيمته ، وهذا كان منتهى العدل والإنصاف.

ولقد غادر الدكتور ، المعسكر بعد بضعة أيام إلى الموصل فأصحبه الباشا قوة محافظة مؤلفة من العرب برئاسة (أبى سليمان) فأوصلته هذه القوة حتى الحدود العثمانية على مقربة من الموصل . ويذكر الدكتور ، هنا ما كان عليه الادارة السورانية من الانتظام والحزم وما كان عليه الحال فى البلاد العثمانية من الفوضى وسوء الادارة ، حيث يقول إننا ما كدنا ندخل الحد العثمانى إلا وفوجئنا بطلب البخشيش من كل ناحية مهددين ايانا بالقتل إن لم نعطه بالسهولة، فى حين أن هذه العادة القبيحة لم تكن موجودة فى أراضى (حكومة رواندز) وخلاصة القول ان الإدارة العامة فى حكومة رواندز كانت أرقى وأقرب إلى الانصاف من الإدارة فى حكم والى بغداد المسمى (على باشا) من كل الوجوه

يقول (فرازر) ان دراستى الخاصة أثبتت لى أن الباشا كان على جانب عظيم من الحرص والحيطة والحذر مع بعد النظر ودقة الشعور ، وكان مع عدله المفرط لايتردد فى إراقة الدماء عند اللزوم . ومن ذلك أنى سمعت أن بعضا من العشائر الكردية كانت قد أبدت شيئا كثيرا من الشدة والقسوة ضد جيوشه حين محاصرته لقلعة العمادية ولم يكتفوا بذلك بل استمروا فى قتالهم وفظايعهم حتى بعد تسليم العمادية ، مما اضطروه إلى سوق قوة خاصة إلى هؤلاء العتاة القساة فأدبتهم تأديبا صارما حتى أبادتهم عن آخرهم .

لم يكن (لمحمد باشا) ثقة بالسياحين الأجانب ، فما كان يسمح لهم بالطواف فى أنحاء بلاده . وهذا لايمنع أنه كان يبيح للتجار والمسببين من أهالى البلاد المجاورة ، دخول بلاده ومزاولة التجارة فيها . ولكنه ما كان يقبل أحدا من بلاد خصومه أن يدخل بلده ، مهما كانت الظروف وإذا قبض على أحد منهم عد أسيرا .

ثم يقول (فرازر) انه كان من الخطأ بمكان أن أدخل بلاد السوران حسب

الأحوال والأصـول السائدة هناك. ومع ذلك فقد ثبت لى بعد التحقيق أن الباشا لم يكن فى (رواندز) وأنه منذ عشرة أيام بعيد عنها فى جهة قريبة من الموصل يخوض غمار معركة من معاركه. فيلزم للحصول على إذن منه بالدخول والسياحة وقت طويل وأنا فى غنى عنه ولذلك عدلت عنه .

وقد أثبتت لى دراستى أنه كان هناك رواية شائعة بان (محمد باشا) قد اغتصب الامارة من والده بالقوة، ولكن الصحيح هو أن والده فى أواخر أيامه قد تنحى عن الحكم وعكف على الزهد والتقوى سالكا طريقه الصوفية. ورأى من المصلحة أن يترك أمور الإدارة فى البلاد لإبنه الأمير محمد الذى ما كاد يتسلم زمام الأمور فى يده، إلا وبادر إلى تنظيم الأمور واصلاح الشؤون وإخضاع الثائرين والمنشقين ثم بادر إلى إنشاء جيش قوى مدرب، عدة للمستقبل. ولقد صادف تولى محمد باشا الإمارة أن قامت الحرب الضروس بين إيران وبين الروس فأراد ولى عهد إيران وهو عادة يكون حاكما لولاية تبريز أيضا أن يضرب الأمير محمد ويتخلص منه، غير أنه بدأ أولا بضرب بعض العشائر الكردية والامارات القومية الأخرى ، حيث ضررها عليه أكثر وأثبت . فانتهز الأمير محمد الفرصة السانحة فاسترد البلاد السورانية التى كانت قد استولوا عليها سابقا ثم عطف عنان همته، نحو بلاد (أربل) و (العمادية) فأخضعها لحكمه، وهكذا وصلت حدود سلطانه إلى (كركوك) ونهر (دجلة) وأصبح لديه جيش قوامه خمسون ألفا من الجنود نصفهم مدرب تمام التدريب ذو راتب دائم ، والنصف الآخر كان مؤلفا من رجال القبائل والعشائر . »

هذا وكان (على رضا باشا) والى بغداد يقف إزاء هذه الحالة مكتوف الأيدى لا يدرى ما العمل لمقاومة بطش هذا الأمير الكبير وشدة بأسه. وأخيرا وجد نفسه مضطرا إلى اصطناع الملاينة وتفضيل السلام على اشعال نيران الحرب وبادر إلى الاعتراف بحكومته مستصدرا رتبة (الميرميران) له من استانبول .

وفى عام (١٢٤٩هـ) — (١٨٣٣م) جهز محمد باشا هذا جيشا كبيرا على أتم دربة وأكمل نظام، وبعث به إلى بادينان بتحريك من (موسى باشا البادينانى) الذى كان ينازع أميرها السلطة، فنشب القتال بين الفريقين ودارت رحى معارك عديدة مع اسماعيل باشا البادينانى أسفرت عن سقوط قلعه العقره، فى قبضة (محمد باشا) الذى توجه من هنالك إلى العمادية وحاصرها. ثم أسر حاكمها (سعيد باشا) بعد أن سلمت إليه المدينة. ثم شد رحاله وهاجم اليزيديين فى (بعشيقا) فقتل منهم الكثيرين، وألقى القبض على رئيسهم (على بك) وأرسله الى (رواندز) وأبقاه هنالك سجيناطيلة عامين ثم قتله: وجاء فى رواية أخرى أن (محمد باشا) توجه بعد ذلك إلى (جزيرة ابن عمر) وانتزع مدينتى (ماردين) و (نصيبين) من حاكمها (بدر خان بك) العزيزى.

وصفوة القول ان (محمد باشا) الشهير بالباشا الأعمى (باشا كوره) قد فتح الكثير من البلدان فى فترة وجيزة وامتدت حدود بلاده من (رانيه) وهضبة (بشدر) حتى (نصيبين) و (ماردين)، ومن (كلاشين) إلى (مخمور).

ولا شك فى أن ازدياد نفوذ (محمد باشا) وعلو شأنه فى تلك الجهات قد أقلق بال الدولة العثمانيه وأقض مضاجع رجالها فجرد السلطان (محمود) عليه جيشا كبيرا بقيادة (محمد رشيد باشا باشا) (١) وأمر بأن يرافق كل من (على رضا باشا) والى بغداد و (محمود باشا) والى الموصل، الصدر الأعظم فى أداء مهمته.

ولما علم الأمير محمد باشا بتلك الأنباء اعتصم بقلعة (رواندز) واستعد للمقاومة والنضال. وبعد أن استولى جيش الصدر الأعظم على منطقة بادينان

---

(١) فى الاصل (مصطفى رشيد باشا) وهذا غير صحيح انظر الحاشية فى ص ٢٤٦ من كتاب (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان) تعريب المترجم سنة ١٩٣٩.

توجه صوب (رواندز) فى الوقت الذى كان فيه جيشا بغداد والموصل متجهين نحو (اربل) . وقد كانت الأغلبية العظمى فى جيش الصدر الأعظم و(على رضا باشا) من العشائر الكردية ، فعسكر هذان الجيشان فى سهل(ديانا) و(حرير) وكان الأمير محمد باشا محتلا مضيق على بك (گهلى على بك) فبدأ الصدر الأعظم فى مفاوضة (محمد باشا) حقنا لدماء المسلمين وقد حذره من مخالفة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، قاطعا على نفسه العهود والمواثيق بألا يحيق به ضرر ما ، إذا استسلم للدولة العثمانية، وقد نجح الصدر الاعظم فى مسعاه وانتهت المفاوضات بتسليم (محمد باشا) نفسه إلى الصدر الاعظم فأرسل إلى الآستانة وهنالك صدر عنه عفو سلطانى . وبينا هو عائد إلى بلاده عن طريق (طرابزن) صدر الامر بالقاء القبض عليه وقتله كطلب (على رضا باشا) والى بغداد الذى خشى عاقبة عودته إلى بلاده سالما (١)

---

(١) لما زاد الميجر ميلنغ ، مدينة (وان) سائحا كان (رسول باشا) واليا عليها . وذلك فى سنة ١٨٧٠ م تقريبا ، فسأله الميجر عن قضية أخيه (محمد باشا) وما آل إليه أمره بعد التسليم فأجابه (رسول باشا) بما ملخصه؛ «أراد محمد باشا حوالى سنة (١٨٣٤) أن يعمل على إنقاذ بلاده من براثن الحكم العثمانى ليستقل بها وينشىء إمارة من أسرته فيها . حيث كان إلى جانب صفاته العسكرية الممتازة، إداريا حازما وعادلا، ولهذا كان فى مكنته بجيشه الكردى المدرب أن يبسط سلطانه على الولايات المجاورة مثل كركوك والموصل ، وكان (رسول باشا) نفسه قائدا للجيش ووليا للعهد ، فأرسل الباب العالى جيشا بقيادة (رشيد باشا) الذى كان صديقا شخصيا لمحمد باشا لانتزاع (رواندز) منه، ولكن الحكومة كانت راغبة فى إنها هذه المسألة دون قتال فاستغلت هذه الصداقة الشخصية ستارا للخيانة (محمد باشا) الذى خدع ووقع فى المكيدة التى دبرها له. لأنه أجاب طلب (رشيد باشا) وذهب إلى معسكره لأجراء المفاوضات حيث=

وقد تولى إمارة السوران بعد الامير (محمد باشا) أخوه (أحمد بك) وأصبح رسول باشا حاكما للعمادية . و بعد سنتين قتل (أحمد بك) إثر مكيدة دبرها له أبناء عمومته فخلفه أخوه (سليمان بك) الذى لم يدم عهده أكثر من ستة أشهر . ثم أبعد عن أريكة الحكم لضعفه . وقد جاء رسول باشا إلى العمادية وتولى منصب الامارة فيها تحقيقا لرغبة الاهالى وتعضيد الحكومة له ، وعمر عهده سبع سنوات دون حدوث قلاقل أو إثارة فتن ، ثم حدث ان امتنع بعد ذلك عن أداء الاموال الاميرية للحكومة المركزيه فجردت عليه قوة تأديبية اشتبكت معه فى معركتين داميتين فى (ديره) و (خليفان) انسحب عقبهما إلى (رواندز) ، ولما ضاق به الامر هنالك اضطر إلى الالتجاء إلى (اشنو) ولبث هنالك خمس سنين متوالية ، وألحقت إمارة السوران خلال ذلك بالادارة العثمانية المباشرة . وبعد فترة من الزمن توسط ولى عهد إيران لدى الباب العالى بشأن (رسول باشا) فصدر عنه عفو سلطانى وعاد إلى (بغداد) وأقام فيها حيث خصصت الحكومة له راتبا شهريا قدره (٧٥) جنيها عثمانيا . ولما قامت حرب القرم بين الدولة العثمانية والروس ساهم فيها (رسول باشا) كقائد

قبض عليه وأرسل مخفورا إلى الآستانة ، وأظهر السلطان نحوه الكثير من ضروب العطف ، وقر قرار الباب العالى على تعيين (محمد باشا) واليا عاما على كردستان ومنحه سلطات واسعة ، فأركبوه سفينة حربية وأعادوه إلى بلاده ولكن مضى (٣٥ عاما) ولم يصل إليها بعد .

وقد سلم (رسول باشا) نفسه أيضا بعد تسليم أخيه وأقام فترة فى بغداد ثم اشترك فى حرب القرم قائداً لجيش كردي وأسدى خدمات جلى فى هذه الحرب ومعاركها الطاحنة فعينته الحكومة متصرفا للواء (قارص) مكافاة له ، ثم انتقل لمتصرفية (وان) اهـ كتاب (حياة ابتدائية فى كردستان ص ٨٥) المؤلف

للقوات الكردية والمتطوعين من العثمانيين فى (أرضروم = أرزن الروم) ثم عاد الى بغداد عام ١٢٧٥ للهجرة . ثم سافر بعد ذلك إلى الحجاز ثم إلى الآستانة وبعدئذ عين متصرفا لمقاطعة (وان) وامضى فيها ثلاث سنوات اختار بعدها الاقامة بارضروم ، وظل بها مقيما حتى توفى إلى رحمة الله سنة (١٣٠١ ﻫ) .

٢٤ — امارة البابانه :

يقول صاحب (شرفنامه) ان بلاد إيران هى موطن البابان القديم وأن (بير بوداق بك) مؤسس هذه الأسرة قد وضع أساس حكومة قوية بانتزاعه إيالة (لارجان) (١) من العشـــيرة الزرزائية ، وبلاد السوران من عشائر شيوى (٢) ، وباستيلائه على منطقتى (مشيا كرد) و (سلدوز) من القزلباشية . وكان لقب هذا الأمير (به به = بابا) ولذا سميت الأسرة كلها بالبابان أو البابانية ، وبعد فترة قتله الأمير (سيدى) ـ الظاهر انه ابن (شاه على) حاكم السوران ـ فى إحدى رحلات القنص والطراد .

ولما كان (بير بوداق) عقيما لم يعقب أولادا قط، فقد تولى الأمارة من بعده ابن أخيه (بوداق بك بن رستم) الذى حكم سنتين فقط ثم اغتصب الامارة منه أحد رجالهم المدعو (بير نظر) .

وبعد وفاة (بير نظر) انتقلت البلاد الأصلية من الامارة إلى حكم الأمير

---

(١) كان مركزا لمنطقة بين الرى وطبرستان القديمتين (المؤلف) . والظاهر انه لاعلاقة لهذا المركز المتطرف البعيد ، بالموضوع بل الصحيح إن الكلمة محرفة عن (لاهيجان) الواقعة بمنطقة صاوجبلاق التى فيها أيضا موطن الزرزائية . المترجم

(٢) كذا فى الاصل ، وعبارة شرفنامه هكذا ، انه اخذ سيوى ومشيا كرد من السوران وولاية سلدوز من القزلباشية ... الخ — المترجم

(سليمان) ، وحكم (مير ابراهيم) ما تبقى من البلاد .

وقد سلك هذان الأميران فى بادىء الأمر سبيل الصلح والوئام وكلاهما قانع وراض بما فى حوزته من البلاد، ودام ذلك فترة، بيد أنهما اختلفا أخيرا فيما بينهما فتنازعا وظلا يتقاتلان حتى قتل الأمير (سليمان) خصمه الأمير (ابراهيم) وضم بلاده إلى حكمه الذى عمر بعد ذلك خمسة عشر عاما . وقد ترك الأمير سليمان من بعده أربعة أبناء ، ومات الأمير ابراهيم عن ثلاثة أبناء ، وبذلك تكونت أسرتان ظلتا تتنازعان على الامارة وتتقاتلان بغية الانفراد بها إلى أن جاء عهد السلطان سليمان القانونى (٩٢٦ — ٧٤، ه)وما كان قد تبقى فى حوزة أبناء هذه الأسرة سوى سنجق (مركه = مرجه) الذى كان يحكمه طفل يدعى (خضر بك) ابن الأمير (حسين بن سليمان بك) وبعد وفاة (خضر بك) هذا ، انقرضت أسرة (سليمان بك) نهائيا (١) .

إمارة البابان الآخيرة :

يقولون إن رجلا يدعى (فقيه أحمد) هو الذى وضع أساس هذه الأسرة، وأنه كان سليلا لأمراء السوران ومن عشيرة (نور الدين) إحدى بطون قبائل (بشدر = بزدر) الشهيرة . وهنالك بعض روويات محلية أخرى عن حياة هذا الرجل تلوكها الألسنة فى محيط البشدريين. خلاصتها أن الفقيه أحمد تمكن من حشد أناس كثيرين حوله واتخذ لنفسه لقب (به به — بابا =أب) فعلا شأنه وزادت شوكته ثم خلفه ابنه (سليمان بابا) وسلك مسلك أبيه فى نشر لواء النهضة والتقدم حتى اعتبر بحق المؤسس البارز للامارة ، وكان يتمتع

(١) يؤخذ من رواية (شرفنامه) هذه أن الاسرة البابانية الثانية قد انقرضت فى اوائل القرن الحادى عشر الهجرى. وان الاسرة الثالثة قد وضح أمرها فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى على يد (فقيه احمد) . فينتج من هذا أن الفترة التى بين اسرة الامير (سليمان) وبين اسرة (فقيه احمد) تتراوح بين الستين والسبعين عاماً .   المؤلف

بقسط وافر من الذكاء والبسالة والحزم ، وقد انتهز فرصة ضعف الادارة فى حكومة (أردلان) فانتزع منها بعض البلاد فى عام ١١٠٦ للهجرة (١٦٩٤ م) ولكن لم يمض على ذلك عام واحد حتى دهمه جيش قوى من الأردلانيين والإيرانيين وهزمه شر هزيمة، مما اضطره إلى الالتجاء إلى استانبول ، وبعد أن أقام بها فترة، عينه الباب العالى متصرفا لـ (أدرنه)، وقد توفى بها عام (١١١٥هـ) وقد سقطت بعض البلاد البابانية بعد (سليمان بك) فى قبضة عشيرة الزنكنة وبقى بعض الآخر فى حوزة أبناء سليمان بك ، بيد أن (بكر بك) أحد هؤلاء الأبناء قد تغلب على الجميع وانفرد بالامارة فوسع حدودها حتى امتدت من نهر سيروان (ديالى) إلى نهر الزاب الصغير، والظاهر أن (بكر بك) كان يزمع الاستيلاء على (كركوك) أيضا ولهذا السبب ساءت العلاقات بينه وبين الحكومة العثمانية التى جردت عليه جيش بغداد، الذى ظل يحاربه حتى قتل فى المعركة وكان ذلك عام (١١٢٩هـ) ودخلت البلاد البابانية فى حكم الدولة المباشر خمس سنوات كاملة، تمكن خلالها (خانه باشا) ابن أخى (بكر بك) من توطيد العلاقات مع الدولة ورجالها فى بغداد واستعادة حكم أسرته إلى البلاد البابانية وتولى إدارة دفة شئونها عام (١١٣٤ هـ)

وقد صحب (خانه باشا)، حسن باشا والى بغداد فى الزحف إلى إيران وضم فى مقابل ذلك إمارة أردلان إلى إمارته ، وقد انحاز إلى (أشرف خان) الأفغانى فى الحروب التى نشبت بينه وبين الجيش العثمانى عام (١١٣٩هـ) وكان سببا فى إلحاق الهزيمة بالجيش العثمانى ، وهكذا ضمن بقاء أمارة أردلان فى حوزته وتحت حكمه حتى أوائل عهد (نادر شاه) . وكان أخوه (خالد باشا) يحكم إمارة البابان وقت ذاك . وقد صادف قيام النزاع ونشوب الحروب والقتال بين البابان والسوران ، عهد (خالد باشا) الذى تمكن من اغتصاب (كويه = كويسنجق) من السورانيين .

وفى عام (١١٤٣هـ) استرد (نادر شاه) إمارة (أردلان) من البابان. وفى عام (١١٥٦ هـ) عين (سليم باشا بن بكر بك) أميرا للبابان فى الوقت الذى كانت

حكومة بغداد تحاول فيه إسناد إمارة البابان لسليمان باشا بن خالد باشا .وقد أدى كل هذا إلى إمتشاق الحسام بين الفريقين مدة كبيرة من الزمن .

وقد توجه (سليمان باشا) والى بغداد فى عام(١١٦٤هـ) لمحاربة سليم باشا البابانى والتقى على مقربة من شمالى بغداد ودارت بينهما رحى معارك دامية أسفرت عن انكسار (سليم باشا). وعين (سليمان باشا البابانى) حاكما للامارة فحكمها أربعة عشر عاما فى جو ملىء بالقلاقل والفتن كان يثيرها (محمد باشا بن خانه باشا) تارة ، و(سليم بك بن بكر بك) تارة أخرى . وقد استمرت تلك القلاقل وتلك الفترات الصاخبة حتى تمكن والى بغداد فى عام(١١٧٤هـ) من هزيمة جيش (محمد باشا) على نهر (نارين) والقضاء عليه نهائيا . أما (سليم باشا بن بكر بك)فانه لم يوفق قط فى إغارته المتواصلة على بلاد البابان.

هذا ، وبعد وفاة والى بغداد (سليمان باشا) اختلف (سليمان باشا)أمير البابان مع والى بغداد الجديد بسبب عدم سداد الأموال الأميرية المطلوبة ، فزحف البابانى فى عام (١١٧٥هـ)بجيشه العرمرم إلى بغداد. فانبرى له جيش بغداد على مقربة من بلدة (كفرى) ونشب قتال بين الفريقين اسفر عند اندحار (سليمان باشا البابانى) فولى الأدبار إلى إيران وهنالك أسندت إليه حكومة الشاه منصب إمارة (أردلان) ، وبعد ذلك بعامين استدعاه (عمر باشا) والى بغداد وأعاده إلى إمارة البابان فأحسن إدارتها وأوصل حدودها إلى (زهاو) و(رانيه)و(كويه) ، وكان ابنه (خالد بك) أو(على بك) حاكما لأردلان .ثم انتهى أمره بقتله بقلعة(قره جوالان)فى عام (١١٧٨هـ)وبعد زوال عهد (سليمان باشا البابانى) تولى أخوه (محمد بك) منصب الامارة ، وبعد فترة من حكمه اختلف مع أخيه (أحمد باشا) وفقد الثقة فى حكومة بغداد فانشق عليها وحاربها ولكن جيش بغداد تغلب عليه وانتزع منه الامارة التى أسندت إلى أخيه (أحمد باشا) ، ولكن (محمد باشا) كان قد لجأ إلى إيران. ومالبث أن عاد منها بجيش إيرانى قوى واستولى على قلعه(جوالان)واتخذها قاعدة له .وفى عام(١١٩٢)

للهجرة استرد (أحمد باشا) إمارة البابان بمساعدة الجيش الايرانى له، وحكمها فترة من الزمن وتوفى إلى رحمة الله عام ١١٩٣ ﻫ وهو فى طريقه إلى بغداد مع جيشه فانتقل الحكم من بعده إلى أخيه (محمود باشا) الذى اندلع لهيب القلاقل والفتن فى عهده، وقد انحاز إلى الإيرانيين وكان مصيره القضاء عليه فى إيران وأسندت الامارة من بعده إلى (إبراهيم باشا بن أحمد باشا) الذى تولى إدارتها بحزم وعزم. وأنشأ مدينة (السليمانية) ونقل إليها مركز الامارة من قلعة (قرة جوالان) وكان ذلك فى عام ١١٩٩ﻫ (١٧٨٤). وفى عام ١٢٠٢ للهجرة تولى الامارة (عثمان بك بن محمود باشا) واشترك بجيشه فى الحركات التأديبية لعشائر المنتفك بجنوب العراق، ولكن حكومة بغداد خالجها الشك فى أمره وألقت القبض عليه وزجت به فى أعماق السجن، وعينت مكانه (ابراهيم باشا بن محمود باشا) للمرة الثانية، ولكنه لم يحكم فى هذه المرة أكثر من عام واحد، أسندت بعده الامارة إلى (عبد الرحمن باشا بن محمود باشا) الذى كان جديرا بمنصب الامارة. وقد عمر حكمه أربعة وعشرين عاما انقطع خلالها عن الحكم فترة وجيزة. وقد اصطدم مع جيش بغداد مرة فى مضيق (بازيان) ومرة أخرى على مقربة من (كفرى)، ثم اشترك مع (حالت أفندى) وجيش الموصل فى الزحف إلى بغداد وتأديب واليها (سليمان باشا) تنفيذاً لأوامر الباب العالى فدحروا (سليمان باشا) على مقربة من بغداد واستولوا عليها. وسعى (عبد الرحمن باشا) سعيا حثيثا لتولى الأمور فى (بغداد) ولكنه أخفق فى مسعاه.

وقد انقضت أيام (عبد الرحمن باشا) فى قلاقل وفتن وحروب كنتيجة حتمية للعداء والبغضاء الشديدين بين أفراد العائلة الواحدة، ولا سيما فيما بينه وبين ابن عمه (خالد باشا) الأمر الذى أفضى إلى خراب الدار والديار. ويؤخذ مما ورد فى كتاب (غرائب الاثر) انه فى عصر هذا الامير كان هجوم عشيرتين كرديتين من أكراد شهرزور وهما (زرارى) و (للك) على عشائر ضفاف نهر (الخازر) وبطشهما بهائم رجوعهما إلى (شهر زور) فى سنة ١٢٠٩ﻫ.

هذا وتولى الامارة من بعد (عبدالرحمن باشا) ابنه (محمود باشا) فى عام (١٢٢٨هـ) وقد عزل بعد أربع سنوات من توليه الحكم من غير ماسبب ظاهر ، وخلفه (عبدالله باشا) الا أن محمود باشا الذى كان قد لجأ الى الايرانيين قد أتى بجيش ايرانى وكسر عبدالله باشا ودحر جيشه ولم يمكنه من الاستحواذ على الامارة، وكان الدفتر داود افندى الشهير بداود باشا بداود باشا الكولامان ـ وقد لجأ فى عهد هذا الأمير الى البابانيين هاربا من بطش والى بغداد وطالبا المساعدة للاستيلاء على (بغداد) فساعده الأمير بجيش من البابان تمكن به من استرداد (بغداد) من (سعيد باشا) وصار واليا عليهـــا . وقد استمرت العلاقات حسنة بين (محمود باشا البابانى) وبين (داود باشا) والى بغداد فترة من الزمن ثم عادت فساءت بعد ذلك فانحاز (محمود باشا) إلى الإيرانيين واستعان بهم على والى بغداد وبذلك حافظ على مركزه، ولما لجأ منافسه (عبدالله باشا) إلى الأمير (محمد على ميرزا) حاكم (كرمانشاه) تحسنت العلاقات بين (محمود باشا) وبين العثمانيين مرة أخرى. إذ أرسل (داود باشا) جيشا من بغداد لنجدة (محمود باشا) حينما زحف جيش إيرانى الى ولاية (شهر زور) ، بيد أن الجيش العثمانى قد انكسر أمام الجيش الايرانى وسقطت مدينة السليمانية فى قبضة (عبد الله باشا) الذى صار أمير البابان المستقل بفضل تعضيد إيران له .

وبعد وفاة الأمير (محمد على ميرزا) وعودة الجيش الايرانى إلى ايران. حشد (محمود باشا) قوة عسكرية هاجم بها (عبد الله باشا) وطرده من أرض البابان وبعد فترة وجيزة جردت بغداد جيشا على (محمود باشا) بالسليمانية اضطره الى مغادرتها ، ولكن الاتفاق بين الدولتين العثمانية والايرانية وتفاهمهما بشأن إدارة امارة (البابان) أدى إلى اقرار تعيين (محمود باشا) أميرا للسليمانية والبابان. وعين (عبدالله باشا) حاكما لبلدة (كويه= كويسنجق) عام (١٢٣٩هـ). وقد تولى الحكم من بعد (محمود باشا) أخوه (سليمان باشا) الذى دام عهده ثمانى سنوات ، وقد كان مبعث قلق لـ (محمود باشا) فى الكثير من الأحايين . وبعد وفاة (سليمان باشا) تولى إمارة البابان ابنه (أحمد باشا) الذى كان حازما فعمل

بجد و نشاط على انهاض البلاد وتقدمها فى مضمار العلم والعمران ، فعمد أولا وقبل كل شيء إلى وضع الأسس لتكوين جيش منظم يتولى الدفاع عن مصالح البلاد ، ولولا تهديد عمه (محمود باشا) الدائم له ، فضلا عن استعانته بالقوة الايرانية لمناوشته واشغاله - لنجح فى إتمام مشروعه كل النجاح ، ومع ذلك فقد تمكن من تنفيذ مشروعه ووضع أساس جيش البابان فى عام (١٢٥٦ ﻫ) وليس لدينا معلومات عن آخر عهد (أحمد باشا) تبين لنا عن أعماله فى تلك الحقبه.

وإن كان يقال ان هذا الأمير كان مستقلا عن والى بغداد وأنه حين حاصر بجيشه (كويسنجق) هاجمه كل من (كوز لكلى نجيب باشا) والى بغداد و(عبد الله باشا) أخو (أحمد باشا) وضيقا عليه الخناق ولكنه كان مستميتا فى مقاومتهما لولا ما حدث أخيرا من انتشار روح التذمر واليأس بين جنوده واضطراره إلى العودة إلى السليمانية والتوجه منها إلى (شهر زور) لاعداد جيش جديد بها من الجاف [1] لمنازلة خصمه : وقبل أن يعود إلى السليمانية كان (نجيب باشا) قد استولى عليها فاضطر إزاء ذلك الى اللجوء الى ايران وهنالك توسط له السفير العثمانى فصدر عنه عفو سلطانى، وبذلك تمكن من السفر إلى استانبول.

وقد تولى الحكم فى السليمانية بعد (أحمد باشا) هذا أخوه (عبد الله) متخذا لنفسه لقب قائمقام ، ثم خلفه فى الحكم بنفس اللقب اللواء (اسماعيل باشا) ومنذ ذلك اليوم انتهت أيام الامارة المستقلة وأصبحت تخضع للادارة التركية المباشرة وكان ذلك فى عام ١٢٦٧ ﻫ (١٨٥١ م)

---

(١) يتعرض تاريخ (هامر) فى المجلد التاسع من الترجمة التركية فى مبحث الصلح بين العثمانيين وايران فى عهد السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٩ ﻫ ، لذكر هذه العشيرة الكردية الكبيرة وقسمتها بين ايران والعثمانيين . فيقول ان قبيلتى (ضياء الدين) و (وهارونى) من هذه العشيرة كانتا من حصة العثمانيين كما ان كتاب (منشات صارى عبدالله) يتعرض لهذا الموضع ويذكر (جاق) بدل كلمة (جاف) ؟ .. المؤلف

٢٥ — امارة بانه

يقول صاحب (شرفنامه) ان هذه الامارة كانت موجودة قبل الفتح الاسلامى وانها قبلت الاسلام دينا لها طوعا لا كرها ، ولهذا لقب أمراؤها بلقب (اختيار الدين) ، وكل ما لدينا من معلومات عن هذه الامارة لا يعدو عهد (ميرزا بك بن مير محمد بك) الذى كان يحكم قلعتى (بيرونى)[١] و (شو بوه) ومكانهما قضاء (بانه) الحالية بإيران — . وقد كان صهرا له (بيكه بك) أمير أردلان على كريمته . وكان هذا الزواج سببا فى وقوع الشقاق والعداء بينه وبين (سلطان على) رئيس عشيرة (تتليج) ؟ الكردية الذى تغلب[٢] على (ميرزا بك) أخيرا وطرده من الأمارة وعين مكانه أخاه (قاتنمش) . فاستعان (ميرزا بك) بحميه (نسيبه) على خصمه واسترد إمارته منه وظل يحكمها بعد ذلك فترة من الزمن دون منازع .

ولما توفى (ميرزا بك) تولى الامارة من بعده ابنه (بوداق بك) الذى كان له أخوان آخران من غير أمه يدعيان (محمد) و (أوغورلو) فنازعاه فى الحكم واشتبكا معه فى القتال حتى هزماه وأخرجاه من الامارة .

فذهب (بوداق بك) إلى الشاه طهماسب مستنجدا . فمد له الشاه يد المساعدة لاسترداد إمارته . إلا أنه توفى إلى رحمة الله بعد فترة قليلة فى (قزوين) ، فعين

---

(١) هكذا فى الاصل الكردى ولكن عبارة (شرفنامه) تخالف هذا وتقول ان ولاية (بانه) هذه تتألف من قلعتين وناحية فقط . فاحداهما (بيروز) والاخرى (شيوه) وانها تقع بين ولايات اردلان ومكرى وبابان . واما الناحية فتدعى (بانه) ، كما ان عبارته لا تفيد ان (سلطان على بك) رئيس لعشيرة تدعى (تتليج) بل انه موصوف بلفظ هو (غنلميج) فليحرر . المترجم

(٢) تذكر دائرة المعارف الاسلامية هذا المبحث بصورة اخرى . ولكن رواية (شرفنامه) اقرب الى الصحة . المؤلف

الشاه (سليمان بك) أخا (بوداق بك) أميرا على البلاد ولكن الأمير (محمد) وأخاه (أوغورلو) عملا على إثارة العشائر ضد (سليمان). فأدى ذلك إلى قدوم جيش ايرانى لنجدة الأمير وتوطيد أقدامه فى البلاد ، وقد عمر فى الحكم عشرين عاما تقدمت البلاد خلالها تقدما محسوسا ، إذ كان الأمير على جانب عظيم من الدراية والعلم وحب المساواة والعدل يخاف الله ويتقيه فى كافة تصرفاته وأعماله

وقد زوج ابنته فى أواخر أيامه من ابن أخيه (بدر بك) ، ثم تنازل له عن الامارة أيضا وسافر هو إلى المدينة المنورة ولبث هناك يتعبد إلى جوار رسول الله عليه الصلاة والسلام الى أن توفاه الله الى رحمته . وكان (سليمان بك) هذا معاصرا (١) لـ (شرفخان) البدليسى صاحب كتاب (شرفنامه) فى تاريخ الكرد وكردستان .

هذا ويذكر تاريخ عالم آرا (ص ٥٧٤) فى وقايع سنة (١٠٢٧ هـ) أن أميرا يدعى اسكندر سلطان كان حاكم (بانه) وكان فى خدمة الشاه عباس الأول ثم عصاه أخيرا . وقد لحقت هذه الامارة فى عهد الامير (بدر بك) بحكومة (أردلان).

ولقد مر المستشرق (ريج) فى عام ١٢٣٦ للهجرة ببلدة (بانه) وقابل حاكمها (نور الله خان) . هذا وكان آخر أمير فى (بانه) من أسرة (اختيار الدين) هو (كريم خان) الذى قتله خادمه (يونس خان) وحل محله فى حكم (بانه). ولكن لم يمض على ذلك طويل وقت حتى قتل (يونس خان) هذا ، على يد ابن أخيه (فتاح بك) فانتقلت إمارة (بانه) الى (حمه خان) ابن (يونس خان) .

وقد لبث (حمه خان) هذا حاكما على (بانه) حتى قبيل الحرب العالمية الأولى حيث اغتاله (ابراهيم البيتليسى) رئيس القوة الحربية العثمانية بايران

---

(١) ليس فى شرفنامه نص على ذلك . المترجم

عام (١٣٣٣ هـ) . وهكذا انتهت أيام أسرة (يونس خان) أيضا . وأصبحت (بانه) قضاء من أقضية لواء (سابلاخ = صاو جبلاق)

٢٦ — امارة كلباغى

أسس هذه الامارة (عباس أغاى استاجلو) بحصوله أولا على بلدة (سرچاوه) بمنطقة (مريوان = مهروان) من (بيكه بك) حاكم (أردلان) ثم استيلائه بعد مدة على (بيله‌ور) من العشائر الكلهرية . ثم تمكن من جمع عشائر أخرى(١) حوله فقوى نفوذه وعلا شأنه فاعترف له الشاه طهماسب بامارة (بيله ور).

وقد قبلت هذه الامارة أخيرا الحماية العثمانية، فأضافت الدولة العثمانية إليها بلاد (شيخان) و (جاكاران) و (خورخورا) و (نيره زند) و (قلعه تبه) وبضعة بلاد أخرى . حيث جعل هذا الأمير منها كلها سنجقا مستقلا وأسنده إلى (على خان) الكلباخى . ولما تولى (يار الله خان) شئون هذه الامارة عمل على توسيع حدودها وليس هنالك معلومات أخرى عن هذه الامارة .

٢٧ — امارة كلهر(٢) :

يقول (شرفنامه) ان الحكام الكلهريين هم أحفاد (كيو بن كودرز) :

---

(١) مثل عشائر لك وسليمانى و (مادكى = بادكى) و ورمزيار . المترجم

(٢) يقول الميجر (راولنسون) الذى زار زهاب سنة (١٨٣٦ م) فى صدد الكلام عن الكلهر ما يلى : « يقول الكلهريون عن أنفسهم أن أصلهم يرجع إلى العصور العريقة فى القدم وأنهم من نسل (رحام) الذى هو بختنصر الشهير الذى اجتاح فلسطين ونقل يهودا يبلغ عددهم ٤٠ ـ ٥٠ الفا تقريبا إلى جبال (زاغروس) وأسكنهم فيها ، والظاهر أن أفراد هذه العشيرة هم

وتنقسم هذه الأسرة الحاكمة إلى ثلاثة فروع :

(١) نبلاء بلنكان .
(٢) نبلاء درتنك .
(٣) نبلاء ما هى دشت .

١ — نبلاء بلنكان

كان الأمير الشهير (غيب الله بك) من فرع (بلنكان) . وكان يحكم بعض القلاع فى (شهرزور) والبلاد القريبة منها . وعين بعده ابنه (محمد بك) من قبل الشاه طهماسب أميرا على البلاد ، وقدنهض هذا الأمير بالبلاد نهضة علمية أفادت منها البلاد كثيرا . ولما صاهره الشاه طهماسب على ابنته ، علا شأن البلاد وقويت شوكتها. وقد قسم الأمير (محمد بك) البلاد فى حياته بين أولاده الأربعة ، وبعد وفاته خلفه ابنه الأمير (اسكندر) وحكم البلاد عشرين عاما

أحفاد هؤلاء المهاجرين المنفيين . لأن كثيراً من أسماء الأعلام فيهم تشبه أسماء اليهود ، ولأنهم من جهة أخرى يعتقدون أن (داود) عليه السلام هو النبى المختص بهم مع كونهم مسلمين من (العلى إلهيين) » .

وأرى أن هذا غير صحيح لأنه إذا كان هنالك بعض دلائل على هجرة اليهود ونفيهم إلى تلك الجهات ، فذلك يدل على أن هؤلاء الكاهريين أى أجدادهم اقتبسوا من عادات وتقاليد اليهود بحكم الجوار والإختلاط ، ولكن ليسوا أحفاد هؤلاء الدخلاء على البلاد. ومع ذلك فان التاريخ يقول ان (كيروس = كيخسرو) بعد أن فتح (بابل) وضمها إلى إمبراطوريته أعاد اليهود المبعدين إلى بلادهم فلسطين. وليس من البعيد أن يكون الكاهريون أحفاد (رجام بن كودرز) الذى أشارت إليه الشاهنامه أو (كودرز) أحد ملوك الاشكان الذى حارب (مهراداد) حاكم (أرمينية) . المؤلف

وبعد (اسكندر بك) سقطت قلعة (بلنكان) فى قبضة أمير (الدينور (١))
ثم صارت مقاطعة عثمانية .

٢ — أمراء درتنك

قامت هذه الامارة بمنطقة (حلوان) القديمة، وكان مركزها قلعة (درتنك)، والمعروف من أمرائها كما يأتى : وأولهم هو (زوراب = سهراب بك) الذى اكتسب شهرة فى البسالة والسخاء والكرم، واتسعت فى عهده حدود الامارة .
ثم خلفه ابنه (عمر بك) الذى خضع للسلطان (سليمان القانونى) وقبل حمايته . ثم جاء من بعده ابنه (قباد بك) الذي تولى الحكم وعمل بجدو نشاط على إنهاض البلاد وتقدمها حتى اتسعت حدودها وامتد سلطانها حتى (الدينور) و (بغداد) . وكان على جانب عظيم من الذكاء والقوة ورفعة الشأن ، وكان معاصرا للأمير (شرفخان البدليسى) صاحب (شرفنامه) (٢)

٣ — أمراء ماهى دشت (مايدشت)

قامت هذه الامارة فى بلدة (بيله ور) (٣) ، وكان المدعو (منصور بك) هو أميرها فى عهد (شرفخان) الشهير .

(ملحوظة) كان هنا فى الأصل بحث الحكومة العثمانية فنقل الى باب الحكومات كما سبق ذكرها . المترجم

(١) هو (سولاغ حسين تكلو) حاكم الدينور من قبل الشاه إسماعيل .
(٢) حيث يقول انه كان يحكم قلاع (باوه ، باسكه ، آلانى ، زنجير ، روانسر ، دوان، زرمانيكي .
(٣) وفى مكان آخر فى شرفنامه (تيله رو) بالتاء . المترجم

﴿هـ﴾ـ امارات ايران الشرقية (٢٨ — ٣٠)

تقول (دائرة المعارف الاسلامية) إن العشائر الكردية الايرانية الأساسية كانت تتألف من ثلاثة أقسام: (سياه منصور) و (جكنى) و (زنكنه) نسبة إلى أجدادهم الذين كانوا ثلاثة إخوة قدموا من لرستان. وفضلا عن هذا، فان هذا المصدر يضيف إلى ذلك بحثه فى المجلد الرابع عن عشيرة (شبانكاره) وإمارتها الشهيرة التى قامت فى فارس وكرمان. وفيما يلى موجز لهذه الامارات:

٢٨ — امارة سياه منصور:

يقول صاحب (شرفنامه) إن هذه الامارة تم تأسيسها فى عهد الشاه طهماسب، حيث استدعا إلى بلاطه أميرا من فرع (سياه منصور) يدعى (خليل بك) ومنحه لقب (خان) سنة (٩٦٠هـ)، وأسند إليه منصب أمير أمراء جميع أكراد إيران. فنفذ حكمه فى أربع وعشرين عشيرة كردية، علاوة على عشيرته (سياه منصور)، كما أقطعه الكثير من البلاد والأراضى فيما بين العراق وآذربيجان، وكان يعسكر بمعية هذا الأمير بصفة دائمة، حوالى ثلاثة آلاف فارس وهو مقيم بين (قزوين) و (تبريز) للمحافظة على الثغور والحدود فى تلك الجهات، وبعد ثلاث سنوات أخذ نفوذ (خليل بك) يتضاءل رويدا رويدا وبدأت تتحرك علائم الفتن والقلاقل، مما حمل الشاه و(سلطان محمد) على إبعاد (خليل بك) إلى (خراسان). حيث انحصرت سلطته فى عشيرته (سياه منصور) فقط، وأخيرا عين محافظا لحدود (خراسان). وقد خلف (خليل بك) فى منصبه ابنه (دولتيار خان) الذى عينه الشاه فيما بعد محافظا لحدود (آذربيجان)، فقام بتنفيذ إصلاحات عظيمة فى تلك النواحى، ثم شق عصا الطاعة على الحكومة فدهمه جيش إيرانى بقيادة (مرشد قوليخان شاملو)

وحاصره فى قلعة (شبستان) ، ولـكن (دولتيار خان) خرج من القاعة ذات يوم فجأة وباغت الجيش الايرانى بهجوم عنيف فألحق به هزيمة منكرة وشتت شمله شذر مذر، بعد أن قتل الـكثيرين من القزلباش ونهب أموالهم وأثقالهم وقد طمع (دولتيار خان) بعد هذا النصر المؤزر فى ولايةالعراق[1]، ، لـكن الشاه (عباس) قابله بجيش عرمرم بقيادة (مهدى قلى سلطان) فما كان من (دولتيار خان) إلا أن استسلم للشاه دون قتال فأخذه الشاه وسجنه مع أتباعه ثم ما لبث أن قضى عليهم جميعا القضاء المبرم · ويلوح أنه لم يبق بعدذلك أحد من هذه العائلة فى الوجود ، وانتهت أيام هذه الامارة أيضا كسائر الامارات الـكردية الأخرى .

٢٩ — إمارة جكنى

يقول (شرفنامه) ان عشيرة (جكنى) هذه كانت وما زالت ذائعة الصيت بالاقدام والبسالة بين العشائر الـكردية الايرانية ، ولـكن حرمانها من رئيس فعلى لزعامتها قد أدى إلى تشتتها فيما بين (العراق) و(آذربيجان) وإمعانها فى النهب والسلب ، فضج أهالى تلك البلاد بالشكوى والتذمر من تصرفات هذه العشيرة ورفعوا شكايتهم إلى الشاه (طهماسب) الذى أصدر أمره بمطاردتهم فى جميع الأنحاء والقضاء عليهم أينما كانوا ، وقد تمكنت خمسمائة[2] أسرة من اللجوء إلى (خراسان) والاستطيان بها ... وكان يحكم (هرات) وقتذاك (قزاق خان تكلو) الذى كان يهاب الشاه (طهماسب) ويخشاه ، فانتهز الفرصة وبسط حمايته على هذه العشيرة المنكوبة وأسكنها فى (غرجستان) بين هرات وكابل .

---

(١) احدى ولايات ايران الادارية ولعلها (العراق العجمى=الجبل). المترجم

(٢) فى شرفنامه ، خمسمائة نفر من الأعيان والرؤساء وغير ذلك من التفاصيل ... المترجم

ولما علم الشاه (طهماسب) بذلك غير رأيه فى هذه العشيرة وشملها بعطفه وأسند أمورها إلى أمير جكنى يدعى (بوادق بك) ، فسعى هذا الأمير وأعاد هذه العشيرة الى (خراسان) وأسكنها فيها تحت إمرة الشاه وسلطانه.

ولقد أسدى (بوادق بك) وعشيرته خدمات جلى للشاه (عباس) فى حربه مع (عبد المؤمن خان) حاكم (أزبك) فى سنة (١٠٠١ هـ) وكافأه الشاه نظير ذلك مكافأة مجزية، بأن عينه هو وخمسة من أبنائه قوادا فى الجيش الايرانى مع اسناد منصب أمير الأمراء الى (بوادق بك) نفسه. ويقول (شرفنامه) ان هذا الأمير كان معاصرا لشرفخان البدليسى نفسه حيث كان فى مقدمة رجال الشاه (عباس). ومن دواعى الأسف أنه ليس لدينا معلومات عن نهاية هـــذه الامارة الكردية وعشيرتها .

٣٠ – إمارة زنگنه

يروى لنا (شرفنامه) أن هذه الامارة كانت معروفة ومشهورة حتى عهد الشاه (اسماعيل الأول) ، ثم انقرضت الأسرة الحاكمة، مما اضطر أفراد العشيرة وبعض رجالها البارزين الى الانخراط فى سلك الحرس الشاهانى وسائر رجال الدولة الصفوية .

(ملحوظة) كان فى الأصل هنا مبحث حكومة الشبانكارة فنقل فى الترتيب الجديد الى الباب الأول فى مبحث الحكومات . المترجم

﴿و﴾ — «امارتا خراسان» (١-٢)

١ — إمارة قوجان

قلنا فى المجلد الأول من هذا الكتاب فى مبحث جعرافية كردستان ان عشائر كردية تقيم فى خراسان أيضا . ويذكر (Hon. gearge N. Curzan) فى رحلته (إيران) بصدد البحث عن هذه العشائر الكردية مايلى : نقل الشاه (عباس الكبير) بعض العشائر الكردية القاطنة فى شمال غربى إيران إلى خراسان للاعتماد عليهم فى المحافظة على حدود إيران الشمالية الشرقية ضد إغارات التركمان ، وهذه العشائر هى (شاهدللو) و (زعفرانلو) و (كيروانلو) و (أمانلو) ويقول صاحب رسالة (غربى إيران وعشائره ورجاله) أن تعداد عشيرة الزعفرانلو فقط كان يبلغ ٤٠ ألف أسرة، وفرع من هؤلاء كان يبلغ عددهم ثمانمائة أسرة مقيمون فى قضاء (جناران) كما إن عشيرة شادنلو بحسب تعداد سنة ١٩٠٨ كان عددها (٢٨٠٠) أسرة (ص ١٣٠ - ١٣٢) ، وأقامت غالبية هذه العشائر فى منطقة (قوجان) . أما فرقة (شادانلو) فأقامت فى جهة (بوجنورد) وكانت لعشائر (قوجان) إمارة شبه مستقلة إذ كانت تتمتع بالحرية الكاملة فى أمورها الداخلية ، وكان لها قانونها الخاص ومحاكمها الخاصة ولم يكن لها أدنى ارتباط إدارى بالحكومة المركزية اللهم إلا دفع مال سنوى مقرر لها . وقد أراد (نادرشاه) فى وقت ما أن يخضع هذه الأمارة لسلطة الحكومة الإيرانية المباشرة . وتمهيداً لذلك تزوج بكريمة أمير العشيرة (إيلخان) ولكن لم يجده ذلك نفعاً .

وأخيراً اضطر فى أواخر عهده إلى الزحف بجيش لجب نحو (خراسان) لاخضاع هذه الامارة لسلطانه . ولكنه ما كاد يصل إلى واجهة قلعة (قوجان) ويعسكر بجنده حتى سطا عليه ليلا أحد الفدائيين وقطع رأسه فى فراشه فى

سنة (١٧٤٧ م) . وفى عهد القاجاريين أيضاً زحف الشاه (فتحعلى خان) إليهم ونازلهم فى بلادهم ولم يتمكن منهم فاضطر لابرام الصلح معهم .

وفى سنة (١٨٣٢ م) زحف عباس ميرزا (الأمير عباس) إلى قوجان واستولى عليها عنوة ، بفضل مساعدة ضباط إنجليز كانوا يقودون المدفعية . وقد أسر (عباس ميرزا) أمير العشيرة (رضا قليخان) وأصحبه معه إلى (طهران) ثم أرسل منها إلى (تبريز) وهنالك أعدم وعين بدله ابنه (سام خان) ايلخاناً .

وفى سنة (١٨٨٦) وهى السنة التى قام فيها المستر (كرزون) برحلته إلى إيران كان الأيلخان هو أمير الأمراء (شجاع الدولة الأمير حسين خان) الذى ثار على الحكومة فى وقت ما وعزل من منصبه ثم عاد أخيراً واتفق معها وتوطدت العلاقات بينهما ، وكان على جانب كبير من الحزم والعزم وقوة النفوذ ، هذا وكانت إمارة (قوجان) هذه غنية وقوية على العكس من إمارة (بخباورد = بجنورد)

٢ — امارة بجنورد

كانت هذه الامارة ضعيفة ، وكان يخضع لها بعض العشائر التركمانية ، وكان لفظ (إيلخان) لقب أمرائها الرسمى ، وتقدر (دائرة المعارف البريطانية) عدد الأكراد فى تلك الامارة وقتذاك بمائتين وخمسين ألف نسمة .

﴿ز﴾ - امارات جبل لبنان (١ - ٣)

يؤخذ من كتاب (أخبار الأعيان فى جبل لبنان) (١) أن هناك عدة إمارات صغيرة أسسها الكرد فى أنحاء جبل لبنان نذكر منها مايلى :

١- مشايخ العماديين الدروز:

هاجر جد هؤلاء العماديين وكان يدعى (عماد) من العمادية التى بولاية الموصل ، إلى الجبل الأعلى وسكن قرية (مرطحون) ثم انتقل منها إلى قرية (تلينا) وبعد مدة رحل إلى منطقة (العرقوب) وأقام بقرية (الزنبقية) وأخيراً اشتبك هو وأتباعه مع أسرة (جانبلاط) الشهيرة فى النزاع ، قتل من رجال هذه الأسرة الأخيرة عدد غير قليل فاضطر العماديون بعد ذلك إلى الهجرة إلى عين (وزيه) ثم الى (الباروك) حيث توفى (عماد) فيها إلى رحمة الله عن أربعة أولاد ذكور . ولكن رئاسة العائلة انتقلت إلى أخيه (سرحال) وقد قتل أخيراً (غضبان) الابن الصغير لعماد مع الأمير على فخر الدين المعنى فى المعركة التى قام بها أحمد باشا الصغير فى خان (حاصبيا) ضد الجبل، كما ان أخوانه الآخرين قضوا نحبهم أخيراً إما فى ساحة الوغى وإما حتف أنفهم .

وفى سنة (١٠٦٠) م نصب احمد باشا الكوبريلى الشيخ (سرحال) حفيد عماد حاكما للشوف بدل الامراء المعنيين ، الامر الذى أفضى الى قتله مع هؤلاء العماديين واستئصالهم من قبل المعنيين وأنصارهم وعلى رأسهم الامير أحمد المعنى ، ولكن واحدا منهم تمكن من الاختفاء مدة تحت اسم مستعار حيث حافظ على تسلسل الأسرة ودوامها مدة غير قليلة . وممن اشتهر من هذه الأسرة بعد هذه الحوادث (قاسم بن الشيخ عبد السلام العماد) الذى كان فى غاية من الذكاء والنشاط

---

(١) لمؤلفه الشيخ طنوس بن يوسف الشديق طبع ببيروت سنة ١٨٥٩ .

فاشتبك مع الشيخ على الجانبلاطى سنة ١٧٨٨ فى النضال والمشاحنات التى أدت اخيرا إلى انقسام أهالى تلك النواحى الى معسكرين يرأس احدهما (اليزبكيون) الذين كانوا مؤلفين من جماعات بنى عماد و بنى تلحوق و بنى عبد الملك . ويرأس الثانى (الجانبلاطيون). وفى سنة (١٧٩٣) أمر الامير قعدان الشهابى مشايخ العماديين والنكديين بالزحف الى الجانبلاطيين فقاموا بالمهمه خير قيام وهكذا اشتركوا فى أغلب حوادث لبنان البارزة حينذاك، كما أن الشيخ (خطار) من أحفاد العماديين اراد الذهاب بمعيته البالغة ثلاثماية جندى ، مع الأمير امين آرسلان الى أرضروم للاشتراك فى جهاد الروس وحربهم سنة (١٨٥٤) ولكن شخوص الأمير الى استانبول حينئذ، حمل الشيخ خطار الى العودة الى الجبل (ص ١٦١ فصل-١٦)

٢ ـ أمراء بنى سيفا الاكراد

هؤلاء الامراء من احفاد المقدم جمال الدين سيفا ، كانوا متوطنين فى جهات طرابلس والعكار وحصن الاكراد وكانوا حكاما على المنطقة الواقعة بين نهرى الكلب وابراهيم . ولما قام نزاع فى سنة (١٥٢٨)م بين بنى شعيب حكام طرابلس وبين بنى سيفا الذين اضطروا نتيجة لهذا، إلى الرحيل الى الباروك ونالوا تعضيدا من آل العساف والمعنيين فهاجموا الشعيبيين وانتزعوا منهم العكار وأقاموا بها . وقد تولى رئيسهم (يوسف باشا) ردحا من الزمن منصب حاكم طرابلس ، بيدأن علاقاته مع الدولة العثمانية قد ساءت اخيرا فاضطر لترك المنصب والرحيل الى برية الشام . وفى سنة(١٥٩٠ م) ظهر فجأة على رأس قوة باغت بها العسافيين وقتل أميرهم محمداً . وفى سنة(١٦٠٢ م) استولى على بعلبك ونهبها وأخربها ثم عاد الى طرابلس . وفى سنة(١٦٠٥) تفاهم مع حاكم حلب (على باشا جانبلاط) ولم يمض على ذلك سنتان الا وتفاقم الشر بينهما فاقتتلا وقامت معركة بينهما فى (حماه) غلب فيها(يوسف باشا) على امره ولجأ الى دمشق ، غيران خصمه على باشا قدضيق عليه هنالك ايضا بواسطة حليفه الأمير فخر الدين المعنى . واخيراً تفاهم مع خصمه على أن يعود الى

حصن الاكراد والاكتفاء بها . ولماشق (على باشا جانبلاط) عصا الطاعة على الدولة ، بادر (يوسف باشا) بأمرمنها بالزحف على خصمه الثائر واشترك فى تأديبه حتى سقطت حلب فى أيدى رجال القوة التأديبية وعاد يوسف باشا بعد ذلك الى العكار .

وفى سنة (١٦١٨) اتفق كل من عمر باشا والى طرابلس والامير فخر الدين المعنى فى الزحف الى يوسف باشا . وحاصراه فى قلعة الحصن ولم يمض على ذلك وقت طويل إلا وعفت الدولة عن يوسف باشا واسندت اليه منصب حاكم طرابلس، كما أن عمر بك من بنى سيفا أيضا تعين حاكما لحمص. وفى سنة (١٦٢٤) توفى يوسف باشا بطرابلس . وكان رحمه الله فى غاية من البسالة والصبر على القتال وهو أول باشا تعين لايالة طرابلس متصرفا . وقد تولى بعده من أبنائه السبعة . (قاسم) منصب طرابلس بدل أبيه والأمير (محمود) كان حاكما لحصن الأكراد والأمير (بلك) كان حاكم العكار . ولما عين والى طرابلس أخيراً ، الأمير سليمان ابن أخى يوسف باشا المرحوم حاكما للعكار لم يسع أبناء عمومته الاالرحيل الى الحصن .

وفى سنة (١٦٢٥) استولى الأمير قاسم بن يوسف باشا على قلعة (المرقب) ثم أخذوا الحصن حيث حصل التفاهم بينهم وبين الأمير فخر الدين المعنى على ذلك . واقد كوفىء آل سيفا باسناد منصب طرابلس اليهم نتيجة لاشتراكهم فى الحملة التأديبية التى ساقتها الدولة بقيادة أحمد باشا الصغير سنة (١٦٣٣) على الأمير فخر الدين . وفى سنة (١٦٣٤) نال قاسم باشا رتبة الميرميران وتعين لمنصب حاكم طرابلس على أن يستعد للاشتراك فى حرب ايران التى كانت اندلعت نارها حينذاك ، ولكنه لم يتمكن من ذلك .

وبعد مدة حل محله ابن أخيه الأمير على الذى هاجمه أخيراً عمه الأمير عساف واضطره إلى لالتجاء إلى بيروت . ولقد دام النزاع بين العم وابن أخيه مدة . وفى سنة (١٦٣٥) تعين (نشانجى مصطفى باشا) متصرفا لسنجق طرابلس فرأى من حسن السياسة أن يسند الحكم فى بلاد الجبل والبترون والضنية إلى

الأمير (على) وفى بلاد العكار والحصن والصافيتا إلى أقربائه، كما أنه سلم منصب الإيالة إلى الأمير (عساف) حينما كلف هو بقيادة الجيوش العثمانية فى حرب إيران وقد ساد الوئام بين الأمير على والأمير عساف حينا من الدهر، غير أن الخلاف عاد كما كان سابقا على أشده ونشب القتال بينهما مدة من الزمن حتى ضج الناس والحكومة من جراء ذلك. ولما تعين شاهين باشا متصرفا لأيالة طرابلس بادر إلى قتل الأمير عساف وعمل على قطع دابر هذه الأسرة حيث عهد الى الأمير اسماعيل الكردى والشيخ على حمادة من رجاله بهذه المهمة فقاما بها بكل قوة وشدة ولم يتركا أحدا فى طرابلس منهم. وكان ذلك سنة (١٦٤٠ م)

اهـ من (ص ٣٤٩ - ٣٥٨)

٣ — أمراء رأس نحاش الاكراد

هؤلاء الناس من الأكراد الذين أسكنهم السلطان سليم العثمانى سنة (١٥٥٨م) فى مقاطعة الكورة بجبل لبنان لحماية الجبل وحراسته من الأفرنج. ومن المعلوم أن شاهين باشا متصرف أيالة طرابلس قد ندب لابادة أسرة أل سيفا كلا من الأمير اسماعيل ابن الامير موسى والشيخ على حماده فى سنة (١٦٣٧)

وقد استخدم محمد باشا الكوبريلى الأمير اسماعيل هذا فى سنة (١٦٥٤) غير أنه غضب عليه وساق عليه جيشا لتأديبه فى السنة التالية فلم يتمكن الأمير اسماعيل من الصمود ولجأ إلى الأمير (أحمد المعنى) الذى بادر الى تعيينه حاكما لمدينة (صور)، وفى سنة (١٦٦٠) تظاهرت الحكومة بالرضاء عنه فأعطته المواثيق بالأمان حتى حضر الى طرابلس وقضى عليه هنالك بأمر من محمد باشا.

هذا وفى عهد الصدر الأعظم (على باشا) كان قد نصب الأمير صعب ابن حسين من هذه الأسرة، حاكما لقضاء الجبيل إلا أن أيامه لم تدم كثيراً حيث قتل هو وأقرباؤه عن آخرهم فى هجمة مباغتة قام بها العماديون.

اهـ من (ص ١٦٤ - ١٦٥)

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر